



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد خيضر - بسكرة-

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية



التفكير اللساني عند محمد الخضر حسين

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الآداب واللغة العربية

تخصّص: علوم اللسان العربيّ

إشراف الأستاذ الدكتور:

محمد خان

إعداد الطالب :

كمال مجيدي

السنة الجامعية : 2015-2016

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى
وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ ﴾

صدق الله العظيم

(النمل: 19)

الإهداء:

إلى روح والديّ الكريمين

أمي وأبي

المقدمة

الباحثون المعاصرون في قضايا اللسانيّات يذكرون أنّ اللسانيّات العربيّة اليوم تمرّ بأزمة، مقارنةً بنظيرتها عند الآخر؛ ولهذا حاولوا جاهدين البحث عن الظروف التي أدّت باللّسانيّات إلى هذا الوضع، وحينما وقفوا عند هذه الظروف كانوا صنفين، صنف أرجعها إلى وضعيّة البحث اللسانيّ اليوم، ورأى أنّ الباحثين المعاصرين في اللسانيّات ثلاثة أصناف:

أ-صنف جمد على التّراث، ولم يعر الوافد من المقولات اللّسانيّة أيّ اهتمام، وبهذا عطّل تطوير أدواته البحثيّة، وبالتالي حرم العربيّة من أن تدخل في حوار مع غيرها من لغات العالم، وتشارك البحث اللّسانيّ العالميّ.

ب-وصنف إهتمّ بكلّ جديد وافد من الآخر، وأخذ بمناهجه ومقولاته وراح يسقطها على اللّغة العربيّة.

ج-وصنف زاوج بين النظرتين، ولم تطل هذه المزاجة فإنّتصر إلى نظرة على حساب الأخرى.

والصّنف الثّاني من هؤلاء الباحثين أرجعها إلى الظروف التي مرّ بها البحث اللّغويّ العربيّ الحديث، ورأى أنّ رواد النّهضة فوّتوا الفرصة في تلقّي الفكر اللّغويّ الغربيّ الوافد عليهم آنذاك عن طريق البعثات العلميّة التي زارت الجامعات الغربيّة، أو عن طريق إنتداب بعض المستشرقين للتّدريس في الجامعات العربيّة.

وهذا الصّنف حينما وقف يستجلي هذه الحقيقة خلال هذه الفترة لم تكن دراسته ذات نظرة شموليّة؛ أي الإهتمام بالذين ساهموا في هذا الخطاب جميعهم، وإنّما ركّز هذا الصّنف على أسماء دون أخرى، وعلى بلدان على حساب بلدان أخرى، ونتج عن هذه النظرة شيئان:

أولهما: تعلّقت بأذهاننا أسماء لا تكاد تفارقنا، ونحن ندرس الخطاب اللّغوي لهذه الفترة، في حين غابت عنّا أسماء كان من المفروض أن تكون حاضرة.

ثانيهما: أنّ الذين ساهموا في إنتاج هذا الخطاب هم المهتمّون بالفكر اللّغوي فقط، في حين ما أطلق عليهم بالموسوعيّين لا تكاد إسهاماتهم أن تكون ذات بال يعوّل عليه.

وهذه المعطيات تبرّر إلى حدّ ما سبب إختياري هذه الفترة بالذات؛ لتكون منطلقا في الدّراسة، والفكر اللّساني للشيخ محمّد الخضر حسين أنموذجا، فالرجل له حضور بترائه وآرائه ومناظراته الفكرية واللّسانية، هذه الآراء والملاحم اللّسانية التي نقف عليها في مباحثه (الدّينية، والفكرية، واللّغوية). والبحث في هذه المظانّ ذات المعارف المختلفة منح لي مشروعية إختيار هذه الدّراسة تحت عنوان: التّفكير اللّساني عند محمّد الخضر حسين، هذا الإختيار دفعه الإيمان بشمولية البحث في مثل هذه المواضيع في تراث الرجل جميعه.

ومن الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها هذه الدّراسة، هو الوقوف على القضايا اللّغوية التي شغلت رواد هذه المرحلة، والأسئلة التي راودتهم، والمنهج الذي قاربوا به هذه القضايا، والنتائج التي توصلوا إليها وقيمتها المعرفية، ومدى تأثيرها فيمن جاءوا بعد هذه الفترة؛ هذا كلّه روما إلى معرفة، وفي إطار ما يسمّى بالتسلسل المعرفي، النقطة التي إنطلقوا منها، والنقطة التي وصلوا إليها، حتّى إذا ما درسنا هذه المرحلة كئنا على علم بهذه الأسئلة فلا نقع في تكرارها، ثمّ الكشف في الوقت نفسه عن حقيقة التّفكير اللّساني عند الشيخ محمّد الخضر حسين، من حيث منطلقاته، وأدواته، ومنهجه، ونتائجه، وقيمتها العلميّة.

وحيثما وقفت على تراث الرجل، وإطلعت على ما كُتب في الرّواد اللّغويين لهذه المرحلة، وما كتبه المعاصرون عن أزمة اللّسانيات العربيّة، بدت لي إشكالية البحث، في البعد الذي أريد مساءلته، متمثلة في إتجاهين:

أ-إذا كان بعض الباحثين المعاصرين المنشغلين باللسانيات العربيّة يجمعون على أزمتها انطلاقاً من تفويت الفرصة لدى رواد العصر الحديث في تلقي اللسانيات الوافدة من الآخر، فالى أيّ مدى تصدق هذه الآراء في حقّ رواد هذه المرحلة متى علمنا أنّ الكثير من هذه الدّراسات لا زالت بحاجة إلى إعادة النّظر في الأحكام الصّادرة في حقّ هؤلاء الرّواد؟

ب-وإذا كان إهتمام بعض الباحثين المعاصرين بلغويّ هذه المرحلة، وتركيزهم على من ألفوا في اللّغويّات فقط؛ للوقوف على حقيقة تفكيرهم اللّسانيّ، فهل يصدق البحث في المسألة ذاتها عند من وصفوا بالموسوعيّين، متى علمنا أنّ الشّيخ محمّد الخضر حسين ألف في الكثير من فنون المعرفة، ومتى علمنا أنّ شموليّة البحث اللّغوي في ميادين المعرفة جميعها بات من المسلّمات في الدّراسات اللّغويّة الحديثة؟

وما ذكرته من قبلُ فرض عليّ أن أضع خطة بحث تتكوّن من مقدّمة وخاتمة بينهما أربعة فصول، جاء الفصل الأوّل تحت عنوان: محمّد الخضر حسين وقضايا الخطاب اللّغوي العربيّ الحديث، تناولت فيه حياة الرّجل من حيث اسمه وأهمّ مراحل حياته، ووقفت عند آثاره واصفاً ومحلّلاً، ومحدّداً القضايا اللّغويّة التي شغلت تفكيره، ثمّ تناولت الخطاب اللّغوي العربيّ الحديث لهذه الفترة، مركزاً على رواده، وهادفاً إلى الوقوف على مركزية التّفكير اللّساني عندهم، وكاشفاً عن الخلفيّة السّوسيوثقافيّة التي أنتجت هذا الخطاب.

وأما الفصل الثّاني فجاء تحت عنوان: البحث اللّغوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين: مستوياته ومصادره ومنهجه. تناولت فيه مستويين إثنين: المستوى الأوّل يتناول قضايا اللّغة عامّة والثّاني قضايا العربيّة خاصّة، وكشفت في الوقت نفسه عن المصادر التي رفدت البحث اللّغويّ عند الرّجل، والمنهج الذي عالج به هذه المباحث.

وإخترت للفصل الثالث عنوان: ملامح التفكير اللساني في مباحث الشيخ محمد الخضر حسين، وقفت فيه موضّحاً ملامح التفكير اللساني في أثناء تناوله المسائل التالية: في النحو العربي وأصوله، وفي قضايا المعجم، وفي المسائل اللسانية التربوية.

والفصل الرابع جاء تحت عنوان: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمد الخضر حسين، كاشفاً ملامح هذا التفكير في جانبه التطبيقي، جاعلاً خطابه التفسيري منطلقاً، وسورة البقرة أنموذجاً؛ لأقف عند الآليات التي إهتدى إليها هذا الخطاب؛ ليثبت وحدة النسق القرآني، وأنه كلّ لا يتجزأ، ثم جاءت الخاتمة تذكر أهمّ النتائج التي توصل إليها البحث.

وخطّة البحث هذه فرضت عليّ أن أعتمد على منهجين: تاريخي وكان حاضراً في الفصل الأوّل، ووصفيّ في باقي الفصول، مستعينا بأداة التحليل؛ للوقوف على حقيقة الآراء وتحليلها. واستعان البحث بالكثير من المصادر والمراجع، وعلى رأسها آثار الرّجل، والمصادر التي تناولت المسائل اللغوية التي بحثها الشيخ في كتاباته، والكتابات التي درست أعلام هذه المرحلة وجهودهم، والكتب التي إهتمت بالتفكير اللساني، سواء أكان إهتمامها بحضارة ما أم بعلم من الأعلام أم بمجموعة من الأعلام، وأذكر هنا كتابين: التفكير اللساني في الحضارة العربية لعبد السلام المسدي، والتفكير اللساني عند علماء العقليات المسلمين -العضد الإيجي والسعد التفتازاني والشريف الجرجاني نماذج-، للدكتور عماد أحمد الزين.

وفي هذا المقام أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي الدكتور محمد خان الذي عرفته بأخلاقه
العالية وبمساندته لي بتوجيهاته العلميّة القيّمة والدّقيقة، وإلى كلّ من ساندني في إنجاز
هذا البحث.

الفصل الأول:

محمد الخضر حسين وقضايا الخطاب اللغوي العربي الحديث.

أ- محمد الخضر حسين: حياته وآثاره¹:

1- اسمه ومولده:

الباحثون في هذه الشخصية يذكرون أنّ اسمه محمد الخضر حسين، ولكنّ الأصل هو محمد الأخضر بن الحسين، غُيّرَ اسمُه إلى محمد الخضر تيمناً بسيدنا الخضر عليه السلام، وهذا الاسم اقترحه « الشيخ محمد ابن عاشور، رفيقه بالدراسة بالزيتونة، والتدريس بها، وصديقه مدى الحياة »²، وأمّا كلمة (ابن) فقد حذفت حينما سافر إلى المشرق العربي، «مسايرة للطريقة الشّرقيّة في التسميّة، مثل: عباس محمود العقّاد»³؛ ولهذا فالباحثون في المراجع التي ترجمت لهذه الشخصية سيعثرون على الإسمين، إمّا محمد الخضر حسين⁴، أو محمد الخضر بن الحسين⁵، ولكنّ الشائع اليوم هو محمد الخضر حسين.

وأما مولده فكان في نفطة⁶، بالقطر التّونسي، يوم 26 رجب 1293هـ الموافق: 21 جويلية 1873م، وهذا هو المرجّح، لكنّ هناك باحثين معاصرين جانبوا الصّواب في مكان مولده،

1 - فصلت البحث في حياته في مذكرة الماجستير تحت عنوان: محمد الخضر حسين وجهوده اللغويّة - القياس في اللّغة العربيّة أنموذجاً-؛ ولذلك سأختصر، مركزاً على أهمّ النقاط في حياة الرّجل، في ميدان واحد، وهو الميدان الثقافي، وأمّا آثاره فذكرتها بشكل إجماليّ هناك؛ ولهذا سأفصل القول فيها في هذا المبحث، مركزاً على ما له علاقة بعملية.

2 - كمال العريف: " محمد الخضر حسين (تونس 67 عاما من الإحتلال الفرنسي) ". ضمن كتاب الأعمال الكاملة. محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة، جمعها وضبطها علي الرضا الحسيني، دار النوادر، الطبعة الأولى، بيروت: 1431هـ-2010م: 202 / 14.

3 - محمد مواعدة: محمد الخضر حسين حياته وآثاره، الدار الحسينيّة للكتاب، الطبعة الثّانيّة، دمشق: 1412هـ-1992م: 13.

4 - خير الدين الزركلي: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، الطبعة الرّابعة عشر، بيروت: 1999م: 113/6.

5 - يوسف إلياس سركيس: معجم المطبوعات العربيّة والمعربيّة، مطبعة سركيس، (د.ط)، مصر: 1928م: 1652/2.

6 - وهذا هو المرجّح، لإجماع المترجمين له على هذا المكان، زيادة على قوله هو نفسه في ديوانه الشّعري (خواطر الحياة): « نشأت في بلدة من بلاد الجريد بالقطر التّونسي يقال لها نفطة».

محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 7.

وفي سنة ميلاده¹، فعمر رضا كحالة في كتابه (معجم المؤلفين)، يجعل مولده في قفصة بتونس²، ويقتفي أثره الباحث علي بن الحسن بن علي عبد الرحمان الحلبي، في أثناء تحقيقه وتعليقه على كتاب (الدعوة إلى الإصلاح) للشيخ محمد الخضر حسين، فينقل الخطأ من كتاب (معجم المؤلفين)، ويجعل مولده في المكان نفسه³. ويذكر الباحث رابح خدوسي في كتابه (موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين)، أن مولده كان في طولقة ببسكرة⁴، وأمّا الباحث محمد رجب البيومي في مقال ينشره تحت عنوان: "محمد الخضر حسين عالم ومجاهد" فيقول: « ولد الأستاذ بقرية من قرى الجزائر على حدود القطر التونسي »⁵. والده الشيخ الحسين بن علي بن عمر⁶، وجدّه لوالده هو الولي الصالح الشيخ علي بن عمر⁷،

1 - خير الدين الزركلي، وكمال سليمان جبور، يجعلها سنة 1876م. والموسوعة العربية الميسرة، جعلتها سنة 1877م. خير الدين الزركلي: الأعلام: 6/113.

كمال سليمان الجبوري: معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت: 1424هـ-2002م: 270/5.

الموسوعة العربية الميسرة، دار الجيل، الطبعة الثانية، الجمعية المصرية: 2001: 221.

2 - عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت: 1993م: 273/3.

3 - محمد الخضر حسين: الدعوة إلى الإصلاح على ضوء الكتاب والسنة وعبر تاريخ الأمة، حققها وعلق عليها علي بن الحسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، دار الرأية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الرياض: 1417هـ: 11.

4 - رابح خدوسي: موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار الحضارة، الطبعة الأولى، الجزائر: (د.ت): 42.

5 - محمد رجب البيومي: "محمد الخضر حسين عالم ومجاهد". ضمن كتاب الأعمال الكاملة. محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 14/162.

6 - قال فيه الأستاذ علي الرضا الحسيني في حوار إذاعي بإذاعة بسكرة تحت عنوان: "أعلام من الزيان - الحسين بن علي بن عمر والد الإمام محمد الخضر حسين" - عالم زاهد سالك، ولد سنة 1246هـ-1830م في طولقة، وتوفي سنة 1309هـ-1893م بتونس (...)، واشتهر بسعيه للتأليف بين القلوب، والدعوة إلى الخير، ونشر الطريقة الخلوتية في القطرين الجزائري والتونسي، كثير التنقل، يقضي الشهور في الجزائر عول عليه شيخه مصطفى بن عزوز في بناء الزاوية، وكان مبعوثا خاصا له إلى كافة المريدن والمحبتين.

- محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 15/157، 158، 158.

7 - الولي الصالح الشيخ علي بن عمر، ولد في بلدة طولقة سنة 1166هـ على وجه التقريب، وتوفي شهيدا يوم الخميس في 3 ربيع الأول سنة 1258هـ، ودفن في زاويته.

- علي الرضا الحسيني: زاوية علي بن عمر (طولقة-الجزائر)، المطبعة التعاونية، (د.ط)، دمشق: 1396هـ-1979م: 60، 61.

وجده لأمه الشيخ مصطفى بن عزوز¹.

2- أهم مراحل حياته:

نشأ بين أحضان عائلة ذات علم²، تلقى مبادئ علومه في نفطة على يد علماء منهم خاله الشيخ المكي ابن عزوز، ثم إنتقلت عائلته إلى تونس، التحق بجامعة الزيتونة، ودرس على يد شيوخ من أمثال الأستاذ محمد النجار (ت1909م)، والشيخ عمر بن الشيخ (ت1911م)، سالم بوحاجب (ت1924م).

1 -مصطفى بن محمد بن عزوز العالم الولي العارف بالله الفقيه النقي الصوفي (...) دخل هذا الولي القطر لتونسي، وبتّ الطريقة الرّحمانيّة (...) وأحدث زاوية نفطة، وصار له أتباع كثيرون.

-الشيخ محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف: شجرة النور الرّكّية في طبقات المالكيّة، خرّج حواشيه وعلّق عليه عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، بيروت: 1423هـ-2003م: 559/1.

2 -منهم خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز ، ولد في 20-رمضان-1270هـ بنفطة، تلقى مبادئ علومه في بلدته، ثمّ واصل تحصيله العلمي حينما إنتقل إلى تونس سنة 1292هـ، ثمّ هاجر إلى إستنبول سنة 1313هـ، وافته المنية في يوم الخميس الثاني من شهر صفر 1333هـ. ذكرت المصادر التي ترجمت له أنّ آثاره فاقت المائة رسالة، له ديوان شعريّ مطبوع، جمعه رضا الحسيني، ثمّ أعاد جمعه ودرسته الأستاذ عبد الحليم صيد في طبعة صادرة عن دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع ببوسعادة (الجزائر).

-ينظر: علي الرضا الحسيني: ديوان محمد المكي بن عزوز، دار الفرابي، الطبعة الأولى، دمشق: 1427هـ-2006م.

الشيخ عبد الرّحمان الجيلالي: "ترجمة العلامة الأستاذ الشيخ المكي بن عزوز". مجلة الشهاب لمنشئها عبد الحميد بن باديس، دار الغرب، الطبعة الأولى، بيروت: 1421هـ-2001م: 660/6.

وأخواه الشيخ زين العابدين بن الحسين، ولد في تونس 1305هـ-1888م، توفّي يوم الجمعة في الثالث والعشرين من ذي القعدة 1397هـ الموافق: الرابع من تشرين الثاني 1977م بدمشق. خلف آثارا بلغت ثلاثة عشر كتابا، منها: المعجم المدرسي- المعجم في النحو الصّرف- المعجم في القرآن-الإملاء العربي.

-ينظر: علي الرضا الحسيني: سيدي الوالد زين العابدين بن الحسين التّونسي، الدّار الحسينيّة للكتاب، (د.ط)، دمشق: (د.ت).

علي الرضا الحسيني: أعلام المهاجرين التّونسيين الفقيه اللّغوي زين العابدين بن الحسين التّونسي، دار الفرابي، الطبعة الأولى، دمشق: 1427هـ-2006م.

والشيخ محمد المكي بن الحسين، باحث، لغوي، أديب، شاعر، ولد في نفطة سنة 1306هـ-1893م، توفّي في مدينة تونس، ودفن فيها يوم 20 شعبان 1382هـ الموافق : 26 كانون الثاني - جانفي 1963 ، خلف آثارا بلغت ثمانية كتب، هي: عادات عربيّة - نواذر في اللّغة- نواذر في الأدب- أسماء عربيّة- أمثال عربيّة- أخلاق عربيّة- كلمات للاستعمال.

-ينظر: علي الرضا الحسيني: محمد المكي بن الحسين حياته وشعره، الدّار الحسينيّة للكتاب، (د.ط)، دمشق: 1991م.

تحصل على شهادة التطوع عام 1898م، أسند إليه التدريس بالجامع الزيتونة، وكان له دور في حركة الإصلاح التعليمي، فاقترح العناية بتدريس الإنشاء على طريقة علمية، أنشأ مجلة السعادة العظمى عام 1904م، ألقى محاضرات مثل: الحرية في الإسلام عام 1906م، وحياة اللغة العربية عام 1909م، وألف كتابه (الدعوة إلى الإصلاح) عام 1910م.

اضطر إلى هجرة البلاد قاصدا سوريا؛ ليلتحق بعائلته التي سبقته إلى هذه البلاد، وكان ذلك عام 1912م، وبقي فيها إلى غاية سقوط سوريا في قبضة الإستعمار الفرنسي عام 1920م، وعلى الرغم من إقامته القصيرة في هذه البلاد، والتي لم تتعد الثمانية سنوات، إلا أن الرجل كان له حضور يذكر في الميدانين السياسي، والثقافي، شارك في الحياة الثقافية بعدة أعمال منها التدريس في المدرسة السلطانية، وفي أرقى المدارس الرسمية والأهلية، وعين عضوا عاملا في إحدى لجان المجمع العلمي العربي منذ تأسيسه عام 1919م.

سافر إلى ألمانيا مرتين خلال الحرب العالمية الأولى في مهمة سياسية، وهي توعية أسرى الحرب من تونسيين وجزائريين القابعين في السجون الألمانية، والذي يهمننا في سفره هذا، لقاءاته مع بعض المستشرقين، وحضوره المحاضرات، وزيارته للمؤسسات التعليمية، دراسته علوم الطبيعة والكيمياء على يد البروفسور الألماني هاردر أحد العلماء الألمان المستشرقين¹، وكتابه الذي جاء تحت عنوان (مشاهد برلين)، تحدت فيه عن الحياة في شتى ميادينها في ألمانيا، وتحدت عن خصائص اللغة الألمانية وآدابها، وترجمة القرآن الكريم إلى الألمانية.

دخل مصر عام 1920م، المرحلة الثالثة من مراحل حياته، وهي مرحلة المجد الثقافي والشهرة العلمية²، نال شهادة العالمية عام 1928م، تولّى رئاسة بعض المجلات، كمجلة

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 11 / 148. (مقدمة علي الرضا الحسيني).

الباحث في هذه المرحلة يصعب عليه الحصول على معلومات دقيقة تخص نشاط الرجل العلمي قبل السياسي، ويبقى كتابه (مشاهد برلين) المرجع الوحيد الذي يمد الباحث ببعض المعلومات.

² - محمد مواعدة: محمد الخضر حسين حياته وأثاره: 74.

الهداية الإسلامية، ونور الإسلام، ولواء الإسلام، ومجلة الشبان الإسلامية، ومجلة الأزهر¹، عين عضوا في لجنة الآداب والفنون الجميلة، ورئيسا للجنة اللّهجات بمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 1932م، نال العضوية في جماعة كبار العلماء عام 1951م، ثم عين شيخا للأزهر بين سنتي 1952م و1954م².

عرف الرجل في هذه المرحلة بكثرة الكتابة، سواء أكانت مقالات أم كتبا، في ميادين شتى (دين، لغة، أدب)، وبالمناقشات العلمية لمعاصريه، من أمثال علي عبد الزازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم)، وطه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي)، وإبراهيم مصطفى في كتابه (إحياء النحو)، ومحمد أحمد خلف الله في كتابه (الفن القصصي في القرآن)، وأحمد أمين في مقاله "بعض الإصلاح في متن اللغة"، وعبد القادر المغربي في مقاله "الكلمات غير القاموسية"، وبردوده على لجنة النظر في تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة، وعلى فريد بك أبو حديد في بحثه "موقف اللغة العامية من اللغة العربية الفصحى"، وعلى مقال تحت عنوان "إعرابان جديان في صيغة التحذير".

3-وفاته:

¹ - الزركلي: الأعلام: 6/114.

- أبو القاسم محمد كزو: "محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق". ضمن كتاب الأعمال الكاملة. محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 14/114.

² - مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة: رجب سنة 1353هـ أكتوبر سنة 1934م : 1/31.

أحمد لطفي حسونة: "شيخ الأزهر محكوم عليه بالإعدام". ضمن كتاب الأعمال الكاملة.

محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 14/36.

واصل الرجل على الوتيرة نفسها في الميادين جميعها، إلى أن وافته المنية ظهر يوم الأحد 13-رجب سنة 1377هـ الموافق: 2 فيفري سنة 1958م، ودفن بوصية منه بجوار صديقه أحمد تيمور باشا. إذا ما الآثار التي خلفها الرجل عامّة، وفي الدراسات اللغوية خاصّة؟ وإلى مدى تعكس هذه الآثار تفكيره اللساني؟ ما القضايا اللغوية التي شغلته؟ كيف عالجهما؟ أين تقاطع واختلف مع غيره من القدماء والمحدثين؟ ما المنهج الذي سلكه في معالجة هذه القضايا؟ ثم إلى أي مدى نتحقّق من تلقّي الرجل للخطاب اللغوي للآخر، خاصّة إذا علمنا أنه زار مدنا غربيّة؟ كيف إستثمر تمكّنه من اللغات الأجنبية في مقارنة المسائل اللغوية العربيّة؟

4-آثاره: وصف وتحليل.

خلف الرجل تراثا في مختلف ميادين المعرفة، والباحث في هذا التراث بصفة عامّة، يسهل عليه حصر عدد الكتب التي خلفها الرجل من خلال عناوينها، ولكنّه إذا أخذ يحلّلها ويدرسها ألقى معظمها مقالات، ومحاضرات، ومداخلات، نشرت في مجلات بالدول العربيّة، ثمّ جمعت تحت عناوين إختارها جامع هذا التراث، وهو علي الرضا الحسيني، أو كتبها ألفها الرجل وإختار لها عناوين، ويختار الباحث حينما يجد بعض المحاضرات نشرت منفردة، ثمّ أعيد نشرها ضمن كتب، ويبقى السؤال المعرفي شاخصا في حقّ جامع هذا التراث، على أيّ أساس تمّ جمع بعض المقالات تحت عنوان واحد؟

ثمّ إنّ هذا التداخل يجعل قارئ هذا التراث لا يعرف آثار الرجل بدقّة، ولا يتأكّد من هذه العناوين، هل تركها صاحبها على العنوان نفسه أم هناك تصرف من طرف جامع هذا التراث، ولكنّ المسألة بدأت تتجلي منذ 2010م، بالعمل الضخم الذي قام به علي الرضا الحسيني، حينما جمع تراث عمّه تحت عنوان: (موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين) صادرة عن دار النوادر بسوريا.

وللوقوف على هذا التراث ارتأيت أن أذكر الآثار مجملة، ثم ألخص مضمون الكتاب. وهذا المنحى ذو صعوبة، خاصة في الكتب التي جمعها علي الرضا الحسيني وضمت بين دفتيها، مجموعة من المقالات، والمحاضرات، تختلف في المحتوى، ويضمها فن واحد، وهذا ما نلمسه مثلا في كتاب (دراسات في العربية وتاريخها)، وكتاب (دراسات في اللغة)، وأما الكتب التي طبعت في شكل رسائل صغيرة منفردة، وكانت قد ضمت من قبل في كتاب، إكتفيت بالإشارة إلى مكان وجودها، ولم ألخصها.

1- أسرار التنزيل:

مجموعة من المقالات في تفسير القرآن الكريم نشرها الشيخ محمد الخضر حسين، وجمعها علي الرضا الحسيني تحت هذا العنوان، فسّر فيه سورة الفاتحة، وإثنتي عشرة ومائتي آية، وهي:

ثلاث وتسعون ومائة آية من سورة البقرة، (الآيات: 1 إلى 193).، وخمس آيات من سورة آل عمران، (الآيات: 22 إلى 25، والآية: 159).، وثلاث آيات من سورة الأنفال، (الآيات: 24 إلى: 26)، وأربع آيات من سورة يونس، (الآيات: 62 إلى: 65)، وآيتان من سورة الحجّ، (الآيتان: 27 و 28)، وخمس آيات من سورة ص، (الآيات: 21 إلى: 25).

2- بلاغة القرآن:

كتاب فيه مجموعة من البحوث والمقالات تصبّ في ميدان علوم القرآن الكريم، تحدّث فيها عن نظم القرآن الكريم، وإعجازه، وتفسيره، وتناول أمثال القرآن الكريم، ومحكمه ومتشابهه، وترجمته، ونزوله على سبعة أحرف، ثم خصّ اليمين في القرآن والحديث النبوي الشريف ببحث.

وإحتوى الكتاب على ردود على بعض معاصريه في مسائل إتصلت بالقرآن وعلومه، منها: "حقيقة ضمير الغائب في القرآن الكريم"¹، و"الفن القصصي في القرآن"²، و"تحريف آيات الحدود عن مواضعها"³، و"كتاب يلحد في آيات الله"⁴، وخمسة ردود تحت عنوان "قصة أيوب - عليه السلام"⁵.

3-تعليقات على كتاب (الموافقات) لأبي إسحاق الشاطبي⁶.

4-مقدمة وتعليق على كتاب (المغني عن الحفظ والكتاب) لأبي حفص عمر بن بدر الموصلي الحنفي (ت 623هـ): الكتاب يكشف عن الإطلاع الواسع للرجل في علم الحديث، فقدّم لهذا الكتاب وعلّق عليه، وقام بتخريج الأحاديث، وذكر أقوال العلماء فيها.

5-الشريعة الإسلامية صالحة لكلّ زمان ومكان:

هو مجموعة من المقالات بلغت خمسة وعشرين مقالا، نشرت في مجلة نور الإسلام، تهدف هذه المقالات إلى إثبات أنّ الشريعة الإسلامية صالحة لكلّ زمان ومكان، وأنها راعت مصالح العباد، ودرأت عنهم المفساد، وتدفع في الوقت نفسه شبه القائلين إنّ هذه الشريعة لا توافق

¹ -وهو ردّ على المحاضرة التي ألقاها الدكتور طه حسين في مؤتمر المستشرقين السابع عشر بجامعة (أكسفورد) عام 1928م تحت عنوان: "ضمير الغائب وإستعماله إسم إشارة في القرآن".

محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 79/2 (الهامش).

² -وهو نقد لكتاب (الفن القصصي في القرآن) للدكتور محمد أحمد خلف الله. المرجع نفسه: 120/2 (الهامش).

³ -وهو ردّ على المقال الذي نشره عبد المتعال الصعيدي تحت عنوان: "التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي". محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 135/2.

⁴ -وهو نقد لكتاب (مرأتنا في الشريعة والمجتمع) للطاهر حدّاد. المرجع نفسه: 168/2 (الهامش).

⁵ -ردود على المقال الذي نشر في إحدى المجلات التي تصدر بالقاهرة، وبالغ صاحبه في وصف المفسرين بالتقصير، وساق شاهدا على كلامه، ما أولوا به قصة أيوب -عليه السلام-.

المرجع نفسه: 181/2.

⁶ -لا توجد هذه التعليقات في الأعمال الكاملة، ولكننا يمكن الإطلاع عليها في الجزء الأول من كتاب الموافقات للشاطبي.

العصر؛ ولهذا جاء المقال الأول تحت عنوان "الإجتهد في أحكام الشريعة"؛ ليثبت أنّ التشريع الإسلامي يعتمد في معظم أحكامه على الإجتهد.

6-الدعوة إلى الإصلاح:

طبع الكتاب لأول مرة عام 1346هـ، يبحث هذا الكتاب، كما ذكر صاحبه، في العلل والأسباب التي لبست الأمة الإسلامية، وتركتها في خمول، وسبات عميق، مكن الدول الغربية من السيطرة عليها، فتحدّث عن الدعوة من حيث حقيقتها، والحاجة إليها، وطرقها، وآدابها، ويكفي هذا الكتاب قيمة ما قاله الباحث (أنولده قرين) في كتابه (العلماء التونسيون 1873م-1915م): إنّه « آخر تعبير عن شعور إصلاحيّ إسلاميّ خالص »¹.

7-رسائل الإصلاح:

إسم إختاره المؤلف بعد أن جمع مقالاته التي نشرها في المجالات التالية: الهداية الإسلامية، ولواء الإسلام، والفتح، جرى في هذه المقالات على منهج ذكره بقوله: « طرقت في هذه الرسائل نواحي هي في حاجة إلى أن تبحث بفكر لا يتعصّب لقديم، ولا يفتتن بجديد، يعتمد الرأى حيث يثبته الدليل، ويتقبّل الحكم متى لاحت بجانبه حكمة، يثق بالرواية بعد أن يسلمها النقد إلى صدق »². تحدّث فيها عن القضايا الأخلاقية، والاجتماعية، والسياسية.

-دراسات في الشريعة الإسلامية:

يضمّ الكتاب خمسة وأربعين بحثاً، فيها قضايا عقائدية، (الله موجود)، وأصولية (الدّرائع: سدّها وفتحها)، (مراعاة العرف)، فقهية: فقه بالعبادات وفقه الأسرة وفقه المعاملات (العزائم والرخص) (صلاة الجماعة، وأثرها في اتحاد الأمة) (الزكاة وأثرها في نهوض الأمة) (الطلاق

¹ الدكتور أنولده قرين: العلماء التونسيون 1873م-1915م، ترجمة حفاوي عمّارية وأسماء معلي، المجمع التونسي بيت الحكمة، دار سحنون للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، تونس: 1995م: 294.

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/5.

في الإسلام) (المال المباح في الإسلام)، وأخلاقية (الغيبة وأثرها في النفوس) (التنظاف في الإسلام)، وعلوم القرآن (ترجمة القرآن) (نزول القرآن في رمضان) (بحث لفظي في آيتي السرقة والزنا). والملاحظة التي يخرج بها قارئ الكتاب، وهي أن بحوثه تربوية أكثر منها فقهية.

9-محاضرات إسلامية:

مجموعة من المحاضرات بلغ عددها خمس عشرة محاضرة، ألقاها في تونس، وفي القاهرة، منها: "الحرية في الإسلام"، و"علماء الإسلام في الأندلس" و"التصوف في القديم والحديث"، و"المعتزلة وأهل السنة"، ونقدين موجّهين للأستاذ فريد وجدي تحت عنوان "نقد آراء الأستاذ فريد وجدي من الناحية الدينية والاجتماعية".

10-مدارك الشريعة الإسلامية. وطبع ضمن كتاب الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان.

11-الحرية في الإسلام. وطبع ضمن كتاب محاضرات إسلامية.

12-آداب الحرب في الإسلام. وطبع ضمن كتاب الهداية الإسلامية.

13-مناهج الشرف. وطبع ضمن كتاب الدعوة إلى الإصلاح.

14-محمد رسول الله خاتم النبيين:

تحدّث فيها عن أديان العرب قبل الإسلام، وحياة العرب قبل بعثته صلى الله عليه وسلم، ثم تحدّث عن مولده صلى الله عليه وسلم، ونشأته، صفاته، أخلاقه، ثم البلاغة النبوية.

15-حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية. وطبع ضمن كتاب تونس وجامع الزيتونة.

16-تراجم الرجال:

مجموعة من المقالات والمحاضرات في أعلام الإسلام، بلغ عددها ثلاث عشرة مقالة ومحاضرة، بدأها بحديث عن خلافة عثمان بن عفان، وختمها بأحمد تيمور باشا، والهدف منها هو الوقوف على حياة هذه الشخصيات؛ لأخذ العبرة منها، والعمل على الاقتداء بها في حياتنا.

17-القاديانية والبهائية:

يتناول فيه طائفتي القاديانية والبهائية، من حيث التعريف بهما، وبأصولهما، واعتقاداتهما، ثم يفنّد مزاعمهما، ويحذّر من خطورة مساعيها حتى لا يقع أحد من المسلمين في شركهم.

18-تونس وجامع الزيتونة:

يهدف هذا الكتاب إلى التعريف بتونس والحياة الثقافية بها، وأهم رجالها من فقهاء، وشعراء، والحياة العلمية بجامع الزيتونة، وأصل الكتاب مقالات نشرت في مجلتي الهداية الإسلامية، والمنار، ومحاضرات أقيمت في نادي جمعية الهداية الإسلامية، وجمعية تعاون جاليات أفريقيا الشمالية بالقاهرة، وترجم لشخصيات منها: ترجمة للفيلسوف ابن خلدون من حيث نسبه، ومولده، نشأته، رحلاته، سجنه، أخلاقه، ومكانته العلمية، مؤلفاته، وشعره، ثم تحدّث عن آرائه في الاجتماع والسياسة، والهدف الذي سعى إليه من وراء هذه الترجمة، هو أن يأخذ طلاب العلم بالأزهر الشريف عبرة.

19-أحاديث في رحاب الأزهر:

هي أحاديث خصّ بها الشيخ محمد الخضر حسين، حينما تولّى مشيخة الأزهر، مندوب جريدة الأزهر، وذلك عام 1952م، تناولت قضايا تربوية، وسياسية، واجتماعية، فتحدّث عن

طلبة الأزهر وأساتذته، والمرافق العلميّة بهذا الصّرح العلمي، وعلاقة الإسلام بغير المسلمين، وموقفه من الإلحاد والمذاهب الهدّامة.¹

20-هدى ونور:

ضمّ هذا السّفر المقالات التي كتبها الشّيخ محمد الخضر حسين في مجلّات منها: البدر التّونسيّة، ونور الإسلام، والهداية الإسلاميّة، ولواء الإسلام، والفتح المصريّة، بلغت ثلاثا وثلاثين مقالة، منها: الحكمة العربيّة، لهجة بلاد الجزائر، الجزائر وإستبداد فرنسا، الشّعْر حقيقته - وسائل البراعة فيه-، قوّة التّخيّل وأثرها في العلم والشّعْر.

21-الهداية الإسلاميّة: جمعت في هذا الكتاب المقالات التي نشرها الشّيخ في المجلّة التي تحمل العنوان نفسه، وتناولت المسائل السياسيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة والتّربويّة، منها: السياسة الرّشيدة في الإسلام، بحث موجز في أشهر الفرق الإسلاميّة، إصلاح المعاهد الدّينيّة والدكتور طه حسين، حالة الأمتة في هذا العصر.

22-السّعادة العظمى:²

يضمّ الكتاب المقالات التي نشرت في المجلّة التي تحمل العنوان نفسه، وتناولت مباحث علميّة، منها براءة القرآن من الشّعْر، والتّقدّم بالكتابة. ومباحث أدبيّة، منها: تقسيم الكلام بحسب أغراضه، الإبداع في فنون الكلام، طرق التّرقّي في الكتابة، وجمعت في الكتاب الأسئلة التي كان يتلقّاها الشّيخ من بعض القراء، وأجوبته عليها.

23-الرّحلات:

¹ - وما نسجّله هنا، مع الأسف الشّديد، أنّ الشّيخ رفض تسجيل مذكراته التي شرع فيها مع هذا المندوب؛ لأنّه رآها تدخل ضمن تركية النّفس، وبذلك ضاع جزء من حياة الرّجل، خاصّة الفترة التي عاشها في ألمانيا.

² - جعلها بعض الباحثين من آثار الشّيخ محمد الخضر حسين؛ لأنّ معظم المقالات التي كتبت في هذه المجلّة كانت من تأليفه.

تحدّث فيه عن حقيقة الرّحلة، وأهمّيّتها في حياة الفرد والمجتمع، وأغراضها السّاميّة في نظر الإسلام، وآدابها، وعالج مثبّطاتها، ودعا إلى الإكثار منها. وضمّ هذا الكتاب أربع رحلات، الأولى سمّاها الرّحلة الجزائريّة عام 1904م، والثّانيّة الرّحلة الشّرقية عام 1911م، و كانت الثّالثة إلى دمشق 1937م، والرّابعة إلى سوريا ولبنان، ولم تحدّد سنتها.

24-مشاهد برلين¹:

ضمّ الكتاب رحلتي الشّيخ إلى ألمانيا سنتي 1917م و1918م، فيها وصف لمدينة برلين، وسكّانها وعاداتهم وتقاليدهم، وحديث عن المرافق الموجودة بها، من إدارات عموميّة، مدارس، ومعاهد، ونظامها الداخلي، ثمّ إنتقل إلى الحديث عن اللّغة الألمانيّة وآدابها، وذكر اللّقاءات التي جمعته بالمسؤولين الألمان، واهتمامهم بترجمة القرآن الكريم، وباللسّانين العربي والتّركي، والمحاضرات التي حضرها في برلين.

25-نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم:

بعد سقوط الخلافة على يد كمال أتاتورك عام 1924م، يكتب علي عبد الرّازق عام 1925م كتابا سمّاه (الإسلام وأصول الحكم)، والفكرة التي يدور حولها الكتاب، هي أنّ الخلافة « ليست ضروريّة لقيام حكومات إسلاميّة حديثة »²، وردّ محمد الخضر حسين بهذا الكتاب، الذي يضمّ ثلاثة كتب وتسعة أبواب، ناقشه في حقيقة الخلافة، وحكمها والأسس التي بنيت عليها، وعلاقة الإسلام والمسلمين بالسياسة³.

¹ - كان من الأحسن أن يضمّ هذا الكتاب إلى كتاب الرّحلات؛ لأنّه وصف دقيق لما شاهده في ألمانيا.

² - علي عبد الرّازق: الإسلام وأصول الحكم، بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام، نقد وتعليق الدكتور ممدوح حقّي، منشورات دار مكتبة الحياة، (د.ط)، بيروت: 1978م: 201.

³ - الباحثون اليوم في الفكر العربيّ الحديث عندما يقفون أمام القضايا التي أثارها رواد هذه الفترة في مسألة الخلافة، يرون كتاب الشّيخ محمد الخضر حسين كان هدفه خدمة أطماع الملك فؤاد الأوّل، وبرجوعي إلى ما كتبه بعض الباحثين المعاصرين في هذه المسألة، ألفيت أنّ السّبب في هذا الحكم هو الإهداء الذي كتبه الشّيخ محمد الخضر حسين، الذي يقول فيه: «أقدم إلى خزائنه (أي الملك فؤاد) مؤلّفا قمت فيه ببعض حقوق إسلاميّة وعلميّة». وحينما رجعت إلى هذا الكتاب الذي قام بطبعه

26- نظرات في الإسلام وأصول الحكم:

الآراء الموجودة في هذا الكتاب مأخوذة من كتاب نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم. ونشر هذا الكتاب تحت هذا العنوان الذي إختاره علي الرضا الحسيني.

27- دراسات في العربية وتاريخها:

وفيه كتاب: (القياس في اللغة العربية) ومحاضرة (حياة اللغة العربية)، وتحدث فيه عن الإستشهاد بالحديث في اللغة، وتيسير وضع المصطلحات وتوحيدها، وقضايا تبسيط النحو والصرف، ثم ختم كتابه برسالة جمعها في الألفاظ المؤنثة سماعاً.

28- القياس في اللغة العربية. وطبع ضمن كتاب دراسات في اللغة العربية وتاريخها:

والكتاب دروس ألقيت على الطلبة بدمشق، عام 1914م، ونشرت مقالات في مجلة المنار عام 1920م، ثم جمعت في كتاب تحت هذا العنوان، وطبع لأول مرة عام 1934م، ونال بالكتاب نفسه العضوية في هيئة كبار العلماء بالقاهرة عام 1951م. تناول في مقدمة الكتاب فضل العربية ومدى مساهمتها للعلوم والمدنية، وحال اللغة العربية في العصر الجاهلي، ومدى تأثير الإسلام فيها، ثم تحدث عن فضلها وأهم خصائصها.

وتناول القياس من حيث حقيقته، والحاجة إليه، وأنواعه، ثم دعا إلى فتح باب القياس على النظم؛ نظراً لأهميته في تنويع الأساليب، وختم كتابه بجواب عن إقتراح تقدم به عبد القادر المغربي حول الكلمات غير القاموسية.

الأستاذ علي الرضا الحسيني، لم أعثر على هذا الإهداء، والأمر نفسه كان مع الأعمال الكاملة للشيخ الخضر. وهذا المنحى الذي نجاه علي الرضا الحسيني يجعل القارئ يتساءل عن سر إسقاط الإهداء.

وللاطلاع على هذا الإهداء ينظر:

الدكتور محمد عمارة: معركة الإسلام وأصول الحكم، دار الشروق، الطبعة الثانية، بيروت: 1418هـ-1998م: 57 (نص الإهداء).

29- حياة اللغة العربية. وطبع ضمن كتاب دراسات في العربية وتاريخها:

محاضرة ألقاها سنة 1909م، في الجمعية الصادقية بتونس، وهي ردّ على من حكم على اللغة العربية بالموت، وأنها لغة لا تساير المدنية، والرجل في هذه المحاضرة أثبت حياتها، وتناولها من حيث تأثيرها في الهيئة الاجتماعية، وأطوارها، وفصاحتها، ومحكم وضعها، وحكمة تراكيبها، ودلالة ألفاظها، وموقعها من لغة العامّة، ثمّ ضمّ إلى هذه المحاضرة قصيدة تحت عنوان: "حياة اللغة العربية".

30- دراسات في اللغة:

يضمّ هذا الكتاب اثنتي عشرة مقالة، منها سبع مقالات نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية، وأربع نشرت في مجلة الهداية الإسلامية، ومقالة واحدة نشرت في مجلة نور، تناول فيها القضايا التالية: المجاز والنقل، واللهجات، والأمثال، واسم المصدر، وجمع غير العاقل بصيغة فعلاء، ونيابة بعض الحروف عن بعض، ومن علماء اللغة الذين وثق فيهم، والذين طعن فيهم، ونقدين أحدهما موجّه إلى الاقتراح الخاصّ ببعض الإصلاح في متن اللغة، والآخر إلى الإعرابين الجديدين في صيغة التحذير، ثمّ تحدّث عن الألفاظ المؤنّثة من طريق السماع.

31- تعليقات لغوية على كتاب (شرح القوائد العشر) للخطيب التبريزي¹: طبع هذا الكتاب لأول مرّة عام 1343هـ في المطبعة السلفية بالقاهرة، الواقف على هذه التعليقات يلفي الرجل شارحا، ومرجّحا، ومصحّحا، ومستدركا، ويكشف عن ثقافته الواسع في الشعر العربي القديم وروّاده، وإطلاعه على المصادر (المعاجم، كتب النحو وأصوله، كتب الأدب الخاصّة والعامّة).

32- الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية. وطبع ضمن هذا الكتاب محاضرة "الخطابة عند العرب".

¹ - لا توجد هذه التعليقات ضمن الأعمال الكاملة، وهي مطبوعة في كتاب صادر عن الدار الحسينية بدمشق.

كتاب في النقد الأدبي الحديث، عدّه جابر عصور أول كتاب نعرفه في نقدنا العربي الحديث¹، وقف فيه عند حقيقة الشعر وأثره في النفوس، وحقيقة التخيل، وبم يفصل، ومفهومه عند علماء البلاغة، والفلاسفة، وتحدّث عن فنون الخيال، وأسباب جودته، خاتماً كتابه بالشعر المصري في عهد الدولة الأيوبية، وضمّ إلى هذا الكتاب ثلاث محاضرات، هي: الخطابة عند العرب، ونشأة علم البلاغة في محاضرتين.

33-نقض كتاب في الشعر الجاهلي:

ألّف طه حسين كتابه (في الشعر الجاهلي) عام 1926م، مطبّقاً فيه المنهج الفلسفي الذي استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء، وأوصله هذا المنهج إلى أنّ معظم ما نسمّيه الشعر الجاهلي هو منحول وأسباب نحلّه خمسة أمور، السياسة، والدين، والقصص، والشعوبية، والرواة؛ ولهذا أبطل هذا الشعر من وجهتين، الأولى لغوية والثانية فنية، وعليه ردّ مسألة الاستشهاد بهذا الشعر على تفسير القرآن الكريم، وتأويل الحديث النبوي الشريف. وجاء كتاب الشيخ محمد الخضر حسين (نقض كتاب في الشعر الجاهلي)؛ لينقض آراء طه حسين في مسألتين، في المنهج الذي إنتهجه في كتابه، وفي الأدلة التي ساقها، في أثناء التعليل لآرائه.

34-خواطر الحياة (ديوان شعري):

ضمّ الديوان بين دفتين سبعا وسبعين قصيدة، وتسع وسبعين مقطوعة، وثلاثاً وأربعين نتفة، طبع لأول مرة بالقاهرة عام 1946م، فيه شعر في الحياة الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية، رثى ومدح ووصف مناظر وأماكن ومدن.

¹ - جابر عصفور: "عن الخيال الشعري قراءة في أبي القاسم الشابي". عالم الفكر، الكويت: يوليو، أغسطس، سبتمبر 1984، وزارة الإعلام في الكويت، العدد الثاني، المجلد الخامس عشر: 48.

-المسائل اللغوية في آثاره:

بعد أن لخصت مضامين تراث الشيخ محمد الخضر حسين، أصبح ضروريا البحث في المسائل اللغوية التي شغلته، لا نختلف إذا قلنا إن البحث في هذه المسألة عند رجل موسوعي كالشيخ محمد الخضر حسين، يقتضي تتبعها في مظانها المختلفة، سواء أكانت هذه المظان دينية أم لغوية أم أدبية، ثم استنباطها؛ لأن الكثير من آرائه ألفتها مبنوثة بين ثنايا مقالاته، ونظرا لكثرة هذه المسائل وتنوعها، إرتأيت أذكرها في نقاط محددة، على أن أتاولها بتفصيل في الفصول القادمة.

أ-في مسائل اللغة عامة وفي العربية خاصة¹:

1-في اللغة:

في حقيقة اللغة ونشأتها، وعلاقتها بالفكر وعلاقة الفكر بها، وفي وظائفها، وفي خصائصها، وفي أقسامها، ومناقشته مدى إمكانية اتحاد البشر تحت لغة موحد أطلق عليه الأسبرانتو، وفي حياة اللغة العربية، وفضلها ومسايرتها المدنية، وفي أطوارها، وفي حقيقة الفصاحة والملكة اللغوية، وفي أن السمع أبو الملكات اللسانية، وفي اللهجات والعربية الفصحى.

2-في النحو العربي وأصوله:

في حقيقة النحو، موضوعه، وجهات البحث فيه، النحو ومناهج السريان، وفي مناقشة اقتراح تيسير النحو عند المحدثين، وفي إصلاح في متن اللغة، وفي مصادر الاستشهاد (القرآن الكريم وقراءاته، الحديث النبوي الشريف، كلام العرب، شعره ونثره)، وفي حقيقة القياس وأركانه والحاجة إليه، وفي حقيقة العلة وموقفه منها.

¹ - هذه العناوين التي ذكرتها على صنفين، منها ما ذكره الشيخ تحت العنوان نفسه الذي ذكرته، ومنها ما استتجته في أثناء قراءتي لآثاره.

3- في البلاغة والنقد:

الرّبط بين المباحث النّحويّة والبلاغيّة في أثناء تفسيره القرآن الكريم، تقسيم الكلام بحسب أغراضه، الإبداع في فنون الكلام، طرق التّركي في الكتابة، في نشأة علم البلاغة.

4- في المعجميّة والمصطلح:

إسم المصدر في المعاجم، تكملة بعض المواد اللّغويّة ورد بعضها في المعجمات ولم ترد بقيّتها، تيسير وضع المصطلحات الألوان، وطرق وضع المصطلحات الطّبيّة وتوحيدها. مناقشته الكلمات غير القاموسيّة التي اقترحها عبد القادر المغربي وطلب إدخالها في المعاجم، تأليف رسالة وتحقيق أخرى حول التّدكير والتّأنيث.

ب- في التّفكير التّربوي: نقد الطّرق البيداغوجيّة القديمة، التّعليم الدّيني في مدارس الحكومة، الإصلاح التّعليمي في الزيتونة، وإقتراحه تدريس الإنشاء على أصول علميّة بالزيتونة.

ج- في القرآن الكريم وعلوم:

1- في التّفسير:

تحدّث عن حقيقة التّفسير، وأنواعه، وشروطه، وترجمة القرآن الكريم، وناقش بعض من أولوا الآيات القرآنيّة، فسّر جزءا كبيرا من سورة البقرة، والواقف على هذا التّفسير يدرك أنّ القضيّة الأساسيّة التي شغلت الرّجل، وهو يفسّر هذا الجزء، هو الدّفاع عن إنسجام النّصّ القرآني واتّساقه؛ ولذلك سنبحث في آليات إنسجام واتّساق النّصّ القرآني من خلال الخطاب التّفسيري لدى الرّجل في الفصل الرّابع.

2- في بلاغة القرآن الكريم وإعجازه:

في بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، وفي نزوله على سبعة أحرف، وفي أمثاله ومحكمه ومتشابهه، وفي قصصه، وفي حقيقة ضمير الغائب في القرآن الكريم.

د-في الدلالة:

من المواضيع التي تناولها الشيخ تحت مبحث الدلالة ما يلي: الدال والمدلول، دلالة الألفاظ، التطور الدلالي.

وقفت من قبل عند مسألتين إثنين، أولهما حياة الرجل، وثانيهما آثاره، وهذا تمهيد للوقوف على الخطاب اللغوي العربي الحديث، ولعلّ السؤال الذي يطرح نفسه ما علاقة هاتين المسألتين بهذا الخطاب؟. لا نختلف إذا قلنا: إنّ الرجل واحد من أولئك الذين لا يمكن معرفتهم إلا من خلال عصرهم، امتدت حياته من الربع الأخير من القرن التاسع عشر إلى أوائل النصف الثاني من القرن العشرين، وبهذا الإمتداد يكون قد عاصر قضايا لغوية ثرة طرحت في هذه الفترة، وكانت له آراء ومواقف في ذات المسائل نكتشفها من خلال آثاره التي سردتها من قبل.

والبحث في التفكير اللساني عند الشيخ محمد الخضر حسين لا تتضح معالمه إلا إذا وقفت عند الخطاب اللغوي العربي الحديث، باحثاً في ظروف نشأته، وفي القضايا التي شغلته، وفي الأسئلة المعرفية التي راودته؛ وهذا لتوضيح حقيقة المسألة في البعد الذي أريد مساءلته؛ لأنّ الباحثين العرب المهتمين بالخطاب اللغوي العربي، وهم يتناولون واقع الدرس اللساني العربي اليوم، مجمعون على أنّ اللسانيات العربية تمرّ بأزمة¹. وأرجعوا أزمته إلى سببين إثنين:

أ- إنّ الباحثين المعاصرين في اللسانيات ثلاثة أصناف، صنف ولّى وجهه شطر كلّ واحد من الغرب، ورفض أن يبحث في تراثه، وصنف جمّد على تراثه ولم يعر الوافد من عند الآخر أيّ اهتمام، وصنف زلّج بين النظرتين، ولم تطل هذه المزوجة فإنتصر إلى نظرة على حساب الأخرى، وهذه الأصناف عطّلت اللسانيات العربية على الوصول إلى العالمية.

¹ -ينظر مثلاً: الدكتور عماد أحمد الزين: التفكير اللساني عند علماء العقلية المسلمين العضد الدين الإيجي والسعد النّقازاني والشّريف الجرجاني، دار النور المبين للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان: 4014م. (المقدمة)

ب-الباحثون المهتمون بالخطاب اللغوي العربي الحديث، أرجعوا الأزمة إلى رواد النهضة الذين فوّتوا الفرصة على اللسانيات العربية، يومئذ، لإدخالها في حوار مع غيرها، وهذا السبب ذاته هو الذي منح لي مشروعية البحث في الخطاب اللغوي العربي الحديث.

ب-الخطاب اللغوي العربي الحديث: نشأته وتطوره.

يمتدّ البحث في هذه المسألة زمنياً من الربع الأخير من القرن التاسع عشر إلى أوائل النصف الثاني من القرن العشرين، وهي فترة عايشها الشيخ محمد الخضر حسين (ت 1958م)، ويهدف هذا المبحث إلى الكشف عن الخلفية السوسيوثقافية التي أنتجت الخطاب اللغوي العربي الحديث، والوقوف عند هذه الخلفية، في البعد الذي أريد مساءلته، له ما يبرره، فكلّ تصوّر سوسيلوجي لثقافة ما يستدعي البحث في تلك العوامل التي ساهمت في نشأة هذا الخطاب وتطوره، سواء أكانت هذه العوامل موضوعية أم ذاتية، ثم مقارنة نوعية هذا الخطاب اللغوي العربي الحديث في ثلاث مسائل؛ أي من حيث موضوعه، وأعني به المادة التي يبحث فيها أو يشتغل عليها، ومنهج الذي يُقصد به وجهة النظر المتبعة في بحث موضوع معين، وغايته التي يرومها، ويسعى إلى تحقيقها الباحث اللغوي من وراء خطابه اللساني¹.

إذاً فإلى أي مدى كانت هذه الخلفية مساهمة في تشكيل معالم هذا الخطاب؟ من أين انطلق رواد هذه المرحلة في معالجة المسائل اللغوية؟ ما الأسئلة شغلهم، وما قيمتها معرفياً؟ ما الوسائل والمناهج التي اعتمدها في مقارنة هذه المسائل؟ أين اختلفوا وتقاطعوا مع القدماء، وهل استثمروا ما أنتجه الآخر في مجال الدراسات اللسانية متى علمنا أنّ بعض الرواد من أمثال رفاة الطهطاوي (ت 1873م)، والشيخ محمد الخضر حسين (ت 1958م) زاروا مدناً غربية؟ ما النتائج التي حقّقوها؟ وإلى أي مدى أثرت في الواقع اللغوي العربي

¹ -ينظر: مصطفى غلفان: اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة حفريات النشأة والتكوين، شركة النشر والتوزيع المدارس، الطبعة الأولى، الدار البيضاء: 1427هـ-2006م: 90، 91.

عامّة، وفي اللّغة العربيّة خاصّة؟ وهل كان لهذا الخطاب أثر في الدّراسات اللّسانية المعاصرة؟. هذه الأسئلة التي أثيرتها تهدف، في البعد الذي أريد مساءلته، إلى الوقوف عند ثلاث نقاط أساسية: المنطق؛ أي من أين إنطلق هؤلاء؟ الهدف، ما الأهداف التي سعى إلى تحقيقها هذا الخطاب؟ الوسائل، ما الوسائل التي اعتمدها لتحقيق أهدافهم؟

1- الخلفية السوسيوثقافية للخطاب اللغوي العربي الحديث:

كانت للحياة السياسيّة والاجتماعيّة التي مرّ بها العالم العربيّ خلال الفترة التي أتناولها¹ الأثر البالغ في الحياة الثقافيّة عامّة واللغويّة خاصّة، بدأت مظاهر هذه الحياة تتجلى في عهد محمد علي (ت 1849م) بعد أن إعتلى الحكم في مصر عام 1805م، وإرتبط إسمه بمشاريع نهضويّة، فقرب رجال الفكر والعلم، وطور مطبعة (بولاق) سنة 1821م، وأصدر أول جريدة تحت عنوان (الوقائع المصريّة) سنة 1828م، وإنطلقت البعثات العلميّة ذات الطابع التّويري؛ لأنّه أدرك أنّ النهضة الحقّة لا تتمّ إلّا على يد أبناء الوطن، وكانت أشهر هذه البعثات البعثة الطّبيّة الكبرى سنة 1832م، واهتمّ بالترجمة، فنقل كنوز الغرب إلى العربيّة، وأنشأ المؤسّسات التعليميّة العاليية والإبتدائيّة، مثل (مدرسة الألسن) للترجمة سنة 1836م، وعهد بالإشراف عليها لرفاعة الطّهطاوي².

ولم يخف عن رواد هذه المرحلة أهميّة التّراث العربي الإسلامي، فإنبروا يحيونه ويحقّقونه ويبعثونه؛ ليمارس حضوره من جديد، خاصّة بعد أن إهتمّ به المستشرقون الأوروبيون، فحقّقوا وترجموا إلى لغاتهم كتباً نحوية، « فترجم المستشرق الألماني "يان" كتاب سيبويه سنة

¹ - حياة سياسيّة تمثّلت في سقوط بعض الدّول العربيّة في قبضة الإستعمار الفرنسي، والإنجليزي، والإيطالي، ثم سقوط الخلافة العثمانيّة، مروراً بالحريين العالمتين الأولى والثّانية.

وحياة اجتماعيّة إستشرت فيها الطّبقيّة، أنتجت التّركيبة البشريّة المتنوّعة من عرب وبربر وأتراك وقبط ويهود، وجنسيات أخرى، إيطاليّة و فرنسيّة وإنكليزيّة، ونظام إجتماعيّ تسيره تقاليد وعادات باليّة، أدى إلى نشر الفقر والجهل، وكثرت الأمراض الاجتماعيّة.

² - ينظر: عمر الدّسوقي: في الأدب الحديث، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الثّامنة، بيروت: (د.ت): 25/1-

1895م، وترجم الألماني "ترومب" شرح الأجروميّة، وقربه إلى القارئ الألماني ببعض الشروح الإضافيّة، ونشره بعنوان (مدخل إلى دراسة النّحاة العرب)، ونشر "ديرنبوغ" كتاب سيبويه سنة 1881م¹.

وأدرك مثقفو البلاد العربيّة ولغويّوها أنّ تحقيق أيّة نهضة حديثة جديدة تساير روح العصر وتأخذ بأسباب التطوّر، مرهونة بوسائل كفيلة تنشد هذه الغاية، فأنشأوا الجمعيات والنوادي، والمجامع اللغويّة، والمؤسّسات التعليميّة، فأنشئ في المشرق العربي مثلاً (المجمع العلمي المصري) سنة 1858م، و(الجمعيّة العلميّة السوريّة) في بيروت سنة 1868م، و(جمعيّة التعريب) في مصر سنة 1892م، و(المجمع العلمي العربي) بدمشق سنة 1919م، و(مجمع اللّغة العربيّة) سنة 1932م، و(المجمع العلمي العراقي) سنة 1948م.

وانتشرت في بلاد المغرب العربي الرّوايا، والمدارس، والكتاتيب التي أوكلت إليها مهمّة الدّفاع عن الهويّة العربيّة الإسلاميّة، وتعليم مبادئ الدّين واللّغة العربيّة، ففي الجزائر مثلاً « كانت الأمة رعيّة وحكّاما تجود بأموالها على هذه المؤسّسات التعليميّة²، وعلى الرّغم من محاولة الإستعمار تدمير هذه المؤسّسات، إلّا أنّ ثلّة ممّن تلقّوا تعليمهم في تونس والمشرق العربي، والعائدون إلى أوطانهم بعد الحرب العالميّة الأولى، وقفوا جاهدين في وجه هذا الإستعمار، يقول محمّد ناصر: « لقد أخدم الإستعمار الفرنسي جذوة العلوم والمعارف تحت أنقاض المساجد والكتاتيب، والرّوايا التي دمرها فلم تبق منها سوى جمرات ضئيلة في بعض الكتاتيب دفعتها العقيدة الدّينيّة فحافظت على لغة القرآن، ومبادئ الدّين الحنيف في تعليم بسيط وأساليب بدائيّة، غير أنّ عواصف الحرب العالميّة الأولى الشّديدة نفخت روح الحياة

1 - الدكتور إسماعيل أحمد عمارة: نشأة الدراسات اللغويّة العربيّة، دار وائل للنشر، الطّبعة الثالثة، عمّان: 2002م: 14.

2 - الدكتور أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، الطّبعة الأولى، بيروت: 1998م: 315/1.

في تلك الجمرات، فبعثها متأججة، وآب حملة المشاعل من جامع الزيتونة، وكلّيات المشرق العربي يحملون النور معهم، وينيرون طريق النهوض واليقظة أمام الأمة المحرومة»¹.

وأذكر هنا زاوية (بن بوداود) في شمال الجزائر، و (زاوية الهامل) بجنوبها، وزاوية نفطة بتونس لمؤسسها مصطفى بن عزّوز². وأسست بتونس الجمعيات والمؤسسات من مثل (الصادقية) سنة 1874م و (الجمعيّة الخلدونية) سنة 1896م³، وتأسست في 23-ديسمبر-1905م جمعيّة قداماء تلامذة المدرسة الصادقية، واتّجه أعضاؤها « نحو الشعب فنظّموا محاضرات باللّغة العربيّة في مختلف أحياء العاصمة على غرار الجامعات الشّعبية»⁴.

وأنشأ الوطنيون في المغرب الأقصى مدارس حرّة، ردّا على المخطّط الفرنسي الرّامي إلى القضاء على التّعليم العربي الإسلامي، هذا المخطّط الذي بدت معالمه واضحة منذ إعلان الظّهير البربري سنة 1930م، فكثرت المدارس الفرنسيّة التي قال عنها المسيو مارتني: «... إنّ المدرسة الفرنسيّة البربريّة، هي إذن مدرسة فرنسيّة بالمعلّمين بربريّة بالتلاميذ، وليس هناك أيّ مجال لأيّ وسيط أجنبي. إنّ أيّ شكل من أشكال تعليم العربيّة، إنّ أيّ تدخّل من جانب

1 - الدكتور محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية نشأتها، تطوّها أعلامها من 1903م إلى 1931م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د.ط)، الجزائر: 1978م: 10/2.

2 - مصطفى بن محمد بن عزّوز العالم الولي العارف بالله الفقيه النقي الصوفي (...)، دخل هذا الولي القطر التونسي، وبيّث الطريقة الرّحمانيّة، (...)، وأحدث زاوية بنفطة وصار له أتباع كثيرون.

الشيخ محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرّج حواشيه وعلّق عليه عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت: 1423هـ-2003م: 559/1.

3 - تحدّث محمد الفاضل ابن عاشور بشكل تفصيلي عن دور هاتين الجمعيتين .
ينظر: محمد الفاضل ابن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية في تونس، مطبعة دار الهنا، (د.ط)، تونس: 1955م: 24-55.

4 - شارل أندري جوليان: المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الشركة التونسية للتوزيع، الطبعة الثانية، تونس: 1985م: 110.

الفقيه، إنَّ أيَّ مظهر من المظاهر الإسلاميَّة، لن يجد مكانه في هذه المدارس، بل سيقصى منها جميع ذلك بصرامة¹.

ولمَّا كانت اللُّغة العربيَّة « مجالاً رحباً للهيمنة الفكرية والسياسية، والسيطرة المعنوية، والعاطفية وهدفاً من أهداف التّفوق، والتّقدّم² رماها الإستعمار بالوهن، وشكّك في قدرتها على مسائر المدنية، وأدخلها في حيرتي الثنائية والإزدواجية (درجة، فصحي)، (درجة، تركيَّة)، (درجة، فرنسيَّة)، (درجة، إنجليزيَّة)، ونسج حولها أوهاماً وجعلها من اللّغات البعيدة المنال، حيث يقضي متعلّموها أعمارهم في تعلّمها³.

وعدّها المستشرق سبيتا (ت1883م) من اللّغات « الصائرة إلى الموت كما وقع للاتينية»⁴؛ ولهذا دعا المجتمع المصري، ومن خلاله المجتمع العربي إلى اعتماد اللهجة المصريَّة في الحياة الاجتماعيَّة والثّقافيَّة، و« ألف كتاباً ألمانياً في صرف هذه اللُّغة العربيَّة المصريَّة، ونحوها (...)، وجمع كتاباً أيضاً في الأمثال العامّة وقصصاً في اللُّغة العربيَّة المصريَّة، وترجمها إلى اللُّغة الفرنسيَّة»⁵.

وكثرت الصّحف، واتّخذوها منابر ثقافيَّة عبّروا من خلالها عن آرائهم، وأفكارهم، وتصدوا لمن وقف في وجهه من أراد مسح ونسخ مقوّمات الأُمَّة من دين ولغة وتاريخ، فكثرت بحوثهم في شتى ميادين المعرفة دينيَّة وفكريَّة ولغويَّة، فكان « للرّعيّل الأوّل من نوابغ لبنان في القرن

1 - الدكتور محمد الجابري: أضواء على مشكل التّعليم بالمغرب، دار النّشر المغربيَّة، الطّبعة الأولى، الدّار البيضاء، المغرب: (د.ت): 31.

2 - ضبيان نشأة: حركة الإحياء اللّغوي، (د.ط)، دمشق: 1976م: 10.

3 - للإطّلاع على أوهام الأوربيين والرّد عليها: ينظر: الأستاذ السيّد يوحنا اهنتين كرسكو الفينلندي: « نفي أوهام الأوربيين في صعوبة تعلّم اللُّغة العربيَّة»، عزبها الأرشيمندريت تومادييو المعلوف. المجمع العلمي العربي، دمشق: تشرين الثّاني سنة 1924م الموافق: ربيع الثّاني سنة 1343هـ: 483/4-492.

4 - الدكتور محمد الكتّاني: الصّراع بين القديم والجديد في الأدب العربي، دار الثّقافة، الطّبعة الأولى، المغرب: 1403هـ- 1982م: 759/2.

5 - محمّد رشيد رضا: « صدمة جديدة على اللُّغة العربيَّة». المنار، مجلة شهريَّة، مطبعة المنار، الطّبعة الثّانية، مصر: سنة 1315هـ سنة 1316هـ: 120/1.

التاسع عشر، كالبستاني، وسركيس، واليازجي، أثر كبير في الوعي الصحافي، وإعداد الجيل لهذه الرسالة التي اتجه إليها كثير من حملة الأقلام، ولم يكن فيهم من لا يتقن العربية، فكانت صحفهم صورا للعصر الذي عاشوا فيه، متقنين في حب اللغة العربية، والتبحر في أدبها وعلومها¹.

ثم بدأت الصحف تنثر مع بداية العقد الثاني من القرن التاسع عشر في البلاد العربية، فصدرت في مصر أول جريدة رسمية، وهي (الوقائع المصرية) سنة 1828م، وفي الجزائر صحيفة (المبشر) سنة 1847م²، وفي بيروت صحيفة (حديقة الأخبار) سنة 1858م، وجريدة (الرائد) في تونس سنة 1861م، ثم توالى الصحف منذ مطلع القرن العشرين في البلاد العربية جميعها³.

والواقف على المواضيع التي أثارها المجالات والصحف، ابتداء من هذه الفترة إلى غاية النصف الثاني من القرن العشرين، خاصة ما له علاقة بقضايا اللغة العربية، يزداد يقينا أن هذه المنابر الثقافية كانت غفلا عند الكثير من الباحثين المعاصرين⁴، فالباحثون المعاصرون المهتمون بالخطابين اللغوي والفكري لهذه الفترة، أولوا أهمية بالغة للكتب التي ألفت في هذه

¹ - محمد بديع شرف: دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، (د.ط.)، القاهرة: (د.ت): 519.

² - الصحف التي صدرت في الجزائر كثيرة، صنّفها الباحث الدكتور محمد بن سميحة حسب توجهاتها وأهدافها إلى ثلاثة أنواع: صحف إستثمارية توجهها ولسانا - صحف إستثمارية توجهها وأهلية لسانا - صحف وطنية.

ينظر: الدكتور محمد بن سميحة: في الأدب الجزائري الحديث النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر - مؤثراتها - بدايتها - مراحلها، مطبعة الكاهنة، (د.ط.)، الجزائر: 2003م: 43، 44.

³ - ينظر: الدكتور محمد ناصر: «الصحافة العربية الجزائرية والاستعمار الفرنسي». الثقافة، وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، السنة الرابعة محرّم - صفر 1394 هـ - فيفري - مارس 1974م: 67/19 - 74.

- عمر بن قصيصة: أضواء على الصحافة التونسية (1860م - 1970م)، دار بو سلامة للطباعة والنشر، (د.ط.)، تونس: (د.ت): 180.

- الدكتور محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، تطورها، أعلامها، من 1903م إلى 1931م.

⁴ - ومن أسباب هذه الغفلة: كثرة المجالات والصحف وانتشارها في البلاد العربية بحيث يصعب الوصول إليها من قبل الباحثين، وعودتهم إليها لا تكون إلا في إطار دراسة قضية من قضايا اللغة العربية التي درسها لغويو ومفكرو هذه المرحلة.

المرحلة¹، ولم يأت حديثهم عن هذه المنابر إلاّ عرضاً؛ ولهذا جاءت أحكامهم عامّة في حقّ رواد هذه الفترة وإنتاجهم اللغوي والفكريّ.

وبعودتنا إلى بعض مؤلفات الباحثين المهتمّين بهذا الخطاب اللغوي في هذه المرحلة، نتأكّد أنّ بعض الأحكام لازالت بحاجة إلى إعادة النظر وتعميق البحث، فهذا مصطفى غلفان يحدّد مميّزات الكتابة النهضويّة من خلال مجلّتين فقط، مجلة المجمع العلمي بدمشق، ومجلة مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، يقول في مبحث تحت عنوان (وضعيّة البحث اللغوي العربي في بداية النهضة): « تميّزت الكتابة اللغويّة النهضويّة ما بين نهاية القرن التّاسع عشر ومنتصف العشرين بالبحث في الوسائل الكفيلة بتتمية اللّغة العربيّة، وجعلها مسايرة لما يطرأ على الحياة العربيّة من جديد في شتّى مناحي العلم والعرفان. واهتمّ لغويو هذه الفترة بدراسة بعض هذه الوسائل من إشتقاق وتعريب ودخيل وقياس². كما عكست الأدبيّات اللغويّة الصّادرة في هذه الحقبة إنشغال المفكرين والمتّفقّين والأدباء جميعهم بتتمية اللّغة العربيّة، كما يظهر في موضوعات الأعداد الأولى من مجلّتي المجمع العلمي بدمشق، ومجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة³.

الباحث قد لا يجاري مصطفى غلفان في الحكم العامّ الذي أطلقه في حقّ الأعداد الأولى من تينك المجلّتين، فالواقف على العناوين التي تضمّنتها المجلّتان يتحقّق أنّ الإهتمام بتتمية اللّغة العربيّة لم يكن الإنشغال الوحيد لدى مفكّري ولغويي هذه الفترة، بل شغلهم قضايا

¹ - من الكتب التي إهتمّت بهذا الجانب: الدكتور مصطفى غلفان: اللسانيات في النّقافة العربيّة الحديثة حفريات النشأة والتكوين، شركة النّشر والتوزيع المدارس، الطّبعة الأولى، الدار البيضاء: 1427هـ-2006م.

-الدكتور إسماعيل علوي: اللسانيات في النّقافة العربيّة المعاصرة -دراسة تحليليّة نقدية في قضايا التلقّي وإشكالاته، دار الكتاب الجديد المتّحدة، الطّبعة الأولى، بيروت: 2009م.

² -قال الباحث في الهامش: «لعلّ أشهر من كتب في هذا الموضوع (...) محمد حسين الخضر صاحب كتاب (القياس في اللّغة العربيّة) نشر بالقاهرة سنة 1903». الباحث جانب الصّواب في نقطتين، الأولى في إسم الشّيخ محمد الخضر حسين، والثّانية في سنة نشر الكتاب.

³ -المرجع السّابق: 10.

أخرى، فماذا نقول في العناوين الآتية التي سقتها من مجلتي المجمع العلمي بدمشق، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، منذ نشأتها إلى بداية النصف الثاني من القرن العشرين، أي سنة 1958م؟¹

مجلة المجمع العلمي بدمشق الأعداد: 1-3-2-4-6-9-11-19.	مجلة اللغة العربية بالقاهرة الأعداد: 1-3-4-8-9-10.
العربية العصرية ونقد مطبوعات الإفرنج.	في تناظر العربية واليونانية.
اللغة والدخيل.	بعض إصطلاحات يونانية في اللغة العربية
الوضع والتعريب.	الألفاظ العربية في اللغات الإسلامية غير العربية.
نفي أوهام الأوروبيين في صعوبة تعلم العربية.	التعادل الثقافي بين العربية ولغات الغرب.
إفتقار اللغة العربية إلى كلمات جديدة.	تيسير الكتابة العربية.
أقرب الطرق إلى نشر الفصحى.	تيسير الهجاء العربي.
العربية أم اللغات السامية.	أثر اللغات السامية في اللغة العربية.

تبديل الحروف العربية.	دراسة في اللهجة المصرية.
إستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية.	اللهجة العربية العامية.
مشروع كتابة الحركات بحروف عربية.	بين الفصحى ولهجاتها.
الألفاظ الحبشية في اللغة العربية.	لغتنا في أزمة.
تأثير اللغة العربية في اللغات الأوروبية.	أصل من اللهجات العامية.

¹ -المواضيع التي سقتها من مظانها كتبها عرب ومستشرقون، ولم أذكر البحوث التي كتبها الشيخ محمد الخضر حسين.

ألفاظ عربيّة في اللّغة الأرمينيّة.	طريقة لكتابة نصوص اللّهجات العربيّة. الحديثة بحروف عربيّة.
العربيّة واللاتينيّة.	
تأمّلات عامّة في اللّهجات العربيّة.	

الفصيح والمولّد في كلام أهل الغوطة.
هل وقت العربيّة بغرضها؟
التحت والاختزال.
اللّغة العلميّة.

ثمّ إنّ عدم الإهتمام بهذه المنابر لدراستها وتحليلها فوّت الفرصة على الباحثين المعاصرين في الوقوف على طريقة تفكير لغوي ومفكّري هذه الفترة، والقضايا التي شغلهم، والمنهج المتبع، والأدوات المستخدمة في تحليل القضايا اللغويّة والفكريّة؛ حتّى يتمكّنوا من تحقيق هدفين، أولهما معرفة إلى أيّ مدى استثمر هؤلاء المنجز التّراثي ووظّفوه في مناقشة القضايا والمسائل المطروحة، وفي الوقت نفسه إدراك مدى تلقي الخطاب اللغوي العربي لنظيره الغربي.

وثانيهما الوقوف على حقيقة أعمالهم وتقييمها؛ لنتمكّن، وفي إطار التسلسل الفكري، من مواصلة العمل من النّقطة التي توقّفوا عندها، ولا نبقي أسيري تلك القضايا التي طرحوها نردّها، ونعيد الأسئلة نفسها، ولا نسير بالعربيّة قدما لحل المسائل اللغويّة العالقة، ونثبت في الوقت نفسه أنّ العربيّة قادرة على مسايرة عصرها، وبإمكانها أن تدخل في حوار مع اللّغات الأخرى، وتتخذ لنفسها مكانة تمكّنها من الانتقال من خصوص العربيّة إلى عموم اللّغات.

وبعد أن بيّنت أنّ هذه المنابر كانت غفلا عند الكثير من الباحثين المعاصرين؛ وأنهم لم يولوها الأهمية اللائقة بها، وبهذه الغفلة يكون هؤلاء قد فوتوا علينا الفرصة في الوقوف على حقيقة البحث اللغوي في هذه المرحلة، سأقف الآن عند مسألة مهمة تفرضها قراءات بعض كتب هؤلاء الباحثين المعاصرين الذين تناولوا هذه المرحلة، فقارئها لا يكاد ينهيها إلا وأسئلة حضارية تفرض نفسها عليه، لم لقيت بعض أسماء رواد هذه المرحلة الإهتمام والدراسة في حين لم يهتم بأسماء أخرى كان لها حضور مميّز في تناول المسائل اللغوية خاصة والفكرية عامة؟

برزت خلال هذه الفترة، في مشرق البلاد العربية ومغربها، أسماء لمتقّين ولغويين كان لها الدور البارز في دفع الحركة الثقافية عامة، واللغوية خاصة، فحظيت طائفة من هذه الأسماء بالإهتمام من طرف الباحثين المعاصرين المهتمّين بالخطابين الفكري واللغوي، وكثرت الدراسات حولها¹، في حين لم تلق طائفة أخرى إهتماما ذا بال يعول عليه²، وجاءت أسماء الطائفة الثالثة في بحوث بعض الباحثين إستثناسا، وهذا الإستثناس لا يجعل ذكرها يرقى إلى أن نحكم عليها³، بينما إنشطرت أسماء الطائفة الرابعة، وخاصة من وصفوا بالموسوعيين، بين من يصنّفها تارة في حقل معرفي معيّن، وتارة أخرى في حقل آخر، بل يصل إسم الشخصية إلى تصنيفها في أكثر من حقلين⁴.

1 - من أمثال: رفاعة الطهطاوي، جرجي زيدان.

2 - من أمثال: الشيخ طاهر الجزائري (ت 1920م). قال محمد علي كرد في حقّ هذا الإمام في مقال ينشره تحت عنوان: "الشيخ طاهر الجزائري": «وكان إماما في علوم الأدب كلّها، يحسن من اللغات العربية والتركية والفارسية، ويعرف مبادئ الإفرنسية والسريالية والعبرائية والحبشية والزواوية». مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق: 21 ربيع الثاني سنة 1339هـ الموافق كانون الثاني سنة 1921م: 20/1.

3 - خاصة الذين يكتبون مقالات قليلة العدد؛ ولكنها ذات بال في الفكر اللغوي العربي الحديث، ومراسلي الجامعات اللغوية، وأخصّ بالذكر هنا محمد المكي بن الحسين (ت 1963م)، وله ثمانية كتب في اللغة، وهو أخ الشيخ محمد الخضر حسين.

4 - من أمثال: الشيخ الطاهر ابن عاشور، ومحمد الخضر حسين.

وننتج عن تلك القراءة أن علقنا بأذهانها أسماء لا تكاد تفارقنا، ونحن نقرأ مؤلفات هؤلاء الباحثين المعاصرين، في حين غابت عنا أسماء أخرى، وكان من المفروض أن تكون حاضرة، ولم تلق الثالثة المستأنس بأسمائها أهميّة تذكر عند الباحثين، وكان مصير الرابعة أن تعددت رؤى الباحثين حولها، في الحقل الذي تضمّ إليه، فكثرت الكتابة حولها، ولا زالت، وهذا راجع إلى الخلفيّة المعرفيّة التي ينطلق منها الباحث في حقّ هذه الشّخصيّة أو تلك.

وهذا المسلك يجعل قراءة المعاصرين لجهود أولئك، قراءة مبتسرة، فيها إستعجال لا تعطينا صورة صادقة عن جهود كلّ شخصيّة، والقضايا التي شغلتها، وطرق معالجتها لها، وبالتالي نعرف أين إنتهى البحث عند كلّ شخصيّة، ونتصوّر في الوقت نفسه من أين نبدأ نحن لنواصل العمل. لا ننفي أن البحث في كلّ شخصيّة، أنّه جهد مضمّن، ولكن يبقى أمرا مفروضا على الباحثين، متى أحسنا أنّ الهدف الذي ننشده من وراء هذه القراءة، لا يتحقّق بالمجازفة وإرسال الأحكام وكثرة التعميمات في حقّ هؤلاء الذين عاشوا في هذه الفترة، وإنّما يتحقّق هدفنا بقدرتنا على الوقوف على تراثهم، لتحليله ودراسته، وتقييمه، وتقويمه.

لا ننكر أنّ جهودا بدأت، في الآونة الأخيرة، تهتمّ بأعمال مجموعة من لغويّ ومفكّري هذه الفترة، أو التي تتلوها بقليل، والنّاظر في هذه الأبحاث يمكن أن يصنّفها إلى ثلاثة أصناف، صنف جاءت أبحاثهم في شكل مقالات، منها: "مجالس أحمد تيمور" لأحمد الجندي¹، و(جهود ابن كمال باشا في اللّغة العربيّة)². والثاني تناولها ضمن ملتقيات، وهذا ما نسجّله في الملتقى الدولي في بيروت تحت عنوان (إسهام الكتاب اللّبناني في الدّرس اللّغوي العربي. المداخلات، والأبحاث، والتوصيات)³.

1 -مجلة العربي، الكويت، العدد الزابع : 1974م: 30.

2 -مجلة المجمع العلمي العراقي:ج:1/38

3 -من عناوين بعض المداخلات ما يلي: جهود اللّسانيّين اللّبنانيّين المحدثين في تمكين الدّرس اللّساني العربي. التّخطيط والتّصويب اللّغويّين عند أنستانس الكرمل. طلائع الدّرس اللّغوي المقارن عند جرجي زيدان. البحث اللّغوي في لبنان من خلال كتاب أمين نخلة: الحركة اللّغويّة في لبنان في الصّدر في الصّدر الأوّل من القرن العشرين.

والتأثت خصّها بكتب، تناولت هذه الفترة، وهذا ما نجده عند أمين نخلة في كتابه (الحركة اللغوية في لبنان في الصدر الأول من القرن العشرين)، ورياض قاسم في مؤلفه (اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي لبنان 1901 - 1960)، ومحمد ضاري حمادي في كتابه (حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث)، ومحمد هشام بوقمرة في الجزء الأول من كتابه (القضية اللغوية في تونس. القضية اللغوية في إطار الفكر الإصلاحي والدعوة إلى الأدب القومي)، ومصطفى غلفان في كتابه (اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة. حفريات النشأة والتكوين)، وحيدر محمد جبر في كتابه (البحث اللساني الحديث في العراق في النصف الثاني من القرن العشرين)، ووفاء كامل فايد في الجزء الأول من كتابها (المجامع العربية وقضايا اللغة من النشأة إلى أواخر القرن العشرين).

أو خصت الدراسة شخصية ما، وهذا ما نلفيه عند محمد فريد عبد الله في كتابه (عبد القادر المغربي وآراؤه في اللغة والنحو)، وأحمد الشريني في كتابه (رشيد رضا: عصره وحياته وجهوده الأدبية واللغوية)، ورسالة دكتوراه للباحث الجزائري محمد بننبري (التكثير اللغوي عند الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور)، وحينما نقف عند الكثير من هذه الدراسات التي ذكرت عناوينها من قبل، يتبادر إلى أذهاننا سؤال، هل الباحثون المعاصرون، وهم يتناولون هذه المرحلة في حضورها اللغوي، على وعي تامّ بالنظرة الشمولية، التي لا تقصي هذه الشخصية أو تلك، أو تتحاز إلى بلد دون آخر؟

ومشروعية هذا السؤال تستمدّ ممّا يقوله بعض الباحثين من أمثال مصطفى غلفان، وحافظ إسماعيل علوي، فهذا الأخير يرجّح أنّ المعتقد الديني كان سببا في نبذ آراء ومواقف بعض لغويي هذه المرحلة من أمثال جرجي زيدان، ومرجومي الدومينيكي¹، بينما يشير الباحث

ينظر: مجموعة من الباحثين: إسهام الكتاب اللبناني في الدرس اللغوي العربي. المداخلات، والأبحاث، والتوصيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، (د.ط)، بيروت: (د.ت): 105-227-239-251.

¹ -الدكتور حافظ إسماعيل العلوي: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة -دراسات تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته-

الأول إلى أن أعمال جرجي زيدان لم تلق مكانتها في الدرس اللغوي العربي الحديث، ولم يثبت لها السبق التاريخي في إدخال مبادئ المنهج المقارن إلى الثقافة العربية الحديثة¹.

الباحثان يشيران إلى مسألة هامة جدًا، وخطيرة في الوقت نفسه، متى علمنا أن النظرة الشمولية التي لا تفصي ذلك، ولا تتحيز لهذا، وتتأى عن التعميمات، وتطرح الذاتيّة، وتعول على الموضوعيّة، هي نظرة يصل فيها الباحثون إلى نتائج تعود على البحث العلمي بالفائدة. وفي هذه المسألة التي أبتليت بها الدراسات اللغوية العربية المعاصرة في حق لغوي ومفكري هذه المرحلة بإعلائها بعض الأسماء، وتغييب بعضها الآخر، والإنتصار لإتجاهات لغوية على حساب إتجاهات أخرى، وإظهار لكل جديد، ونبد لكل قديم، نقول: إذا كنا نريد دراسة هذه الفترة لمعرفة حقيقة المسألة، فعلينا ألا نقصي أي طرف شارك في صناعة هذا الخطاب اللغوي، من عرب ذوي ديانات مختلفة، أو أديولوجيات متباينة، أو مستشرقين، مع التركيز على مظان هذه الآراء، سواء أكانت كتبًا طبعت أم مقالات نشرت أم محاضرات أقيمت أم مناظرات أذيعت.

وأصبح الباحث الواحد في هذه الفترة، كمن يريد أن يروم شيئاً مستحيلًا؛ لأن الإمتداد الزمني الطويل لهذه الفترة من أواخر القرن التاسع عشر إلى أوائل النصف الثاني من القرن العشرين، والظروف السياسيّة والاجتماعيّة التي مرّ بها العالم العربي، والتي كانت وراء تحديد بعض معالم الخطاب اللغوي العربي الحديث، وتنوع القضايا اللغوية المطروحة، وكثرة البحوث في هذا المجال، وتباين أهدافها، وصعوبة وصول الكثير من المظان إلى أيدي الباحثين، كل ذلك وغيره كان وراء عزوف الكثير من الباحثين عن تناول هذه المرحلة.

وجاء في الهامش من الصفحة نفسها قوله: "من هؤلاء المرمجي والدومينيكي وغيرهم"، وكتابة الواو بين الإسمين دلّت على أنهما شخصان، وعبارة غيرهم توحي إلى ذلك. وهنا جانب الباحث الصواب؛ لأن المرمجي الدومينيكي شخص واحد.

¹ -ينظر: مصطفى غلفان: اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة حفريات النشأة والتكوين: 45.

ولكنّ اليوم، وفي إطار العمل الجماعيّ ضمن المشاريع التي تتبناها الجامعات والمؤسسات العلميّة، يمكن أن تزول هذه الصّعوبات، ويتناول الباحثون هذه الفترة تناولا علميا يعطينا صورة صادقة عن هذا الخطاب، صورة لا تنتصر لشخص دون آخر، ولا لمذهب على حساب آخر، ولا لبلد على الثاني، صورة تتوارى فيها الداتية، وتتجلى الموضوعية، وتتفي النظرة الجزئية، وتحلّ النظرة الشمولية.

2-دوافع الخطاب اللغوي العربي الحديث وقضاياها:

بعد أن كشفت عن الخلفية السوسيوثقافية التي أنتجت الخطاب اللغوي العربي الحديث، صار أمرا ملحا للبحث في دوافع هذا الخطاب اللغوي، وقضاياها. إذا ما الدوافع الكامنة وراء وجود هذا الخطاب؟ وما القضايا اللغوية التي شغلت لغويي ومفكري هذه الفترة؟

أ-دوافعه:

النّاظر في دوافع البحث اللغوي العربي عند المحدثين يلفيها دافعين إثنين، دافع ديني، وآخر قومي. فالدافع الديني الذي سأحدّث عنه لا يمسّ بطريقة مباشرة مؤسسي هذا الخطاب جميعهم، وإنما يمسّ طائفة منهم، وأقصد الذين يدينون بالدين الإسلامي، فالمحافظة على اللغة العربيّة عند هؤلاء هو المحافظة على القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربيّ مبين؛ ولهذا إنبرى الكثير منهم يدافعون عن اللغة العربيّة من هذا المنطلق.

وتزداد حيرة الباحث في هذه المسألة إذا نظر إلى تراث هؤلاء، وإلى الأهداف التي أنشئت من أجلها المؤسسات العلميّة الجديدة، وأقصد المجامع اللغوية حينما لا يعثر بشكل صريح معن عنه، ومتلفظ به، عن هذا الدافع، المتمثّل في المحافظة على القرآن وفهم أسراره، ولكن إذا وقفنا عند بعض العناوين، وبعض الآراء، إكتشفنا أنّ هذا الدافع لم يكن غائبا عن تفكير الكثير من هؤلاء الرّواد، وإنما غاب التّصريح به في نصوص مراسيم إنشاء هذه المؤسسات

العلمية¹، وأرجح عدم التصريح بهذا الدافع، هو رفع الحرج الذي سيقع فيه الباحثون العرب وغيرهم من الذين يدينون بالديانة المسيحية، أو بعض المستشرقين الذين هم أعضاء في هذه المجامع.

وأما الدافع القومي فيتمثل في أنّ مفكري ولغوي هذه الفترة، تعلّقوا باللغة العربية، وشغلهم، وأضحت المحور الأساسي في تفكيرهم، لثلاثة أسباب، يرجع السبب الأول إلى اليوم الذي اهتمّ فيه الآخر بهذه اللغة وبلهجاتها، فشجّع على فتح مؤسسات في بعض العواصم الغربية والشرقية؛ للاهتمام بها، وكان ذلك « في إيطاليا سنة 1727م، و1888م، وفي النمسا 1754م، وفي فرنسا سنة 1759م، وفي روسيا سنة 1909م »².

زيادة على اهتمام المستشرقين بالخطاب اللغوي العربي، فلم تقتصر جهود هؤلاء على دراسة اللغات الهندية- الأوروبية فقط، بل تعدى عملهم إلى دراسة اللغات السامية، وهذه التسمية أطلقها شلوتسر (ت1798م) على اللغات: العبرية والعربية والآرامية والحبشية³، تمّت توالد الدراسات التي اهتمت باللغات السامية عامة، وباللغة العربية خاصة، وأذكر هنا جهود ليتمان في جمع الكثير من النقوش لدراسة الحروف الأبجدية الصّفوية، وألف كتاباً سنة 1901م في هذه المسألة⁴.

¹ - ينظر مثلاً: مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة: 6/1، 7 - 22.

² - الدكتور موسى بناي: "أسباب إنتشار العامية وموقف جماعة من المستشرقين ومناصريهم منها". آداب الزافدين، تصدر عن كلية الآداب، العدد الثامن: 24 شعبان 1397هـ - 10 آب 1977م: 409.

³ - محمود فهمي حجازي: أسس علم اللغة، (د.ط)، القاهرة: 1979م: 135.

والذي نلاحظه عند بعض الباحثين المستشرقين رفض هذه التسمية " اللغات السامية "؛ لأنّ الباحث شلوتسر إنطلق من تقسيم التّورة للشعوب وفق أبناء نوح إلى ثلاثة أقسام: سام، وحام، ويافت، ورأى كارل بروكلمان خطأ هذه التسمية؛ لأنّ الإنتماء إلى لغة ما لا يكون على أساس الإنتماء العرقي.

ينظر: كارل بروكلمان: فقه اللغات السامية، ترجمة رمضان عبد التّواب، (د.ط)، الرياض: 1979م: 33.

⁴ - رمضان عبد التّواب فصول في فقه العربية: 51.

ثم توالى الجهود، كما يشير إلى ذلك إسماعيل عميرة في كتابه (المستشرقون والمناهج اللغوية)، في دراسة اللغات السامية، فقام شلوستر بمقارنة العبرية باللغة العربية، ثم ألف لاجارد وبارث كتابيهما (بحوث في أبنية الأسماء السامية)، وظهر عام 1913م كتاب كارل بروكلمان (الأساس في النحو المقارن للغات السامية)، وبحلول عام 1928م نشر بيراجشترسير كتابه تحت عنوان (المدخل إلى اللغات السامية)¹. ويزداد الإهتمام بقضايا العربية يوم أنتدبت مجموعة من المستشرقين إلى التدريس بمصر، وكان ذلك سببا في دفع الكثير من مفكري ولغويي هذه الفترة إلى البحث عن سرّ إهتمام الآخر بهذه اللغة وبلهجاتها.

والسبب الثاني يرجع إلى اليوم الذي جعل فيه الإستعمار اللغة على هامش النسق الثقافي والحضاري، ورمها بالتأخر والموت وعدم مسايرة المدنية. ولهذين السببين نالت اللغة العربية من الإهتمام ما لم ينله أيّ «قطاع من قطاعات الفكر العربي المعاصر (...). فقد كانت البؤرة الضخمة للعمل الفكري كله في ميدان الصراع بين مقومات الفكر العربي، وبين عمليات التغريب الضخمة التي قام بها الإستعمار من أجل القضاء على عوامل الوحدة والمقاومة، والصورة ذات الملامح الواضحة للشخصية العربية ممثلة في اللغة العربية»².

فأحس مفكرو ولغويو هذه المرحلة بضرورة البحث عن السبل الكفيلة بالتهوض باللغة العربية؛ لإرجاعها إلى ممارسة حضورها من جديد، فكثرت البحوث في جوانب كثيرة، مسّت العربية في وضعين، خارجي وداخلي، فالوضع الخارجي إنصبت دراساته في علاقة العربية باللهجات واللغات الأجنبية، والوضع الداخلي إهتم بالعربية من حيث قواعدها وكتابتها.

وأما السبب الثالث فيبدأ يوم إطلع بعض مفكري ولغويي هذه المرحلة على ما يبذله الآخر من جهود في الميادين جميعها بصفة عامّة، والميدان اللغوي بصفة خاصّة، وأذكر هنا صنفين، صنف زار المدن الغربية في إطار ما يسمّى بالبعثات العلمية، وصنف زار هذه

1 - الدكتور إسماعيل عميرة: المستشرقون والمناهج اللغوية: 50 - 60.

2 - أنور الجندي: اللغة العربية بين حماتها وخصومها، مطبعة الرسالة، (د.ط)، عابدين: (د.ت): 277.

المدن في إطار رسمي، وهذا الصنف يمثل رفاة الطهطاوي، والصنف الأول يمثل إبراهيم مصطفى، وطه حسين، وهؤلاء دعوا إلى تيسير النحو العربي، وتبسيط قواعده على غرار ما تقوم به اللغات الأجنبية كالفرنسية مثلا¹، وتخليص النحو من الشوائب الفلسفية، كدعوة إبراهيم مصطفى إلى إلغاء نظرية العامل، ورفضه تقسيم علامات الإعراب إلى أصلية وفرعية².

وهذان الصنفان أنتجا لنا صنفا ثالثا وقف على نقيض هذه الطروحات، وهم من أطلق عليه بالمحافظين، ومنهجهم في تناول مسائل اللغة العربية لم يخرج عن آراء القدماء، فكانوا يجارونهم، وتركوا العربية على نسقها الذي جاءت عليه، ولكن هذا لم يمنع من أن هؤلاء المحافظين اجتهادات وآراء جديدة في فروع العربية لا في أصولها³.

ورأى هؤلاء الرواد أن الجهود الفردية لا تحقق الهدف المنشود، فدعوا إلى إنشاء مجامع تهتم بقضايا اللغة العربية، فدعا أحمد فارس الشذذدياق (ت1304هـ)، وعبد الله باشا فكري (ت1306هـ)، والشيخ محمد رشيد رضا (ت1354هـ)، ومصطفى صادق الرافعي (ت1356هـ)، والشيخ عبد العزيز البشري (ت1362هـ)، ومحب الدين الخطيب (ت1389هـ) إلى إنشاء مؤسسات تحافظ على اللغة العربية، وتهتم بقضاياها، فكان لهذه الدعاوى صداها، فأنشئ مجمع البكري، ونادي دار العلوم، ولجنة ديوان المعارف، والمجمع الأهلي في دار الكتب⁴.

1 - وهذه دعوة رفاة الطهطاوي.

2 - ينظر: إبراهيم مصطفى: إحياء النحو، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (د.ط)، القاهرة: 1959م: 20.

3 - من أمثال هؤلاء: علي كرد، عبد القادر المغربي.

4 - للتفصيل في هذه المسألة ينظر: خالد بن سعود العصيمي: القرارات النحوية والتصريفية لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار التدمرية، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية: 1424هـ-2003م: 19-26.

ومع أواخر العقد الثاني من القرن العشرين أنشئ مجمع اللغة العربية العلمي بدمشق عام 1919م، ثم تلاه مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 1932م، ونصّ مرسوم إنشاء المجمع الأخير على أن الأهداف التي ينشدها:

أ- أن يحافظ على سلامة اللغة العربية، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون وتقدمها، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر، وذلك بأن يحدّد في معاجم، أو تفاسير خاصّة، أو بغير ذلك من الطرق، ما ينبغي استعماله أو تجنّبه من الألفاظ والتراكيب.

ب- أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية، وأن ينشر أبحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغيّر مدلولاتها.

ج- أن ينظّم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية.

د- أن يبحث كلّ ما له شأن في تقدّم اللغة العربية، ممّا يعهد إليه فيه بقرار من وزير المعارف العموميّة.¹

ب- قضاياها:

الناظر في قضايا الخطاب اللغوي العربي الحديث، والأسئلة المعرفية التي شغلت مفكّري ولغويي هذه الفترة، والخلفية التي إنطلقوا منها، وأطراف السّجال، يمكن له أن يقف عند حقيقة المسألة، وينأى عن التعميمات وإرسال الأحكام في مجمل هذه القضايا؛ ولتحقيق هذا المسعى ارتأيت أن أذكر بعض العناوين سواء ما نشر في بعض المجلات²، واهتمت بالخطاب اللغوي العربي وقضاياها، أم جاءت في شكل محاضرات، أم كتب.

¹ -مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة: 1/ 6، 7.

² -وتبدأ هذه المقالات من إنشاء المجلة إلى غاية سنة 1958م، وهي السنة التي توفي فيها الشيخ محمد الخضر حسين. ولم أذكر مقالاته، وأجلتها حينها.

1-مجلة الفتح لمنشئها محب الدين الخطيب¹:

-تفوق العربية على جميع لغات الدنيا: المطران يوسف داود.

-عبد العزيز فهمي باشا واللغة العربية: أحمد محمد شاكر.

-اللغة العربية وما ينتظر أن يكون لها من تأثير في نهضتنا الفكرية والعمرائية وحياتنا القومية : محب الدين الخطيب.

-اللغة العربية في مدارس الحكومة المصرية: الأستاذ زكي غانم.

2-مجلة المنار لمنشئها محمد رشيد رضا²:

-صدمة جديدة على اللغة العربية: محمد رشيد رضا.

3-مجلة البيان³:

-تمصير مصر (الإفتاحية) لرئيس التحرير.

4-مجلة لواء الإسلام⁴:

-اللغة العربية والإسلام: محمد عبد الجواد.

5-المجمع العلمي العربي، دمشق⁵:

¹ -مجلة الفتح لمنشئها محب الدين الخطيب، الأعداد: 556 (العام الثاني عشر). 811-813-816-817-822) العام السابع عشر).

² -المنار لمنشئها السيد محمد رشيد رضا، مطبعة المنار، الطبعة الثانية، مصر، سنة 1315هـ وسنة 1316هـ: 120/1-128.

³ -مجلة البيان، سؤال وذو القعدة 1331هـ، السنة الثانية، نوفمبر 1912م: العدد: 8 و9 : 405-418.

⁴ -مجلة لواء الإسلام، أول رمضان 1366هـ-19 يوليو 1947، السنة الأولى: العدد: 1: 55-57.

⁵ -مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق: الأجزاء: 1-2-3-4-6-9-11-19.

- اللّغة والدّخيل فيها: سعيد الكرمي.
- الوضع والتّعريب: عيسى إسكندر المعلوف.
- نفي أوهام الأوروبيين في صعوبة تعلّم العربيّة: يوحنا اهنتين كرسكو الفنلندي.
- إفتقار اللّغة العربيّة إلى كلمات جديدة: الخوري مارون غصن.
- أقرب الطّرق إلى نشر الفصحى: عبد القادر المغربي.
- العربيّة أمّ اللّغات السّاميّة : السيّد محمّد بدر الدّين العلوي.
- تبديل الحروف العربيّة: الأستاذ إلياس بك قدسي لبيدي .
- إستبدال الحروف العربيّة بالحروف اللّاتينية: فارس الخوري.
- مشروع بكتابة الحركات بحروف عربيّة وإستعمال أبجديّة واحدة للطّبع والكتابة: زهير الشّهابي.
- تأثير اللّغة العربيّة في اللّغات الأوروبيّة: محمّد أمين محرز.
- ألفاظ عربيّة في اللّغة الأرمنيّة: أ.أ.بيان.
- العربيّة اللّاتينيّة : شفيق جبري.
- الفصيح والمولّد في كلام أهل الغوطة: علي كرد.
- هل وقتّ العربيّة بغرضها؟: محمّد كرد علي.
- 6-مجلّة مجمع اللّغة العربيّة، القاهرة¹:

¹ -مجلّة مجمع اللّغة العربيّة، القاهرة: الأجزاء: 1-3-4-6-8-9-10. وكثر البحث في المصطلحات إبتداء من الجزء ين: الثّالث والرّابع.

- في تناظر العربية واليونانية: الأب أنستاس ماري الكرمللي.
- بعض اصطلاحات يونانية في اللغة العربية: الأستاذ بندلي جوزي.
- الألفاظ العربية في اللغات الإسلامية غير العربية: الدكتور عبد الوهاب عزّام.
- الثنائية اللغوية والألسنية السامية: مرجمي الدومينيكي.
- رأي في الإعراب بالحركات: إبراهيم أنيس.
- التعادل الثقافي بين العربية ولغات الغرب: الأستاذ ل. فماسينوس.
- في أصول النحو : إبراهيم مصطفى.
- مذاهب الإعراب: إبراهيم مصطفى.
- تيسير الهجاء العربي: أحمد الإسكندري.
- أثر اللغات السامية في اللغة العربية: عبد القادر المغربي.
- دراسة في اللهجة المصرية: عبد القادر المغربي.
- اللهجة العربية العامية: الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف
- اللهجة العامية في لبنان وسوريا: عيسى إسكندر المعلوف.
- بين الفصحى ولهجاتها: الأستاذ محمد رضا الشيبلي.
- إقتراح ببعض الإصلاح في متن اللغة: أحمد أمين.
- موقف اللغة العربية العامية من اللغة العربية الفصحى: محمد فريد أبو حديد.
- لغتنا في أزمة: أحمد حسن الزيات.

- أصال من اللهجات العامية: عباس محمود العقاد.
- طريقة لكتابة نصوص اللهجات العربية الحديثة بحروف عربية: الدكتور خليل محمود.
- 7-مجلة المجمع العلمي العراقي¹:
- الكرمي وكتابه النقود العربية: الأستاذ يعقوب سرقيس.
- ألفاظ مغولية في اللغة العربية: الدكتور داود الحلبي.
- مبحث في سلامة العربية: مصطفى جواد.
- الفعل والنظام الفعلي في العربية: الدكتور إبراهيم السامرائي.
- التركيب والبناء في العربية: الدكتور إبراهيم السامرائي.
- مصطلحات في علوم الفضاء: الأستاذ شيت نعمان.
- مصطلحات في علوم التربية: الأستاذ شيت نعمان.
- ومن المحاضرات والكتب:
- الفلسفة اللغوية: جرجي زيدان. (1886م).
- اللغة العربية كائن حي: جرجي زيدان. (1904م).
- هل العربية لغة حية؟ للمستعرب شارل نوال. محاضرة عام 1909م في تونس.
- نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها: أنستاس الكرمللي. (1925م).
- فلسفة اللغة العربية وتطورها: جبر ضومر. (1929م).

¹ -مجلة المجمع العلمي العراقي، العراق: الأجزاء: 1-2-3-4-6-7.

- إحياء النحو: إبراهيم مصطفى. (1937م).
 - نشوء اللغة العربيّة ونموّها واكتمالها: أنستانس الكرمللي. (1938م).
 - علم اللّغة: علي عبد الواحد. (1940م).
 - اللّغة والفكر: عبد العزيز القوصي. (1946م).
 - اللّهجات العربيّة: إبراهيم أنيس. (1946م).
 - النحو الجديد: عبد المتعال الصّعيدي. (1947م).
 - الرّد عل النّحاة لإبن مضاء، تحقيق شوقي ضيف. (1947م).
 - اللّهجات العربيّة وأسلوب دراستها: أنيس فريحة. (1955م).
 - مناهج البحث في اللّغة: تمام حسان. (1955م).
 - دراسات نقدية في النحو العربي: عبد الرحمان أيّوب. (1957م).
 - دلالة الألفاظ: إبراهيم أنيس. (1958م).
 - اللّغة والمجتمع: محمود السّعران. (1958م).
- من العناوين التي سقتها من مظائنها، والمحاضرات التي ألقيت، والكتب التي ألّفت في هذه الفترة، يمكن أن أحدّد القضايا اللّغويّة التي شغلت رواد هذه الفترة، وفي الوقت نفسه أتصوّر الأسئلة المعرفيّة التي يمكن أن تُطرح حول هذه القضايا، ثمّ أحدّد أطراف السّجال وأوضّح رؤاهم. إذا ما القضايا التي شغلّتهم، وما الأسئلة التي أثارّتهم، ومن هم أطراف هذا السّجال؟
- إنّ القضايا والمسائل التي شغلت رواد هذه المرحلة، يمكن حصرها فيما يلي:

أ- قضايا إهتمت باللّغة العربيّة، من حيث مشكلات الكتابة العربيّة¹، وتيسير قواعدها، والبحث في مدى قدرتها على مسايرة المدنيّة، وإنتاج المصطلحات العلميّة والتّقنيّة التي تواكب الحضارة، أي الإهتمام بتنميتها، والبحث في أصل ألفاظها هل كان ثنائياً أم ثلاثياً؟

ب- التّشكيك في قدرة الفصحى على الوفاء بمتطلبات العصر، والدّعوة في الوقت نفسه إلى اعتماد اللّهجة المصريّة، وتوحيد باقي الأقطار العربيّة تحت لواء هذه اللّهجة.

ب- ثنائيّة الفصحى والعاميّة، العاميّة واللّغات الأوروبيّة (فرنسيّة، إنجليزيّة)، الإهتمام بتناظر اللّغات العربيّة وغيرها، وهذا يظهر جليّاً في أبحاث أنستانس الكرمللي.

ج- عمليتا التّأثير والتّأثر في اللّغة العربيّة بين اللّغات السّاميّة وبين اللّغة العربيّة واللّغات الأوروبيّة.

د- مكانة اللّغة العربيّة من لغات العالم.

هـ- الصّراع بين دعاة كتابة العربيّة بحروف لاتينيّة، وبين دعاة المحافظة على الحرف العربي.

و- الإهتمام بمستويات اللّغة العربيّة في أصواتها، ونحوها، ودلالة ألفاظها.

ز- الإهتمام بمناهج البحث اللّغوي.

وأما الأسئلة التي أتصوّر أنّهم طرحوها، الناظر إليها يكتشف تقاطع بعضها مع تلك الأسئلة التي طرحها الفكر اللّغوي العربي القديم، والإختلاف يكمن فقط في تنظيم مواقع الأسئلة، ومحاولة إغنائها على المستوى المعرفي، فالعرب قديماً إهتموا بالدّرس اللّغوي؛ لإهتمامهم بالنّص القرآني، وسعيهم لفهمه بالدّرجة الأولى، وليس فقط لحفظه من اللّحن، وشتان بين « علم يسعى لفهم النّص، وعلم يسعى لحفظه من اللّحن، ولو كانت الغاية منه حفظ النّص من اللّحن لما

¹ - هذه المشكلة عالجهما بتفصيل الدكتور نهاد الموسى.

ينظر: الدكتور ناهد الموسى: الثّنائيات في قضايا اللّغة العربيّة من عصر النّهضة إلى عصر العولمة، دار الشّروق للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، عمّان: 2003: 187-218.

أنتج العرب هذه الثروة الضخمة في مجال الدرس اللغوي «¹، وكانت أعمالهم اللغوية كلها تصدر « عن هدفين متصلين غير منفصلين، فأما أولهما فهو هدف ديني، يتمثل في خدمة الإسلام والمحافظة على كتابه الكريم (...). ويرمي الهدف الثاني إلى إبراز الهوية العربية، وتجميع اللسان واللهجات المتفرقة وتوجيهها نحو مسار واحد، يتمثل في لغة عامة أو مشتركة (هي الفصحى) «².

وإهتموا بالعربية حينما اختلطت بلغات البلاد التي فتحوها، وتأثرت بها، ودخلها بعض التحريف على مستوى الأصوات والألفاظ، يقول ابن خلدون (ت808هـ): « إته لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسمّاة، عند أهل النحو، بالإعراب واستتبقت القوانين لحفظها كما قلناه، ثم استمر ذلك الفساد بملاسة العجم ومخالطتهم، حتى نادى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم، ميلا مع هجنة المتعربين في إصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، فاحتجج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين، خشية الدّوس، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمّر كثير من أئمة اللسان لذلك، وأملوا فيها الدواوين «³.

وقادهم حماسهم لها، إلى إظهار جمالها، والكشف عن أسرارها، ودعوة غيرهم من الأمم إلى تعلّمها، يقول ابن جني (ت392هـ): « لو أحست العجم بلطف صناعة العرب في هذه اللغة، وما فيها من الغموض والرّقة والدّقة، لإعتذرت من إعرافها بلغتها فضلا عن التّقديم بها، والتّنويه منها «⁴. كما إهتموا ببعض قضايا اللغة العربية، مثل البحث في نشأتها، وأهم خصائصها، وفي لهجاتها، وفي بعض ظواهرها كظاهرة الإعراب، وفي طرق تيسير نحوها،

1 - الدكتور عبده الرّاجحي: فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية، (د.ط)، بيروت: (د.ت): 35.

2 - الدكتور كمال بشر: التفكير اللغوي بين القديم والجديد، مكتبة الشباب، (د.ط)، المنيرة، القاهرة: (د.ت): 6.

3 - ابن خلدون: مقدّمة ابن خلدون، تحقيق مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى، بيروت: 1428هـ-2002م: 621.

4 - ابن جني: الخصائص.

هذا المطلب الذي انطلق من الأندلس مع ابن مضاء القرطبي في كتابه (الرد على النحاة)، وابن رشد في كتابه (الضروري في النحو).

وحيثما نقوم بمقارنة مسلك القدماء بمسلك المحدثين في تناول هذه القضايا والمسائل، نلمس تقاطعا على مستوى البواعث الحقيقية الكامنة وراء الإهتمام باللغة العربية، فالقدماء شغلهم النصّ القرآني من حيث فهمه وضبطه، والمحافظة عليه، وأمر اللغة العربية بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأمم التي فتحوها، وانتشر فيها الإسلام. فطرحت مسألة الاختلاف في قراءة بعض الآيات في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحتكم إليه، فأجازها وصوبها، وحديث الأحراف السبعة دليل يعضد هذا المنحى، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾¹.

واعتناق الكثير من القبائل العربية الإسلام، بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب، وإقبالها على قراءة القرآن الكريم، وتدبر معانيه، لم تكن موحدة اللهجات، فالتباين بين لهجاتها واضح، وأثره في القراءات القرآنية ظاهر، وهذه القضية لم تطرح في البيئتين المكية؛ لتجانس لغة هذه البيئتين ولغة القرآن الكريم، وإنما طرحت في المجتمع الجديد، وفي البيئات التي انتشر فيها الإسلام؛ ولهذا خفّ عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى جمع الأمة على مصحف، يوم « قدم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه من حرب أرمينية وأذربيجان على عثمان فزعا من اختلاف المسلمين في قراءة القرآن، يقول لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا»².

وإن كان الباعث على جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، هو كثرة الشهداء من حفظة القرآن الكريم يوم اليمامة، وخوفا من أن يستحرّ القتل في القراء، ويضيع القرآن الكريم، فإنّ الباعث عند عثمان بن عفان رضي الله عنه هو شيوع اللحن، وكثرة

¹ - صحيح البخاري ج6: 175.

² - إبراهيم الأبياري: تاريخ القرآن، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثالثة، القاهرة، بيروت: 1411هـ - 1991م: 104.

الإختلاف في القراءة، ومن أهم خصائص المصحف الذي جمعه أبو بكر الصديق هو إشتماله على الأحرف السبعة التي نزل القرآن الكريم بها تسهيلا على الأمة¹.

في حين إقتصر عثمان بن عفان رضي الله عنه على حرف قريش وحده، يقول الحارث المحاسبي رحمه الله: « المشهور عند الناس أنّ عثمان جامع القرآن، وليس كذلك إنّما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على إختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار لما خشي الفتنة عند إختلاف أهل الشام والعراق في حروف القراءات، فأما ما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الأحرف السبعة التي أنزل بها القرآن فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق²».

ثمّ أضحت الحاجة ملحة إلى ضبط يحفظ النصّ القرآني من القراءة الملحونة، وطال تفكير المسلمين في هذه المسألة، واهتدوا إلى ما أصطلح عليه بنقط الإعراب، ونقط الإعجام، فظهر المصطلح الأوّل على يد أبي الأسود الدؤلي (ت 69هـ)، بعد مشاورته علياً رضي الله عنه، وجمع من العلماء، فاهتدوا إلى حلّ المسألة المطروحة بإيجاد نقط الإعراب الذي إرتآه أقرب الحلول لينقّط القرآن، بينما ظهر المصطلح الثاني على يد أبي الأسود نصر بن عاصم (ت 89هـ)، ونقطت المصاحف بهذا النقط الذي نراه في الكتابة حتّى هذا اليوم³. ويوم شغلهم أمر تباين عربيّة الناطقين بها، لجأوا إلى التفكير في توحيدها تحت لهجة موحّدة.

وأما المحدثون فهالهم وضع اللّغة العربيّة يوم رأوها « علامة معطّلة لا تؤدّي أداء مفيدا مضمون النهضة الجديدة⁴»، بعد أن وضعتها الظروف الإستعماريّة على هامش النسق الثقافي الحضاري، وأدرك هؤلاء أنّ بناء الذات الحضاريّة العربيّة لا يتمّ إلّا من خلال اللّغة؛ لهذا خفّوا

1 - محمد عبد العظيم الزرقاوي: مناهل العرفان في علوم القرآن: 55.

2 - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن: 59/1-60.

3 - الدكتور زهير غازي زاهد: في التفكير النحوي عند العرب، عالم الكتب، الطبعة الأولى، بيروت: 1306هـ-1986م: 28، 29..

4 - محمد رشاد الحمزاوي: أعمال المجمع العربي بالقاهرة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت: 1988م: 23.

إليها صراعا يحذوهم أمل واحد، ألا وهو المحافظة على اللغة العربية، وإعادة دورها الحضاري، يقول سعيد الأفغاني في كتابه (من حاضر اللغة العربية): « يوم أذن الله لنهضة العرب قبل ستين سنة، آمن الطليعة من جنودها أن أولى مقومات الأمة لغتها، فهي السلك الناظم لكل ما به حياتها »¹.

ثم يذكر، في مكان آخر من كتابه، إنطبعا واحدا هيمن عليه بعد حوار دار بينه وبين المستشرق مرغليوت في بيت محمد علي كرد، « إنصرف مرغليوت، وقد ترك في نفسي إيمانا لا يتزعزع بأن العربية حقًا مصدر مخيف من مصادر قوتنا، وأن أعداءنا قدروها حق قدرها حين جنّدوا عليها ما جنّدوا من علم وقوة ودهاء، وعلينا أن نتمسك بها تمسك الغريق بحبال النجاة »². هذا إنطباع خاص بفئة آمنت بالدور الحضاري للغة العربية، وأدركت أن اللغة هي الميدان الخصب للإستعمار الساعي إلى تفكيك أواصر الأمة العربية.

ورمى الآخر العربية بالوهن والقصور في أداء الدور الحضاري، بل وصل إلى الحكم عليها بالموت والاندثار، فهذا المستعرب شارل نوال يلقي محاضرة عام 1909م في تونس تحت عنوان "هل العربية لغة حيّة؟". وقد أعلن فيها موت العربية³. ومن قبل عدّها المستشرق سبيتا من اللغات « الصائرة إلى الموت كما وقع للآتينيّة »⁴. يمكن أن نجاري سبيتا في الحكم الذي

1 - سعيد الأفغاني: من حاضر اللغة العربية، دار الفكر، الطبعة الثانية، بيروت: 1971م: 5.

2 - سعيد الأفغاني: من حاضر اللغة العربية: 184.

3 - الدكتور محمد هشام بوقمرة: القضية اللغوية في تونس، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية، الشركة التونسية للتوزيع، (د.ط)، تونس: 1988م: 65/1. (الهامش).

- وهذه المحاضرة التي ألقاها شارل نوال، تجعلني أرجح أن محاضرة الشيخ محمد الخضر حسين (في حياة اللغة العربية)، التي ألقاها في السنة نفسها، هي ردّ عليه، لأنّ الباحث علي الرضا الحسيني، وهو جامع تراث عمّه، لم يستطع تبيين اسم المسامر الذي ذكره الشيخ بقوله: قال المسامر، واستشهد المسامر، ما قرره المسامر، لا ننسى وإن نسي المسامر -.

ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 160، 161، 163.

4 - الدكتور محمد الكتاني: الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي، دار الثقافة، الطبعة الأولى، المغرب: 1403هـ - 1982م: 759/2.

قاله في حقّ اللاتينية، ونخالفه في إجراء الحكم نفسه في حقّ اللغة العربية، فاللاتينية « لغة أجنبية بالنسبة للأوروبيين المحدثين، ولكنّ الفصحى ليست لغة أجنبية بالنسبة للعرب »¹.

ثمّ نسجوا حولها أوهاما تثبّط أهلها وغيرهم من الأمم على الإقبال على تعلّمها، وأحاطوها بخيال أسطوريّ، يذكر الأستاذ يوحنا اهنتين كرسكو الفنلندي، وهو عضو في المجمع العلمي العربي بدمشق منذ تأسيسه، أنّ أحد الإنكليز كتب سنة 1864م، حينما أقبل على تعلم العربية في مصر قال: « إنّي أؤثر أن أجتاز أفريقية كلّها ماشيا من الإسكندرية إلى رأس الرّجاء الصّالح على أن أشرع ثانية في تعلّم اللغة العربية »².

هذا قول مبالغ فيه، لكنّه صورة واضحة عن طرق تعليم اللغة العربية في هذه البلاد، وهذه المبالغة قد تخف إذا رجّحنا أنّ طرق التعليم التي تلقى بها هذا الرّجل مبادئ العربية في مصر، كانت لا تيسر العملية التّعليمية، وربّما كثرت فيها الشّروحات، والاستثناءات في مسائل اللغة العربية، وفنونها، ممّا يجعل متعلّميها ينفرون من تعلّمها، فالصّعوبة إذا في طرق تعليمها وإيصالها لغيرنا، وليست الصّعوبة في اللغة في حدّ ذاتها. فكم من أعجميّ في تاريخنا تعلّم العربية، وتبحّر في فنونها، وأصبح إماما فيها، تشدّ إليه الرّجال.

ولعلّ هذه الطّرق التّعليمية كانت وراء تلك الدّعوات التي نادى بتيسير النّحو العربي³، إبتداء من رفاة الطّهطاوي، وحنفي ناصف الذي ألف رفقة زملائه كتابا مبسّطا في قواعد العربية موجّها لتلاميذ المرحلة التّانوية تحت عنوان (قواعد اللغة العربية)⁴. وفي عام 1938م «أصدر بهي الدّين بركات عندما تولّى وزارة المعارف في مصر قرارا بتأليف لجنة للنّظر في تبسيط

1 - الدكتور فهمي حجازي: اللغة العربية في العصر الحديث قضايا ومشكلات: 33.

2 - الأستاذ السيّد يوحنا اهنتين كرسكو الفنلندي: "نفي أوهاما الأوروبيين في صعوبة تعلّم العربية". عزّبها الأرشيمندريت تومادييو المعلوف. مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق: ربيع الثّاني سنة 1343هـ الموافق: تشرين الثّاني سنة 1924م: 483 /4.

3 - لا ننكر أنّ دعوات التّيسير حمل لواءها في الفكر اللغوي العربي القديم ثلّة من علماء الأندلس، فإنطلقت مع كتابي (الضّروري في النّحو) لابن رشد، و(الزّد على النّحاة) لابن مضاء الأندلسي.

4 - ينظر: الدكتور شوقي ضيف: تيسير النّحو التّعليمي قديما وحديثا: 4.

قواعد النحو والصرف والبلاغة، واللجنة مؤلفة من: الدكتور طه حسين، والأساتذة أحمد أمين، وعلي الجارم، ومحمد أبي بكر إبراهيم المفتش بالوزارة، وإبراهيم مصطفى المساعد بكلية الآداب»¹.

ثم دعا أولئك المستشرقون إلى إتخاذ اللهجات بديلا عن الفصحى نظرا لحيويتها ومرونتها وقدرتها على تحقيق ما عجزت الفصحى عن تحقيقه؛ ولهذا طفقوا يؤلفون الكتب ابتداء من سنة 1880م، فألف ولهم سببنا كتابه (قواعد العربية العامية في مصر)²، وحذا حذوه كارل فولرس سنة 1890م، وكتب كتابه (اللهجة العربية الحديثة في مصر)، ومع بداية القرن العشرين، أي سنة 1901م، يطالعنا وسلدن ولمور بكتابه (العربية المحكية في مصر)، وفيلوت وياول في كتابيهما (المقتضب في عربية مصر)³.

ولم تكن هذه الدعوة غريبة على هؤلاء، وإنما تعود جذورها يوم أدرك الآخر دور هذه المسألة في فكّ عرى الأمة العربية من خلال القضاء على العربية، بالتشجيع على إتخاذ العامية لغة الحوار والكتابة، وبالتالي إبعاد الأمة عن دينها، ففكر هؤلاء في تدريسها، وشجعوا على فتح مؤسسات في بعض العواصم الغربية والشرقية، « في إيطاليا سنة 1727م، و1888م، وفي النمسا 1754م، وفي فرنسا سنة 1759م، وفي روسيا سنة 1909م »⁴.

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 251.

² - جاء في أول الكتاب ما نصه: «... وألف سببنا بك كتابا ألمانيا في صرف هذه اللغة العربية المصرية ونحوها، وهو الكتاب العلمي الوحيد الذي وضع للغة من اللغات العربية العامية. وجمع كتابا أيضا في الأمثال العامية وقصصا في اللغة العربية المصرية، وترجمها إلى اللغة الفرنسية». نقلا عن: محمد رشيد رضا: "صدمة جديدة على اللغة العربية". المنار، مطبعة المنار، الطبعة الثانية، مصر: سنة 1315هـ - 1316هـ: 1 / 120.

³ - ينظر: الدكتورة نفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار المعارف، (د.ط.)، القاهرة: 1964م: 24 وما بعدها.

⁴ - الدكتور موسى بناي: "أسباب إنتشار العامية وموقف جماعة من المستشرقين ومناصريهم منها". آداب الزافدين، تصدر عن كلية الآداب، العدد الثامن: 24 شعبان 1397هـ - 10 آب 1977م: 409.

وتزداد حيرتنا أكثر حينما نقف مثلا على المقالتين اللتين نشرهما الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف في العقد الثالث من القرن العشرين تحت عنوان "اللهجة العربية العامية"¹، يذكر فيهما مؤلفات المعاصرين من عرب ومستعربين، والتي أوصلها إلى أربعة وستين مؤلفا، وهذه الكثرة تدلّ على مدى تلقي الدعوة بن أوساط الفئتين من عرب ومستعربين، والسؤال الذي نطرحه حول هذا الكم الهائل من الدراسات التي خصت اللهجات العامية في هذا العصر، ما الهدف الذي تسعى إلى تحقيقه هذه الدراسات، أهي دعوة إلى دراسة العامية من أجل إحلالها مكان العربية، أم دراستها للوقوف على علاقتها بالعربية وبالتالي إرجاعها إلى هذا الأصل؟

وهذه الدراسات التي كثرت في هذه المرحلة بالذات حول اللهجات، لم تكن مطروحة في التفكير اللغوي الذي سبق فترة العصر الحديث، فتحويل أنظار لغوي ومفكر هذه المرحلة إلى الاهتمام باللهجات، كان يوم فكر الكثير من المستشرقين في لهجاتنا، فإنبروا يدرسونها منذ القرن التاسع عشر²، وسار لغويونا ومفكرونا في المنحى نفسه، وبعد مرور السنين الكثيرة في الإعتكاف على دراسة هذه اللهجات، لم يستطع هؤلاء، ولا الذين جاؤوا بعدهم، أن يضيّقوا الهوة بين العربية الفصحى وهذه اللهجات، وبذلك فوّتوا الفرصة في تحويل هذه اللهجات إلى العربية الفصحى. وتقويت الفرصة يمكن حصره على المستوى المنهجي في ثلاث مسائل:

أ- في المنطلق: من أين ينطلق الباحثون؟ من أية لهجة ينطلق الباحثون في دراستهم لهذه اللهجات، أينطلقون من اللهجة المصرية، فيدرسونها، ويقعدون لها، ويدعون باقي الشعوب العربية إلى توحيد لهجاتها تحت هذه اللهجة، وبالتالي إيجاد لهجة مشتركة يتحدث بها العرب جميعهم، ولا مانع من أن تكون حاضرة في كتاباتهم، أم ينطلق هؤلاء من اللهجات جميعها

¹ -الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف: "اللهجة العربية العامية". مجلة مجمع اللغة العربية، مطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة: رجب سنة 1353هـ - أكتوبر سنة 1934م، 1935: 355/1-363.

مجلة مجمع اللغة العربية، مطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة: شعبان سنة 1356هـ - أكتوبر سنة 1937م: 349/4-371.

² -ينظر: ب. م. جونستون: دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية، ترجمة الدكتور أحمد الضبيبي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة ملك سعود، (د.ط)، الرياض: 1975م: 12.

دون استثناء، فيدرسونها بالمناهج التي أوحى إليهم بها بعض المستشرقين، فتكثر اللهجات، ويصبح لكل بلد لهجته، بل للبلد الواحد لهجات، وبالتالي تتسع الهوة بين العرب أنفسهم، وتغيب العربية، أم يلجأ هؤلاء الباحثون إلى دراسة اللهجات من أجل إرجاعها إلى أصلها العربي الفصيح؟

ب- في الوسائل: ما الوسائل التي يستعملها هؤلاء الباحثون في أثناء دراستهم هذه اللهجات؟ حينما نقف على الوسائل التي اعتمدها هؤلاء لا نختلف إذا قلنا إن بعضاً من هؤلاء الباحثين تعاملوا مع اللهجات بالمنهج نفسه الذي طبّقه الباحثون الأوروبيون، وهم يدرسون لهجاتهم المنبثقة من لغات الأم، كما حدث للإنجليزية والألمانية والهولندية التي انبثقت من الجرمانية.

ج- في الهدف: ما الهدف الذي يسعى الباحثون إلى تحقيقه؟ هل يسعون إلى توحيد العرب تحت لهجة واحدة، كما سيطرت لهجة باريس على باقي اللهجات الفرنسية الأخرى، وتفوّقت لهجة لندن على لهجات إنجلترا، وهذا انطلاقاً من جعل اللهجة المصرية هي اللهجة الأم، أم يسعون إلى الإكثار من اللهجات، وجعل كل بلد له لهجته الخاصة به؟ وعدم وضوح الهدف المنشود من وراء هذه الدراسات، هو الذي منح مشروعية الاختلاف في المنطق، وفي الوسائل.

ثم تأمر بعضهم الآخر على استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، بدأت هذه المؤامرة « منذ وقت مبكر. حمل لواءها المستشرقان الفرنسيان ماسينيون وبنيار (رئيس البعثة العلمانية في الشرق)، لقد نصحا أصدقاءهما العرب بكتابة لغتهم بالحروف اللاتينية عام 1929م¹، والدعوة إلى تسييد الحرف اللاتيني في هذا الوقت بالذات، شجّعه قبول تركيا في إتخاذ الحرف اللاتيني بدلاً عن التركي بعد سقوط الخلافة عام 1924م على يد كمال أتاتورك، وهذا المنحى

¹ -أنور الجندي: اللغة العربية بين حمايتها وخصوصها: 122.

الذي نحته تركيا، شجّع الغرب على المضي في السّمت نفسه مع باقي الدّول الإسلاميّة سواء أكانت عربيّة أم لا.

وحيثما نعود إلى كتاب (من حاضر اللّغة العربيّة) لسعيد الأفغاني في الحوار الذي جمعه بمرغليوت في بيت محمد علي كرد، ندرك حقيقة المسألة وأبعادها عند الغرب، يقول: « فيناقش (مرغليوت) الأستاذ كرد علي، ما الذي أبطأ بالبلاد العربيّة عن الإقتداء بتركيّة في إتخاذ الحروف اللّاتينيّة؟ ولم أضاعوا على أنفسهم هذا الرّقي الباهر؟ فأجابه الأستاذ (...) مشيراً إلى خطأ هذه الفكرة، وأنّ وراءها أضراراً على العرب لا تحصى (...) فمارى مرغليوت في كلّ ما سمع، وقال إنّ أمله وطيد في أن يحذو الشّاه حذو (أتاتورك)، وأنّ العرب لا يحملهم على تغيير كتاباتهم إلّا حاكم قويّ مثل أتاتورك أو الشّاه (بهلوى)، وأنّه مسافر إلى طهران لدراسة أسباب تأخّر الشّاه عن المبادرة إلى فرض الأحرف اللّاتينيّة»¹.

إذاً الوقوف عند هذا القول يجعلنا نتحقّق من أنّ القضية خطيرة جدّاً عند الغرب، فنجاحهم في إبعاد العرب عن حرفهم العربيّ إلى الحرف اللّاتينيّ، وتحويلهم شطره، أمر يحتاج إلى رجال ذوي كفاءة علميّة عالية؛ لينفّذوا هذا المسعى، فإختيار رجل من أمثال المستشرق مرغليوت له ما يبزره، متى علمنا أنّ الرّجل له إطلاع واسع على تراث الأمتّة العربيّة، ثمّ يكشف هذا الحوار على أنّهم يعلّقون آمالاً بالدرجة الأولى على الدّول الإسلاميّة غير العربيّة كطهران.

ثمّ تلقّف هذه الدّعوات ثلّة من مثقفي البلاد العربيّة، وغدوا يؤسّسون لها، ويدافعون عنها، ودخل هؤلاء في صراع بينهم، بعد أن نجح الآخر في تحقيق هدفين، أولهما تحويل هذا الصّراع من صراع بين الأنا والآخر، إلى صراع بين مثقفي العرب أنفسهم، وثانيهما فرض قضية، لم تكن ذات بال من قبل، على الواقع اللّغوي العربي، ومن ثمّة « ساد تياران متضادّان الحياة اللّغويّة في العالم العربي في فجر العصر الحديث، وهما: تيار الإنقسام الدائم، وتباعد

¹ - سعيد الأفغاني: من حاضر اللّغة العربيّة: 184.

اللّهجات من جانب، والاتّجاه إلى الوحدة في إطار العربيّة الفصحى لغة القرآن الكريم، والتّقافة العربيّة من الجانب الآخر»¹.

وننتج عن هذه الدّعات أن اقتنع نفر من المثقّفين بالفكرة، فأنشأوا « في مصر مجلّات تخطّ بين العاميّة والفصحى (منها أبو نظارة) ليعقوب صنوع (1878م)، و(الأرغول) لمحمد النّجار (1894م)، و(التّكيت والتّبكيت) لعبد الله النّديم (1881م)»²، وسادت في الأوساط التّربويّة طرق تعليميّة جعلت الأدب العربي « سجلاً ولادات ووفيات، وديوان حوادث وروايات، فذلك هو الذي كره الدّارسون في اللّغة، وزهد النّاشئين في الأدب، وصرف أدباء الشّباب إلى الآداب الأوروبيّة، وحملهم على أن يدعوا جهرة إلى اللّغة العاميّة»³، ودعا بعضهم الآخر إلى كتابة الأدب القومي بالعاميّة، في حين وصلت دعوات غيرهم إلى توحيد الأمّة العربيّة تحت لهجة واحدة هي اللّهجة المصريّة، لحلّ المشكلة اللّغويّة في الوطن العربي.

ولم يكتب لهذه الدّعوة النّجاح، فكيف يتحقّق ذلك، وعرفت العاميّة « بمحدوديتها وغياب نظام موضوع لها في الرّسم والنّحو (...) وتعدّد العاميّات على نحو متماوج متغيّر يستعصي على الحصر، وانقطاع الأسباب بين العاميّة وبين تجربة التّعبير الأدبي والعلمي، وإقتران الفصحى بالقرآن وتراث غنيّ ضخم (...) كلّ ذلك كان يعمل على نقض الدّعوة إلى إحلال العاميّة محلّ الفصحى»⁴، ثمّ أنّى للّهجة المصريّة أن تتال هذه المكانة مع باقي اللّهجات

¹ -الدكتور محمود فهمي حجازي: اللّغة العربيّة في العصر الحديث قضايا ومشكلات، دار قباء للطباعة والنّشر والتّوزيع، (د.ط)، القاهرة: 1988م: 9.

² -الدكتور محمد الكتّاني: الصّراع بين القديم والجديد في الأدب العربي: 757/2.

³ -حسن الزّيّات: "لغتنا في أزمة". مجلّة مجمع اللّغة العربيّة، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة: 1957م: 48/11.

⁴ -الدكتور نهاد الموسى: قضية التّحوّل إلى الفصحى في العالم العربي الحديث، دار الفكر للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، عمّان: 1987م: 22.

الأخرى، « والعاميات في مجملها في الوطن العربي ليست مرشحة لهذا الدور؛ لأنها هي نفسها أنماط من الكلام متفرقات متنافرات »¹.

وتبنى غيرهم تلك الدعوة الساعية إلى استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي، ودرج بين أوساط الباحثين العرب، أن أول من حمل لواءها، بعد دعوة المستشرقين الفرنسيين ماسينيون وبنيار، هو عبد العزيز فهمي باشا؛ ولكن الباحث محمد صالح عمر يرجع الدعوة تاريخياً إلى أواخر القرن التاسع عشر، يقول في مقال ينشره تحت عنوان: "مؤامرة استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية في عهد الحماية في تونس": «... على أن ما بين أيدينا من وثائق يثبت أن دعوة فهمي تلك، لم تكن الأولى من نوعها، وإنما سبق إلى مثلها المستعمر الفرنسي بحوالي نصف قرن في المغرب العربي، ففي أواخر القرن التاسع عشر فرضت السلطات الفرنسية في الجزائر استعمال الحروف اللاتينية في جميع الكتب المدرسية العربية، وفي بداية القرن العشرين، حاولت تنفيذ العملية ذاتها في تونس، إلا أن مسعاها هذه المرة مني بالفشل الذريع بفضل الموقف الدفاعي المتصلب الذي وقفه بعض الوطنيين »².

وكان لهذه الدعوة الأثر البالغ في أوساط مثقفي ولغويي هذه الفترة، بل الفترات التي تلتها، فأعيد طرح مشكلة الكتابة العربية من جديد، بعد أن طرحها من قبل الفكر اللغوي القديم، والفرق فقط يكمن في تنوع الأسئلة، وإغنائها معرفياً، فمست المشكلة الحركات الإعرابية، والكلمات من حيث رسم أحرفها، وخاصة المتشابهة منها، والمتغيرة في المعنى، وكثرت الآراء في هذه القضايا، وانقسمت، وتباين إنقسامها.

ونتج عنها تياران، تيار يدعو إلى هجرة الحرف العربي نهائياً، واستبدال الحرف اللاتيني بهذا الحرف، وهي دعوة تغريبية ليس إلا، وتيار آخر يدعو إلى إصلاح الكتابة العربية من

¹ -الدكتور كمال بشر: اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، القاهرة: 1999: 263.

² -الدكتور محمد صالح عمر: "مؤامرة استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية في عهد الحماية في تونس". المستقبل العربي، مجلة فكرية شهرية، يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية، السنة العاشرة، العدد: 99، آيار (مايو) 1987م: 65.

الدّاخل، كالإقترح « الذي قدّمه الأستاذ علي الجارم بك بإلحاق زوائد بالحروف العربيّة تقوم مقام الشّكل »¹، أو الإقترح الذي قدّمه أحمد سعيدان مع العقد الثاني من النّصف الثّاني من القرن العشرين، في مقاله الذي نشره تحت عنوان "حول أبجديّة عربيّة صالحة"، يقول: « صفوة القول أنّي أدعو إلى الكتابة بحروف منفصلة، على أن تمتدّ الحروف رأسياً لا أفقيّاً »².

ووصف مجد محمد الباكير البرازي في كتابه (مشكلات اللّغة العربيّة المعاصرة) هذه الدّعوات بقوله: « فمن دعوة تفحّ بإلغاء الإعراب، وأخرى تتفق داعيّة إلى القضاء على الحروف العربيّة وودعها لتسييد الحرف اللّاتيني، وثالثة تلهث نابحة لتشييد قصر العاميّة فوق رفاة الفصحى، دعوات في ظاهرها متباينة المسارات والمسارب، وفي باطنها يركد السمّ الزّعاف، وتصبّ جميعاً في مستنقع واحد آسن يرمي جاهداً إلى القضاء على العربيّة، بحجّة التّلهّف على الأخذ بأيدينا في كبوتنا الحضاريّة وأزمتنا الفكريّة الشعوريّة الوجدانيّة »³.

3- قضايا المنهج في الخطاب اللغوي العربي الحديث:

لم يصرّح أغلب مفكّري ولغويّي هذه المرحلة في كتاباتهم بالمنهج المتّبع في دراسة هذه القضايا، والواقف عند عتبات نصوصهم، كالعناوين ومقدمات كتبهم لا يكاد يعثر جاهداً عن كلام صريح يعلن فيه صاحبه عن المنهج المتّبع⁴، ولكن الواقف على آثارهم يمكن له أن يستشفّ ذلك في أثناء تناولهم المسائل المطروحة، أو في أثناء تطبيقاتهم، وحتى يتسنى لنا

1 - الكتاب. مجلة شهريّة للأدب والعلوم والفنون، تصدر عن دار المعارض بمصر، السّنة الأولى، الجزء السّابع، المجلد الثّاني: جمادى الأولى 1365هـ - مايو 1946م: 338.

2 - الدكتور أحمد سعيدان: "حول أبجديّة عربيّة صالحة". مجلة مجمع اللّغة العربيّة الأردني، الأردن، العدد المزدوج (2، 3): كانون الثّاني-نيسان 1979م الموافق: صفر-جمادى الأولى 1399هـ: 3 و4: 26.

3 - مجد محمد الباكير البرازي: مشكلات اللّغة العربيّة المعاصرة، مكتبة الرّسالة الحديثة، الطّبعة الأولى، عمّان: 1409هـ- 1989م: 14.

4 - وهذا لا يمنع من وجود من أشار إلى منهجه بشكل صريح، كما فعل الدكتور طه حسين، حينما أعلن في كتابه (في الشّعر الجاهلي) في مبحث تحت عنوان: "منهج البحث": «أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي إستحدثه (ديكارت)؛ للبحث عن حقائق الأشياء في أوّل هذا العصر الحديث»

الدّكتور طه حسين: في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطّباعة والنّشر، (د.ط)، سوسة تونس: (د.ت): 21.

الوقوف على المسألة بشكل جلي، إرتأيت أن أتاولها في نقطتين، منطلقاً فيهما من سؤالين اثنين.

وأول هذين السؤالين هو: هل كان مفكرو ولغويو هذه المرحلة على إطلاع على المناهج التي كانت سائدة آنذاك عند الآخر، كالمنهج التاريخي المقارن مثلاً، أي هل تلقى هؤلاء ما كان سائداً في الغرب من مناهج، ثم ما المناهج التي تأثرت بها البعثات العلمية إلى التعليم في البلاد الغربية، وكيف تم استثمارها في دراسة قضايا اللغة العربية المطروحة آنذاك، ما النتائج التي حققوها، وما قيمتها؟ وهل مفكرو ولغويو هذه الفترة جمدوا على منهج واحد، متى علمنا أن الباحث عليه ألا يجمد على منهج واحد بل عليه أن يتطلع إلى تجديد أدوات بحثه؟ وثانيهما: ما موقف المفكرين واللغويين الآخرين الذين إنطلقوا من التراث العربي بمختلف مشاريعه، ونبذوا كل جديد وافد من الغرب، هل ساروا في معالجة قضايا اللغة العربية وفق منهج لغوي واضحة معالمه؟

يشير بعض الباحثين¹ في الفكر اللغوي العربي الحديث إلى صعوبة تحديد البدايات الأولى التي تلقى فيها هذا الفكر الفكر اللغوي الغربي الحديث، ومع هذه الصعوبة في تحديد الإطار الزمني بدقة، لم يمنع الباحثون من إرجاع البدايات الأولى إلى الفترة التي تم فيها الإتصال بالحضارة الغربية، والتي تبدأ مع رفاة الطهطاوي وجرجي زيدان، وإذا وقفنا عند أعمال رفاة الطهطاوي، ورحنا نقرأ ما كتبه في أثناء حديثه عن اللغة الفرنسية ألفيناه يصح بعض الأفكار اللغوية التي كانت سائدة في الأزهر حول هذه اللغة بأنها لغة لم تتل حظاً من الفصاحة.

يعتمد رفاة الطهطاوي على منهج المقارنة بين اللغة العربية والفرنسية؛ ليصل إلى تحقيق هدفين اثنين، أولهما: فك العزلة التي فرضت على اللغة العربية، وبالتالي إدخالها في حوار

¹ -ينظر مثلاً: الدكتور نعمان بوقرة: اللسانيات إتجاهاتها وقضاياها الزاهنة، عالم الكتب الحديث، الطبعة الأولى، عمان: 1430هـ-2009م: 214.

مقارن مع اللغات الأجنبية، ومنها الفرنسية، وتصحيح بعض الأحكام الموروثة التي تحكم بأفضلية العربية وبأعجمية اللغات الأخرى¹، وثانيهما: اللغة الفرنسية كباقي لغات العالم لها نصيب من الفصاحة والقواعد التي تحكم مبانيها ومعانيها، يقول: « إن اللغة الفرنسية كغيرها من اللغات الإفرنجية لها إصطلاح خاص بها، وعليه يبني نحوها وصرفها وعروضها وقوافيها وبياناتها وخطبها وإنشائها ومعانيها، وهذا ما يسمّى اغراماتيقي، فحينئذ سائر اللغات ذات القواعد لها فنّ يجمع قواعدها، فحينئذ ليست العربية هي المقصورة على ذلك »².

بينما الواقف على كتاب جرجي زيدان (الفلسفة اللغوية) يجد تأثره بالمنهج التاريخي المقارن واضحا، يقول مصطفى غلفان في كتابه (اللسانيات في الثقافة العربية): « ولا يخلو فصل من فصول كتاب الفلسفة اللغوية من المقارنة، وخصوصا بين العربية وأخواتها اللغات السامية، أو بين الساميات وفصائل أخرى »³.

وبرجوعنا إلى الكتاب لنستجلي حقيقة المسألة، ألفيناه بادئا كتابه بتعريف اللغة، وهو لم يخرج في ذلك عما قاله ابن جني، ثم يركّز على مصطلح "أصوات"، يقول: « اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، وقد تعددت أنواع الأصوات وطرق التعبير بتعدد الأمم واختلاف ظروفها، فنشأ عن ذلك لغات تفوق الآلاف عددا متفاوتة بيانا ومتباينة دلالة ولفظا، فإن من الأصوات ما هو عادي عند هذه الأمة، وشاق التلفظ به عند تلك »⁴.

فالرجل ينطلق من المقارنة بين اللغات من حيث أصواتها، وصولا إلى تقسيم اللغات إلى مرتبة وغير مرتبة، ومن حيث قابليتها إلى التصريف والإشتقاق إلى متصرف وغير متصرف، ثم يقف عند أهم الصفات التي تتميز بها هذه اللغات، سائقا في ذلك أمثلة من

1 - ينظر: مصطفى غلفان: اللسانيات في الثقافة العربية، 36.

2 - رفاة الطهطاوي: الأعمال الكاملة، نقلا عن: اللسانيات في الثقافة العربية: 35.

3 - مصطفى غلفان: اللسانيات في الثقافة العربية: 36.

4 - جرجي زيدان: الفلسفة اللغوية: 1.

لغات العالم¹، والنّاظر في طريقة تناوله هذه المسائل يلمس منها تاريخياً مقارنا واضحة معالمه.

ثمّ يدخل الخطاب اللغوي العربي الحديث في مرحلة جديدة على مستوى منهج تناول القضايا اللغوية العربية، وهذا حينما أنتدب بعض المستشرقين إلى التدريس في الجامعة المصرية عام 1907م، من أمثال برجشتراسر، وجويدي، وفيشر، وإنوليتمان وغيرهم²، وكان لهؤلاء الدور في توجيه الدراسات العربية إلى التفكير الفيلولوجي، وذكرت الباحثة حليلة أحمد عمارة في كتابها (الاتجاهات النحوية لدى القدماء دراسة تحليلية في ضوء المناهج المعاصرة) أسماء الباحثين الذين تأثروا بالمنهج التاريخي، تقول: «تأثر بالمنهج التاريخي كوكبة من الباحثين العرب، برز منهم محمد عطية الأبراشي في كتابه (المفصل في قواعد السريالية)، ومن ثمّ أسهم عبد المجيد عابدين في كتابه (المدخل إلى دراسة النحو العربي)، وقد عرض في كتابه لفكرة مهمة وهي أنّ المنهج التاريخي يسهم في تصحيح بعض المسائل الخلافية التي كانت بين النحاة القدماء، ولم يسعفهم فيها المنهج التاريخي، وذلك لعدم معرفتهم باللغات السامية»³.

وبحلول عام 1937م ألف إبراهيم مصطفى كتابه (إحياء النحو)، والنّاظر في هذا الكتاب يتساءل على مستوى المنهج، ما المنهج الذي سلكه المؤلف في تناوله المسائل اللغوية؟ هل كان متأثراً بالمنهج التاريخي المقارن الذي كان سائداً في الأوساط الباحثين العرب آنذاك؟ الباحث لا يعثر في هذا الكتاب إلى ما يشير إلى تأثر إبراهيم مصطفى بالمنهج التاريخي

1 - ينظر: المرجع نفسه: 2-7.

2 - ينظر: الدكتور حلمي خليل: العربية وعلم اللغة البنيوي - دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث - دار المعرفة الجامعية، (د.ط)، الإسكندرية: 1988م: 139.

3 - الدكتورة حليلة أحمد عمارة: الاتجاهات النحوية لدى القدماء دراسة تحليلية في ضوء المناهج المعاصرة، دار وائل للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان: 2006م: 31.

المقارن، بل نعثر على آرائه الموجّهة إلى نقد بعض آراء المستشرقين، وخاصّة آراءهم في علامات الإعراب، حينما رجّحوا أنّها نتيجة لزوائد كانت تلحق الكلمات.

يقول في حقّ هؤلاء المستشرقين إنهم: « متأثرون بنظام لغاتهم، وسبيل الإعراب والتّصريف فيها، فقد يكون ذلك عندهم بمقاطع لا بحركات، وربّما خُفّفت هذه المقاطع وأختزلت بتأثير النّبر واختلاف النّطق أو بغيره من الأسباب، فبقيت منه حركة. هذا واضح في لغتهم مقرّر في علمها، ولكنّ العربيّة لها منهج آخر مخالف لمناهج اللّغات الغربيّة في الإعراب وفي التّصريف، فإنّ العربيّة تدلّ بالحركات على المعاني المختلفة، من غير أن تكون تلك الحركات أثرا لمقطع أو بقيّة من أداة، ويكون ذلك في وسط الكلمة وأولها وآخرها»¹.

وهذا النّص لا يدلّ على أنّ الرّجل متأثر بالمنهج التّاريخي المقارن الذي كان سائدا بين أوساط لغويّ ومفكّري هذه المرحلة، وإنّما ظلّ مشدودا إلى التّقاليد النّحويّة الموروثة، وكان في منهجه وفيّا لآراء النّحاة القدامى، على الرّغم من أنّ هدفه كان مبنيا على نقدها.

وأهمّ ما نستنتجه على مستوى المنهج، وهو أنّ الذي يُتقبّل بديهيا أنّ كلّ مرحلة تمرّ بها أمّة ما، تستدعي هذه المرحلة تجديد أدوات النّظر في المسائل المطروحة؛ ولهذا فبعض لغويّ ومفكّري هذه الفترة لم يقتنعوا بالجمود على منهج واحد، بل تطلّعوا إلى تجديد أدوات بحوثهم؛ لتكون مسايرة عصرهم، ووجد بعض المعاصرين ضالّتهم في المنهج التّقابلي، فأدخلوا اللّغة العربيّة في حوار مع لغات العالم، وهذا ما نجده مثلا عند أنستانس الكرملّي الذي سمّى مسلكه هذا بالمعارضات اللّغويّة.

ج- قضايا الخطاب اللغوي العربي الحديث في كتابات محمد الخضر حسين:

¹ - إبراهيم مصطفى: إحياء النحو: 45.

لا نختلف إن قلنا إنَّ الشَّيخَ مُحَمَّدَ الخضرِ حسينٍ واحدٍ من أولئك الذين لا يمكن معرفتهم إلا من خلال عصرهم، رجل عايش عصره، ساير الميادين جميعها، سياسيَّة وإجتماعيَّة وثقافيَّة، أثر وتأثر فيما كان يجري حوله من قضايا، خاصَّة اللُّغويَّة منها، والنَّاظر في تراثه، يلقي الرَّجُل في أثناء تناوله قضايا هذا الخطاب، قد اتَّخذَ طريقين، طريق نقف على حقيقته من خلال مناقشاته لمعاصريه، وآخر نكتشفه من خلال تناوله قضايا هذا الخطاب.

كنت قد أشرت من قبل إلى أنَّ لغويِّي ومفكِّري هذه المرحلة إنصبَّ إهتمامهم حول القضايا التي مسَّت اللُّغة العربيَّة في وضعين مختلفين، في وضعها الخارجي، أي علاقتها الجدليَّة بالعاميَّات، واللُّغات الأجنبيَّة، وهناك ألفينا إتجاهين، إتجاه كان يسعى إلى تمكينها من محيطها؛ لتمارس حضورها الذي فقدته بسبب الظُّروف الإستعماريَّة التي وضعتها خارج النَّسق النَّقافي، وإتجاه ثان كان يسعى جاهدا إلى إبعادها من هذا المحيط؛ لتحلَّ محلَّها العاميَّة، أو لغة غريبة عن هذا المحيط.

وفي وضعها الداخلي إنصبَّ الإهتمام فيه بتيسير القواعد النَّحويَّة، والكتابة الإملائيَّة، وطرح مسألة إمكانية إستبدال الحروف اللاتينيَّة بالحروف العربيَّة، والسَّعي إلى إعداد المعاجم، ووضع المصطلحات في شتَّى العلوم؛ ليثبتوا حياة اللُّغة العربيَّة وقدرتها على مسايرة عصرها. والوقوف على قضايا الخطاب اللُّغوي العربي في كتابات الشَّيخ مُحَمَّد الخضر حسين، يستدعي منِّي تقسيمها، أي هذه الكتابات، إلى ثلاث مراحل مرَّت بها حياة الرَّجُل، ولا تجدني في هذا المبحث باسطة القول في حضور قضايا الخطاب اللُّغوي الحديث في كتابات الشَّيخ مُحَمَّد الخضر حسين، وإنَّما سأذكرها بشكل إجماليِّ على أن أفصل القول فيها في الفصول القادمة، وهذه المراحل هي:

أ- في تونس، وتبدأ من حصوله على شهادة التّطويع¹ عام 1898م، هذه الشّهادة التي مكّنته من التّدريس في جامع الزيتونة إلى غاية مغادرة تونس عام 1912م، ونحصر ما تناوله في هذه المرحلة فيما يلي:

1-دعوته إلى إصلاح التّعليم الزيتوني، وإدراج مادّة الإنشاء في مناهج التّعليم وتدريسها بطريقة علميّة، ونبذ الطّرق التّقليديّة في التّدريس، والدّعوة إلى الرّفق بالمتعلّم.

2-إلقاء محاضرة تحت عنوان "حياة اللّغة العربيّة" عام(1909م) بالمدرسة الصّادقيّة²، ردّ فيها على مسامره الّذي حكم على اللّغة العربيّة بالموت، وشكّك في قدرتها على الوفاء بمتطلبات العصر، ثمّ بيّن أنّها لغة حيّة تسائر عصرها.

ب-في دمشق، وتبدأ من 1912م إلى غاية هجرته إلى مصر عام 1920م، وفيها³:

2-إلقاء دروس على طلاب هذه المدارس قادته إلى تأليف كتابه (القياس في اللّغة العربيّة)، شرح فيه حقيقة القياس وشروطه ومواقفه وأحكامه.

3-زيارته إلى ألمانيا التي مكّنته من الإطلاع على الكثير من مظاهر الحضارة الغربيّة في شتّى ميادينها، وأودع ما إطلع عليه كتابه (مشاهد برلين).

¹ -وهذا لا يمنع من أنّ جامع الزيتونة يقدّم شهادات أخرى، مثل: الأهليّة، التّحصيل.

وللاطلاع على الحياة العلميّة لجامع الزيتونة، فالشيخ فصل القول في العلوم والفنون التي تدرّس بالمعهد الزيتوني، وطبقات مدرّسيه، وطرق تلقّي التّلاميذ للعلوم، وسير الإمتحانات.

ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 11/ 20 وما بعدها.

² -مدرسة أنشأها الوزير خير الدين، الّذي كان يسعى إلى إقامة مدارس حديثة لتعليم اللّغات، وهذا عام 1848م، ويذكر محمد الفاضل ابن عاشور أنّها إهتمّت بتعليم: «التّركيّة والفرنسيّة والإيطاليّة (...) وتعليم الرياضيات والطّبيعيّات والاجتماعيّات».

محمد الفاضل ابن عاشور: الحركة الأدبيّة والفكريّة في تونس، مطبعة دار الهنا، (د.ط)، تونس: 1955م: 24.

³ -إستثنيت من هذه المرحلة زيارته إلى ألمانيا خلال الحرب العالميّة الأولى؛ لأنّ فيها تلقّي حضارة الآخر في كتابات الشّيخ محمد الخضر حسين، هذه الحضارة التي أودعها كتابه (مشاهد برلين)، فتحدّث عن الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة، والمؤسّسات التربويّة، وحقيقة اللّغة الألمانيّة، وآدابها.

3- عضويته في المجمع العلمي العربي بدمشق منذ تأسيسه عام (1919م)، وبعد مغادرته دمشق عام (1920م) أصبح عضوا مراسلا يُستشار في المسائل اللغوية.

ج- في مصر، وتبدأ من دخوله مصر عام 1920م إلى وفاته عام 1958م، وفيها:

1- دفاعه عن وجود الشعر الجاهلي بنقض كتاب (في الشعر الجاهلي).

2- مناقشته القضايا اللغوية، منها:

- دفاعه عن اللغة العربية، وردّه دعوة تمصير اللهجات العربية تحت لواء اللهجة المصرية.

- اللغة العربية والعاميات.

- تيسير كتابة اللغة العربية.

- تيسير النحو العربي.

- تيسير المصطلحات العلمية وتوحيدها.

- البحث في قضايا المعجم العربي.

- إهتمامه بتفسير القرآن الكريم الذي كشف عن قدرة الرجل في استثمار العلوم اللغوية المكتسبة وتوظيفها في تفسيره.

ومما تقدّم في هذا الفصل نستنتج أنّ الخطاب اللغوي العربي الحديث في مشرق البلاد ومغربها، أنتجته خلفية سوسيوثقافية، حاولت الكشف عنها، للوقوف على حقيقة المسألة، فكانت الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي مرّت بها البلاد العربية، قد وضعت اللغة العربية داخل النسق الثقافي، بعد أن وضعت على هامشه، وأثيرت قضاياها، وانقسم رواد هذه المرحلة إزاء هذه القضايا إنقسامات متباينة، ومن ثمة دخلوا في حوار غير منتهٍ،

والتسعت الهوة بينهم، وتمسك كل طرف برأيه، وكثر الجدل بين دعاة الأصالة ونبذ كل جديد، ودعاة الجديد ونبذ كل قديم.

وبين هذه الأطراف كان الشيخ محمد الخضر حسين حاضرا، متخذا لنفسه موقعا وسطا، فأكثر من كتابة المقالات، وتأليف الكتب في الكثير من المجالات، وعلى رأسها المجال اللغوي. فإلى أي مدى تكون هذه الخلفية السوسيوثقافية قد ساهمت في إنتاج المعرفة عند الشيخ محمد الخضر حسين، وكانت من الروافد التي رفدت تفكيره اللغوي؟ ما المسائل اللغوية التي شغلت فكره؟ من أين انطلق في معالجتها، وبأية وسيلة عالجه؟ وما النتائج التي حققها؟ وما قيمتها مقارنة بمن سبقوه، وبمن عاصروه، وبمن جاءوا بعده؟ وإلى أي مدى يمكن لنا أن نقول: إن هذا التفكير يتجلى في بحوثه اللغوية بصفة عامة، وفي التفسير بصفة خاصة؟

الفصل الثّاني:

البحث اللّغوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين: مستوياته ومصادره ومنهجه.

أ- مستويات البحث اللغوي:

حينما نطلع على آثار الرجل في هذا المجال يتضح لنا أن إهتماماته كانت في مستويين: أولهما هو البحث في الظاهرة اللغوية عامة، وثانيهما هو البحث في الظواهر الخاصة التي تتفرّد بها اللغة العربية عن اللغات الأخرى. إذا كيف نظر الرجل إلى هذين المستويين؟ ما القضايا التي شغلته؟ من أين إنطلق في معالجتها؟ ما الوسائل والأدوات التي إستعملها؟ ما النتائج التي حقّقها؟ وما قيمتها مقارنة بآراء السابقين والمعاصرين له؟

1- في القضايا اللغوية العامة:

أ- في حقيقة اللغة:

1- تعريفها:

إنطلق الرجل في مقاربتة اللغة من تعريف ابن جنّي (ت392هـ)، وإستثمره، فهو تعريف شامل يعطي « نظرية كلية لجميع اللغات الطبيعية، فلا يمكن لأيّ منها أن تخرج عن هذا التعريف »¹، ورأى أن اللغة وضعت « ليعبر بها الإنسان عما يبدو له من المأرب، ويتردّد في نفسه من المعاني »²، وبهذا التعريف يكون الرجل قد زوَج بين مفهومين، مفهوم يشير إلى أنّها موضوعة للتعبير عن الحاجات، وهو مأخوذ من تعريف ابن جنّي، ومفهوم يبيّن أنّ اللغة وضعت للدلالة على المعاني، وهذا ما ذكره ابن الحاجب، والأسنوي، فالأول يعرفها بقوله: « حدّ اللغة كلّ لفظ وضع لمعنى »³، والثاني بقوله: « اللغات عبارة عن الألفاظ الموضوعة للمعاني »⁴.

¹ - الدكتور عبد الله غزلان: قضايا في اللغة الطبيعية وتاريخ الفكر (نظرية حتى عند سيبويه)، مطبعة أنفلو-برانت، الطبعة الأولى، فاس، المغرب: 2003م: 18.

² - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 29/6.

³ - السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، شرح وتعليق محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، بيروت: 1425هـ-2005م: 8/1.

⁴ - المصدر نفسه: 08/1.

وبين أنها ميزة إنسانية مكتسبة، وأنه لم يعرف في تاريخ البشرية أن أمة حرمت من هذه الميزة، وانطلاقاً من رأيه هذا أبطل نتيجة بعض الباحثين الذين سعوا إلى إثبات أن هذه الميزة حرمت منها أقوام عاشت في القرون الماضية، يقول: « وقد حاول بعض الباحثين أن يثبت من تركيب أدمغة أشخاص عاشوا في القرون الخالية أنهم كانوا محرومين من هذه الميزة، فلم يستطع أن يقيم على ما يقوله دليلاً تاماً المقدمات صحيح النتائج¹. ومنحى الرجل في إبطال هذا الرأي له ما يبرره، فلا « نستطيع أن نتصور عالماً بشرياً بدون وجود اللغة. إن اللغة بالنسبة للمجتمع هي بمكانة القلب من الجسم البشري² ».

ولما كان لكل مجتمع لغته الخاصة به يعبر من خلالها عن أحاسيسه و مشاعره وأغراضه، كثرت اللغات، وصعب الإتصال بين الشعوب، وخاصة مسؤوليتها في أثناء لقاء بعضهم بعضاً على المستويات العليا، إقترح العلماء أن يضعوا للبشرية لغة تكون لساناً موحداً لهم، أطلقوا عليه اسم الإسبرانتو ESPERANTO، وقف الرجل مناقشاً، وراداً هذا الاقتراح، كما رده علماء الاجتماع وعلى رأسهم دوركايم³، بناء على أن « الألسنة تابعة لأحوال التفكير والإحساس، وهل من سبيل إلى أن تتحد الأمم في تفكيرها وإحساسها؟⁴. ثم كيف يتحقق للبشرية، في رأيه، أن تتحد في أفكارها ومشاعرها ورغباتها تحت لغة موحدة تطمس لغتها الأصل، وإلى أي مدى يمكن أن نجعل هذه اللغة الموحدة كاشفة عن تفكير واحد لا يتغير بين البشرية؟ وهل يجوز أن نحل مشكلة التعدد اللغوي بإتحاد البشرية تحت لغة واحدة؟. يقول علي عبد الواحد وافي: « ليس في قدرة الأفراد والجماعات أن

1 - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 14/6.

2 - الدكتور نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت: رمضان-شوال 1398هـ-سبتمبر (أيلول) 1978م: 90.

3 - الدكتور إبراهيم مذكور: "الفكر واللغة". مجلة مجمع اللغة العربية، المطبعة الأميرية القاهرة 1957م: 13/7.

4 - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 18/6.

يوقفوا تطوّر لغة ما، أو يجعلوها تجمد على وضع خاصّ، أو يحولوا دون تطوّرهما (...). ومن ثمّ يظهر كذلك خطأ من يحاولون علاج تعدّد اللّغات بإنشاء لغة عالميّة¹؛ لأنّه « من الواضح أنّ الأقوام يختلفون في طرق التّفكير، وطرز تفكير كلّ قوم مبثوث في ألفاظهم، ومدلول عليه بأساليب مخاطباتهم². إذا فاللّغة مرتبطة بالإنسان، وبرأيه هذا جاز لنا أن نقول: من وظائف اللّغة هو التّعبير عن الفكر. إذا فهل هناك وظائف أخرى تحدّث عنها الرّجل؟

2-وظائفها:

لا نتصوّر أن تستمرّ الحياة البشريّة فوق هذه الأرض من دون أن يكون هناك تفاعل وتقاوم وتبادل منافع وخبرات بين البشريّة، والوسيلة التي تحقّق هذا الهدف هي التّواصل بين هؤلاء النّاس، وهذا التّواصل لن يتحقّق إلّا باللّغة سواء أكانت مكتوبة أم منطوقة، ولما كانت اللّغة ذات وظيفة أساسيّة في المجتمع، أجمع غالبية اللّسانيّين « على أنّ الوظيفة الأساسيّة للّغة هي وظيفة التّواصل في مقابل الوظائف الأخرى، فاللّغة تستعمل أساساً لإقامة التّواصل بين مستعمليها³. إذا فكيف نظر الشيخ محمد الخضر حسين إلى وظائف اللّغة بصفة عامّة، وإلى وظيفة التّواصل بصفة خاصّة؟.

أ-الوظيفة الاجتماعيّة:

الواقف على تراث الرّجل يمكن أن يستنتج أنظاره في هذه المسألة، ففي أثناء إلقائه محاضراته (حياة اللّغة العربيّة) عام 1909م، يخصّص مبحثاً تحت عنوان (تأثير اللّغة في الهيئة الاجتماعيّة)، يشير فيه إلى الوظيفة الاجتماعيّة التي تؤدّيها اللّغة، فالجاهل للغة ما في مجتمع ما، لا يمكنه جهله هذا من الاندماج في المجتمع الذي يعيش فيه، وتنتفي

¹ - علي عبد الواحد وافي: علم اللّغة، مكتبة الأنجو مصريّة، الطّبعة السابعة، القاهرة: (د.ت): 21.

² - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 17/6.

³ -الدكتور عبد الفتّاح بن قدور: اللّغة-دراسة تشريحيّة-إكلينيكيّة، دار أبي الزقراق للطباعة والنّشر، الطّبعة الأولى، الرباط، المغرب: 2012م: 49.

أواصر التّواصل والتّعارف، يقول الرّجل: « ممّا لا سبيل للشّبهة فيه، أنّ الشّخص الذي يحلّ بين أقوام يجهل لغتهم، يبقى منفردا عن جامعتهم، غير معدود في زمرتهم، وتتوعّر أمامه الطّرق الموصلة إلى انخراطه في سلكهم، وتبادل المنافع معهم»¹.

والإنسان متى تمكّن من حفظ اللّغة التي نزل بين أهلها، واطّلع من خلالها على آدابهم وعوائدهم ومعارفهم، إنعقدت بينه وبينهم صلة التّعارف والمعاشرة، وأصبح عضوا متّصلا بهم، عاملا في هيئة مجتمعهم»²، ومتى تعمّق هذا الإنسان في أسرار هذه اللّغة، وأدرك فصاحتها، وتحقّق من أنّ تلك الآداب والعوائد والمعارف « قائمة على أساس الحكمة، وإستحسان العقل الصّحيح، ترقى فوق ذلك إلى مكان التّقرب منهم بفؤاده، والتحم معهم بجامع التّحابب التحام الأنامل بالرّاحة»³.

والناظر في أقوال الرّجل يتحقّق من أنّه يفرّق بين الإنسان الذي يسعى إلى تعلّم لغة غيره؛ ليحقّق التّواصل والتّعارف فقط، وبين من يتعمّق في أسرارها إلى أن يدرك حقائقها التي تمكّنه من تذوق الآداب والمعارف، وعليه يتقرّب من هؤلاء بلسانه وفؤاده، لا بلسانه فقط، وشتان بين هذا وذاك. ومن هنا نقول: إنّ الرّجل أدرك الوظيفة الأساسية للّغة، والتي لا تتوقّف معرفتها عند التّواصل مع غيرنا، بل تتطلّب من الشّخص المقبل على هذه اللّغة الوقوف على أسرارها، وحقائقها والتعمّق أكثر؛ ليتذوّقها ويكشف فصاحتها، وبالتالي يسهل عليه الحكم على آدابها ومعارفها.

وينظر الرّجل إلى اللّغة على أنّها ضروريّة في ترابط أفراد الأمّة الواحدة، والإنضواء تحت لوائها، « فالتّوافق في اللّغة ممّا يزيد العلاقات التي تؤلّف الناس في نظم الإتحاد قوّة ووثوقا، ولهذا ترى الدّاعي إلى الوحدة الوطنيّة يسعى في تعليم لغة الوطن، وتعميم نشرها؛

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 121/6.

² -المرجع نفسه: 121/6.

³ -المرجع نفسه: 122/6.

حتى تكون اللغة الجارية في خطاباتهم وتحريراتهم على وجه الصحة، لا يعدلون إلى التفاهم بغيرها إلا عند الحاجة، ومتى أهملت الأمة لغتها، وزهدت في تعلمها، انفصمت عرا جامعتها لا محالة، وتفرقوا أيدي سبأ¹.

ب- الوظيفة الفكرية:

ثم رأى أن اللغة تؤدي وظيفة فكرية، ففي معرض حديثه عن تأثير اللغة في الفكر، بين أن وظيفتها لا تقتصر على الجانب الثقافي المتمثل في تسجيل التراث البشري، ونقله من جيل لآخر، بل تتعداه وتقف عند طرق تفكيرهم، فمن « الواضح أن الأقسام يختلفون في طرق تفكيرهم؛ وطرز تفكيرهم مبنوث في ألفاظهم، ومدلول عليه بأساليب مخاطباتهم»²، فاللغة حسب رأيه مرآة من خلالها تكشف الفكر الإنساني المبنوث في ألفاظها، « فدراسة اللغة تعدّ السبيل الوحيد لاكتشاف أغوار الفكر الإنساني، وفهم العمليات الذهنية المعقدة التي يقوم بها الجهاز العصبي المركزي لإصدار اللغة »³، زيادة على وظيفتها في توضيح المعاني، وتنظيمها، وترتيبها، وتبسيطها؛ لیتّم إيصال صور المعنى إلى ذهن المخاطب غير مبهمه⁴.

ج- الوظيفة الشخصية:

وحيثما ناقش الداعين إلى توحيد البشرية تحت لغة واحدة أطلق عليها اسم الأسبرانتو، نلمس الوظيفة الشخصية التي تؤديها اللغة، فهي تسهل التعبير عن الانفعالات، والأحاسيس والمشاعر سواء أكانت وجدانية أم فردية، وفي الوقت نفسه تبين ذوقه الشخصي، وخصوصيته التي تجعله ينفرد عن غيره، وعلى هذا الأساس رأى استحالة

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 123/6، 124.

² - المرجع نفسه: 17/6.

³ - الدكتور عبد الفتاح بن قدور: اللغة - دراسة تشريحية - إكلينيكية: 50.

⁴ - المرجع السابق: 16/6.

انضواء البشرية تحت لغة واحدة؛ لأنّ « الألسنة تابعة لأحوال التفكير والإحساس، وهل من سبيل إلى أن تتحد الأمم في تفكيرها وإحساسها؟ »¹.

د- الوظيفة التّواصلية:

لم يغب عن وعي الرّجل أهمّية اللّغة في العمليّة التّواصلية؛ ولهذا نلغيه في مواضع كثير من آثاره، يهتم بالعناصر المكوّنة لهذه العمليّة (المرسل، والمرسل إليه، والرّسالة)، ويعطي لكلّ عنصر أهمّيته في إنجاح التّواصل بين الأفراد²؛ لأنّ « الوظيفة الطّاغية على ما سواها من الوظائف الأخرى في اللّغة الإنسانيّة هي وظيفة التّواصل من حيث هو نزعة اجتماعيّة، وذلك لأنّ الإنسان ميّال بطبعه إلى التّواصل مع الآخرين؛ لإضطراره إلى الحياة معهم في مجتمع له خصوصيّات ثقافيّة وحضاريّة متجانسة »³.

3- خصائصها:

أ- اللّغة نظام:

للّغة قواعد تقوم عليها، ونظام تمّ التّواضع عليه، وعلى هذا السّمت لا يجوز للفرد أن يخرق القواعد المتفق عليها بين الجماعة، ففي معرض مناقشة الشيخ محمد الخضر حسين لإقتراح الشيخ عبد القادر المغربي حول موضوع (الكلمات غير القاموسية)، فبعد أن اقترح الشيخ عبد القادر المغربي صنفا سمّاه (كلمات عربيّة خالصة لم تذكرها المعاجم، لكنّها وردت في كلام فصحاء العرب الذين لا يحتجّ بأقوالهم). ومثّل له بكلمة (أقصصنا) الواردة في تاريخ ابن جرير، و(فخيم) الواردة في كلام اليازجي، و(صدفة) الواردة في كلام الشيخ محمد عبده.

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 18/6.

² - هذه المسألة مبثوثة في تراث الرّجل بشكل ملفت للانتباه.

³ - الدكتور أحمد حساني: دراسات في اللّسانيّات التّطبيقية - حقل تعليميّة اللّغات - (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر: 2000م: 75.

يرى الشيخ محمد الخضر حسين أنّ مثل هذا التصرف يطلق العنان للناطق بالعربية أن يقول في الوصف من صعب صعبا، ومن سهل سهيل، وأن يضع مكان قتل أقتل، ومكان ضرب أضرب، ويقول مكان مشافهة شفهة¹، ثمّ يختم كلامه بقوله: «ولسنا في حاجة إلى إيقاظ هذه الفوضى، وهي نائمة، ولسنا في حاجة إلى أن ندع اللغة تمشي في غير نظام»².

ويسوق مثالا آخر؛ ليدافع عن نظريته في أنّ قوانين أيّة لغة يعود في حقيقة الأمر إلى ما اتفق عليه فصحاؤها. يرى أنّ العربية والألمانية تتفقان في تعريف الاسم الذي يراد منه الجنس، ولكنّ في الألمانية يحذفون أداة التعريف، فالعربي يقول: "أحبّ الشجر"، والألماني يقول: "أحبّ شجرا"، وهذه العبارة لا يقولها العربي حينما يقصد من كلامه أنّه يحبّ جنس الشجر، أفصح للعربي أن يرمي اللغة الألمانية بالخلل، ويحكم على هذا الإستعمال الذي ألفه فصحاء هذه اللغة بالخطأ، على الرغم من أنّ معنى الجنس أصبح مفهوما كما يفهم من توظيف كلمة الشجر مقرونا بأداة التعريف³. وكلامه هذا يقودنا إلى التساؤل: هل يمكن للشخص أن يحكم على لغة ما إنطلاقا من لغته أم لكلّ لغة نظامها الخاصّ بها، يمنعنا من الحكم على أساليبها إنطلاقا من أساليب لغة أخرى؟

ب- اشتراك اللغات في بعض الظواهر:

يقف الرّجل أمام قراءة ابن عامر (ت118هـ) لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ﴾ (الأنعام:137)، والتي فصل فيها بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول به، مدافعا عنها؛ لأنّها قراءة لأحد القراء السبع، وفي الوقت نفسه

¹ - ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 114/6.

² - المرجع نفسه: 114/6.

³ - ينظر: المرجع نفسه: 83،82/2.

يرى: « أن مكانة القرآن المتناهيّة في الفصاحة والبلاغة تقتضي بالاحتجاج به في كلّ حال »¹، وعلينا أن « نأخذ بالقياس على ما وردت عليه كلمه وآياته من أحكام لفظيّة، ولا فرق عندنا بين ما وصل إلينا من شعر العرب ومنثورهم، وما جاء على وجه إنفراد به »²، ويرى أنّ ما جاء في القرآن الكريم من استعمال نراه مخالفا للشائع عند العرب، هو من العربيّة نفسها، المسألة فقط أنّ واضعي القواعد غفلوا عن ذلك، وقبول مثل هذه القواعد في هذه الحال بالذات، هو « زيادة في أساليب القول، وفتح طرق يزداد بها بيان اللّغة سعة على سعتة »³.

إذا فالرجل يدافع عن مسألة الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول به، ويقدم دليلين رآهما كفيّلين، أولهما عدم تحكيم الدّوق في هذه المسألة، يقول: « ولا أخال أحدا يعوّل في مثل هذا على نوقه فيقول إنّ الدّوق ينفر من صورة المعنى »⁴، وفي مقال ينشره تحت عنوان (الدّوق، وفي أيّ حال يعتدّ به؟) يرى « أنّ قواعد النّحو لا يعتبر فيها الدّوق الخاصّ، كما لو أراد بعض الأنواق أن يؤنّث العدد للمؤنّث، ويذكّره للمذكّر، وأن يصرف الممنوع من الصّرف، فإن فعل ذلك، فقد جاء بلغة أخرى غير العربيّة الفصحى؛ لأنّه يعتبر في قواعدها ما روي عن العرب، سواء وافق الدّوق الخاصّ، أو لم يوافق، ولاسيما لغة نزل بها القرآن »⁵.

وثانيهما وجود مثل هذه الظواهر في بعض اللّغات، كاللّغة الألمانيّة مثلا، يقول: « ففي اللسان الألماني-مثلا- يفصلون بين أداة التعريف والمعرّف بجمل كثيرة، وربّما كان الفعل مركّبا من قطعتين، فيضعون القطعة الأولى في صدر الكلام، ويلقون الأخرى في نهايته،

1 - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 35/6.

2 - المرجع نفسه: 35/6.

3 - المرجع نفسه: 37/6.

4 - المرجع نفسه: 36/6.

5 - المرجع نفسه: 68/2.

فيُتفق أن يكون بين القطعتين كلمات فوق العشر¹، ووجود هذه الظاهرة في اللغة الألمانية، تجعل الشيخ محمد الخضر حسين يتساءل: « أفصح للنأشئ على لغة العرب أن يعدّ هذا الفصل في لغة الألمان خروجاً عن حدّ الفصاحة، ويدعوهم -باسم التّجديد- إلى أن يدعوه، ويصلوا أداة التعريف بالمعرّف لزاماً؟! »².

والرجل يسوق هذا الدليل؛ ليثبت أنّ ظاهرة الفصل بين عناصر الجملة ظاهرة تشارك فيها العربيّة غيرها من اللّغات، وفي الوقت نفسه يرى أنّ قوانين اللّغة نظام جرى عليه فصحاء هذه اللّغة؛ ولهذا لا يجوز للنأشئ على لغة ما أن يحكم على مثل هذه الظاهرة في لغة أخرى بأنّها مخالفة لنظام اللّغة؛ لأنّ سالك هذا السّمّت، هو في حقيقة أمره منطلق من لغته، فأنتى له أن يحكم على ظاهرة ما في لغة ما بالخطأ؟!.

ونجده يناقش رأي ابن خلدون الذي اعتبر "الأدوات الرّابطة" و"الإعراب" خاصيتين من الخصائص التي تتفرّد بها العربيّة، ولا يشاركها فيها غيرها من اللّغات، يقول في معرض حديثه عن الأدوات الرّابطة بين الأفعال والذّوات في بعض اللّغات: « ولا نجد في بعض اللّغات أدوات رابطة بين الأفعال والذّوات، وهي الحروف، مثل: اللّغة الصّينيّة، فيتكلّفون في تأديّة معنى "في" -مثلاً- إلى ما يرادف كلمة: وسط، ولها في العربيّة محلّ من الإعتبار، ومدخل في الدّلالة على المقصود، حتّى أفردها بعضهم بالتأليف، وعدّها ابن خلدون من خصائص العربيّة، ونفاها عن غيرها، وليس حكمه هذا بشامل؛ لأنّ الحروف توجد في لغات أخرى؛ مثل: اللّاتينيّة، وما تفرّع عنها »³.

والخاصية الثّانيّة هي الإعراب، فابن خلدون جعله ممّا تتفرّد به العربيّة عن سائر اللّغات، والرجل ردّه، قائلاً: « وزعم ابن خلدون أنّ الإعراب لا يوجد إلّا في لغة العرب،

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 37/6، 36.

² -المرجع نفسه: 82/2.

³ -المرجع نفسه: 150/6، 151.

قال: وأمّا غيرها من اللّغات، فكلّ معنى أو حال لا بدّ له من ألفاظ تخصّه بالدلالة. وقد ثبت أنّ حكم الإعراب ممّا يوجد له أثر في اللّغتين اليونانيّة والألمانيّة، وإن كانت العبرة به في اللّسان العربيّ أزيد، وعنايتهم به أقوى¹. والعبارة الأخيرة من كلامه تشير إلى الخلاف بين هذه اللّغات في مسألة الإعراب، يكمن فقط في أنّ العربيّة إهتمامها بالإعراب أزيد وأكثر من اللّغتين اليونانيّة والألمانيّة.

ج-اللغة متطورة:

اللغة تتطور وتنمو، وتكثر مفرداتها، وتطورها هذا عنوان لمسيرة الأمة المدنيّة، « فمثل اللّغة مع حال الأمة كالمثاقيل التي توضع في مقابل الموزون، فبحساب ما ينقص من اللّغة، ينزل ما يقابلها من حال الأمة إلى درك الشقاء². والشيخ محمد الخضر حسين ينفي عن اللّغة الجمود، ففي محاضراته (في حياة اللّغة العربيّة) يقول: « ممّا يشهد للعرب بارتقاء أفكارهم، وبعدها عن ساحة الجمود: أنّهم لم يستتكفوا- مع إعجابهم بفصاحة لغتهم، وعلمهم بكثرة مفرداتها وتصاريحها- أن يضيفوا إليها من لغات الأمم ما يوفر عددها، ويزيدها سعة على سعتها³. ويتناول في مكان آخر اللّغة في عهد الجاهليّة، ويبين كيف أثرى الإسلام هذه اللّغة، فعبر عن المعاني الجديدة بالألفاظ ازدادت اللّغة العربيّة بها نماء⁴.

4-علاقتها بالفكر وعلاقة الفكر بها:

في معرض حديث الرّجل عن حقيقة اللّغة، وأهمّ وظائفها، يخصّص مبحثين لبيان مدى تأثير الفكر في اللّغة، واللّغة في الفكر، « فلولا الفكر، لفقدت اللّغة خواصّها، ولم يكن لوجودها أية فائدة، فإنّ الفكر هو الذي يربط الألفاظ بمعانيها، فيعتمد إليها، وهي أصوات

1 - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/145.

2 -المرجع نفسه: 6/123.

3 -المرجع نفسه: 6/157.

4 -ينظر: المرجع نفسه: 6/19-21.

فارغة، فيردّها كالأصداف تحمل من الدرر ما يبهر العقل، أو كالأغصان تحمل من الثمار ما تشتهيهِ النفس»¹، فاللغة لا يتحقّق لنا فهمها إلّا من خلال ارتباطها بالفكر، فالفكر يؤثر في اللغة، و به يتوسّل الإنسان « إلى توسيع نطاق اللغة وتنظيمها، فيدخل فيها عند الحاجة كلمات جديدة، أو يبتدع فيها أساليب طريفة، ويضع لها قواعد تساعد الناس على تعلّمها، وتحفظهم من الخطأ عند النطق بها. ومن شواهد تأثير الفكر على اللغة: أنّ اللغة لا يرتفع شأنها، وتظهر فصاحة ألفاظها وغازرة مادّتها وحسن بيانها، إلّا أن تلد أرضها رجالا ذوي عقول نيّرة وقرائح جيّدة»².

وللغة تأثير في الفكر، فكثرة المعاني وتداخلها وعدم تمايزها وغموضها، كلّ ذلك مدّعاة لتكون اللغة « وسيلة إيضاح المعاني الغامضة، وتنسيق المعاني المختلفة، والرّجل الذي يريد أن يؤدّي المعنى في صورة منتظمة، يفكّر في إختيار الألفاظ والأساليب أكثر ممّن لا يبالي أن تقع صور المعاني في ذهن مخاطبه مبهمّة مختلطة. وتأثير اللغة في وضوح المعنى وتنظيمه في ذهن المخاطب أمر لا شبهة فيه، والذي يمارس التدريس أو التحرير، قد يحسّ في نفسه معاني جملة أو مختلطة، فيأخذ في معالجتها بالبسط أو التّسيق، وإنّما يستعين على بسطها أو تنسيقها بكلام نفسي، وليس هذا الكلام النفسي إلّا صور ألفاظ لغويّة تتسرّب من قوة الحافظة إلى المفكّرة، فللغة تأثير على الفكر من قبل أن يعبر عنه بالقلم أو اللسان»³.

ب-نشأتها:

شغلت قضية نشأة اللغة الإنسان منذ القدم، فإنبرى العلماء سواء أكانوا فلاسفة أم علماء الشريعة أم لغويين يبحثون فيها، وتعدّدت رؤاهم بناء على خلفياتهم المعرفيّة التي

1 - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 16/6.

2 - المرجع نفسه: 16/6.

3 - المرجع نفسه: 16/6.

إنطلقوا منها، تناولها الفكر الإنساني يوم فُكر في حقيقة الإنسان، وكان للعرب نصيب في إغناء الفكر البشري بتناولها، والواقف على التراث العربي يتحقق أنّ المسألة ضاربة بجذورها في التاريخ الثقافي لهذه الأمة، وأخذت القضية تفرض نفسها بقوة على العلماء يوم دفعهم القرآن الكريم إلى التدبّر في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: 31)، وبسط علماء الشريعة¹ القول في المسألة، وفصلوا فيها، وانقسموا إلى فريقين، فريق استدلّ على توقيفها، وفريق رأى اصطلاحيتها، والنهج نفسه نهجه علماء اللغة²، ولعلاقة أنظار علماء اللغة بعلمي، فصلت القول في آرائهم.

وانقسم هؤلاء اللغويون إلى فريقين، فريق اعتبرها توقيفية، وعلى رأسهم ابن فارس الذي عقد بابا بعنوان (القول على لغة العرب؛ أتوقيف أم اصطلاح؟)، يقول فيه: «إنّ لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله-جلّ ثناؤه- ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾»³، ثمّ يشرع في تفسير ألفاظ هذه الآية منطلقا من قول ابن عباس-رضي الله عنه- في تحديد المقصود من كلمة (الأسماء)، والتي يقول فيها: «علمه الأسماء كلّها، وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وجمل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. روى حصيف عن مجاهد قال: علم اسم كلّ شيء، وقال غيرهم: إنّما علمه أسماء الملائكة، وقال آخرون علمه أسماء ذريته أجمعين»⁴.

ثمّ يقدّم أدلته على أنّ اللغة توقيفية، ويمكن إجمالها في النقاط الآتية:⁵

¹ - من أمثال هؤلاء: الغزالي، ابن قدامة المقدسي، عبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري، الأمدي، الشوكاني، الرّازي.

² - من أمثال: ابن فارس، ابن جنّي، السيوطي.

³ - ابن فارس: الصّاحبي: 30.

⁴ - المصدر نفسه: 32.

⁵ - ينظر: المصدر نفسه: 33، 34.

- يتخذ من إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه دليلاً على أنها توقيف، ويرى أن اللغة لو كانت اصطلاحاً لجاز لهؤلاء العلماء أن يحتجوا بكلامنا ويقدموه على كلام غيرنا المحتج بهم.

- وذكر أنه لم يبلغنا أن أقواماً ممن اقترب زماننا من زمانهم اصطاحوا على تسمية شيء ما بمصطلح معين اتفقت عليه جماعتهم، ثم لجأنا إلى هذا الإصطلاح، بل على العكس من ذلك، كئنا نستدل على إصطلاح كان قبلهم.

- ثم يرى أن الصحابة أنفسهم -رضوان الله عليهم- وهم البلغاء والفصحاء لم يصطلحوا، ولم يخترعوا لفظة لم تتقدمهم.

- إن الله سبحانه وتعالى علم آدم ما شاء أن يعلمه، ثم علم باقي الأنبياء عليهم السلام نبياً نبياً إلى أن انتهى التعليم إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فاتاه الله -عز وجل- من ذلك ما لم يتيسر لنبي قبله، وعليه لم نر أن لغة حدثت من بعده.

- ولم يغفل ابن فارس السؤال الذي يمكن أن يتبادر إلى ذهن الإنسان، والمتمثل في: ما اللغة التي علمها الله آدم -عليه السلام-؟، ولم اختلفت اللغات إلى لغات شتى؟، ومتى حدث ذلك؟، يجيب قائلاً: « يروى أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم -عليه السلام- قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبها من طين طبخه، فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتاباً فكتبوه، فأصاب إسماعيل -عليه السلام- الكتاب العربي، وكان ابن عباس يقول: أول من وضع الكتاب العربي إسماعيل -عليه السلام- وضعه على لفظه ومنطقه¹».

والواقف على الأدلة التي ساقها الرجل تتبادر إلى الذهن مجموعة من الأسئلة، هل الاحتجاج باللغة توقف عند عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أم استمر إلى ما بعد هذا العهد أي إلى إبراهيم بن هرمة؟ وهل اللغة اكتملت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم،

¹ - ابن فارس: الصحابي: 34.

بحيث لم تحدث ألفاظ جديدة من بعده؟ وإلى مدى يمكن أن تطمئن النفس إلى أن اختلاف اللغات كان بعد الطوفان؟ وإن سلّمنا بذلك، فهل اللغة كانت موحدة قبل ذلك؟ وكيف نوفق بين قول ابن فارس إن الله سبحانه وتعالى علّم الأنبياء -عليهم السلام- واحدا تلو الآخر اللغة، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ (إبراهيم:4)، الدال على تقدّم اللغة على بعثة أي رسول -عليه السلام-؟

وفريق ذهب إلى القول بالإصطلاح، ونعّد ابن جني ممّن نحووا نحو هذا القول، حيث عقد بابا سمّاه (القول على أصل اللغة إلهام أم إصطلاح؟)، يقول في هذا الباب: « هذا موضع محوج إلى فضل تأمل، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنّما هو تواضع وإصطلاح، لا وحي وتوقيف¹، وبعد أن ذكر رأيه سرعان ما يستأنس بالرأي المخالف، فيقول: « إلا أن أبا علي -رحمه الله- قال لي يوما: هي من عند الله، واحتجّ بقوله سبحانه وتعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، وهذا لا يتناول موضع الخلاف. وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها²».

والناظر في قول ابن جني يتحقّق أنّه يستدل بالآية لا من أجل موافقة رأي من يقول بتوقيفية اللغة، وإنّما ليسقط الاستدلال بها، ويدافع عن إصطلاحيتها، من خلال تأويله لمعنى الآية بأقدر الله سبحانه وتعالى آدم -عليه السلام- على أن واضع عليها، ولم يقف عند هذا الحد، بل دعم نظريته هذه بأن أفرد في كتابه بابا سمّاه (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني)؛ ليثبت فيه أنّ اللغة صورة مأخوذة من أصوات الطبيعة.

ثمّ عقد بابا آخر سمّاه (باب في هذه اللغة: أفي وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط)؛ ليثبت أنّ اللغة تطوّرت وازدادت ألفاظها، بسبب إحتياج الناس إلى هذه الزيادة، يقول: « قد تقدّم في أول الكتاب القول على اللغة: أتواضع أم إلهام. وحكينا

¹ -ابن جني: الخصائص: 40.

² -المصدر نفسه: 40.

وجوّزنا فيها الأمرين جميعاً. وكيف تصرّفت الحال وعلى أيّ الأمرين كان إبتدائها، فإنّها لا بدّ أن يكون وقع في أول الأمر بعضها، ثمّ احتيج فيها بعد إلى الزيادة عليه، لحضور الداعي إليه، فزيد فيها شيئاً فشيئاً»¹.

ولم يغب البحث في ذات المسألة عند المحدثين، فتناولوها وتعدّدت رؤاهم، وكثرت حججهم، وجانب بعض منها أصول البحث العلمي، واقتربت من الخيال²، وقال ماريوبان في كتابه (لغات البشر): « ففيما يختصّ بنشأة اللّغة وطبيعتها، لدينا مصادر تعتمد على الأساطير والحديث المنقول والمناقشات الفلسفية، ولكن تنقصها الحقائق العلميّة في هذا الصّدّد»³، وعلى هذا الأساس الذي يبيّن ألاّ ثمرة ستتحقق من البحث في هذه المسألة، « قرّرت الجمعية اللّغويّة في باريس عدم مناقشة هذا الموضوع نهائياً، أو قبول أيّ بحث فيه لعرضه في جلستها»⁴، ومهما تعدّدت آراء الباحثين في أهميّة البحث في المسألة، يمكن لنا أن نقف على رأيين بناء على السّؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا، والمتمثّل في: هل يدخل البحث في هذه المسألة مجال اللّسانيات أم لا ؟

رأي قضى بأنّ البحث في هذه المسألة هو من قبيل البحث في ما وراء الطّبيعة؛ ولذلك يلحق بالبحث الفلسفي، ولا علاقة له بالجانب اللّغوي الصّرف، ولا تتحقّق منه نتيجة تعود على البحث اللّغوي بفائدة⁵، ورأى آخرون أنّه « من المفيد لبيان أهميّة اللّغة،

¹ -ابن جني: الخصائص: 40.

² -ينظر مثلاً: الدكتور إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلومصريّة، (د.ط)، القاهرة: 1976م: 20. الدكتور علي عبد الواحد وافي: علم اللّغة، مكتبة الأنجو مصريّة، الطّبعة السّابعة، القاهرة (د.ت):

125، 126.

³ -ماريوبان: لغات البشر، ترجمة الدكتور صلاح العربي، مطبعة العالم العربي، (د.ط)، القاهرة: 1970م: 17.

⁴ -الدكتور حاتم صالح الضّامن: علم اللّغة، (د.ط)، الموصل: 1989م: 95.

⁵ -ينظر مثلاً: أمين الخوري: مشكلات في حياتنا اللّغويّة، الطّبعة الثّانيّة، مصر: 1965م: 32.

-الدكتور محمود حجازي: علم اللّغو بين التّراث والمناهج الحديثة، (د.ط)، مصر: 1970م: 18.

-الدكتور تمام حسان: مناهج البحث في اللّغة، دار الثقافة، (د.ط)، لدار البيضاء المغرب: 1407هـ-1986م:

وقدم مشكلتها أن يتساءل اللغوي عن نشأتها مهما تكن عسيرة على التّصوّر، فهذا هو المدخل الطّبيعي لدراسة الظّاهرة المجهولة الأصل، ولإثارة خيال الدّارسين حولها، وهو أمر لا يخلوا من فائدة، كما أنّه في نظرنا ضرورة منهجيّة لا ينبغي تجاهلها¹. وأثبت صاحب كتاب (التّفكير اللّساني في الحضارة العربيّة) عبد السّلام المسدي أنّ العرف البشري أوكل البحث في مثل هذه المسائل إلى الفلاسفة، وجعل خوض اللّغويين في هذا يعدّ ضربا من البحث في الماوارئيات²، ولمّا جاءت اللّسانيّات إفتكّت ما سلب منها، وأرجعته إلى البحث اللّغوي، وعلى رأس هذه المسائل البحث في أصل اللّغة³، وعلى هذا المنحى يكون الرّجل قد رأى أنّ البحث في هذه المسألة يدخل ضمن اللّسانيّات، وإرجاع البحث فيها للّغويين، إنّما هو إنتصار لهم.

وبعد أن أجملنا آراء بعض القدماء والمحدثين في نشأة اللّغة، ومدى علاقة البحث فيها باللّسانيّات، صار أمرا ملحاّ عرض رأي الشيخ محمد الخضر حسين في المسألة ذاتها، فبعد أن بيّن أنّ الباحثين ذهبوا في المسألة مذاهب شتى، فمنهم من رأى أنّ مصدرها التّوقيف من الله سبحانه وتعالى، ومنهم من رأى أنّ مبدأها الطّبيعة، ومنهم من جعل منشأها الإصطلاح والتّواطؤ، وقف عند أدلّة هؤلاء، وقال: « وليس في أدلّة هذه المذاهب ما يجعل النّفس في قرارة من علم لا يخالطه ريب »⁴.

ثمّ يردف كلامه هذا برأي مفاده أنّ الناظر في اللّغة، متى صعّد النّظر فيها، وتوغّل في أطوارها إلى أقصى ما يسعه التّاريخ، لن يظفر إلّا بكلمات كثر شذوذها، أو تراكيب لا تفيد الباحث إلّا في أنّ اللّغة التي بين يديه الآن ما كان لها لتصل إلى ما وصلت إليه،

1 - الدكتور عبد الصّبور شاهين: في علم اللّغة العامّ، مؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الثّالثة، بيروت: 1970م: 82.

2 - الدكتور محمود السّعران: علم اللّغة: مقدّمة للقارئ العربيّ، دار النّهضة، (د.ط)، بيروت: (د.ت): 11.

3 - ينظر: الدكتور عبد السّلام المسدي: التّفكير اللّساني في الحضارة العربيّة، الدّار العربيّة للكتاب، الطّبعة الثّانيّة،

بيروت: 1986م: 16.

4 - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6: 15.

لولا تقلبها ومرورها بأطوار تاريخية، وعلى هذا الأساس رأى صعوبة الحكم في أصل هذه اللغات بحكم فاصل¹، ورجح أن البحث في هذه المسألة ينطلق من اللغات التي بين يدي الباحث، يقول: « وإتّما يستفيد من بحثه في اللغات التي بين يديه أنّها تكون في أول أطوارها قليلة الكلمات، غير متنوّعة الأساليب، ثمّ تغزر مادّتها، وتتعدّد أساليبها، على حسب ما يكون للناطقين بها من ثقافة أو حضارة²».

بعد أن اعتبر الرّجل الأدلّة التي ساقها دارسو نشأة اللّغة أدلّة لا تطمئن إليها النّفوس، بل يساورها الرّيب، رأى أنّ تناول المسألة بهذه المنهجية أمر لا يأتي بنتيجة ذات فائدة، بل يصل الباحث إلى ألفاظ وتراكيب قليلة شاذّة، وأنّى له أن يحكم على أصل اللّغة من خلال هذه الألفاظ والتراكيب؟، فالمنهج السليم في رأيه أن ينطلق الباحث من اللّغة التي بين يديه، ويحكم على غزارتها، وتنوّع أساليبها بناء على البيئة التي نشأت فيها، ومدى حضور الناطقين بها في مجال الثقافة والحضارة، فكلّما كان هؤلاء مسافرين المدنيّة، كان حظ اللّغة من التطوّر.

والرّجل بهذا المسلك يكون قد نبّه إلى مسألة يقرّها العلم الحديث، وهي البدء في دراسة نشأة اللّغة إنطلاقاً من اللّغة التي بين يدي الباحث، وربّما برأيه هذا نكتشف عيوب المنهج المقارن والتاريخي نفسه في البحث عن أصل اللّغات، للوصول إلى اللّغة الأم.

وهذا الذي رآه الرّجل خلافاً في المنهج، قرّره عبد السلام المسدي حينما قال: « هكذا يتراءى لنا أنّ جوهر الصّراع قد كان منهجياً جدلياً قبل كلّ شيء: فهو اختلاف في تقدير الموقع الذي منه يبسط موضوع نشأة اللّغة: هل نعوص في جذور الأصل تقديراً وإفتراساً

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 15/6.

² - المرجع نفسه: 15/6.

وتخميناً، أم نحدّد هويّة اللّغة إنطلاقاً ممّا هي عليه كموجود مطّرد مستقر. وبين المنهجين مسافة ما بين النظرة الزمانيّة والنظرة الآنيّة في تقدير الأشياء»¹.

ج- اللّغات قسماً: راقية وغير راقية:

ينطلق الرّجل في تناوله هذه المسألة ممّا كان رائجاً آنذاك بين الباحثين من أمثال جرجي زيدان، وخاصّة في كتابه (الفلسفة اللّغويّة)، فهو يميّز بين اللّغات المرتقيّة، واللّغات غير المرتقيّة²، ولا نختلف إن قلنا إنّ الرّجل قد اطّلع على كتاب (الفلسفة اللّغويّة) لجرجي زيدان³، لكن المسألة تبدو غامضة حينما لا نستطيع الوقوف على المصادر التي استقى منها هذه المعلومات، بسبب عدم التّصريح بها، وهذا المسلك نلمسه كثيراً عند رواد هذه المرحلة، في أثناء كتاباتهم، فالرّجل تكثر عنده مثل هذه العبارات، "نقل بعض الكاتبين" "قرّر الباحثون عن أسرار اللّغة" "يقول الباحثون في اللّغات"، ولم يشر أبداً إلى هؤلاء الكاتبين والباحثين. يبدأ الرّجل حديثه في المسألة بقوله: «تنقسم اللّغات إلى: راقية، وغير راقية، فغير الرّاقية:

ما كانت موادها قليلة، لا يسع التّعبير بها أكثر ما تمسّ الحاجة إليه؛ مثل:

اللّغات الزّنجيّة، ولغة بعض سكّان أستراليا، وهذه الأخيرة-على ما نقل بعض الكاتبين- ناقصة جدّاً بحيث لا يمكنهم التّفاهم بها إلّا مع إشارات حسّية، والعمي عندهم، والمتخاطبون

¹ - عبد السلام المسدي: التّفكير اللّساني في الحضارة العربيّة: 58.

² - ينظر: جرجي زيدان: الألفاظ العربيّة والفلسفة اللّغويّة، مطبعة القديس جاو رجيوس، (د.ط)، بيروت: 1886م: 2.

³ - إذا تصفّحنا محاضراته "حياة اللّغة العربيّة" التي ألقاها عام 1909م بتونس، ألفينا تقاطعاً كبيراً في الأمثلة التي يسوقها الرّجلان، يقول الشيخ محمد الخضر حسين: «وتجد بعض اللّغات خالية من علامة التّمييز بين المذكر والمؤنث؛ كاللّغة الفارسيّة، والتركيّة، والإنجليزيّة (...) ومن اللّغات ما وضع خلياً ممّا يدلّ على العدد؛ كاللّغة الإنجليزيّة (...)، ومنها ما لا يوجد فيه سوى المفرد والجمع (...) ومن خصائص هذه اللّغة (أي العربيّة): جمع التّكسير، وجمع الإسم الواحد على عدّة أمثلة، وهذا لا يشاركها فيه غيرها، حتّى اللّغتان اللتان يجتمعان معها في أصل واحد: العبرانيّة، والسّريانيّة، ويوجد جمع التّكسير في اللّغة الجيزيّة من لغات بلاد الحبشة؛ لأنّها تفرّعت في الأصل عن العربيّة».

محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 150.

ونكر جرجي زيدان هذه اللّغات ذاتها، الإنجليزيّة والفارسيّة والتركيّة في مسألة الجنس والعدد في أثناء تناوله القضية الثّانية في كتابه (الفلسفة اللّغويّة) في مبحث "تصاريف الأسماء".

- ينظر: المرجع السّابق: 42، 43.

ليلا بمنزلة من في آذانهم وقرا، لا يكادون يفقهون حديثا. والراقية: ما غزرت مبانيتها، واتسعت طرق دلالتها، فكانت موفية بتأدية المراد مع الاستغناء عن الإشارة، وعدم الاعتماد على قرائن الأحوال في الأكثر؛ مثل، اللاتينية والفارسية والعربية¹.

وهذا النصّ حينما نقابله بنصّ جرجي زيدان، الذي يقول فيه: «...إنّ فيلولوجي هذا العصر قد قسموها (أي اللغات) باعتبار درجات تهذيبها إلى "مرتقية" و "غير مرتقية"، وهذه الأخيرة تتضمن أدنى اللغات بيانا، وأبسطها ألفاظا، منها اللغات الزنجية (...). وأما المرتقية فهي تمتاز بسعة نطاقها، واشتمالها على أكثر ما يلزم من أنواع التعبير، فتشتمل على لغات العالم المتمدّن، وتقسم تبعا لقابليتها للتصريف والإشفاق إلى "متصرّفة" و "غير متصرّفة"²، نستنتج التشابه البين بين الرجلين على مستوى المعرفة المقدّمة للقارئ العربيّ في هذا المجال.

وحتى الأمثلة التي ساقها جرجي زيدان نلفيها حاضرة بنفسها عند محمد الخضر حسين، يقول جرجي زيدان، وهو يتحدّث عن اللغة الصينية: «يعبرون عن حرف الجرّ "في" بقولهم "وسط"³، ويقول الرجل: «ولا نجد في بعض اللغات أدوات رابطة بين الأفعال والدّوات، وهي الحروف، مثل: الصينية، فيتكلفون في تأدية معنى "في" -مثلا- إلى ما يرادف كلمة وسط»⁴.

ويقول الشيخ محمد الخضر حسين: «ومن اللغات الراقية ما لا يتصرّف؛ مثل: اللغة التركيّة، وبدخول الصّرف في العربيّة تيسّر في اللفظة الواحدة أن تدلّ على معان؛ مثل قولنا: تحاربوا يدلّ بواسطة صيغته الخاصّة على وقوع الحرب بين جماعة، وطبيعة المعنى تقتضي أن لا يعبر عنه بأقلّ من أربع كلمات»⁵. يقول جرجي في أثناء حديثه عن صيغ

1 - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 149.

2 - جرجي زيدان: الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية: 2.

3 - المرجع نفسه: 17.

4 - المرجع السابق: 6 / 150، 151.

5 - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 146.

المزيدات في العربية ودورها في تنويع المعنى الأصلي: « فنحن نعبر عن حصول الضرب بين قوم على التبادل بقولنا: "تضاربوا" ولا يكفي لتأدية هذا المعنى في اللغات الآرية أقل من أربع كلمات »¹.

وأهم نتيجة نصل إليها في هذا المبحث هو إطلاع الرجل على ما كان منتشرًا في العالم العربي من بحوث جديدة في البحث اللغوي، واستفادته منها، واستثمارها في إعادة إنتاج المعرفة من جديد.

2- في قضايا اللغة العربية الخاصة:

كنت قد تحدثت من قبل عن آراء الرجل في مسائل اللغة عامة، والآن سأتناول آراءه في قضايا اللغة العربية بصفة خاصة.

أ- في أصل اللغة العربية:

أشرت من قبل إلى موقف الرجل من قضية أصل نشأة اللغة، الذي عدّ البحث فيه ضربًا من المغامرة التي لا يجني من ورائها الباحث فائدة تعود على هذه المسألة بالفائدة، فالناظر في لغة ما، المنتبّع لأطوارها إلى أقصى ما يسعه التاريخ، لن يعثر إلا على كلمات قليلة، كثر شذوذها، فكيف يمكن له أن يحكم على هذه اللغة أو غيرها بأن أصلها كان كذا أو كذا؟ أو أتى له أن يقول: إن هذه اللغات أصلها يعود إلى هذه اللغة أو تلك؟ إذا كيف نظر إلى هذه القضية في حق اللغة العربية؟

لمعرفة تاريخ اللغات يلجأ العلماء إلى البحث في هذه المسألة اعتماد على ما يتركه أهلها من الآثار والمخطوطات، فالمعروف عن العرب أنه « لم يؤثر عنهم في جاهليتهم الأولى من أنواع الدلالة الثابتة كالكتابة والآثار ونحوها ما يوضح أطوار لغتهم، وعلى ذلك يتعيّن أن تكون لغتهم قد ملكت التاريخ ولم يملكها »². الباحث في هذه الآثار يلفي أن أقدم ما وصلنا من آثار العربية البائدة لا يتجاوز القرن الأول (ق. م)، وأن أقدم ما وصلنا من

¹ - جرجي زيدان: الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية: 34، 35.

² - مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب: 87.

آثار العربية الباقية لا يكاد يتجاوز القرن الخامس الميلادي¹. إذاً هذا يجعلنا نتساءل: هل العربية لم تكن موجودة قبل الميلاد؟، أو بمعنى آخر هل هي أحدث من العبرية مثلاً؟. وحينما نقف عند رأي الرجل في هذه المسألة، نجده يبتعد عن الخوض في تلك القضايا التي تناولت قدم العربية وأصالتها، عند القدماء والمحدثين، ففي محاضراته "حياة اللغة العربية" يجعل عنواناً فرعياً تحت اسم "أطوار اللغة العربية"، يقول فيه: « وأقصى ما ثبت في التاريخ: أنّ هذه اللغة كانت في قبائل من ولد سام بن نوح -عليه السلام-، وهم: عاد، وثمود، وجرهم الأولى، ووبار، وغيرها، وقد انقرضت أجيال هؤلاء، إلا بقايا متفرقين في القبائل، (...)، ثمّ إنتقلت إلى بني قحطان، وكانوا يتكلمون باللسان الكلداني لسان أهل العراق الأصليين، وأول من إنعدل لسانه إلى العربية: يعرب بن قحطان، (...)، إنتقلت إلى أولاد إسماعيل -عليه السلام- بالحجاز، ولم تكن لغة إسماعيل عربية، بل كان عبرانياً على لسان أبيه إبراهيم -عليه السلام-، ثمّ إنخرط في شعوب العرب بمجاورتهم، ومصاهرتهم لجرهم الثانية حين نزل بمكة، فنطق بلسانهم، وورثه عنه أولاده، فأخذوا يصوغون الكلام بعضه عن بعض، ويضعون الأسماء بحسب ما يحدث من المعاني إلى أن ظهرت اللغة في كامل حسنها وبيانها، وصار لها شأن عظيم وتأثير بليغ²».

الرجل في هذا النص يثبت النظرة الإرتقائية للغة العربية، وأنها مرّت بأدوار؛ لتصل إلى هذا الكمال في الحسن والبيان، فهو يكثر، في المحاضرة التي ألقاها، من العبارات الآتية: "ثمّ ارتقت اللغة"، "والأسباب التي ارتقت بها اللغة"، "عصر شبابها"، "تمت عروقتها"، "أنثرت غصونها"، "وارتقى شأنها"، "وكانت اللغة خلال الأعصر الماضية تعلق وتضعف"، "وممّا يشهد بإرتقاء اللغة"، وهذه العبارات وغيرها كثير، يثبت أنّ الرجل يعتمد على المنهج التاريخي

¹ -علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة: 93.

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 124/6.

المقارن، الذي كان سائدا وقتئذ في الغرب، واعتمده رواد هذه المرحلة، ولعلّ عنوان محاضراته " حياة اللغة العربيّة" ما يشير إلى ذلك.

ويبقى هذا الاحتمال واردا، ولم يكن الرجل في تناوله أطوار اللغة العربيّة، معتمدا على المنهج التاريخي لوحده، وإنما كان يقارن بين اللغات التي تنتمي إلى أسرة واحدة، ويقابل بين المتباعدة منها، ولا أستبعد أن يكون الرجل قد تعرّف على المنهج من مكانين مختلفين، إمّا من طريق كتب جرجي زيدان (الفلسفة اللغويّة)، و(تاريخ اللغة العربيّة)؛ لأنّ هناك تقاطعا كبيرا في بعض المسائل بين الرجلين، وإمّا يكون قد استنبط بعض معالم المنهج التاريخي المقارن من مطالعته للتراث العربي القديم.

نحن لا ننكر أنّ المتداول بين الباحثين هو ظهور هذا المنهج في الغرب، لكنّ هناك من الباحثين من يقول: إنّ علماء اللغة القدماء قاموا بهذه الدراسات المقارنة، يقول أحمد مختار عمر في كتابه (البحث اللغوي عند العرب): « وجدت منذ القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) دراسات مقارنة قام بها لغويون متخصصون، ومعظمها تمّ في المغرب والأندلس على يد لغويين يهود سجّلوها باللغة العربيّة، وأشهر عملين تمّا في هذا الخصوص عملا ابن بارون وجودة بن قریش»¹.

وما يعضّد أنّ الشيخ محمد الخضر حسين قد أدرك بعض مبادئ هذا المنهج من التراث العربي القديم، هو تلك النصوص التي يسوقها في معرض إستشهاده لبعض المسائل، ومنها قول الباقلاني: « ولضيق ما سوى كلام العرب، أو لخروجه عن الإعتدال يتكرّر في بعض الألسنة الحرف الواحد في الكلمة الواحدة والكلمات المختلفة كثيرا، نحو: تكرّر الطاء والسّين في لسان اليونان، ونحو الحروف الكثيرة التي هي اسم لشيء واحد في لسان التّرك»² وقوله:

¹ -الدكتور أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، عالم الكتب، الطبعة التاسعة، القاهرة: 2010م: 333.

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 134/6.

« ويقول العارفون بألسنة الأمم: إنهم لا يحدون في تلك الألسنة من الأسماء الموضوعة للشيء الواحد ما يعرفونه من اللغة العربية¹، وقول ابن الأثير: «سمعت من بعض اليهود العارفين بالعبرية أنّ الجمل يسمّى: جمال، فيكون الفرق بين بينهما الألف بعد الميم، وأنكر تسميته كوميل، إلا أنّ هذا يقرب من اسمه بالرومية²».

ب- في أطوارها:

1- في العصر الجاهلي: تحدّث عن أطوار اللغة العربية في مكانين من آثاره، في مقدّمة كتابه (القياس في اللغة العربية)، وفي محاضراته " حياة اللغة العربية"، يقول: « كانت اللغة في عهد الجاهلية تعبّر عن حاجات القوم، وما تجود به قرائحهم، أو يجري في مخيّلاتهم من صور المعاني، فما كانوا ليحسّوا نقصاً في لغتهم (...). ومن نظر في أشعارهم وخطبهم ومحاوراتهم، وجد من جودة تصرّفهم في المعاني، وحسن سبكهم للألفاظ ما يدلّه على أنّهم كانوا يرسلون الفكر والخيال³».

وليبرّر رأيه استشهد بمقطوعة شعريّة لودّاك بن ثميل المازني يخاطب فيها بني شيبان، وطفق يقاربها؛ ليقف على حسن إبداع الشعراء في الفخر بالبسالة والثبات في ساحة الوغى، ودور اللغة في تحقيق هذا المقصد، والملفت في مقاربتها لهذه القصيدة أنّها يتناولها على أساس وحدة نصّها وتماسكه.

2- في صدر الإسلام:

بعد أن تحدّث عن حال العربية في العصر الجاهلي، إنتقل إلى الحديث عنها في صدر الإسلام قائلاً: « ثمّ ارتقت اللغة في صدر الإسلام إلى طورها الأعلى، ودخلت في أهمّ دور يحقّ علينا أن نسمّيه: عصر شبابها، فنمت عروقتها، وأثمرت غصونها بألوان مختلفة من

1- المرجع نفسه: 150/6.

2- المرجع نفسه: 134/6.

3- المرجع نفسه: 19/6.

وبحث المسألة ذاتها في كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) في أثناء مناقشه طه حسين تحت عنوان: " أطوار اللغة العربية ". ينظر: المرجع نفسه: 8/ 99، 100.

الأساليب»¹، ثم يقول في مكان آخر: « طلع الإسلام على العرب وفي هدايته من المعاني ما لم يكونوا يعلمون، بل في هدايته ما لم تف اللغة يومئذ بالدلالة عليه، فعبر عن هذه المعاني بألفاظ ازدادت بها اللغة نماء »²، والواضح من القولين أنّ القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف أديا دورا بارزا في إغناء العربية بألفاظ جديدة .

ولم يقف الرجل عند هذين المصدرين بل رأى أنّ فتح الممالك من بلاد الروم والفرس، زاد في إثراء العربية بألفاظ الحضارة، يقول: « ثم إن فتح الممالك الكبيرة، كبلاد الفرس والروم زاد مجال اللغة بسطة بما نقل إليها من المعاني العلمية أو المدنية »³، ثم يحصر الأسباب التي ارتقت بها اللغة في ثلاثة أسباب⁴:

أ- ما جاء به القرآن الحكيم من صورة النظم البديع، والتصرف في لسان العرب على وجه يملك العقول؛ فإنه جرى في أسلوبه على منهاج يخالف الأساليب المعتادة للفصحاء قاطبة، وإن لم يخرج عما تقتضيه قوانين اللغة.

ب- ما تفجر من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم من ينابيع الفصاحة، وما جاء في حديثه من الرقة والمتانة والإبانة من الغرض بدون تكلف.

ج- ما أفاض الإسلام على عقولهم بواسطة القرآن والحديث من العلوم السامية، وبما نتج عن تعارف الشعوب والقبائل، والتثام بعضها ببعض من الأفكار ومطارحة الآراء، ومعلوم أنّ اتساع العقول وامتلاءها بالمعارف ممّا يرقّي مداركها، ويزيد في تهذيب المعيتها، فتقذف بالمعاني المبتكرة، وتبرزها في أساليب مستحدثة، فإن كثرة المعاني ودقتها تبعث على التقنن في العبارة، والتأنق في سياقها، ويوضح لكم هذا أنّ الناشئين في الحواضر نجدهم في

1 - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 126.

2 - المرجع نفسه: 6/ 21.

3 - المرجع نفسه: 6/ 21.

4 - المرجع نفسه: 6/ 126، 127.

الغالب أوسع غاية في إجتلاب المعاني الفائقة، وأهدى إلى العبارات الحسنة (...); لإشتمال المدن على معان شتى ينتزع الذهن منها هيئات غريبة لا طريق لتصورها إلا المشاهدة.
3- في عهد الخليفة علي رضي الله عنه:

يبدأ الرجل المرحلة الموالية لطور اللغة، يوم إتجه العرب الفاتحون صوب مشارق الأرض ومغاربها؛ لنشر الدعوة الإسلامية، فخالطوا الأمم غير العربية، واقتضت مخالطتهم لها أن فسدت الألسن، ودخلها التحريف، يقول: « اقتضت مخالطتهم من لا يحسن لغتهم ضعف ملكاتها على ألسنتهم، ودخول التغيير عليها في مبانيها وأساليبها وحركات إعرابها، وابتدأ التحريف يسري إلى اللغة في عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه
«1.

ج- في أصل كلماتها:

أول ما يلاحظه المتتبع لآراء الرجل في هذه المسألة، أنّ سؤالاً يكون قد شغل الشيخ محمد الخضر حسين مفاده، هل أصل الألفاظ العربية كان مبنياً على حرفين، أم على ثلاثة أحرف؟ كيف انتقلت العربية من أصل إلى آخر، الرجل، في هذه المسألة، لا ينحو نحو من يرى أنّ العربية الأصل في ألفاظها أنّها كانت ثنائية، ثمّ انتقلت إلى الثلاثي والرّباعي، والخماسي، والسداسي؛ لأنّه يؤمن بأنّ العربية بنيت على قاعدة الاعتدال، وبنائها على هذه القاعدة يقتضي أن يكون أصل كلماتها ثلاثياً، ولتوضيح آرائه سأسوق قوله، على طوله؛ لأقف على حقيقة المسألة.

يقول: « ويشهد لبناء العربية على قاعدة الاعتدال: أنّ أكثر كلماتها وضعت على ثلاثة أحرف، وأقلّوا من الرّباعي والخماسي، لأنّ يطول بهم الأمد في القول بدون فائدة، ولم يكثروا من الثنائي؛ حذراً من أن تتجاوز منه عدّة كلمات في خطاب واحد، فيقع في لهجته تقطع كثير يضعف بنسيجه، ويذهب بحسن تناسقه، وبهاء توّسله؛ فإنّ المتكلم الفصيح- وإن وصل

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 128/6.

الجملة بعضها ببعض، ولم يقف عند إنتهاء كل جملة منها، لا يسردها سرداً، بل يفصلها في منطقها، ويرتّلها ترتيلاً يميّز به المتنبّث في تلقي الخطاب الكلم الداخلي في الجملة من الكلم المنفصلة عنها، وربّما يتبيّن من هيئة نطق الفصيح نهاية الكلمات، فيميّز السامع الحرف الذي هو منتهى كلمة، من الحرف الذي هو بداية لكلمة أخرى. والثلاثي يبتدىء فيه المتكلم بحرف، ويعتمد على ثان، ثمّ ينتهي بحرف آخر، فيكون في آلة النطق أمكن، ويساعده على أن ينحو في هيئة خطابه نحو المتانة والإنسجام¹.

وهذا النصّ قاله، وهو لا زال في تونس؛ أي عام 1909م، يُستشفّ منه أنّ العرب أكثرها من بناء كلماتهم على ثلاثة أحرف، في حين أقلوا من الكلمات الرباعية والخماسية، وهذا حتّى يتجنّبوا الوقوع في كلمات طويلة متجاورات لا تؤدّي معنى، ولم يكثرها من الكلمات الثنائية، ولم يعولوا عليها، حذراً من أن يحتوي خطاب ما على هذه الكلمات وتكرارها، فيضعف مبناه، ونسيجه، ويغيب معناه عند متلقّيه، ويكون هذا المتلقّي قد ميّز فقط الحرف الأخير من كلمة ما، والحرف الأول من كلمة تليها مثلاً، وهذا المنحى لا يجعل الخطاب متيناً ومنسجماً. وأكثرها من الكلمات الثلاثية؛ لأنّ المتكلم يبدأ بحرف، ثمّ يعتمد على ثان، وينتهي كلمته بثالث، وهذه الطريقة تمكّن المتكلم من النطق ببسر.

د- في فضلها وفصاحتها ولهجاتها:

فضل العربيّة وتفوّقها على لغات العالم من المسائل التي تناولها القدماء والمحدثون، وتكفي نظرة إلى عناوين بعض المقالات التي صدرت في الفترة التي نتناولها، يتّضح الأمر جلياً.

يؤمن الرّجل بأنّ إثبات الفضل لا يتوقّف على المفاضلة بينها وبين اللّغات الأخرى، وإنّما النّظر إلى حال اللّغة في حدّ ذاتها، يقول في مقدّمة حديثه عن حياة اللّغة العربيّة: « ولا أظهر في هذا الموقف بدعوى المفاضلة بينها وبين لغات أخرى، ثمّ أقضي لها بالمزية

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 134/6.

والسباق، فإن شرف منزلتها، وقرار حياتها، لا يتوقف في بيانه على الموازنة بينها وبين ما عداها من اللغات»¹، ثم يردف كلامه هذا بقوله: «ولا أدعي -فيما أسوقه من شواهد حسنها- أن جميعه خاص لها لا يشاركها فيه لسان، فإذا أردنا في سلكها فضيلة يعهدها بعض الحاضرين من لغة أخرى، فلا يناج نفسه بأننا خرجنا عن سبيل الغرض والقصد من الإستشهاد؛ إذ يكفيننا داعيًا إلى الذود عن حياضها، وناهضا بالهمم إلى الإحتفاظ بها، أن غيرها من الألسن لا يفوقها بفن من فنوف البيان. فالغرض، إنمّا هو البحث عن حال اللّغة في حدّ نفسها من جهة أطوارها، ومحكم وضعها، واتّساع نطاقها، وارتقائها مع المدنيّة»². ويمكن أن نستنتج من القولين ما يلي:

1-ينفي أن يلجأ إلى الحكم على فضل اللّغة العربيّة، من خلال المفاضلة بينها وبين غيرها من لغات العالم، ولكنّ السّؤال الذي يقفز إلى أذهاننا في هذه المسألة، هل الحكم على فضل لغة ما على غيرها من اللّغات وتفوقها عليها، يكمن في إبراز الفروق الشكليّة فقط أم في إبراز هذه الفروق وبيان أثرها في خدمة المعنى؟

حينما نطلّع على تراث الرّجل نجد المسألة غير غائبة عن ذهنه، ففي مقاربتة بعض المسائل اللّغويّة بين العربيّة والألمانيّة، نجد اهتمامه بإبراز تلك الفروق الشكليّة، وفي الوقت نفسه تبين مدى تأثير هذه الفروق في المعنى، ونضرب مثالاً لتوضيح هذا الرّأي، وقد ضربنا المثال نفسه من قبل، ففي الألمانيّة يحذفون أداة التّعريف، فالعربيّ يقول: "أحبّ الشّجر"، والألمانيّ يقول: "أحبّ شجراً"، وهذه العبارة لا يقولها العربيّ حينما يقصد من كلامه أنّه يحبّ جنس الشّجر، أفيصحّ للعربيّ أن يرمي اللّغة الألمانيّة بالخلل، ويحكم على هذا الإستعمال الذي ألفه فصحاء هذه اللّغة بالخطأ، على الرّغم من أنّ معنى الجنس أصبح مفهوماً كما يفهم من توظيف كلمة الشّجر مقروناً بأداة التّعريف.

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 119.

² -المرجع نفسه: 6/ 119.

2-العربية تشارك غيرها من اللغات في بعض الظواهر: إن وجود ظاهرة لغوية في العربية مثلا، لا ينفي وجودها في غيرها من اللغات، وبهذا الرأي ينفي الرجل ذاك التصور الخاطئ الذي شاع عن اللغة العربية، كونها تتفرد بخصائص لا توجد في غيرها من لغات العالم، وحينما أراد الدفاع، مثلا، عن قراءة ابن عامر للآية السابعة والثلاثين بعد المائة الأولى من سورة الأنعام، والتي فصل فيها بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول به، أثبت أن ظاهرة الفصل بين عناصر الجملة تشترك فيها العربية والألمانية، وهذه النظرة يقرها عبد القادر الفاسي الفهري في كتابه (اللسانيات واللغة العربية)، يقول: « ليست العربية، كما يدعي بعض اللغويين العرب، لغة متميزة تتفرد بخصائص لا توجد في لغات أخرى »¹.

ثم ينفي أن تكون الأدوات الرابطة، والإعراب من خصائص العربية، لا تشاركها فيها لغة أخرى؛ ولهذا ناقش كلام ابن خلدون الذي اعتبر تينك الخاصيتين من الخصائص التي تتفرد بها العربية، ولا يشاركها فيها غيرها من اللغات. إذا فالعربية تشارك غيرها من اللغات في بعض الخصائص، كما تفتقر عنها في خصائص أخرى.

هـ- في علاقتها بالعامية:

كان الشيخ محمد الخضر حسين عضوا في لجنة الآداب والفنون الجميلة، ورئيسا للجنة اللهجات، وكان هدف هذه اللجنة هو البحث في تنظيم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية²، وهذا المنصب مكّنه من البحث في هذه المسألة³، يكتب مقالا تحت عنوان: "اللهجات العربية في هذا العصر"، يقول في حقيقة اللهجات العربية: « لهجات البلاد العربية اليوم أصلها العربية الفصحى، دخلها الفساد من وجوه شتى، وظهر

¹ -الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري: اللسانيات واللغة العربية، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، بيروت: 1986م: 56.

² -مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة: 31/1.

³ -وهذا لا يعدم من أن الرجل تناول هذه القضية سنة 1909م، في محاضراته "حياة اللغة العربية"، في مبحث تحت عنوان: "إتحاد لغة العامة والعربية"، إيماننا منه بأن الدراسات الحديثة تسلم بإتصال اللغات جميعها بلهجاتها.

في كثير من ألفاظها وأساليب مخاطبتها»¹، ويقول في مكان آخر: «إذا تتبنا لغة التّخاطب الآن؛ لنعلم نسبتها من العربيّة، وجدناها نفس العربيّة، ولكن طراً عليها التّحريف بنقص أحوال الإعراب، أو تغيير حروف بعض الكلم بالحركة أو السّكون، أو التّخفيف أو التّشديد، أو الحذف أو الزّيادة، أو القلب أو الإبدال، وقد يرد الخطأ عليها من جهة الإشتقاق؛ نحو: شائب، ومهبول، ومبروك؛ فإنّ الصّحيح عربيّة: أشيب، وأهبل، ومبارك.»²

والناظر في هذين النّصين يدرك وعي الرّجل بهذه المشكلة اللّغويّة، وهي ابتعاد المتكلمين يوماً بعد يوم عن اللّغة العربيّة الفصحى، وهذا الكلام يذكره الباحثون في هذا المجال، يقول إبراهيم أنيس في الانحراف الذي مسّ الكلمات العربيّة: «... فنحن ندرك الآن كثيراً من كلمات اللّهجات المصريّة، غير مدرّكين أنّ لها أصلاً عربيّاً صحيحاً، وأنّها تطوّرت في الأفواه دون عناية بإصلاحها من بادئ الأمر، إذ اتّجهت كلّ العناية إلى لغة الكتابة، وكان المشتغلون بها قليلين جدّاً، وتركت الكثرة الغالبة من النّاس يتخبّطون في حديثهم، فتنتقل الكلمات من صورة إلى أخرى، دون أن تستقرّ على حال، كلّ ينطق كما يهوى، ويقيس ما لم يعرف على ما عرف، وتتوارث الأجيال أخطاء من سبقوهم»³.

ويتحدّث الشيخ محمد الخضر حسين في بعض مميّزات العاميّة على المستويات الصّوتية، والصّرفيّة، والنّحويّة، والتّركيبية، ولكن ينقص هذا الحديث الجانب التّطبيقي، فالشيخ، في الكثير من آرائه، ينحو نحو الإختصار الذي لا يخلّ بالمقصد المراد تحقيقه، ويقلّ من الشّرح المطيل الذي يبعد القارئ عن الهدف، ويشتت تركيزه، ولكن هذا المنحى لا يقلّ من قيمة الجانب التّطبيقي في مثل هذه المسائل التي تحتاج إلى إيراد الأمثلة التّطبيقيّة، ونسوق في هذه المسألة بعض الأمثلة على المستوى الصّوتي الخاصّ بإبدال الهمزة ألفاً، أو ياءً، وهذا حسب حركتها، والحركة التي قبلها، أو حذفها، يقول صاحب شرح

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 25.

² -المرجع نفسه: 6 / 162.

³ -الدكتور إبراهيم أنيس: اللّهجات العربيّة: 172.

المفصل: « فالإبدال بأن تزيل نبرتها فتلين فحينئذ تصير ألفا والواو والياء حسب حركتها وحركة ما قبلها »¹.

-الفأر ← الفار .

-البئر ← البير .

-السّماء ← السّما .

الأصل في الكلمات العامية، هو العربية الفصحى؛ أي أن هذه العامية تنتمي إلى أصل معين، فهي: « تركيب كلامي ينتمي إلى أصل لغويّ معين، ويتميّز عن غيره من مشتقات ذلك الأصل اللغوي في النطق والمفردات وبعض التراكيب »²، وهذه المسألة مسلّم بها في الدراسات اللغوية الحديثة، فاللغات جميعها لها إتصال بلهجاتها، ثم ذكر أن العمل الذي يقوم به دارس لهجة ما، سواء أكانت دراسته إنصبت حول الكلمات أم الأساليب، هو³:
أ-في الكلمات:

-يحدّد الكلمات التي دخلها التحريف.

-يبين وجه تحريفها.

-ينبّه على وجهها الصحيح.

-يدلّ على ما يقوم مقامها من الألفاظ العربية الفصيحة.

-يتعرّض للكلمة المستعملة في غير معانيها المعروفة في كلام العرب، أو معجمات اللّغة، حتّى إذا لم يجد بين هذه المعاني والمعاني التي وضعت لها الكلمة مناسبة، نبّه على أنّ هذه الكلمة استعملت في غير مواضعها، وأرشد إلى الألفاظ التي يصحّ أن تستعمل مكانها.
-في أساليبها:

¹ -ابن يعيش: شرح المفصل: 108/9.

² -نازل معوض أحمد: التّعريب والقوميّة العربيّة في الوطن العربي، (د.ط.)، مركز دراسات الوحدة العربيّة، سلسلة الثّقافة القوميّة 6: 1986م: 41.

³ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 25، 26.

- إذا وجد الباحث في الأساليب ما يخالف قانون نظم الكلام العربي، نبّه على هذه المخالفة، وذكر الوجه الذي يكون به الأسلوب عربيًا فصيحًا.

-في منهج دراستها، وطرق إصلاحها:

ثمّ يشير إلى المنهج الواجب إتباعه في دراسة اللهجات، وهو الوقوف على مدى بعدها عن الفصحى، فإذا حدّدنا هذا البعد، كنّا على بينة من أمرنا في حجم المجهودات التي نبذلها، وهذا المنحى يكشف عن وعي الرّجل بقيمة الوقت الذي سيبدله الباحثون في اللهجات، وفي الوقت نفسه القدرة على تحديد حجم المشكلة وحقيقتها، لمعرفة الوسائل التي ينتهجها الباحثون والأدوات التي يستخدمونها.

ويضرب مثالا عن اللّغة الدّارجة في طرابلس الغرب، وفي المغرب الأقصى، التي ظنّ بعض أهل العلم أنّها « بعيدة عن العربيّة أشدّ البعد، ويرى أنّ العودة بها إلى العربيّة المستقيمة أمر متعسر أو متعذر، ولكنّه متى درسها بنفسه، أو قرأ كتبًا بحثتها بحثًا علميًا وافيًا، يعرف أنّها لم تبعد عن العربيّة إلى الحدّ الذي سبق إلى ظنّه، فيقوى أمله في السّعي لإعادتها إلى العربيّة السّليمة، ويعمل لتحقيق هذا الأمر مجتهدًا»¹.

وعلى هذا الرّأي، فهو يدعو إلى ردّ هذه العاميّة إلى أصلها العربي الفصيح، ويرى الكثير من ألفاظ العاميّة الجزائرية ذا أصل عربيّ فصيح، يقول: « وأذكر أنّي كنت ممّن يحسبون أنّ لهجة بلاد الجزائر قد بعدت من العربيّة إلى أقصى غاية، حتّى أخذت أدرس مفرداتها، وأرجع فيما أشتبّه فيه إلى معجمات اللّغة، فوجدت أكثرها من أصل العربيّة، غير أنّهم يحرفونه بنحو تبديل بعض الحركات أو الحروف، أو بصوغه على غير قياس، أو يتصرفون فيه بأحد طرق المجاز، ويغلب استعماله في المعنى المجازي حتّى يصبح حقيقة في عرفهم الخاصّ»².

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 26 / 6.

² -المرجع نفسه: 26 / 6.

وهذه النظرة التي ذكرها الشيخ في حق اللهجة الجزائرية من أنها قريبة من العربية الفصحى، هي نظرة لا تجانب الصواب، ولا يردّها الباحثون؛ ولهذا إنبرى الكثير من هؤلاء الباحثين الجزائريين يثبتون هذه الصلة في عناوين إختاروها لكتبهم، فالباحثان مختار نويوات ومحمد خان، جاء بحثهما تحت عنوان: (العامية الجزائرية وصلتها بالعربية الفصحى)، قالوا في مقدّمة الكتاب: «...أما هدفها (أي المساهمة) المباشر فدراسة ما بين الفصحى والعامية الجزائرية من وثيق الصّلات. ولا يخفى أنّ العامية الجزائرية نتيجة لتطور الفصحى تطورا حرا جعلها تختلف شيئا ما عما كانت عليه في القرن الأوّل الهجري (...). هدفنا في بحثنا هذا إلى إرجاع بعض الكلمات في اشتقاقها، أو دلالتها إلى أصولها العربية»¹.

ثمّ وقف الشيخ محمد الخضر حسين عند نوع من الألفاظ نراه مبتذلا عند أدباء قطر ما، في حين يكون اللفظ نفسه غريبا عند أدباء قطر آخر، وضرب مثلا، فقال: « ترى العامّة في بلاد بصحراء الجزائر يقال لها: "سوف" يستعملون لفظ: كرف بمعنى: الشّم، فيقولون: كرفت؛ أي: شممت. وفي "القاموس": كلّ ما كرفته، فقد شممته. وأدباء تلك الناحية يتجنّبون استعمالها بهذا المعنى؛ لإبتذالها، وربّما يعدّها بعض الأدباء في بلاد الشرق من غريب اللّغة، فيترك استعمالها لغرابتها، لا لإبتذالها. ولو أرسلت في إيراد ما يشاكل هذه الكلمة في إبتذالها بين أهل قطر، وعدّه غريبا عن آخرين، لأتيت بكلم كثير»².

ومن الأساليب التي رآها أقرب إلى إصلاح هذه اللهجات؛ لإيمانه بأنّ الأصل في ألفاظها أنّه عربيّ فصيح، يمكن لنا إجمالها في النّقاط الآتية:

أ-يشير إلى أنّ العمل الذي يقّده الأفراد في هذا المجال غير كاف، ما لم تعضّضه جهود مجمع اللّغة العربية بالقاهرة، يقول: « وإذا وجد أفراد خدموا اللّغة بإصلاح جانب من أخطاء

¹ -الدكتور مختار نويوات والدكتور محمد خان: العامية الجزائرية وصلتها بالعربية الفصحى. مشروع دراسة لسانية للدارجة في منطقة الزّيبان، الطبعة الأولى، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة: 2005، 5، 6. (المقدّمة).

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 26، 27.

طرأت عليها، وأنقذوا السنة كثيرة وأقلاما من معرّة تلك الأخطاء، فجدير بمجمع اللغة العربيّة الملكي أن يقوم بعمل أوسع من عمل أولئك الأفراد، وأعظم منه أثرا، وهو أن يدرس لهجات الأقطار العربيّة من ناحية ما دخل في ألفاظها وأساليبها من أغلاط، ويدلّ على وجهها الصّحيح»¹.

ب- إكتشاف ما دخل هذه اللّهجات من ضروب الفساد، ثمّ ذكّر وجوه الصّحة ونشرها في المجلّة أو في مؤلّفات خاصّة، يشرف عليها مجمع اللغة العربيّة.

ج- أن يحيل أهل تلك اللّهجات على معجمات اللغة، وكتب النحو؛ فإنّ أكثر النّاس يأخذهم التّعوّد على النّطق بلفظ أو أسلوب غير عربي، فلا يتنبّهون لوجه الخطأ في استعماله.

د- إتصال مجمع اللغة العربيّة بعلماء وأدباء هذه الأقطار، وانتخاب بعضهم؛ ليكونوا أعضاء فخريّين، أو مراسلين، وذلك لتحقيق هدفين:

1- هؤلاء هم الذين يتلقّون ما يقرّره المجمع من إصلاح، ويأخذون به النّشء ما أمكنهم، ويذيعونه في دروسهم ومجالسهم، ويدعون إليه في صحفهم.

2- إذا كان للمجمع في كلّ قطر من الأقطار العربيّة عضو، أو أعضاء، إنفتح أمامه الطّريق لدراسة هذه اللّهجات دراسة وافية.

هـ- إقتناع الرّجل بأنّ دراسة اللّهجات، بعرض مفرداتها وأساليبها على قوانين العلوم العربيّة، قد يحتاج إلى مجهود كبير، وزمن غير قصير؛ فالعمل الجماعي في إطار المجامع اللّغويّة هو الكفيل بتحقيق هذا المسعى، نظرا للوسائل والإمكانات التي تتوفّر لديه.

و- في وسائل تنميتها:

العربيّة لغة حيّة تسائر عصرها، لغة فكر وحضارة، تملك من الوسائل ما يؤهّلها لمسايرة المدنيّة، وإستيعاب العلوم، ما عجزت عن تلبية حاجة المتكلمين بها، وما وقفت جامدة في وجه التطوّر العلمي الهائل. لم يغب عن تفكير الرّجل، وهو يتناول قضايا اللغة

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 27/6، 28.

العربية مسألة البحث في حياة اللغة العربية، ووسائل تنميتها، وأنها لغة علم قادرة على إنتاج المصطلحات، وتسمية ما تنتجه المدنية في مختلف ميادين الحياة. إذا كيف نظر الرجل إلى هذه المسألة؟ وكيف عالجهما؟ وما النتائج التي توصل إليها؟ وما قيمتها مقارنة بمعاصريه ومن تقدمهم؟

سأقف في تناول هذه المسألة عند وسائل تنمية اللغة العربية التي تحدت عنها الشيخ محمد الخضر حسين، ولا تجدي هنا شارحا ما خلفه الشيخ من جهود في هذا المجال، بقدر ما تجدي واقفا عند طرق تفكير الرجل والآليات التي استعملها في تناول هذه المسألة، ومن الوسائل التي تناولها؛ ليثبت حياة العربية ونموها: القياس والإشتقاق، والمجاز والنقل، والتعريب، والمعجمية، والمصطلح.

1- القياس والإشتقاق:

أفرد الرجل الحديث عن القياس بكتاب تحت عنوان (القياس في اللغة العربية)¹، فلقياس أهمية في حياة اللغة ونموها، لجأ إليه القدماء حينما أدركوا أن استقراء كلام العرب جميعه استقراء كلياً مسألة لا تتحقق؛ ولهذا خصه ابن جنّي بحديث في باب تحت عنوان "ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب"²، وردّ الأنباري رأي منكري القياس؛ لأنّ إنكارهم هذا لا يتحقق، قال: «إعلم أنّ إنكار القياس في النحو لا يتحقق؛ لأنّ النحو كلّ قياس»³.

والواقف عند مباحث كتاب (القياس في اللغة العربية) للشيخ محمد الخضر حسين، يجد حديثاً عن الحاجة إلى القياس، وأنواعه، وأركانه، والقياس في صيغ الكلم واشتقاقها، والقياس

1 - أصل هذا الكتاب دروس ألقاها الشيخ محمد الخضر حسين على طلبة دمشق عام 1335هـ - 1914م، نشر بعضاً منها في مجلة المنار عامي 1920م، و1922م، طبع لأول مرة عام 1353هـ - 1934م، ونال بالكتاب نفسه العضوية في هيئة كبار العلماء بمصر عام 1950م. ثم أعيد طبعه ضمن كتاب (دراسات في العربية وتاريخها). ينظر: مجلة المنار، مصر: ربيع الأول 1339هـ الموافق: 10 ديسمبر 1920م: 602-616. المرجع نفسه: 30 جمادى الأولى 1340هـ الموافق: 27 يناير 1922م: 134-141.

الأعمال الكاملة: محمد الخضر حسين: 6/9 - 114.

2 - ابن جنّي: الخصائص: 272.

3 - الأنباري: لمع الأدلة: 95.

على النظم الكلام، وتداخل بين القياس التحوي واللغوي؛ ولذلك لا تجدني متحدثاً عن هذه المسائل، وإنما سأركز على طرق التفكير عند الرجل في جعل القياس وسيلة هامة في يد الإنسان لتوليد الكلمات والجمل التي لا عهد له به من قبل.

عقد الرجل مبحثاً تحت عنوان "الحاجة إلى القياس في اللغة" أشار فيه إلى أهميته في تمكين « الإنسان من النطق بآلاف من الكلم والجمل دون أن تفرغ سمعه من قبل، أو يحتاج في الوثوق من صحة عربيتها إلى مطالعة كتب اللغة، أو الدواوين الجامعة لمنثور العرب ومنظومها »¹، إذا فالقياس عنده وسيلة؛ لأن « المعاني تبلغ في الكثرة أن تضيق عليها دائرة الحصر، وتنتهي دونها أرقام الحاسبين، فلم يكن من حكمة الواضع سوى أن يضع لجانب كبير من المعاني ألفاظاً عينها، كالسما، والمطر، والنبات، والعلم، والعقل، وتوسل للدلالة على يقينها بمقاييس قدرها. والكلم التي تصاغ على مثال هذه المقاييس معدودة في جملة ما هو عربي فصيح. ولولا هذه المقاييس، لضاعت اللغة على الناطق بها، فيقع في نقيصة العي والفهاهة، ويكثر من الإشارات التي تخرج به عن حسن السمت والرزانة، ويرتكب التشابيه محاولاً بها إفادة أصل المعنى »².

الرجل ينطلق من كون القياس وسيلة من وسائل نمو اللغة وتطوؤها، وهو أداة في يد المتكلم من خلالها ينتج آلاف الكلمات والجمل التي لا عهد له بها من قبل، ومن ثمّة فالقياس يغنيه عن الرجوع إلى مصادر اللغة، ويكفيه عناء البحث في هذه المصادر؛ ليتأكد من سلامة قياسه، فهو يوفر له الوقت، وفي الوقت نفسه تكون هذه المقاييس قد رفعت الحرج عن المتكلمين، وأبعدتهم من الوقوع في نقيصة العي والفهاهة، والإكثار من الإشارات، والتشابيه. فأنى لهذا المتكلم أن يوصل المعاني واضحة إلى ذهن السامع في حال إكثاره من الإشارات والتشبيهات؟.

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 29.

² - المرجع نفسه: 6/ 30.

والناظر في آراء الرّجل يدرك مدى إطلاعه على آراء سابقه من أمثال أبي البركات الأنباري، وابن السّراج، وإستثمارها في إعادة إنتاج المعرفة، يقول أبو البركات الأنباري: « أجمعنا على أنّه إذا قال العربيّ: كتب زيد، فإنّه يجوز أن يسند هذا الفعل إلى كلّ اسم مسمّى تصحّ منه الكتابة، سواء كان عربيًّا أم أعجميًّا، نحو: زيد، وعمرو، وبشير، وأردشير، إلى ما لا يدخل تحت الحصر، وإثبات ما لا يدخل تحت الحصر بطريق النّقل محال »¹. فالشيخ محمد الخضر حسين على وعي تامّ بأهميّة القياس في نمو اللّغة وتطوّرها، وذلك في نوعين إثنين هما: القياس على صيغ الكلم وإشتقاقها، وفي نظم الكلام، يقول: «... هذا وجه الحاجة إلى القياس في صيغ الكلم وإشتقاقها، ولا يخفى عليك -بعد هذا- وجه الحاجة إلى فتح باب القياس في نظم الكلام، وما يعرض للكلم من نحو التّقديم والتّأخير، والإتصال والإنفصال، والإعراب والبناء، والحذف والذّكر؛ فإنّ تباين الأغراض، وتشعب العلوم، وتفاوت عقول المخاطبين، وإختلاف أذواقهم، ممّا يستدعي إطلاق العنان للمتكلّمين يذهبون في البيان كلّ مذهب قديم، ويتعلّقون منه بكلّ أسلوب مقبول، حتّى يظهر فيهم الخطيب المصقع، والشّاعر المفلق، والكاتب المبدع، والمناظر المفحم، والمحاضر الغوّاص على الدّرر، والعلامة المجلي للمعاني الغامضة في أجمل الصّور»².

والنظر فيما بسطه الرّجل من أقوال في هذه المسألة، يكتشف مدى تنقيحه في بطون المصادر، ويطلّع على طريقة تفكيره، ولا نجانب الصّواب كثيرا إن قلنا إنّها تفكير رياضي يسعى من خلاله إلى إكتشاف المجهول، وإثبات في الوقت نفسه حقيقة المعلوم وصحّته. وبهذا المنحى يكون الرّجل قد وضع بين يدي القارئ آليات من خلال يعرف القارئ متى يقيس؟ وكيف يقيس؟ ولم يقيس؟. ويغني في الوقت نفسه هذا القارئ من الرجوع إلى المصادر للوقوف على طريقة نطق كلمة ما أو صياغة مصدر لها أو فعل سواء أكان هذا الفعل ماضيًّا أم مضارعًا، وبهذا يشرك القارئ ويمكّنه من هذه الآليات، ثمّ إنّ الوصول إلى

¹ -ابن الأنباري: لمع الأدلّة: 35.

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 31.

ضبط هذه الآليات مسألة تحتاج إلى جهد كبير، وتتبع دقيق لآراء العلماء، وترجيح بينها، وهذا الجهد لمستته عند الشيخ محمد الخضر حسين في أثناء تناوله المسائل الآتية:

أ- في صيغ الكلم واشتقاقها:

1-المصادر:

ينطلق الرّجل في مقارنة هذه المسألة بعقد مقارنة بين المصادر في اللّغة العربيّة والمصادر في اللّسانين الألماني والتركي، ففي هذين اللّسانين تنتهي المصادر فيهما بعلامة (en) في الألمانيّة، أو بعلامتين (مك)، (مق)، في التّركيّة، في حين تنتهي هذه العلامة في مصادر اللّغة العربيّة، وما تتفرّد به العربيّة في هذا الباب أن مصدر فعل الواحد قد يجيء في صيغ متعدّدة، وربّما بلغت هذه الصّيغ تسعا؛ كمصدر تمّ، أو عشرا؛ كمصدر لقي¹. ثمّ حصر جهود العلماء في جمع ما تفرّق من هذه المصادر تحت مقاييس، ثمّ عمدوا إلى هذه المقاييس من ناحية الماضي والمضارع، فقرّبوا مأخذها ما استطاعوا، ومن ثمة جاءت هذه المصادر على ثلاثة أقسام:²

أ- ما لا شبهة في القياس عليه، ومن أمثلة هذا النوع: فعلة مصدر للفعل الرباعي المجرد، وإفعال مصر الفعل الرباعي المزيد، وتفعيل مصدر للفعل المضعّف.

ب- ما لا يختلف في قصره على السّماع، لقلّة ما ورد منه في الكلام، مثل المصدر الوارد على فعّال، نحو كذب كذابا.

ج- ما جرى الخلاف في جواز القياس عليه، وإنحصر هذا النوع في مصادر الفعل التّلاثي، وأرجع الشّيخ سبب الخلاف بين جمهور النّحاة وغيرهم، إلى أنّ الأوّل ألفى لكلّ صيغة من هذه المصادر كلمات كثيرة، تبلغ في كثرتها ما لا شبهة في القياس عليها، والثّاني وجد أنّ

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 54.

² - المرجع نفسه: 6 / 54.

الكثير من الأفعال، جاءت مصادرها خارجة عن القياس، فرجّحوا أنّ مصادر الأفعال الثلاثية يرجع فيها إلى السماع.

2- الأفعال:

أ- الاستدلال بالفعل على المصدر، والعكس صحيح:

يرى أنّ الأفعال التي يكون بينها وبين مصادرها تلازم في أغلب الأحوال؛ جاز لك فيها أن تستدلّ بالفعل الماضي أو المضارع على المصدر، والعكس صحيح، ومثاله:

استفعل، يستفعل \longleftrightarrow استفعال.

استفعل \longleftrightarrow استفعل، يستفعل.

ب- الاستدلال بالفعل على المصدر، والعكس غير صحيح:

وأما إذ كان اللزوم من جهة الفعل، فلا يمكن أن تستدلّ على الفعل سواء أكان ماضيًا أم مضارعًا من خلال المصدر، ومثاله:

فَعَلَ \longleftarrow فَعُل. نَصَرَ \longleftarrow نَصُر. فَعُل \neq فَعَلَ

فَعُل \longleftrightarrow فَعَلَ وَفَعِل. نَصُر وَفَهْم \longleftrightarrow نَصَرَ وَفَهْم.

ب- الاستدلال بالمضارع على الماضي الثلاثي، والعكس صحيح:

ينظر في وجه التلازم بين وزني الماضي والمضارع، فمتى ألفت العرب نطقاً بفعل مضارع، أو فعل ماض غير حلقي العين أو اللام، فلك أن تستدلّ بأحدهما على الآخر،

ولك أن تقيس الكلمات التي وردت على هذا الشكل، ومثاله:

فَعَلَ (غير حلقي العين أو اللام) عَلِمَ وَفَهِمَ، مضارعه: يَفْعَلُ. يَعْلَمُ وَيَفْهَمُ.

يَفْعَلُ (غير حلقي العين أو اللام)، ماضيه الثلاثي: فَعِلَ.

ج- الاستدلال بالماضي الثلاثي على المضارع، والعكس غير صحيح:

وأما إذا كان اللزوم من جهة واحدة، فمتى ألفت فعلاً ماضيًا على وزن فَعَلَ، وجب عليك أن تصوغ مضارعه على وزن يَفْعَلُ، في حين ما كان مضارعه على وزن يَفْعَلُ قد يكون

ماضيه على وزن فَعَلَ، ومثاله: نَصَرَ مضارعه يَنْصُرُ، ولهذا يتعدَّر عليك الإستدلال بالمضارع على الماضي في هذه الحال.

فَعَلَ ← يَفْعُلُ نَصَرَ ← يَنْصُرُ يَنْصُرُ ≠ نَصَرَ

د- الإستدلال بالماضي الرباعي والخماسي والسداسي على المضارع، والعكس صحيح:

وهذا في الأفعال الرباعيَّة والخماسيَّة والسداسيَّة، ومثاله:

أَفْعَلَ ↔ يُفْعِلُ (أَكْرَمَ ↔ يُكْرِمُ).

اسْتَفْعَلَ ↔ يَسْتَفْعِلُ (اسْتَقْبَلَ ↔ يَسْتَقْبِلُ).

ه- صوغ الفعل المضارع من فعل ماضٍ من باب فَعَلَ:

الأفعال الماضيَّة من باب فَعَلَ غير حلقيِّ العين واللام، يكون مضارعها على وزني يَفْعُلُ وَيَفْعِلُ، من مثل: نَصَرَ يَنْصُرُ وَجَلَسَ يَجْلِسُ، والشيخ محمد الخضر حسين يقف في هذه المسألة عند الأفعال الآتية من هذا الباب، والتي لم يسمع لها مضارع، ويسوق رأبي صاحب المصباح، وصاحب شرح الشافقيَّة، فالأول يعطي الخيار للمتكلِّم في أن يختار الضمَّ أو الكسر دون شروط، بينما الثاني يحذو حذو هذا الرأبي بشرط ألا يكون قد عرف استعمال أحد الوزنين بين عامَّة النَّاسِ، فعادة المتكلِّمين أن يطرحوا وزنا ويعولوا على آخر حتى يكثر بينهم، فإن كثر بينهم صار متداولاً معروفاً لديهم؛ ولهذا فاللجوء إليه أولى من اللجوء إلى وزن مهجور، وإذا انتفى هذا الشرط، صار اللجوء إلى الوزنين جائزاً. وأمَّا المذهب الثاني فيرى أن الأكثر في مضارع فَعَلَ هو الكسر، وجعل الكسر هو القياس.

ثم تتناول الصيغ المختلفة في القياس عليها، ومنها صيغة أفعل، ويقصد بها الفعل الثلاثي الذي تدخل عليه همزة النقل، ووجد آراء للعلماء في هذه المسألة، وهي:

أ- رجَّح بعض العلماء أن هذا الباب كلُّه سماعي.

ب- وذهب آخرون إلى أن الفعل اللازم الذي دخلت عليه همزة ليتعدَّى إلى مفعول واحد، هو قياسيٌّ، نحو: جلس وأجلسته، وأمَّا المتعدي في أصله على مفعول واحد، فدخول همزة

علية سماعيٌّ، نحو: لبس الثوب وألبسته إيَّاه.

ج-وقالت طائفة ثالثة إن دخولها على اللازم أو المتعدّي إلى واحد مقبول في القياس.
د-وزاد الأخص أن جعل دخولها على المتعدّي إلى اثنين؛ ليتعدّى إلى ثلاثة صحيح في القياس، وعلى هذا المنحى أعطى هذا الحكم لظنّ، وحسب، وخال، وزعم، وإن لم يرد به السماع.

ثمّ بيّن سبب إختلافهم حول هذه المسألة، وأرجع السبب إلى قضيّة الكثرة ودوران هذه الأفعال في كلام العرب، فمتى تحقّق شرط الكثرة دلّ ذلك على أنّ العرب قصدت لتجعله قياساً مطّرداً، واحتجّ لمسلك الأخصّ بالحقّ ظنّ وأخواتها، بأعلم وأرى، لوجود تشابه بينهما في العمل والدلالة.

ثمّ تحدّث عن الصيغ الآتية: فَعَلٌ، انْفَعَلٌ، اِفْتَعَلٌ، وعن باب المغالبة، واسم الفاعل والصفة المشبّهة، واسم المفعول، وفعل التّعجب وأفعال التفضيل، واسم الآلة، والإشتقاق من أسماء الأعيان، واسم المكان (مفعلة)، والواقف على طريقة تناول الرّجل لهذه المسائل يدرك أنّ الهدف المنشود هو إمتلاك المتكلمين أدوات ووسائل من خلالها يعرف متى يحمل المجهول على المعلوم؛ ليتحقّق من صحة المجهول ليلحقه بزمرة المعلوم بناء على قياس صحيح، فما حمل على كلام العرب وقيس عليه فهو من كلام العرب، ويطلّع الباحث في الوقت نفسه على وعي الرّجل بأهميّة القياس في تنمية اللّغة وتطوّرها، وقدرتها

على مساورة وإستيعاب ما إستجدّ في شتى ميادين الحياة. وسأسوق مثالا للوقوف على طريقة تفكيره في تناول هذه المسائل:

ففي اسم الآلة، يتناول إشتراط العلماء في صياغة اسم الآلة أن يكون من الفعل الثلاثي، وليس من الفعل المزيد أو الرباعي المجرد، يقول: « ووجه إشتراط أن يكون الفعل ثلاثياً: هو أنّ الأفعال المزيدة يؤتي بها لمعان زائدة على أصل معنى الفعل، ووزن مفعول ومفعلة ومفعال لا يسع إلا ثلاثة أحرف، وهي أصول الفعل، فلو صيغ من المزيد اسم في أحد الأوزان الثلاثة، لفاتت المعاني التي تدلّ عليها الأحرف الزائدة في الفعل، وكذلك أخذه من

الرّباعي المجرّد يستدعي حذف أحد حروفه، فيختلّ اللفظ، فإن ورد اسم الآلة من غير الثلاثي، فهو خارج عن القياس، فلك أن تستعمله كما استعمله العرب، وليس لك أن تقيس ما لم يرد استعمال صحيح»¹.

ثمّ يناقش شرط أن يكون الفعل الثلاثي متعدّياً؛ لورود هذا الشرط كثيرا في الفعل المصاغ للدلالة على اسم الآلة، ورأى أفعالا صيغت من الفعل الثلاثي اللّازم، من مثل: معراج، ومعرج للسّلم، ومرفاة للدرّجة، وعلى هذا المنحى قال: «ومن استأنس بإهمال كثير من العلماء الصّرف لشرط التعدّي، واقتصارهم على شرط أن يكون الفعل ثلاثيّاً، وذهب إلى صحّة اشتقاق اسم الآلة من الأفعال اللّازمة عند الحجة، لا نراه ذاهبا مذهباً بعيداً، فلو وضعت آلة للسّباحة، وبدالجماعة أن يسمّوها مِسْبَحَةً، أو مِسْبَحًا، لم يكونوا -فيما نراه- مخطئين»².

ب-القياس على نظم الكلام:

بعد أن تحدّث الشيخ محمد الخضر حسين عن القياس في صيغ الكلم واشتقاقها، دعا إلى فتح الباب نظراً لأهمّيته في حياة المتكلّمين، يقول: «ولا يخفى عليك -بعد هذا- وجه الحاجة إلى فتح باب القياس على نظم الكلم، وما يعرض للكلم من نحو التّقديم والتّأخير، والاتّصال والانفصال، والإعراب والبناء، والحذف والذّكر، فإنّ يباين الأغراض، وتشعب العلوم، وتفاوت عقول المخاطبين، واختلاف أذواقهم، ممّا يستدعي إطلاق العنان للمتكلّمين يذهبون في البيان كلّ مذهب، ويتعلّقون منه بكلّ أسلوب مقبول، حتّى يظهر فيهم الخطيب المصقع، والشّاعر المفلق، والكاتب المبدع، والمناظر المفحم، والمحاضر الغوّاص على الدّرر، والعلّامة المجلي للمعاني الغامضة في أجمل الصّور»³.

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 70.

² -المرجع نفسه: 6/ 70، 71.

³ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 30.

وفتحه هذا الباب يدلّ على تفكيره في هذا النوع من القياس، فالرجل لم يقف عند القياس على صيغ الكلم واشتقاقها، وإنما نظر إلى النظم باعتباره وسيلة تمكّن المتكلم من إيجاد نصوص جديدة في معانيها التي تحملها، وخاضعة في مبانيها إلى نظم سابق، فيقدم ويؤخر بين عناصر الجمل، ويفصل ويوصل، ويحذف ويذكر متى رأى ذلك مناسباً للمقام؛ ومتى فتحنا الباب في نظره أمكننا أن نكون في هؤلاء المتكلمين الخطيب، والشاعر، والمناظر، والمحاضر.

وتبقى الأسئلة المعرفية شاخصة تقرض نفسها على الباحث في مسألة القياس على نظم الكلام، من أين انطلق الرجل في معالجة هذه المسألة؟ ما الوسائل التي انتهجها لتحقيق هدفه؟ وهل فتح هذا الباب يوجد هؤلاء الذين سمّاهم بالخطيب المصقع، والشاعر المفلق، والكاتب المبدع، والمناظر المفحم، والمحاضر الغواص على الدرر؟.

2-المجاز والنقل:

ينشر الرجل مقالا تحت عنوان "المجاز والنقل وأثرهما في حياة اللغة العربية"، فلم يطل كعادته، في بسط تعريف المجاز وذكر أقسامه، ودراسة العلاقات، وإنما ركّز على الهدف المنشود في هذا المقال، يقول: « وأراني في موقف الباحث الذي يسوق حديثه إلى أدباء درسوا فنّ البيان، وكانوا منه على بينة، فلا أطيل في تعريف المجاز وذكر أقسامه، ولا أتعرض للعلاقات التي هي شرط صحته: علاقة فعلاقة، بل أمر على معنى المجاز بكلمة وجيزة، وأتحدث عن العلاقة من الناحية التي يأخذ بها الكلام صحته أو فصاحته العربية، وأتخلص إلى الفرق بين المجاز والنقل، وأريك كيف يكسبان اللغة الثروة، وكيف يقومان بجانب عظيم من حاجات العلوم، وما يتجدد من مرافق الحياة¹».

ونستنتج من قوله هذا طريقة تناوله من مثل هذه المسائل، وهو التركيز على الهدف المنشود، مستعينا في تحقيقه بوسائل تخدم هذا الغرض، وينتهي عنده بسط القول، وكثرة

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 4/6.

التحليل والإطالة فيه، حتى لا يشغل بال المتلقي بالكلام المعاد، ويبعده عن الهدف المنشود، فالإقتصاد اللغوي من أهم أهدافه؛ لتحقيق المبتغى. إذا من أين إنطلق في تناول هذه المسألة؟ وكيف عالجهما؟ وما الوسائل التي إستعملها؟ وما النتائج التي حققتها؟.

الرجل يقف عند حقيقة المجاز، والمعاني التي مرّت بها هذه الكلمة، وصولاً إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت209هـ) الذي نحا بها نحو الوجه الذي يخرج عليه الكلام، وهذا ما عناه في كتابه (المجاز في غريب القرآن)، ثم يتناول رأي الشريف الرضي (ت406هـ) من خلال كتابه (المجازات النبوية)، وابن رشيق (ت463هـ) من خلال كتابه (العمدة)، وهذه الطريقة أوصلته إلى الوقوف على المعنى الخاص التي وصلت إليه كلمة المجاز، يقول: « وهذا المعنى الخاص الذي صارت إليه كلمة المجاز، هو الذي جرت عليه كلمة المجاز، في عرف البيانيين؛ فإنهم إنما يطلقونه على اللفظ الذي ينقله المتكلم من معنى وضع له اللفظ، إلى معنى بينه وبين ذلك المعنى مناسبة؛ أي علاقة، والعلاقة إما المشابهة، وهو مبنى الاستعارة، وإما غير المشابهة، وذلك مبنى ما يسمونه: المجاز المرسل. وهذا المعنى الذي إنتهت إليه كلمة المجاز هو ما نقصده بالبحث في هذا المقال»¹.

وهو في قوله هذا يحصر فكر المتلقي في المسألة التي يريد تناولها بشكل دقيق غير قابل لأي تأويل؛ وذلك ليكون هذا المتلقي على بينة من حدود المسألة، فبعد أن ذكر جهود علماء البيان في تتبع وجوه العلاقات التي راعتها العرب في أثناء نقل أي لفظ إلى غير معناه على سبيل المجاز، ثم إختلافهم حول جواز المولدين في إجراء أي لفظ شأوا مجرى المجاز، بناء على العلاقات التي أحصاها البيانيون، متجاوزين تلك الألفاظ التي نقلتها العرب، كالأسد للرجل الشجاع، والغيث للنبات، واليد للنعمة، فمن العلماء من ضيق على هؤلاء، يقول الشيخ: « فبعضهم ضيق عليهم الدائرة، وبالغ في تضييقها، فلم يبح لهم ولو

¹ -المرجع نفسه: 6/6، 7.

عند تحقّق العلاقة-إجراء أيّ لفظ شأؤوا مجرى المجاز، وجعل حظهم من هذا الفنّ البديع لا يزيد على استعمال الألفاظ التي نطق بها العرب من قبل»¹.

وهذا المذهب في رأي الشيخ ساقط بنفسه، يقول: «وهذا المذهب ساقط بنفسه، ولا أظنّك تجد له نظيراً بين علماء لغة يجري في عروقها دم الحياة»²، وهنا ندرك وعي الرّجل في تقويت الفرصة على المولّدين في هذا المجال، بتضييق دائرة المجاز في حقهم، فلو فتح لهم المجال، ولم يضيّقوا عليهم لوصلنا شيء كثير من هذه المجازات.

ثمّ يسرد رأي الجمهور، في أنّ مدار المجاز يتحقّق متى راع المتكلم العلاقة التي راعتها العرب، ولا ينظر إلى الألفاظ التي سلكت بها العرب مسلك المجاز، ثمّ يقتفي أثرها ويبني مجازاته بالألفاظ نفسها، ولا يخرج عنها، وعلى هذا المنحى جاز لنا أن نطلق «لفظ الإستقلال على راحة البال وهناء العيش، ونسمّي الكتب: خزانة، ونستعمل الرّعد في أصوات المدافع، وإن لم يذهب العرب بلفظ الإستقلال والخزانة والرّعد هذا المذهب من المجاز. وقد جرى على هذا المذهب أئمّة الأدب (...) ولو لم يكن باب القياس في المجاز مفتوحاً إلى هذا الحدّ، لما وجد الشعراء والخطباء في فنّ البيان متّسعا، ولما أحرزت اللّغة من ضروب المجاز والإستعارات هذه الثروة، التي زادت مكانتها رفعة، وآدابها بهاء وسناء»³.

إذا فالرّجل يجاري رأي الجمهور في مراعاة العلاقة، وعدم التّعويل على الألفاظ التي سلكت بها العرب مسلك المجاز، ويدعم رأيه بصنيع علماء اللّغة، فهم يذكرون المعاني الحقيقيّة للكلمات، ولا يلتزمون بذكر الإستعمال المجازي لها؛ لأنّه «لو كان استعمال الألفاظ على سبيل المجاز موقوفاً على النّقل، لدعاهم الإحتفاظ بهذا الفنّ من البيان: أن يلتزموا بعد

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 7/6.

² -المرجع نفسه: 8/6.

³ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 8/6.

بيان المعاني الحقيقية: ذكر المعاني التي إستعمل العرب فيها اللفظ على وجه من المجاز، وما رأيناهم يفعلون¹.

ويرى صنيع الرّمخشريّ في كتابه (أساس البلاغة) في ذكره المعاني المجازيّة بعد الحقيقية، أنّه لم يكن قاصدا فيه حبر النّاس على أنّ تلك المعاني المجازيّة التي إستعملها العرب، لا يجوز التّصرّف فيها وتحويلها إلى معان لم ينقلها إليها العرب، وإنّما مقصوده أن يريك جانب عظيم من أساليب العرب؛ ليقندي النّاشئة بها، ويتّخذونها سلّما إلى مراتب البلاغة. ثمّ يضيف، في أثناء تحقيقه المسألة، الدّوق السّليم، ويراه ضروريّا في الحكم على بعض الإستعمالات المجازيّة، بالرّد أو القبول².

ثمّ وقف عند حقيقة النّقل، وأجاب عن السّؤال الذي يذكره علماء اللّغة، حينما يقفون عند اللفظ الذي أخذ من معنى إلى آخر: أطريق أخذه المجاز، أم النّقل؟، وانطلق في مقاربتة هذا السّؤال من حصر الوجهين المعروفين في حقيقة النّقل، وهما³:

أ- قد يغلب على إستعمال بعض الألفاظ المعنى المجازي، حتى يصير بين النّاس هو المعنى المقصود الذي يتبادر إلى ذهن السّامع، ولا يفهم منه إلّا هذا المعنى عند تجرّده من قرينة، وهذا هو الذي سمّي منقولاً، وجاء النّقل إسما لغلبة هذا الإستعمال، وساق أمثلة من الألفاظ الإسلاميّة، كالصّلاة، والزّكاة، والصّيام، والحجّ، وبعض الأسماء المستحدثة، كالنّقليد، والوقص في العروض، والبرق، والمدرّعة أو الدّارعة.

ب- الألفاظ الموضوعية في الأصل لمعنى كليّ، تدخل تحته جزئيات متعدّدة، فإذا أطلق هذا اللفظ على كلّ جزئية من هذه الجزئيات، كان الإطلاق في هذه الحال من قبيل الحقيقة، ومع مرور الزمن يغلب إستعمال هذا اللفظ على جزئي خاصّ من هذه الجزئيات، فإذا أطلق هذا اللفظ تبادر إلى الدّهن هذا المعنى الخاصّ، ومثاله: الدّابة، لفظ يطلق على كلّ ما يدبّ

¹ - المرجع نفسه: 6 / 9.

² - المرجع نفسه: 6 / 9، 10.

³ - المرجع نفسه: 6 / 11 - 14.

على وجه الأرض من حيوان، ولكن قد أطلق هذا اللفظ في أزمنة ومواطن على أنواع الحيوانات التي تمشي على أربع، وغلبة استعمال هذا اللفظ بهذا المعنى يسمّى نقلاً، ثم ساق أمثلة لما تجدد من العلوم وغيرها من الشؤون المدنية، ككلمة: الإنشاء، الحلول والإتحاد، والمندوب، والعميد، والدير، والمأمور، والحاجب، والمحافظ، والمحامي، والسيارة، والغواصة.

ولم يقف عند هذين النوعين فقط، وإنما تحدّث عن وجه ثالث لا يأتي من حيث غلبة الاستعمال، وإنما يكون بنقل اللفظ من معناه الأصلي الذي وضع له، إلى معنى جديد؛ وذلك لوجود مناسبة بين المعنيين، وقدّم مثالا قال فيه: « كأن يتفق طائفة على نقل اسم "السّوف" من النّاقة التي تكون أوائل الإبل، إذا وردت الماء، ووضعها للعربة التي تكون أوّل القطار-مثلا- ثم أخذوا يستعملونه في هذا المعنى الجديد، بانين استعمالهم على هذا الوضع المنقّق عليه، لا لملاحظة علاقة المشابهة، والظاهر أنّ هذا النّقل لا يرجع إلى واحد من الوجهين المذكورين آنفا »¹.

ثمّ يشير إلى شرط المناسبة بين المعنيين، المنقول منه، والمنقول إليه، ويعدّ صنيع بعض العلماء في نقل أيّ لفظ من معناه الأصلي إلى المعنى الجديد دون مراعاة شرط المناسبة، بعيدا وغير لائق، يقول: « ومما نراه بعيدا وغير لائق: أن يعرض لطائفة من العلماء معنى لا يجدون له إسما خاصا في اللّغة، فيمدّون أيديهم إلى الألفاظ غير ناظرين إلى معانيها اللّغويّة، فينقلون إليه لفظا ليس بين معناه الأصلي والمعنى المنقول إليه مناسبة »². وقوله هذا يحتاج إلى أمثلة نتحقّق من خلالها أنّ بعض العلماء ساروا في هذا السّمت، فمدّوا أيديهم إلى ألفاظ لا مناسبة بين معانيها الأصليّة ومعانيها الجديدة.

ويختّم مقاله بمبحث تحت عنوان "أثر المجاز والنّقل في حياة اللّغة"، الواقف عنده يدرك دعوته إلى جعل المجاز والنّقل وسيلتين من خلالهما تحيي اللّغة وتبقى مسايرة عصرها،

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 13.

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 14.

فهاتان الوسيلتان تمدّان اللّغة بألفاظ تستوعب ما إستجدّ من المعاني في شتىّ مناحي الحياة، وفي الوقت نفسه يناقش مسألة قد تتبادر إلى ذهن المتلقّي، وهي أنّ اللّجوء إلى هاتين الوسيلتين، والتعلّق بهما، يوقنا في مرض من أمراض اللّغة، وهو التّكثير من الألفاظ المشتركة.

يسوق كلمة "القطار" مثالا، فنقل هذه الكلمة من الإبل التي تأتي على نسق، إلى مجموع مراكب "عربات" السّكة الحديديّة، يعدّ سداً للنّقص، وليس إزيادا في الألفاظ، وهذا المنحى يغنيننا على أن نمدّ أيدينا إلى الأسماء الأجنبيّة، في رأيه، ولهذا ردّ على من قال: « وضع الكلمة العربيّة لمعنى جديد، وقد وضعت من قبل لمعنى آخر، يصيرها من قبيل المشترك، فبعد أن يكون لها معنى يتبادر إلى الدّهن عند سماعها، يلابسها شيء من الإبهام لا ينكشف إلّا بنصب قرينة»¹.

يناقش هذا الإشكال، منطلقا من تحديد حقيقة المعاني التي تشترك فيها هذه الألفاظ، ويلفيها إثنين:

أ- اللفظ واحد والمعاني مختلفة مواطنها إختلافا بعيدا، ومن هذا النّوع الألفاظ المشتركة التي يحمل معنيين، أحدهما يرجع إلى أيّ ميدان من ميادين المدنيّة، ومعنى آخر يرتبط بعلم خاصّ، كالطبّ، والنّحو، والحساب، هذا النّوع رأها مقبولا لا شيء عليه، والنّقاش وسياق الحال كفيلا بتوضيح المعنى المقصود.

ب- اللفظ واحد والمعاني ترجع إلى جهة واحدة؛ كأن تكون راجعة إلى علم واحد، قال في حقّ هذا النّوع: «فذلك هو الإشتراك الذي ينبغي لنا أن نتحاماه، حتّى تكون المعاني سهلة المأخذ من الألفاظ»².

¹ - المرجع نفسه: 6 / 15.

² - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 16.

والنتيجة التي يصل إليها، وهي إبقاء طريق المجاز والنقل مفتوحا لكل الساعين إلى جعل هذه اللغة حيّة، وهذا بشروط لا تترك الباب مفتوحا على مصراعيه، ورأى أنّ العودة إلى الألفاظ المبسّطة في كتب اللغة التي هجرها أدباء العصر، ولا يردّدونها في كتاباتهم، أولى من أن نمدّ أيدينا إلى الأسماء الأجنبية، ويكفي في أن نسوق هذه الألفاظ، أن ننطلق من ذوق سليم، وجودة في الاختيار، فهما « كفيلا بأن نسوق إلى ميدان الحياة اللغوية ما يجري على الألسنة جريان الألفاظ المأنوسة في الإستعمال، وليس كلّ غريب يثقل على السمع، ولا كلّ مهجور ينبو عنه الطّبع »¹.

وللتدليل على رأيه هذا يسوق أسماء لأوعية الأمتعة مبسّطة في كتب اللغة، هجرها المحدثون، مثل: الوفضة، والكنف، والزنفليجة، ثم يقول: « فما الذي يضرنا لو نقلنا هذه الأسماء إلى ما نسمّيه: "شنطة"، وبعضها إلى ما نسمّيه "سبت"، وندع لزيد الرّعي وأدواته إسما واحدا، ففيه الكفاية »².

ثم يردّ على شبهة تتبادر إلى ذهن المتلقّي، وهي أنّ اللّجوء إلى نقل هذه المعاني القديمة المعروفة عند هؤلاء العرب الخلّص، سيوقعنا في الالتباس، فكيف نفهم المعاني القديمة، في حال تحويل هذه المعاني القديمة إلى معان جديدة؟، ويدفع هذه الشبهة بقوله: « أن ليس في إستطاعتك حماية العامّة أو أشباه العامّة من الخطأ في فهم الكلام العربي الفصيح في كلّ حال، أمّا الناشئون المتعلّمون، فما يدفع هذا اللبس والخطأ عن أذهانهم ما سيؤلف بعد من المعاجم؛ حيث يلتزم فيها عند التّعريض لمعاني الألفاظ الإشارة إلى عهد نقل اللفظ إلى معناه الحديث »³.

والنتائج التي أصل إليها، من خلال آراء الرّجل، يمكن حصرها فيما يلي:

¹ - المرجع نفسه: 6 / 16.

² - المرجع نفسه: 6 / 17.

³ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 17.

أ- التخطيط اللغوي، إنطلاقاً من المرجعية التراثية، وذلك بدعوته إلى إحياء الكلمات القديمة، والعودة إلى الموروث نستقي منه المصطلحات التي تسد حاجتنا في تسمية المفاهيم الجديدة، يقول علي القاسمي: «... فمن الأفضل العودة إلى التراث لإستكناه مصطلحاته، والإستفادة منها في التعبير عن أغراضنا المستجدة»¹.

ب- إنشاء معاجم تهتم بتاريخ الألفاظ، وتاريخ نقلها من معناها القديم إلى معناها الجديد، وهذا تفكير سليم متى عملت به المجامع اللغوية خاصة، ومن ثمة تثري المعاجم اللغوية بهذه الألفاظ، والتعويل في هذا المنحى على الناشئين المتعلمين في الإطلاع على هذه المعاني الجديدة من خلال هذه المعاجم.

ج- الرجوع إلى الألفاظ المهجورة؛ لنسد بها حاجتنا إلى تسمية هذه المفاهيم الجديدة، وتحقيق هذا الهدف يعتمد على وسيلتين، أولهما الإعتماد على سلامة الذوق، وثانيهما

جودة الإختيار، والرجل لم يطلق العنان في هاتين الوسيلتين خاصة في قضيتي المجاز والنقل.

3- التّضمين:

يقدم الرجل بحثاً لغويّاً تحت عنوان "التّضمين"، يتجاوز فيه تعريف التّضمين لغة وإصطلاحاً²، ويركّز على ثلاث مسائل: غرض التّضمين، وقرينته، وشرطه، يقول: « للتّضمين غرض بلاغيّ هو: الإيجاز، وللتّضمين قرينة هي: تعدية الفعل بالحرف، وهو يتعدى بنفسه، أو تعديته بنفسه، وهو يتعدى بالحرف. وللتّضمين شرط هو: وجود مناسبة

¹ - علي القاسمي: " لماذا أهمل المصطلح التراثي؟"، مجلة المناظرة. فصلية تعنى بالمفاهيم والمناهج، الزباط، العدد:

1993م: 6/36.

² - هذا لا يعدم من أنّ الرجل يقف عند الكثير من الألفاظ معرّفًا إيّاها لغة وإصطلاحاً، ولكنّ الباحث يلفي الشيخ يتجاوز بعض الألفاظ في الوقوف عند حقيقتها لغة وإصطلاحاً، وهذا ما وجدته مثلاً في لفظتي القياس و التّضمين.

بين الفعلين، وكثرة وروده في الكلام المنثور والمنظوم تدلّ على أنّه أصبح من الطّرق المفتوحة في وجه كلّ ناطق بالعربيّة، متى حافظ على شرطه، وهو مراعاة المناسبة¹. وإذا وقفنا عند قوله هذا تبادرت إلى أذهاننا أسئلة: لم تجاوز تعريف التّضمين، وركّز على غرضه وقرينته وشرطه؟ هل قول الشيخ: "وكثرة وروده في الكلام المنثور والمنظوم تدلّ على أنّه أصبح من الطّرق المفتوحة... يشير إلى قياسية التّضمين؟ هل إشارته إلى هذه الأصناف (العامي، والشّبيه بالعامي، والعارف بطرق البيان، والتّلاميذ، والمتعاطون الكتابة من أن يستوفوا وسائلها) تدلّ على أنّه يضيّق استعمال التّضمين، ويتركه بين يدي فئة قليلة من هؤلاء؟.

إنّ تخلّف شرط المناسبة عند الشيخ يبطل التّضمين، ولو صدر هذا التّضمين من العارف بفنون البيان حسب قوله²، وهذا الرّأي مصيب فيه، يقول ياسين أبو الهيجاء في كتابه (مظاهر التّجديد النّحوي لدى مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة): «وقد أصاب الشيخ الخضر حسين حين قال: فإذا لم توجد بين الفعلين العلاقة المعتبرة في صحّة المجاز كان التّضمين باطلاً»³، ومستعملو التّضمين عند الشيخ محمد الخضر حسين أصناف، والنّاظر في هذه الأصناف يتحقّق من أنّ الشيخ يميّز بين عامّة النّاس وخاصّتهم في استعمال التّضمين، وهذا التّمييز لا يراه تضييقاً.

7-المصطلح: قضية التّراث المصطلحي العلمي.

لاشكّ أنّ موضوع المصطلحات من المواضيع التي شغلت الفكر اللّغوي العربي الحديث يوم احتكّ هذا الفكر بالثقافة الغربيّة، واكتشف تأخّر العربيّة في مواكبة التّقدّم الحضاري، واستيعاب هذا الكم المصطلحي الهائل الوافد من الغرب في شتى ميادين المعرفة، حينها

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 212.

² -المرجع نفسه: 6/ 213.

³ -الدكتور ياسين أبو الهيجاء: مظاهر التّجديد لدى مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة، عالم الكتب الحديث، الطّبعة

الأولى، الأردن: 1424هـ -2003م: 30.

إنبرى الكثير من مفكّري ولغويي هذه المرحلة يبحثون عن السبل التي من خلالها يثبتون علمية اللغة العربية، وأنها لغة حيّة قادرة على مسايرة المدنية بما تملكه من قدرات. إذا لم تناول الشيخ محمد الخضر حسين هذا الموضوع؟ كيف نظر إلى قضية المصطلحات؟ ما الميدان الذي شغله، وما الجديد الذي قدّمه؟ وإلى أي مدى يمكن لنا أن نستثمر آراءه التي قدّمها في قضايا المصطلحات؟

فكر الرجل في مسألة المصطلحات، وتفكيره هذا يشير إلى إهتمامه بخدمة اللغة العربية من حيث وضعها الداخلي؛ وذلك بإنتاج أدوات تساهم في نموها، كوضع المصطلحات مثلاً؛ وهذا لإقتناعه بأنّ العربية لغة علمية قادرة على مسايرة عصرها، وإنتاج ما لا حصر له من الألفاظ، وإستيعاب كلّ المفاهيم التي تنتجها المدنية؛ ولهذا خصّ الحديث عن المصطلحات ببحثين علميين، جاء أولهما تحت عنوان: "تيسير وضع مصطلحات

الألوان"¹ وثانيهما تحت عنوان: "طرق وضع المصطلحات العلمية الطّبية وتوحيدها في البلاد العربية"².

كنت قد تحدّثت من قبل عن أهميّة إحياء الألفاظ القديمة في سدّ حاجات المفاهيم الجديدة، ودعوة الشيخ إلى فتح هذا الباب وفق شرطين أساسيين رأهما كفيلين متى أحسن إعتادهما في إحياء الألفاظ القديمة، الذّوق السليم، وجودة الإختيار، وفي البحثين الذين ذكرتهما من قبل، الناظر في أولهما "تيسير وضع مصطلحات الألوان" يقف على حقيقة تفكير الرجل في هذا المجال، والهدف الذي ينشده من وراء هذا البحث، وهو الوقوف على الأصول التي

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 215. بحث قدّمه الشيخ إلى المؤتمر الطّبي العربي الثّالث، المنعقد بالقاهرة في ذي الحجة سنة 1358هـ الموافق: يناير سنة 1940م. ساق في هذا المبحث ثمان وتسعين ومائة إسم.

² -المرجع نفسه: 6/ 238. بحث قدّمه الشيخ إلى المؤتمر الطّبي العربي، المنعقد بالقاهرة سنة 1939م.

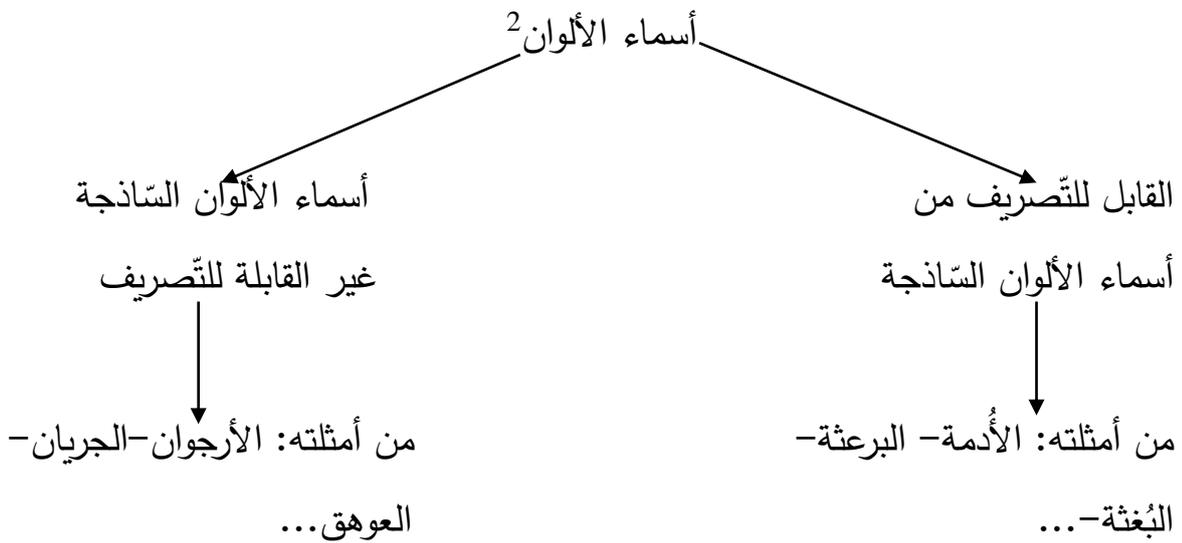
إنطلق منها العلماء القدامى في وضع مصطلحات الألوان، وإثبات أنّ العربية قادرة على وضع مصطلحات للألوان، وأنها ليست بحاجة إلى أن تمدّ يدها إلى اللغات الأجنبية. يقول: « وقد عنيت اللغات الحيّة بوضع أسماء تأتي على الألوان أصولها وفروعها، وربما بدا لذي النظرة القاصرة أنّ اللّغة العربيّة فقيرة من أسماء الألوان، وأنّنا بحاجة إلى أن نستمدّ للألوان مصطلحات من لغات أخرى. وهذا ما دعاني إلى أن أحرّر مقالا، ترى فيه كيف وسعت العربية بما تحويه معجماتها من الكلم، وبما تقرّر في علم صرفها من المقاييس كلّ ضرب من ضروب الألوان المختلفة بأصباغها، أو أشكالها أو درجاتها (...). وها أنا ذا أعرض عليك أصنافا من أسماء الألوان، وأصنافا من الأسماء التي روعي في وضعها لون، وأحدّثك عقب كلّ صنف عن مزيّته، أو عمّا ينبّه له من الأصول الميسرة لوضع مصطلحات جديدة»¹.

ونصّه هذا يكشف عن وعيه، وفي الوقت نفسه يثبت شيئين، أولهما إحتواء المعاجم العربية القديمة على كمّ هائل من المصطلحات الخاصّة بالألوان، بإمكان واضعي المصطلحات أن يعودوا إليها في أثناء وضع هذا النوع من المصطلحات؛ لينتقوا ما يناسبهم من هذه المصطلحات، وثانيهما إثبات أنّ الوقوف على الطّرق التي إنتهجها القدماء في وضع المصطلحات، يمكّننا من صياغة مصطلحات جديدة.

إذا فالرجل يسعى من وراء هذا البحث إلى تمكين واضعي المصطلحات في هذا المجال من أدوات إجرائيّة من خلالها ينتجون مصطلحات جديدة تخصّ الألوان، يقول: « إنّ اللّغة العربيّة تسع -بغزارة مفرداتها، ومساعدة أصول صرفها- كلّ ما يحتاج إليه من المصطلحات العائدة إلى الألوان، وقد رأيتها كيف تدلّ على الألوان بالألفاظ الكثيرة التصرّف،

¹ -المرجع نفسه: 215/6، 216.

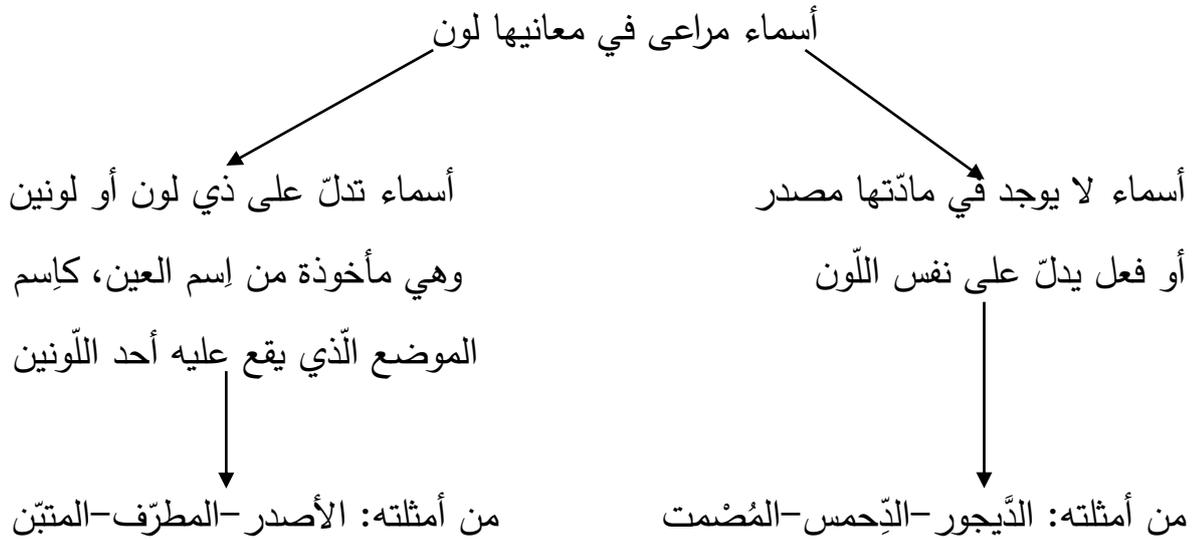
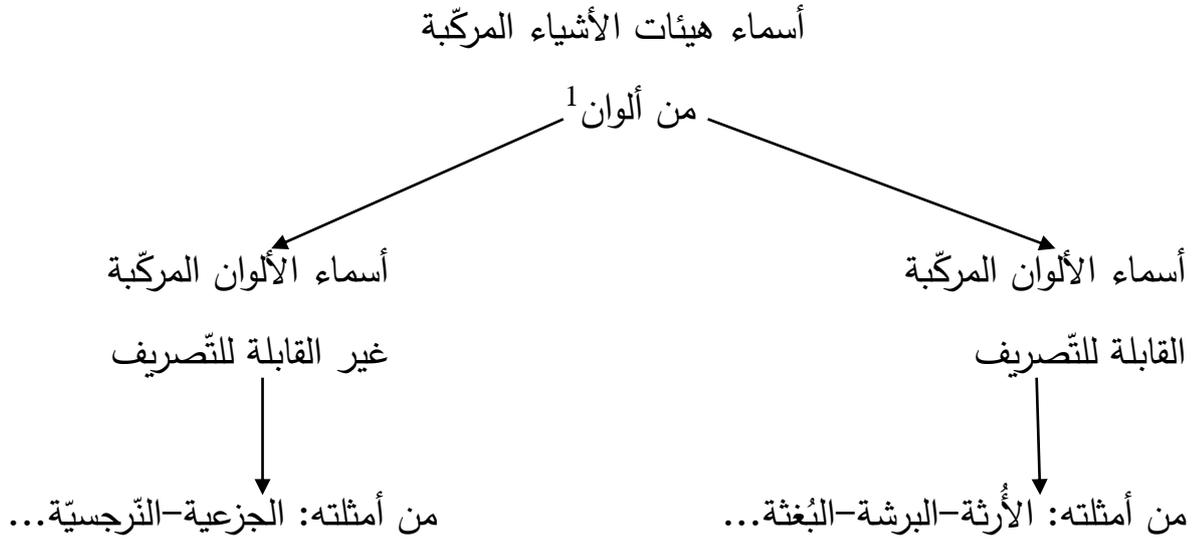
ورأيها كيف فتحت أبوابا يمكن الدّخول منها إلى وضع مصطلحات حاجات العلوم والمدنيّة، دون أن نضطرّ إلى ترقيعها بكلمات من لغات غير عربيّة¹. والسؤال الإجرائي الذي يبقى شاخصا في حقّ البحث الذي قدّمه الرّجل هو: ما الطّريق الذي سلكه في معالجة هذا البحث؟ من أين إنطلق؟ ما الوسائل التي اعتمدها؟ ما النتائج التي حقّقها؟ إنطلق في بحثه، كعادته في تناول المسائل اللغويّة، من مدوّنة تمثّلت في المعاجم العربيّة القديمة، ومنها إستخرج هذه المصطلحات، وقام بتقسيمها وفق منهجيّة يسهل على الباحث الإطلاع عليها والإستفادة منها، وحتىّ نتّمكّن من الوقوف على هذه المنهجيّة سأقاربها في هذه الترسيمات الآتيّة:



¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 237.

² -الإسم إمّا أن يدلّ على لون ساذج، ويراد به ما يشمل اللون الأصلي؛ كالسّواد، والفرعي كالتّشبهية، وإمّا يدلّ على هيئة مركّبة من لونين، أو ألوان، وكلّ من النوعين إمّا يكون مصدرا يؤخذ منه فعل، وإسم فاعل، وإمّا أن يكون غير قابل للتصريف.

محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 216.



¹ - وهو الاسم الذي يدلّ على هيئة مركبة من لونين يمتاز كلّ منهما عن الآخر بصبغة (...), وهذا النوع يأتي مصدرا يؤخذ منه فعل، واسم فاعل، ويأتي اسما غير قابل للتصريف.
المرجع نفسه: 226 / 6.

أسماء إيجاد الألوان



ومن أمثله: البرقشة-الدخلة-الزبرقة...

وأما بحثه الثاني "طرق وضع المصطلحات الطبيّة وتوحيدها في البلاد العربيّة" فقارئه يمكن له أن يقف على الأهداف التي ينشدها هذا البحث، ومنها الوقوف على الطرق التي انتهجها العلماء القدامى في وضع المصطلحات الطبيّة، وفي الوقت نفسه تمكين القارئ، خاصّة المتخصّص في وضع المصطلحات، من إيجاد مصطلحات طبيّة جديدة يواكب بها هذا التقدّم الهائل في المجال الطّبيّ، ثمّ تبيان سبل توحيد هذه المصطلحات. إذا فتحقيق مثل هذه الأهداف يستدعي من الشيخ محمد الخضر حسين أن يتناول هذا البحث بمنهجية علمية واضحة المعالم من خلالها نستثمر المنجز في هذا المجال، فبيحثه هذا يكون قد « خدم اللّغة العربيّة خدمة جليّة، وأصل منهجية وضع المصطلح وكان من المتحمّسين لتوحيدها »¹.

انطلق من أنّ علم الطّب من أكثر العلوم التي وجدت في اللّغة العربيّة ممددا، يقول: «...ولعلّي لا أكون مخطئا إذا قلت: إنّ علم الطّب قد وجد في اللّغة العربيّة مددا أكثر ممّا وجده غيره من العلوم المنقولة إليها، ووجد علماء الطّب بعد ذلك المدد أصولا في اللّغة تسمح لهم بوضع مصطلحات لمعان طبيّة لم يتقدّم للعرب أن وضعوا لها أسماء؛ مثل: الإشتقاق والمجاز والنقل، فصاروا يضعون مصطلحات زائدة على ما تكلمت به العرب في هذا العلم، وصارت كتب الطّب تصدر في عبارات عربيّة فصحي »².

¹ - سعد غراب: "مساهمات تونسية في وضع المصطلحات العلميّة". مجلة اللسان العربي، يونيو (حزيران): 1995م:

العدد التاسع والثلاثون: 96.

² - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 239.

وهذا النَّصّ يشير إلى أنّ اللّغة العربيّة لم تكن عاجزة، حينما إنتقل هذا العلم إلى العرب، عن إستيعابه ومدّه بمصطلحات جديدة، فعلماء الطّب العرب وجدوا في الألفاظ العربيّة ما له علاقة بميدان الطّب؛ فالتفتوا « إلى الألفاظ العربيّة التي وضعت لمعان تدخل في علمهم، أو تتصل به من نحو: أسماء العلل، وأسبابها، وأعراضها، وآثارها، وأسماء الأعضاء والأجزاء منها (...)» إنتفتوا إلى هذه الكلمات، واستعملوا كثيرا منها في معانيها المعروفة في اللّغة¹. وليثبت حقيقة هذه النّظرة ساق مجموعة من المصطلحات من كتب الطّب، هذه الكتب التي ألفها أطباء بلغة عربيّة فصيحة، بيّن من خلالها إعتقاد هؤلاء المؤلّفين على الألفاظ التي إستعملها العرب في هذا المجال، وفي الوقت نفسه قدرة هؤلاء الأطباء على اشتقاق مصطلحات جديدة في مجالهم الطّبيّ، يقول: « فإذا ألقينا نظرة على كتب الطّب المؤلّفة فيما سلف بأقلام عربيّة فصيحة، وجدناها قائمة على كلمات مستعملة فيما وضعها له العرب من المعاني الطّبيّة، وكلمات إستقتها أولئك الأطباء لمعان يتحقّق فيها معنى الفعل الذي أشتقت منه (...)» وكلمات نقلوها من معانيها المعروفة عند العرب إلى معان تربطها بتلك المعاني مناسبة (...)» وكلمات صاغوها على مثال الإضافة؛ كما قالوا: حمى الدّق (...)» أو على مثال تركيب الصّفة والموصوف؛ كما قالوا: الشّريان الصّاعد².

ومن الكتب التي إنطلق منها؛ لتوضيح آرائه، كتاب (القانون) لإبن سينا (ت 427هـ)، وكتاب (التّصريف لمن عجز عن التّأليف) لأبي القاسم خلف بن عبّاس الزّهرراوي (ت

¹ - المرجع نفسه: 6 / 239.

² - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 293، 240.

400هـ)¹، الذي ساق منه أسماء آلات الكيِّ والجراحة، ثم يذكر جهود هؤلاء الأطباء في

سعيهم إلى أن يخرج علم في لسان عربي فصيح².

ثم يقف عند الأسباب التي جعلت الطب في هذه المرحلة من تاريخ الأمة العربية الإسلامية، يخرج في لغة عربية فصيحة، وهي أن الطب وقع بين أيدي أطباء درسوا اللغة العربية، وصاروا أئمة فيها، يقول: «ومن أسباب أخذ علم الطب فيما سلف مكانة في اللغة الفصحى: أن كثيرا من رجال هذا العلم كانوا قد درسوا اللغة العربية إلى أن صاروا من أئمتها، أو صاروا من كبار أدبائها»³.

وهذه النظرة تشير إلى مسألة تميز العلماء القدماء بالفكر الموسوعي، يقول أحمد رمزي

في مقال ينشره تحت عنوان: "التراث العلمي العربي الإسلامي، كيف نفهمه ونستفيد منه؟ الطب نموذجا": «يمتاز العلماء العرب بالفكر الموسوعي، فالمناهج العلمية جعلتهم يتقنون العربية صغارا ويأخذون من العلوم النقلية ما كان فرضا، فتراهم فقهاء محدثين، وأطباء أو فلكيين، أو علماء في الحيل، أو البصريّات، أو الأعشاب، كان العلم عندهم شأنا واحدا»⁴.

¹ -يشير الدكتور أحمد رمزي إلى أن الكتاب لا زال مخطوطا، ومنه مخطوطة بالخزانة الحسينية بالرباط رقم: 134. ينظر: الدكتور أحمد رمزي: "التراث العلمي العربي الإسلامي، كيف نفهمه ونستفيد منه؟ الطب نموذجا". اللسان العربي، مكتب تنسيق التعريب، الرباط: يناير (كانون الثاني)- يونيو (حزيران) 1997م، العدد: الثالث والأربعين: 113.

ويشير جامع آثار الشيخ محمد الخضر حسين، الأستاذ علي الرضا الحسيني، إلى أن هذا الكتاب طبع بالعربية والملايينية في أكسفورد، وتوجد منه نسخة في دار الكتب المصرية.

-المرجع السابق: 6/ 241. (الهامش).

² -ينظر: المرجع نفسه: 6/ 242-244.

³ -المرجع نفسه: 6/ 242.

⁴ -الدكتور أحمد رمزي: "التراث العلمي العربي الإسلامي، كيف نفهمه ونستفيد منه؟ الطب نموذجا". مجلة اللسان العربي، مكتب تنسيق التعريب، الرباط: يناير (كانون الثاني)- يونيو (حزيران) 1997م، العدد: الثالث والأربعين: 112.

ولم يغفل الشيخ عن الحديث في هذا العلم اليوم، والسبب الذي جعل طلابه يقبلون على تعلمه باللغات الأجنبية، يقول: « ظلّ هذا العلم يتقدّم بخطوات سريعة، وبقيت لغتنا واقفة دونه بمراحل، ولما أقبل أبناء العربية على دراسته، اضطروا إلى أن يدرسوه بلغات أجنبية، وأصبح علم الطب، وهو في ديارنا يدرس بلسان غير عربي¹، وانتبه إلى أن علم الطب اليوم في تطوّر مستمر، وتشعبت مباحثه، وكثرت فنونه؛ ولهذا لا يمكن اليوم لعلماء اللغة، في رأيه، أن يضعوا مصطلحات طبيّة تواكب هذا الكم المعرفي الهائل في هذا المجال، إلاّ بمجهودات كبيرة لا تتحقّق إلاّ وفق أعمال جماعيّة تسيّرها مجامع عربيّة، يقول: « ومن هنا شعر الناس في هذا العصر بالحاجة إلى إنشاء مجمع لغويّ عربيّ يقوم بوضع مصطلحات العلوم، كي تسيّر اللغة الفصحى مع العلوم كتفا لكتف²».

والآراء التي طرحها الرّجل في هذا البحث، إذا رحنا نبحث عن قيمتها في ضوء آراء المهتمّين بوضع المصطلحات، وخاصّة التي تتصل بمجال الطب، ألفينا تقاطعها مع هذه البحوث، بل نسجّل سبقا زمنيا في تناول من مثل هذه المواضيع. فنظرة إلى عناوين، ومحتويات بعض المواضيع التي كتبت في هذا المجال، ونشرت في المجلّات التابعة للمجامع اللغويّة، والمنظّمات، والهيئات، تكشف لنا عن إهتمام المشرفين على هذه الهيئات بالمصطلحات الطّبيّة، ويكفي في هذا المجال أن أذكر ما قام به مكتب تنسيق التعريب بالرباط، في أثناء عقده الملتقى الطّبيّ الأوّل (المفاهيم والمصطلح -الماضي التأملي والواقع العلمي)³.

1 -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 244.

2 -المرجع نفسه: 6/ 245.

3 -إنعقد الملتقى الأوّل في : 27-28 مايو/ أذار 1994م بمدينة مراكش، نشرت أعمال هذا الملتقى في مجلّة (اللّسان

العربي) في عددها الثالث والأربعين. ومن مواضيع هذا الملتقى:

-قدرة اللّغة العربيّة على مسايرة الإبداعات والتّجديدات في مجال العلوم الطّبيّة والطّبيعيّة. د: حمزة الكتّاني.

-التّراث العلمي العربي الإسلامي، كيف نفهمه ونستفيد منه. (الطّب نموذجاً). الدكتور أحمد رمزي.

-المصطلح الطّبي من خلال القانون لابن سينا: مصطلحات الكحالة (طب العيون) نموذجاً. د: محمد بوحامدي.

-الإصطلاح الطّبي من التّراث إلى المعاصرة. د: أمل بن دريس العلمي.

ز- في نشأة بعض العلوم اللغوية العربية: مقارنة إبستمولوجية.

- في نشأة علم البلاغة:

لم يغب عن تفكير الرّجل، وهو يراجع بعض آراء معاصريه في قضايا لغوية، البحث في أصول المعرفة في بعض العلوم اللغوية، كعلمي النحو والبلاغة، والدافع إلى الوقوف عند هذه المسألة، هو الكشف عن طرق البحث عند الرّجل في أصول المعرفة، ففي محاضرتين يليهما تحت عنوان "نشأة علم البلاغة"¹، يناقش فيها مسألة هل نشأ البيان العربي من ملاحظات علماء الكلام، الذين تأثروا بالفلسفة والبلاغة اليونانية أم تجمّع هذا العلم من أقوال البلغاء، ومباحث علماء العربية؟

يذكر الرّجل في أثناء مناقشة المسألة أنه حين أسند إليه تدريس علم البلاغة، أوّل ما فكّر فيه هو البحث في أصول هذا العلم، يقول: « فكنّت أطمح في مطالعة بعض أصول هذا العلم إلى أن أعرف من سبق إلى بحثها، وكيف تقلّبت في أطوارها، وأودّ لو يساعدي الحال على أن أتحرّى هذه السيرة في الدّرس، وأمضي عليها في كلّ بحث². وهذا المنحى يدلّ على وعي الرّجل بقضايا أصول المعرفة، ومحاولة الوقوف عند حقيقة الآراء التي يذكرها الباحثون في أصول المعرفة في بعض العلوم اللغوية العربية؛ لأنّنا، في رأيه، « أمة بحث واستدلال، لا نفتتن بزخرف الأقوال، ولا بمظاهر القائلين، ولا نقبل الآراء إلاّ أن تخرج في نور من الحجّة مبين³. »

فعلم البديع الذي رآه بعض العلماء أنّه من صنع المحدثين، رأي فيها نظر، فالرّجل يجاري رأيي ابن المعتز وأبي هلال العسكري الذين يشيران إلى أنّ هذا العلم عرفه العرب،

ينظر: مجلة اللسان العربي، مكتب تنسيق التعريب، الرباط: يناير (كانون الثّاني)- يونيو (حزيران) 1997م، العدد: الثّالث والأربعين.

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 7/ 160، 172.

² - المرجع نفسه: 7/ 160.

³ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 7/ 160، 161.

ويرد رأيي ابن أفلح البغدادي، وابن أبي الحديد الذين فحّما شأن المحدثين في هذه المسألة، فالمحدثون قضيتهم أنهم أكثرها منه، فعرفوا به.

ثم يبحث في السبب الذي جعل علم النحو ينهض قبل علم البيان، يقول: « نهض علم النحو بالتأليف وتقرير القواعد قبل أن ينهض علم البيان ذلك النهوض، فكنا نرى النحاة يستنبطون القواعد، ويختلفون فيها مذاهب، ويودعونها الكتب الضخمة، في حين أننا لا نرى من فنون البيان إلا كلما تجري على السنة البلغاء، أو تصدر من نقاد الخطب والأشعار، أو تقع في مباحث اللغويين أو النحاة، أو تجيء في بيان آيات من القرآن الكريم»¹.

فالنص المذكور أنفا يشير إلى أن علم النحو سبق علم البيان نشأة؛ لأن العرب تقيم لغتها على قانون الإعراب، فيوم إختلط العرب بغيرهم من الأمم، وبدأ اللحن يستشري لغتهم أحسوا بالخطر ينتاب هذه اللغة، فسارعوا خفافا إلى مجابته، ولعلّ السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا، لم أحسّ العرب بهذا الخطر في النحو بالذات ولم يحسّوا به في البلاغة؟ ألم تكن الأمم التي إختلطت بالعرب تتحدّث بهذه اللغة مستعملة نحوها وبلاغتها؟

لم تكن هذه الأسئلة غائبة عن ذهن الرّجل، وهو يتناول هذه القضية، يقول: « (...) العرب على إختلاف طبقاتهم كانوا يقومون على قانون الإعراب، فأول لحن طرق آذانهم أشعرهم بالخطر الذي ينتاب لغتهم الفصحى (...). أمّا فنون البيان، فإنّ العرب يتفاوتون في مراعاتها، والنّسج على منوالها، ففي العرب من يخرج المعاني في صورة جميلة، ويصوغ الكلام في وجوه بديعة، وفيهم من لا يطبق سوى تأديّة المعنى الذي يستوي فيه الغبي والألمعي، والقروي والبدوي، (...)، ولوجود أفراد لا يذكرّون في حساب البلغاء، حتى في عهد الجاهليّة وصدر الإسلام، لم يكن ما نشأ عن إختلاط العرب بالعجم من قصور الألسن عن أمد الفصاحة، وجفافها من ماء البلاغة حادثا مكشوف الوجه كحادث الخطأ في مباني

¹ - المرجع نفسه: 7 / 163.

الكلم والإعراب (...). وتفترق قوانين النحو من قوانين البيان من ناحية أخرى، هي: أن قوانين

النحو تعرف بالاستقراء من غير أن يكون للذوق حكم نافذ في تقريرها¹.

وهذا النص الذي سقته، على طوله، يكشف عما يلي:

1- علم النحو سبق علم البيان؛ لأن العرب على اختلاف طبقاتهم يقيمون لغتهم على قوانين

الإعراب، ويستوي في هذا العرب جميعهم دون إستثناء، فيوم طرق اللحن آذانهم، أحسوا

بالخطر جميعهم، فسارعوا خفافا إلى تدارك هذا الخطر الذي يحيط بلغتهم.

ب- وأما علم البيان فالعرب فيه غير متساوين، فإن لامسنا عند بعضهم القدرة على إخراج

المعاني في صور جميلة، وصياغة الكلام في وجوه بديعة، ألفينا بعضهم الآخر عاجزا على

أن يحقق ما حَقَّته أترابه من بني عشيرته.

ج- تفترق صناعة النحو عن صناعة البلاغة في أن الأولى تعرف بإستقراء كلام العرب من

غير أن يكون للذوق دور في تحقيق هذا المبتغى، بينما لا يكفي في تقرير قوانين البيان

الوقوف على منظوم البلغاء ومنثورهم، وإنما يتحقق الهدف المنشود بتحكيم الذوق؛

ولهذا فالباحثون في هذه الصناعة كانوا أقل من الذين بحثوا في صناعة النحو، وتآليفهم

جاءت أقل عددا، فليس الباحثون في هذه الصناعة جميعهم كانوا ذوي ذوق رفيع وإحساس

رقيق²، وفي هذا المنحى برر تأخر نهوض علم البيان على علم النحو.

د- ومسلكه هذا في تعويله على تحكيم الذوق، والذي يقصد به: « تلك الملكة التي تتربى

بممارسة كلام البلغاء، والتنبه لما تكنه تراكيبيهم من المعاني الدقيقة³»، في المسائل البلاغية،

ساق في التّذليل عليه ثلاثة أقوال، أحدهما لعبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز)،

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 164 / 7.

² محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة -: 164 / 7، 165.

³ - المرجع نفسه: 164، 165.

وثانيهما للسكاكي في كتابه (مفتاح العلوم)، وسعد الدين التفتازاني في شرحه المطول. وهذه الأقوال¹ إذا وقفنا عندها ألفيناها تدعو إلى أن يكون للذوق دور في صناعة البلاغة. والذي يلفت انتباهنا، ونحن نعرض هذا المنحى الذي سلكه الشيخ في تعليل تأخر نشأة علم البيان عن علم النحو على آراء أحد المعاصرين المهتمين بالبلاغة، وهو محمد العمري في كتابه (أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة)، هو تعويل هذا الأخير على مسألة الصرامة العلمية التي نعت بها القياس النحوي، وكانت سببا في الوقوف في وجه البلاغة، في حين تتخلف مسألة الذوق عنده ولا يعول عليها، يقول في مبحث تحت

عنوان " البلاغة والنحو " : «...ولكن الذي وقع تاريخيا هو أنّ الظواهر البلاغية توقفت، في وقت مبكر، في وجه الصرامة العلمية التي نعت بها القياس النحوي وإطراد القواعد»². والشيخ محمد الخضر حسين يعلل سبب التأخر بسببين، أولهما لا يختلف في تقبله الباحثون جميعهم، وأما الثاني فساق له ثلاثة آراء لرواد هذه الصناعة؛ ليثبت حقيقة المسألة، والباحث محمد العمري، وهو معروف ببحوثه في هذا الميدان، يرجح السبب الأول الذي اعتقده الشيخ محمد الخضر حسين سببا معروفا؛ ولذلك لم يسق له أدلة من أقوال علماء هذا الفن.

ثم يواصل الرجل، في محاضراته، البحث عن أصول البلاغة العربية، مثبتا أنّ العرب خاضوا في الوجوه التي يرتفع بها شأن القول، وتأخذهم حين سماع الأقوال البليغة هزة إرتياح

¹ -يقول عبد القاهر الجرجاني: «واعلم أنّه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع، ولا يجد لديه قبولا حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة». ويقول السكاكي: « وكان شيخنا الحاتمي يحيلنا، بحسن كثير من مستحسنات الكلام إذا راجعناه، على الذوق». ويقول سعد الدين التفتازاني، وهو يتحدث عن معاني أدوات الإنشاء: «ولا تنحصر فيما ذكره المصنّف، ولا ينحصر شيء منها في أداة دون أداة، بل الحاكم في ذلك هو سلامة الذوق، وتتبع التراكيب». المرجع نفسه: 7 / 165.

² -الدكتور محمد العمري: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، (د.ط)، المغرب: 2013م:

وإعجاب، فتصدر من أفواههم أقوال، من مثل: معنى دقيق، وجه من الصناعة بديع¹، ثم يسوق قول حازم القرطاجني في كتابه (المناهج الأدبية)²؛ ليثبت أن الحديث في هذه الصناعة، أي صناعة البيان، يعود إلى العصر الجاهلي، يقول معلقاً على قول حازم القرطاجني: « هذا ما يصرح به أحد جهاذة البيان مستندا إلى الروايات الكثيرة، ومقتضاه: أن الحديث في صناعة البيان قد بدئ في عهد الجاهلية، وليس في قوانين النظر، ولا في سنن نشأ العلوم ما يقضي بامتناعه »³.

-علم البيان وعلماء الكلام: يناقش الرجل مسألة هل علم البيان العربي نشأ عند علماء الكلام أم عند غيرهم من علماء العربية؟. ثم ردّ الرأي القائل إن علم البيان نشأ عند علماء الكلام، فهو لم ينشأ من الشعر، وإنما نشأ من النثر حين ظهرت مذاهب الكلام عند المسلمين⁴. ينطلق الرجل من حقيقة نشأة العلم، ويورد السؤال التالي: أيراد بها مبدأ الحديث عما يعده في مباحثه، ويدخل في موضوعه؟، أم يراد بها: حالة ما يأخذ الناس في وضع قواعده وجمع مسأله؟.

ينفي أن يكون مقصود المحاضر هو الوجه الأول، الذي يدلّ على أن المتكلمين هم أول من تكلم في هذا العلم؛ لأنه لا يتحقق على مستوى السبق الزمني، فهناك من تناول بعض فنون هذا العلم قبل ظهور المتكلمين أنفسهم، ويردّ دعوى أن المتكلمين أخذوا في وضع قواعده، وتنظيم مسأله من وجهين، أولهما أن المحاضر نفسه سمى الذي كان يدور بين

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 7 / 165.

² -الكتاب معروف بين أوساط الباحثين بعنوان: "مناهج البلغاء وسراج الأدباء". ذكر محمد الحبيب بن خوجة أنه وجد في الصفحة الأولى بخط مغاير: "المناهج الأدبية"، ورجح أن هذا العنوان كان من وضع أحد مالكي النسخة. والشيخ محمد الخضر حسين إطلع عليه، والكتاب مسجل بهذا العنوان.

ينظر: حازم القرطاجني: مناهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت: 1981م: 93، 94 (مقدمة المحقق).

³ -المرجع السابق: 7 / 167.

⁴ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة 7 / 167.

المتكلمين بملاحظات، يقول في محاضراته: « وإنّ الجاحظ يرجع في ذلك إلى علماء الكلام، يعتمد على ملاحظاتهم التي كان يأخذها على بعضهم البعض»¹.

ينطلق الشيخ محمد الخضر حسين من قول المحاضر، ثمّ يتساءل ما المقصود بالملاحظات، أين تتقاطع وتختلف مع ملاحظات غيرهم من الأدباء، ولمّ لم يسق المحاضر أمثلة نتمكّن من خلالها إدراك حقيقة هذه الملاحظات؟، ثمّ يقف عند مسألة رجوع الجاحظ إلى علماء الكلام؛ ليعتمد على ملاحظاتهم، ثمّ يقول: « وإذا كنا نجد الجاحظ قد نقل عن بشر بن المعتمر أحد جهابذة علم الكلام صحيفة تشتمل على شيء من أصول الخطابة وآدابها، فإنّ بشرا هذا كان معدودا في أكابر البلغاء، فيصحّ أن يكون ما في هذه الصحيفة صادرا في ناحية ما تجمّع لديه من وسائل البلاغة، لا من ناحية كونه متكلمًا؛ إذ لم يكن ما تحمله تلك الصحيفة بعيد المأخذ من مدارك البلغاء ونقّاد الخطب ممن لم يدرسوا علم الكلام»².

فبعد أن بيّن أنّ الاعتماد على ملاحظات المتكلمين، هذه الملاحظات التي لم يوضّح المحاضر حقيقتها، ولم يسق لها أمثلة توضّحها، غير كاف للبحث عن نشأة هذا العلم من طريق هؤلاء المتكلمين، فالى أيّ مدى يحقّ لنا أن نعتبر تلك الملاحظات التي يصدرها علماء الكلام كافية في نسبة هذا العلم إليهم؟.

ثمّ يرى أنّ الصواب في هذه المسألة هو البحث عن نشأة هذا العلم من طريق البلغاء وعلماء العربيّة، يقول: « والصواب فيما نرى: أن نبحث عن علم البيان من طريق البلغاء وعلماء العربيّة، وسواء بعد هذا أكان البليغ أو العالم بالعربيّة من علماء الكلام كالجاحظ، وبشر بن المعتمر، أم لم يملك سوى مزية البلاغة، ولم ينظر في غير علوم اللسان»³.

¹ -المرجع نفسه: 7 / 169.

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 7 / 169، 170.

³ -المرجع نفسه: 7 / 170.

ثم يسوق للتدليل على نظرتة أقوالا لبلغاء وعلماء اللغة والنحو من مظانها، وقصصا تروي إهتمام نقاد الشعر بشيء من فنون البيان، ويرفع نظره إلى صدر الإسلام وعهد الدولة الأموية، والدولة العباسية، ويذكر حقيقة البلاغة عند الإمام علي بن أبي طالب، وابنيه الحسن ومحمد بن الحنفية، وما روي عن يزيد بن معاوية في شأن الفصل والوصل، ورأيي أبي العباس السفاح والمفضل الضبي في البلاغة، وقول ابن خلدون في الذين كتبوا في البلاغة، وحديث شبيب بن شيبه عن ثلاثة أنواع من البديع: حسن الإبتداء، وحسن الإنتهاء، وجودة القافية.

ثم يتحدث عن علماء اللغة والنحو، وآرائهم في بعض وجوه البيان ومحاسنه، وأنهم كانوا يعرجون على جانب من هذه الوجوه، ومن هؤلاء نجد أبا عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، وسيبويه، والفراء، وأبا عبيدة معمر بن المثنى، والأصمعي، ثم ذكر بعد هؤلاء الجاحظ، وعبد الله بن قتيبة، والمبرد، وابن دريد، وعبد الله بن المعتز، وقدامة بن جعفر، وهؤلاء جميعهم ساق آراءهم وأقوالهم من كتبهم، والواقف عندها يدرك حقيقة المسألة في البعد الذي كان يسعى الشيخ إلى بلوغه، وفي أثناء حديثه في هذه المسألة، يرد رأي المحاضر الذي يرى أنّ هذا البيان مأخوذ من البيان اليوناني، وي طرح من مثل هذه الأسئلة، هل ما كتب الجاحظ في البيان مأخوذ مما ترجم عن اليونان والفرس؟ هل يستطيع المحاضر أن يثبت أنّ في الكتب المنقولة إلى العربية كتابا في أصول البيان اليوناني أو الفارسي غير كتابي "الخطابة" و"الشعر" لأرسطو؟ أو يستطيع أن يثبت أنّ الجاحظ عرف بيان اللسان اليوناني أو الفارسي، فاستمد منه فيما وضعه من أصول البلاغة العربية؟ هل ما كتبه قدامة بن جعفر مستمد من بيان اليونان؟

ثم يخصّص المحاضرة الثانية للإجابة عن السؤال الأخير، فبعد أن ذكر أنّ أول من ألف في البيان، هو عبد الله بن المعتز الذي أورد سبعة عشر نوعا، يطلق عليه اسم البديع، ثم جاء بعده قدامة بن جعفر فذكر عشرين نوعا، التقى مع ابن المعتز في سبعة أنواع، وانفرد عنه في ثلاثة عشر نوعا، ثم يشرع في الكشف عن حقيقة هذه الأنواع، ووجودها في

التراث العربي؛ ليخلص إلى أنّ الذي كتبه قدامة بن جعفر مستمدّ من الآداب العربيّة، وأقوال البلغاء¹.

ثمّ يسوق أدلته؛ ليثبت أنّ ما انفرد به قدامة بن جعفر، وهو ثلاثة عشر نوعاً، إقتدى فيها بأقوال البلغاء وعلماء العربيّة من أمثال: الجاحظ، أبو الفرج الإصفهاني، والمرزباني، والأصمعي، وشبيب بن شيبه، وبشر بن المعتمر، والمبرد، وخلف الأحمر، وابن المعتزّ، والفراء، وأبو هلال العسكري، والخليل بن أحمد، ومسلم بن الوليد، وابن قتيبة². ثمّ يخلص إلى القول: « وصفوة القول في هذا البحث: أنّ من أمتع النظّر في كتب الأدب وعلم العربيّة، لا يثق بأنّ قدامة استمدّ في كتاب "النقد" من أصول البيان في لغة اليونان. وليست الوجوه التي انفرد بها عن ابن المعتزّ سوى فنون البيان العربي تستخرج من الألفاظ العربيّة³».

-في نشأة علم النّحو العربي:

يذكر علي عبد الرّازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) أنّ النّحو العربيّ تأثر بمناهج السريّان، ويقف الشيخ محمد الخضر حسين مناقشا المسألة، ومنطلقاً من أنّ البحث في مثل هذه المسائل التي لا زالت في حدود الافتراض لا يجعلنا نسلمّ بها، ما لم يدعّم قبولنا هذا بأدلة تاريخيّة وعلميّة، ولا تكون شبيهة مجاورة واضعي النّحو العربيّ في العراق للسريّان تجعلنا نحكم بتأثر النّحو العربيّ بالسريّان، ثمّ يحدّد مصدر هذه الشّبهة، وسبب إثارتها، يقول: « هذا شيء ظنّه جرجي زيدان، فالتقطه المؤلّف من ورائه، وجاء به على أنّه قضية مسلمة⁴، ثمّ يسوق آراء جرجي زيدان من كتابيه (تاريخ التّمذّن الإسلاميّ) و(تاريخ آداب اللّغة العربيّة)، ثمّ يختم مناقشته بقوله: « فالمسألة لم تزل في حدود الافتراض، وليس لها

¹ -ينظر: "نشأة علم البلاغة". محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 172 / 7 -194.

² -ينظر: المرجع نفسه: 183 -190.

³ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 190 / 7.

⁴ -المرجع نفسه: 73 / 9.

شبهة سوى أنّ واضعي علم النحو من العرب كانوا بالعراق بين السريان والكلدان، وأنّ أقسام الكلام في العربية هي أقسام الكلام في السريانية، ولكن كتاب (الإسلام وأصول الحكم) لا يبالي أن يسوق المشكوك فيه مساق المعلوم، أو يورد المعلوم في صورة المشكوك فيه»¹.
ك-دعوته إلى إنشاء مجامع تحافظ على اللغة العربية:

دعا الرجل إلى إنشاء مجامع لغوية تسهر على حماية اللغة العربية؛ لإيمانه بأنّ هذه المجامع هي الوسيلة الكفيلة بتطوير اللغة والنهوض بها، والمحافظة عليها، يقول:
« والوسيلة التي تهض باللّغة، وترفعها إلى مستوى اللّغات الرّاقية هي الوسيلة التي نهضت بتلك اللّغات الحيّة، وجعلتها تسير مع العلم والحضارة كتفا لكتف؛ أعني: تأليف مجمع لغويّ ينظر فيما تجدد أو يتجدد من المعاني، ويضع لكلّ معنى لفظا يناسبه »². واللّغة العربيّة لغة حيّة بحاجة إلى مجمع لغويّ يجعلها تسير عصرها، يقول: « لم يبق اليوم من يخالف في أنّ اللّغة العربيّة في حاجة إلى مجمع علميّ يسير بها مع مقتضيات العصر، ويضع للمعاني المتجدّدة ألفاظا لائقة »³.

ب-مصادر البحث اللغوي:

تنوّعت المصادر التي رفدت التفكير اللغوي عند الشيخ محمد الخضر حسين، والنّاظر في تراثه يحصرها في مصدرين⁴، مصادر تراثية، وأخرى حديثة، وهي كثيرة جدّا، ولم أجده يتقبّل الآراء المبنوثة في هذه الرّوافد، ما لم يقيم بتمحيصها ودراستها، فما وافق النّقل

1 -المرجع نفسه: 74 /9.

2 -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 25 /6.

3 - المرجع نفسه: 109 /6.

4 -في هذه المسألة ركّزت بالدرجة الأولى على المصادر التي رفدت تفكيره اللغوي، وهي مذكورة في آثاره، ولم أتناول الرّوافد الأخرى، سواء ذكرت في آثاره أم إستنتجتها من خلال قراءة هذه الآثار، وهي كثيرة منها: إستعداداته الفطرية، والبيئة التي عاش فيها، وشيوخه بنفطة وجامع الزيتونة، ورحلاته، ومطالعته الكثيرة، وعلاقته بأصدقائه من أمثال الشيخ الطاهر بن عاشور، والأستاذ أحمد تيمور، وعضويته في المجمعين العلمي العربي بدمشق عام 1919م، وفي مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 1932م، وإدارته للكثير من المجالات وتدريسه في جامع الزيتونة، وفي المدارس الأهلية والرسمية بدمشق، وفي الأزهر الشريف.

والعقل والمنطق ودعمه الدليل تمسك به، وما خالف ذلك رده بالدليل، وهذا المسلك منح لنا مشروعية البحث في مصادر التفكير اللغوي عند الرجل. إذا فما المصادر التراثية التي إنطلق منها الرجل في مقارنة المسائل اللغوية عامة، والعربية خاصة؟ كيف استثمار هذه المصادر في حل قضايا العربية؟

1-المصادر التراثية :

الناظر في تراث الرجل بصفة عامة، والتراث اللغوي بصفة خاصة، يستنتج أن مصادره التراثية كانت من رافدين اثنين، تراث عربي، وآخر يوناني، فالأول تنوعت مصادره بين الدينية واللغوية والأدبية والفلسفية، والثاني إتسمت بالطابع الفلسفي، فمن هذه المصادر جميعها استقى مادته المعرفية، والوقوف عند هذه المصادر بتفصيل مسلك يبعثني عما أريد التركيز عليه؛ ولذلك سأشير إلى هذه المصادر بصفة عامة مع التركيز على ما له علاقة بالبحث بصفة خاصة.

وما لاحظته، وأنا أتناول هذه المسألة، هو خلو المعرفة المقدمة في آثار الرجل، في أحيان كثيرة، من أية إحالة على المصادر المستقاة منها، فالرجل يسلك أحد المسالك الآتية، إما يشير إلى المصدر دون المؤلف¹، أو يشير إلى المؤلف دون المصدر²، أو لا يشير إليهما³، أو يشير إليهما⁴، زيادة على أنه كثيرا ما يلجأ إلى ذكر عبارات مبهمه تتسم بالغموض من مثل: " وذهب بعض علماء العربية " " لم يأت الباحثون " " صحح

¹ -ينظر مثلا: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 42، 50

² -ينظر مثلا: المرجع نفسه: 6 / 24، 50، 57

³ -ينظر مثلا: المرجع نفسه: 6 / 15، 134

⁴ -ينظر مثلا: المرجع نفسه: 6 / 23، 26، 34، 35، 41، 46، 51، 64، 72.

المحققون " " زعم بعضهم " " قرّر الباحثون في أسرار اللّغة¹. ويمكن حصر بعضا من هذه الرّوافد وتصنيفها على الشّكل الآتي²:

أ- في التّراث العربي الإسلامي والإنساني:

1- في علوم الشّريعة:

عول في مقارنة بحوثه على مصادر في التّفسير والحديث النبوي الشّريف والفقّه وأصوله منها: تفسير ابن جماعة. تفسير الرّازي. تفسير ابن عرفة. الكشّاف: الزّمخشري. صحيح البخاري. صحيح مسلم. مقدّمة ابن صلاح. الإحكام في أصول الأحكام: الآمدي. العواصم والقواسم: أبو بكر العربي.

2- في علوم اللّغة والأدب:

أ- في التّراث اللّغوي:

رفدت بحوث الرّجل مصادر في البلاغة وعلومها منها: البديع: ابن المعتز. الصّناعتين: أبو هلال العسكري. المثل السائر: ابن الأثير. المفتاح: السّكاكي. دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني. أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني. شرحه المطوّل: سعد الدين التّقّازاني.

¹ - ينظر مثلا: المرجع نفسه: 6/ 123، 135،

² - ركّزت على المجلّد السّادس؛ لأنّه ضمّ بين دفتيه مواضيع لمعظم بحوثه اللّغويّة، ونكرت عددا من هذه الرّوافد؛ لتأخذ صورة واضحة عن الخلفيّة المعرفيّة التي ينطلق منها الرّجل في مقارنة بحوثه.

وكتب في علم النحو العربي منها: الكتاب: سيبويه. معاني القرآن: للفرّاء. الأصول: ابن السّراج. الخصائص: ابن جنّي. التّسهيل: ابن مالك. شرح التّسهيل لابن حيّان. شرح الفصيح لابن درستويه. حواشي الأشموني الصّبّان. حواشي ياسين على التّصريح. شرح الخلاصة لأبي إسحاق الشّاطبي. شرح درّة الغوّص: الشّهاب الخفّاجي. ومعاجم منها: العين: الخليل. لسان العرب: ابن منظور. المصباح: الفيّومي. القاموس. أساس البلاغة: الرّمخشري. تاج العروس. المخصّص: ابن سيّدة.

ب- في التّراث الأدبيّ:

اعتمد في مقارنة بعض القضايا الأدبيّة على مصادر في الأدب والنّقد منها: مقامات الرّمخشري. مقامات الحريريّ. أدب الكاتب: ابن قتيبة. شرح أدب الكاتب: الرّجّاج. شرح ديوان الحماسة: المرزوقي. الكامل: المبرّد. البيان والتّبيين: الجاحظ. جمهرة أشعار العرب: ابن دريد. الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني. منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ابن حزم. شرح الألوّسي لدرّة الغوّاص.

2- في الفلسفة والتّاريخ والملل والنّحل:

الأخلاق: أرسطو. المقدّمة: ابن خلدون. الفصل في الملل والأهواء والنّحل: ابن حزم.

2- في المراجع الحديثة:

عُرف عن الشّيخ محمد الخضر حسين أنّه مسائر عصره يطلّع على الجديد من الكتب في الميادين جميعها، الفكريّة، واللّغويّة، والأدبيّة، وهو في هذه القراءات إمّا ناقداً، أو دارساً، أو محلّلاً، أو مستعينا بها لتوضيح المسائل التي يتناولها في بحوثه، ومن هذه

المراجع الحديثة: الفلسفة اللغوية وتاريخ الأدب العربي وتاريخ التمدن الإسلامي: جرجي زيدان. تاريخ اللغات السامية: المستشرق أرنست رينان. تراجم بعض أعيان دمشق: ابن شاشو. أشعار خليل مطران وبشارة الخوري. دائرة المعارف الإنكليزية. في الشعر الجاهلي: طه حسين. إحياء النحو: مصطفى إبراهيم.

والناظر في هذه المصادر يتحقق من أنّ روافد الفكر اللغوي عند الشيخ محمد الخضر حسين متنوعة المشارب، فمن التراث العربي الإسلامي بشقيه الشرعي واللغوي، إلى المراجع الحديثة بنوعها العربي والغربي، وأنّ هذه الروافد لا تقتصر على الجانب اللغوي والأدبي بل شملت جوانب أخرى في المخزون التراثي، وهذا يدلّ على وعي الرجل بأنّ

شمولية البحث في التراث العربي دون الإقتصار على رصيد معرفي واحد، هو مسلك سليم يدعو إلى النظرة الشمولية في مقارنة هذا التراث، وبالتكاملية في المباحث اللسانية العربية.

وإذا نظرنا إلى بحوثه النحوية، مثلاً، ألفيناه معتمداً على المتقدمين سواء أكانوا بصريين من أمثال: سيبويه، وأبو عمر بن العلاء، والأخفش والمبرد، أم كانوا كوفيّين من أمثال: الفراء والكسائي، أم بغداديين ممّن غلبت عليهم النزعة البصرية من أمثال: الزجاج وابن السراج وابن درستويه، أم ممّن عرفوا بمزجهم بين المذهبين من أمثال: ابن كيسان، وعلى المتأخرين من النحاة سواء أكان النّقل عمّن سكنوا مصر أم المغرب أم الأندلس، ويعوّل في مقارنة الكثير من هذه المسائل على المتأخرين، وخاصة في شروحهم، ولعلّ كتاب الشاطبي (شرح الخلاصة) من الكتب التي كانت حاضرة بشكل يلفت الانتباه، ولكنّ تعويله هذا لا يجعلنا نقول: إن إعماده على المتأخرين هو مجاراته لهم، بل نراه ينتقد صنيعهم في بعض المسائل ويجاري المتقدمين¹.

¹ - كما انتقد قولي الرّمخشري والعلامة الرّضي في الإستشهاد بشعر أبي تمام، وقولي الشّهاب الخفّاجي وابن السيّد البطليوسي في الإستشهاد بشعر الممتنّي.

ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 41-43.

ج- منهج البحث اللغوي عند الشيخ محمد الخضر حسين:

كنت قد وقفت من قبل عند مسألتين هما: مستويات البحث اللغوي عند الرجل، ثم المصادر التي رفدت تفكيره، والآن أقف عند المنهج الذي عالج به المسائل اللغوية عامة والعربية خاصة؛ أي بأي منهج عالج المسائل المطروحة؟ وبم إسم منهجه؟

إنّ الوقوف على المنهج في معالجة المسائل اللغوية عامة والعربية خاصة عند رجل موسوعي كالشيخ محمد الخضر حسين يتطلب من الباحث أن يتتبع حقيقة المسألة في مسلكين إثنين، أولهما في أثناء دراسته هذه المسائل في بحوثه التي تناولت الظاهرة اللغوية عامة والعربية خاصة، وثانيهما في أثناء مناقشة غيره الذين تناولوا المسائل نفسها، سواء أكان هؤلاء من المتقدمين أم من المتأخرين أم من المعاصرين له.

ثم إنّ دراسة المنهج الذي سلكه الرجل في معالجته هذه المسائل، له ما يبرره، فالناظر في خطاب الرجل، وأقصد الخطاب اللغوي خاصة، يقف على أنّ المباحث التي تناولها في المسلكين اللذين ذكرتهما آنفاً، لم تكن مطلقة الضوابط، وإنّما سارت وفق عمل ممنهج، سأسعى إلى الكشف عنه، وهذا السعي يتطلب منّي الحديث عن هذه المسألة في ثلاث نقاط، أولها في منهجه وعلاقته بالمناهج الحديثة التي كانت سائدة آنذاك في عصره، وثانيها في منهجه وعلاقته بالعلوم اللغوية العربية القديمة، وثالثها في علاقته بالخطاب العلمي.

وقبل الحديث عن هذه النقاط أريد أن أوضح إشكالا ظلّ غير واضح عند بعض الباحثين المعاصرين، وهو هل كان الشيخ محمد الخضر حسين من دعاة وقف باب الإجتهد في اللغة أم من دعاة فتح هذا الباب وفق شروط خاصة؟. وهذا الإشكال يقود الباحث إلى تتبع حقيقة المسألة في أثناء مناقشته بعض معاصريه، وأقصد هنا مناقشته الأستاذ أحمد أمين.

ففي مقال ينشره الشيخ محمد الخضر حسين تحت عنوان " نقد اقتراح ببعض الإصلاح في متن اللغة "، يناقش فيه رأي الأستاذ أحمد أمين، منطلقاً من أنّ دعوى إقفال باب الاجتهاد في التشريع، التي ذكرها الأستاذ، دعوى لا تستند إلى دليل، يقول: « ادّعى بعض الفقهاء أنّ باب الاجتهاد مقفل عندما أدرك الهمم ضعف، وقلّ في الناس من يدرس الشريعة دراسة تبلغ بصاحبها أن يكون مجتهداً، ولكنّ الراسخين في العلم وإن ورثوا من السلف فتاوى وأقضية وأصولاً لإستنباط الأحكام- لم ينقطعوا عن الاجتهاد جملة، وكانوا لا يبالون أن يناقشوا أقوال أئمة المذاهب، ويتخيرون من بينها ما يروونه أرجح دليلاً، وأوفى برعاية المصلحة (...) ولعلّ كلمة إقفال باب الاجتهاد في الشريعة قيلت عندما تجاسر قليلو البضاعة في العلم على الإفتاء، وأفسدوا كثيراً من الأحكام بدعوى الاجتهاد (...)، ودعوى أنّ باب الاجتهاد مغلق لا تُسمع إلّا بدليل يساوي الدليل الذي إنفتح به أولاً¹.

وهذا النص يشير إلى أنّ الشيخ محمد الخضر حسين، في مبادئ تفكيره لا يرفض فتح باب الاجتهاد في المسائل الشرعية، بل يرى أنّ القائلين: إنّ الفقهاء أغلقوا باب الاجتهاد مسألة فيها نظر، وقائلوها مطالبون بدليل مساوٍ الدليل الذي إنفتح به الاجتهاد أوّل مرّة، ورأى أنّ التسليم بوجود هذا القول يرجع في حقيقة أمره إلى اليوم الذي تجاسر فيه من لا يملكون مؤهلات تؤهلهم للإفتاء في المسائل الشرعية.

ومناقشته هذه المسألة بهذه الطريقة هو تمهيد ليقول: إنّ باب الاجتهاد في اللغة غير مقفل في وجه الباحثين في أسرار اللغة العربية، فالمتأخرون من أمثال ابن مالك وابن هشام ناقشوا آراء المتقدمين في مسائل النحو، وأمّا المحدثون فقد تخلف عندهم الاجتهاد حينما قعدت بهم الهمم على أن يبلغوا مرتبة الاجتهاد في نحو العربية وصرّفها، يقول: « وأمّا الاجتهاد في اللغة، فلا ندري متى أقفل بابها، وما زال علماء العربية في القرن

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 93/6، 94.

السادس والسابع والثامن يناقشون آراء المتقدمين، ويقررون آراء تخالف آراءهم؛ مثل: ابن مالك، وأبي حيّان، وابن هشام، وهذا ابن تيميّة -وقد أدرك صدرا من القرن الثامن- قد كتب مخطّأ سيبويه في عشرات المسائل، وهذا كتاب (بدائع الفوائد) لابن القيم الجوزيّة عامر بمسائل خالف بها علماء النحّو والصّرف. فإذا فقد الاجتهاد اللغوي في عصر أو موطن، فلائّن هم طلاب اللّغة قعدت بهم عن أن يبلغوا مرتبة الاجتهاد في نحوها وصرفها¹.

فالرجل لا يرى باب الاجتهاد في اللّغة مقفلا، وإنّما يجعل الاجتهاد يسير وفق ضوابط وشروط، إن تخطّأها الباحث صار عمله مبنيا على هدم أوضاع اللّغة التي عرفت بها، لا على إعادة بنائها من جديد، يقول: « لا نرى باب الاجتهاد في اللّغة مقفلا، ولكن للاجتهاد فيها حدود، متى تخطّأها الناظر، خرج إلى تفكير لا يسمّى اجتهادا في اللّغة العربيّة²، ويوافق الأستاذ أحمد أمين في مسألة لا خطر على اللّغة من الاجتهاد فيها، يقول: « نوافق الأستاذ في أنّه لا خطر على اللّغة من الاجتهاد في اللّغة مطلقا متى أحكم طريقه، ومتى حافظ المجتهد على مقومات اللّغة، ولم يمدّ يده إلى هدم وضع من أوضاعها التي عرفت بها، أو جرى عليها بلغاؤها بدعوى أنّها فوضى منتشرة في أبوابها³».

فما قلته من قبل هدفه هو الوقوف عند حقيقة الاجتهاد في اللّغة عند الشيخ محمد الخضر حسين، وظهر لي أنّ من منطلقات تفكيره اللغوي عدم ردّ مسألة الاجتهاد في اللّغة؛ ولذلك لم يكن في منهجه، وهو يتناول قضايا اللّغة، متمسكا بآراء المتقدمين والمتأخرين والمحدثين ما لم تعضد هذه الآراء أدلّة سواء أكانت أدلّة نقلية أم عقلية، وإنّما كان يناقش هذه الآراء، باحثا عن الصّواب فيها فما دعّمه الدليل، وقبله المنطق اللغوي،

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 94.

² -المرجع نفسه: 6/ 109، 110.

³ -المرجع نفسه: 6/ 110.

تمسك به، ومتى رأى غير ذلك رده بالدليل. إذا بأي منهج عالج هذه المسائل، وكيف عالجها؟

ولمقاربة هذا السؤال ارتأيت أن أتأوله في النقاط الآتية:

1- منهجه ومدى ارتباطه بالمنهج التي كانت سائدة في الغرب ومنتشرة بين أوساط الباحثين العرب.

أ- إيماده على المنهج التاريخي المقارن:

الواقف على آثار الرجل لا يكاد يعثر جاهاً على تصريح لفظي يدل على أنه اعتمد على هذا المنهج، لكننا نستطيع أن نستنبط معالم هذا المنهج في الجانب التطبيقي، وكنت قد أشرت من قبل، وأنا أتناول أصل اللغة العربية¹ من أن الشيخ محمد الخضر حسين يكون قد تعرّف على هذا المنهج من مكانين مختلفين، إمّا عن طريق مطالعته كتب جرجي زيدان؛ لأنّ هناك تقاطعاً في بعض الآراء بين الرجلين، بل في بعض الأمثلة المضروبة، وخاصة كتاب جرجي زيدان (الفلسفة اللغوية)، وإمّا من خلال مطالعته كتباً تراثية تناولت هذه المسائل، فالعبارات التي يستعملها، وما أكثرها، تدل على معرفته لهذا المنهج، فمن العبارات التي نقف عليها: "ثم ارتقت اللغة"، "والأسباب التي ارتقت بها اللغة"، "عصر شبابها"، "نمت عروقها"، "أثمرت غصونها"، "وارتقى شأنها"، "وكانت اللغة خلال الأعصر الماضية تعلق وتضعف"، "ومما يشهد بارتقاء اللغة".

وهذه العبارات وغيرها تدلّ دلالة على وعي الرجل بهذا المنهج، ولم يكن المنهج التاريخي وحده حاضراً في أثناء تناوله هذه المسائل، وإنما اعتمد على الجانب المقارن،

¹ - ينظر: الفصل الثاني، ص: 85، وما بعدها.

فكان يقارن بين اللغات المنتمية إلى فصيلة واحدة، ويقابل بين التي لا تنتمي إلى أسرة واحدة.

ب-إعتماده على المنهج التقابلي في أثناء مقارنته الظواهر اللغوية التي تشترك فيها اللغات البشرية:

المسلم به أن الشيخ محمد الخضر حسين واحد من أولئك الباحثين المهتمين باللغات الأجنبية، ومن المقارنين مسائل اللغة العربية بإستعمال هذه اللغات، والباحث في تراثه يفتيه معتمدا على اللغة الألمانية بالدرجة الأولى، ثم باقي اللغات بدرجة أقل، كالتركية، والفارسية، والإنجليزية¹.

2- منهجه ومدى ارتباطه بالعلوم اللغوية العربية²:

أ-إعتماده على القراءات القرآنية والقياس عليها:

يسلم الشيخ محمد الخضر حسين بالقراءات جميعها، ويرى صحة القياس عليها؛ لأن هذا المسلك تزداد به العربية سعة على سعتها، وتكثر أساليبها.

ب-إعتماده على القياس:

يعتمد على القياس إيمانا بأنه المسلك الذي به تزداد العربية سعة على سعتها، فكان يقيس متى رأى القياس ضرورياً.

ج-الإعتداد بالكثير من المسموع وردّ القليل:

¹-ينظر مثلاً: محمد الخضر حسين: الأعمال الكامل: الأجزاء: 2، 3، 6.
² -سأتناول هذا المبحث في نقاط على أن أبسط القول فيه في الفصل الثالث.

وهذا مسلك بنى عليه الكثير من أحكامه، فما وافق شرط الكثرة عمد إليه، وقاس عليه.

د-مجاراة القدماء ومناقشة المتأخرين:

الرجل في الكثير من مسائل اللغة يجاري المتقدمين، ولكن هذه المجاراة لم تمنعه من تجاوز آرائهم حينما ردوا بعض القراءات السبعية التي لا يرقى الشك إليها، كموقفه من قراءة ابن عامر الدمشقي (ت118هـ) التي فصل فيها بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف، وكان في كثير من المسائل معولا على المتأخرين، وهذا لم يمنعه من مناقشتهم، كما ناقش رأي الزمخشري في الاستشهاد بشعر أبي تمام، ورأي ابن السيد البطليموسي في صحة الاستشهاد بشعر المتنبّي.

3-منهجه ومدى ارتباطه بالمنهج العلمي:

أ-الإنفتاح على الدليل والمطالبة به:

الناظر في مناظرات الرجل لمعاصريه في المسائل اللغوية خاصة، وفي المسائل المعرفية عامة، يخرج بنتيجة تتلخص في أنّ الشيخ محمد الخضر حسين، واحد من أولئك اللغويين المنفتحين على الدليل المؤمنين به، متى لاحت بوادره تمسك به، ودعا إليه، ومتى غاب عنه استأنس بغيره، منتظرا الظفر به، ولم أجده في مناقشاته، أبدا، جاعلا هذا الاستئناس يرتقي من مرتبته هذه إلى مرتبة أن يكون دليلا، فهو كثيرا ما يطالب به مناظريه، يقول في محاضرة يلقيها تحت عنوان: "نشأة علم البلاغة"، يراجع فيها بعض آراء معاصريه في هذه المسألة: «إننا أمة بحث واستدلال، لا نفتتن بزخرف الأقوال، ولا بمظاهر القائلين، ولا نقبل الآراء إلا أن تخرج في نور من الحجّة مبين»¹.

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 7/ 161، 160.

ومن العبارات التي يقف عليها الباحث في هذه المسألة، أقوال الشيخ محمد الخضر نفسه فهو، في معرض مناقشاته غيره، كثيرا ما تجده يقول: "ولا ندري ما هو الدليل"،¹ قد قام الدليل القاطع"، "أدليت إليك بالحجج المعقولة والشواهد المأخوذة من أفواه العرب"¹، و"يقوم عليه الشاهد وتوازره الحجّة" "رأى رأي الباصرة كيف يسقط هذا الرأي أمام الشاهد والدليل"²، إذا فالرجل في مقاربتة المسائل اللغوية ومناقشته غيره رجل يبحث عن الدليل متى وجده تمسك به، ومتى قدمه غيره إنساق إليه.

ولم يكن الرجل مطالباً بالدليل معاصريه فقط بل طالب به القدماء، ففي معرض مناقشته رأي ابن السيد البطليموسي في صحّة الإستشهاد بشعر المتنبي، إنطلاقاً من أنّ علماء اللغة سكتوا ولم ينكروا على المتنبي إضافة (آل) إلى الضمير، رأى الشيخ محمد الخضر حسين أنّ سكوت العلماء وعدم إنكارهم لا يرفعه « من مرتبة الإستئناس به إلى مرتبة أن يكون حجة عند علماء العربية الذين يجتهدون في تقرير أحكام اللسان »³.

وحيثما وقف عند علماء العربية، وجد أنّ الإستشهاد بكلامهم لا يجوز بناء على أنّهم يستعملون عبارات تخالف مذهبهم الصريح، ويضرب أمثلة يدعّم بها رأيه، يقول: « أفلم يشترط ابن هشام في كتاب المغني لدخول هاء التنبيه على الضمير كون خبره إسم إشارة، ولم يحافظ على هذا الشرط فقال في خطبة الكتاب نفسه: « وها أنا بائح⁴ 4 «⁵، وسيبويه والأخفش استعمالاً كلمة (بعض) موصولة بأداة التعريف على الرّغم من دورانها في كلام

1 - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 112/3، 123،

2 - المرجع نفسه: 258 / 6.

3 - المرجع نفسه: 43 / 6.

4 - ينظر: ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعراب: 12/1 (خطبة المؤلف) .

5 - المرجع السابق: 42 / 6

العرب مجردة من هذه الأداة، « وإنما جاز لهم إستثناؤها (أي كل وبعض) من جهة أنها دائرة على أسنة الفصحاء بكثرة »¹.

ثم توصل إلى نتيجة مفادها أن أقوال هؤلاء العلماء يجوز الإستثناس بها، متى غاب الدليل، أو كان المستشهد بهذه الأقوال في موقف المنتظر الدليل، يقول: « إلا أن تذكره على وجه الإستثناس، وأنت مالى يدك بما هو حجة، أو منتظر لأن تظفر بالحجة »². والنتيجة التي يمكن أن نصل إليها من خلال مناقشاته للقدماء والمعاصرين، هي أنه لم يكن ناظرا إلى آراء غيره في حد ذاتها، وإنما إتجه تركيزه إلى نقد أساليب النظر التي إعتدها هؤلاء، ومن ثمة النتائج التي توصلوا إليها.

ولم يكن فقط مطالبا غيره بالدليل، وإنما كان مناقشا للأدلة التي يسوقها غيره، وعلى هذا المنحى كان يبطل النتائج التي يصل إليها الباحث متى رأى دليله واهيا أو منحولا، وأضرب هنا مثلا، ففي كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) يردّ قول طه حسين الذي نسبه إلى أبي عمرو بن العلاء: " ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا "، يرى أن العبارة في (كتاب الطبقات) للجمحي هي: " ما لسان حمير وأقاصي اليمن لساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا "، وعلى هذا رأى أن طه حسين حوّل عبارة " ولا عربيتهم بعربيتنا " إلى عبارة " ولا لغتهم بلغتنا "، وهذا روما للمبالغة في الفصل بين اللغتين، وحذف عبارة " أقاصي اليمن " حتى لا يأخذ القارئ من أن لغة غير الأقاصي، ويقصد بها القبائل المجاورة للقبائل المضريّة، ليس بين عربيتها وعربية مضر هذا الإختلاف³.

ب-إرجاء البحث في المسائل اللغوية المطروحة:

¹ -المرجع نفسه: 6 / 43.

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 42.

³ -وللاطلاع على هذه المسألة ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 9 / 99.

يعدّ إرجاء البحث في بعض المسائل اللغوية من المقولات التي قررها علم اللسان الحديث؛ وذلك حينما تنتفي الأدلة، أو يصعب دراسة المسألة المطروحة دراسة علمية وافية، أو تكون ذات المسألة مشكوك في نتائجها¹، ومن مبادئ تفكيره اللساني أنّه يرجئ البحث في بعض المسائل لغياب الدليل، أو لصعوبة الوصول إلى النتائج العلمية الدقيقة، أو لأنّ المسألة المساقة للنقاش لازالت في طور البحث والتّحصيل، ففي أثناء ردّه على عبد الرزاق في كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) في مسألة النحو العربي والسريان حينما قال: « وهم الذين ارتضوا أن ينهجوا بالمسلمين مناهج السريان في علم النحو »² ردّ عليه بقوله: « هذا شيء ظنّه جرجي زيدان، فالنقطة المؤلّف من ورائه، وجاء به على أنّ قضية مسلمة (...) فالمسألة لم تنزل في حدود الافتراض، وليس لها من شبهة سوى أنّ واضعي علم النحو من العرب كانوا بالعراق بين السريان والكلدان »³

4- منهجيته في تناول المسائل المطروحة:

أ- حصر ذهن القارئ في المسألة التي يتناولها:

أول ما يلجأ إليه الرّجل في مقارنة المسائل، هو الإعلان عن منهجه في معالجتها، كعادته في حصر تفكير القارئ والسّامع في الفكرة التي يريد مناقشتها، فمن العبارات التي يقولها: " ولم أذهب في بسط القول وضرب الأمثلة مذهب من يسرف في مقام الإقتصاد، ويشغل سمعك بما يشبه الحديث المعاد " "ومقالنا هذا يبحث في رواية المفردات الصحيحة

¹ - ومن أمثلة إرجاء البحث في بعض المسائل اللغوية، ما ذهب إليه علماء النّصّ إلى ضرورة إرجاء البحث عن الشّكل النّصي.

ينظر: الدكتور سعيد حسن بحيري: علم لغة النّصّ المفاهيم والاتّجاهات، مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، القاهرة: 1424هـ-2004م: 64.

² - علي عبد الرزاق: الإسلام وأصول الحكم: 208.

³ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 9/ 73، 74.

والمعتلة... ولا يبحث عن رواية الأساليب " والكلام في هذه المزايا كثير الشعاب... فلا أطيل في تعريف المجاز وذكر أقسامه"¹.

وقد يلجأ إلى طرح أسئلة يشرك فيها القارئ في المسألة التي يعالجها، ومن العبارات التي يستعملها: " وقد يخطر على بالك... وجواب هذا " " وربما جال في خاطرة... وجواب هذا " " وقد يبدو لك... وجواب هذا"².

ب- تحرير محل النزاع بين المتحاورين:

كثيرا ما يلجأ، في أثناء تناوله هذه المسائل، إلى تحرير محل النزاع؛ أي تحديد النقطة التي اختلف حولها الباحثون، وهذا المنحى يكشف عن الخلفية المعرفية التي ينطلق منها الرّحل، فهو متأثر بمنهج الفقهاء في الفقه المقارن.

ج- كثيرا ما يلجأ إلى تلخيص المسألة المراد دراستها، ثمّ يحدّد أطراف السّجال حولها، ثمّ يبدي رأيه، ويخرج بنتيجة تعود على أصل البحث بالفائدة، ونمّثل بهذه المنهجية ببحثه المعنون تحت: " الإستشهاد بالحديث في اللغة"³.

د- وأما منهجه في مناقشة غيره فيبدأ فيه بتحديد أقوال هؤلاء كما ساقها أصحابها قولا قولا، ثمّ يتبعها بالمناقشة، ومن العبارات التي يذكره في بداية مقاله: " قال المؤلف في (ص 1) " قالت اللجنة " ذكر الأستاذ في فاتحة إقتراحه " قال كاتب المقال " قال حضرة العضو في (ص 1)"⁴.

¹ - ينظر مثلا: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 4، 12، 18، 30، 73.

² - ينظر مثلا: المرجع نفسه: 6 / 12، 30، 73.

³ - المرجع نفسه: 6 / 168.

⁴ - المرجع نفسه: 6 / 175، 263، 92، 125.

هـ-إهتمامه بمقدمات الكتب التي يتناولها:

الرجل كثير الإهتمام في أثناء دراسته قضايا اللغة بالعبثات؛ لإيمانه بأنّها الرّكيزة المعرفيّة التي تكشف بعض الحقائق، فالمؤلف يشير فيها إلى طريقة الكتابة، والقصدية من التّأليف، بل يحكم القارئ من خلالها، بعد قراءة الكتاب، على مدى التزام المؤلف بما ذكره في مقدّمته، ونسوق أمثلة تبرز مدى إهتمام الرجل بهذه المسألة، وهي الإهتمام والوقوف عند العبثات، ومن العبارات التي يذكرها: " كما نبّه الفيروزآبادي في "مقدّمة قاموسه" أنّه إذا ذكر المصدر مطلقاً، أو الماضي، ولم يذكر المضارع، فالفعل من باب كتب يكتُب".

وقال في حقّ ابن هشام: " أفلم يشترط ابن هشام في كتاب المغني لدخول هاء التثنية على الضمير كون خبره اسم إشارة، ولم يحافظ على هذا الشرط فقال في خطبة الكتاب نفسه: "وها أنا بائح"، وقال في حقّ طه حسين حينما أعلن عن المنهج الذي سيلتزمه في مقدّمة كتابه، وخالفه في ثناياه: " ولم يلتزم بالمنهج الذي أعلن عليه بأنّه سيلتزمه، فذهب في منهجه مغرباً، ودعا منهج ديكارت يذهب مشرقاً".

ووقوفه عند فاتحة كتاب (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني، حينما أراد مناقشة رأي إبراهيم مصطفى في مسألة التي قال فيها: إنّ عبد القاهر الجرجاني يسعى إلى رسم طريق جديد في البحث النّحوي، يقول الشيخ محمد الخضر حسين، منطلقاً من فاتحة الكتاب: « وعبد القاهر يدلّنا في فاتحة كتابه أنّه مؤلّف في فنّ البيان »¹.

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 210 / 6.

وبعد أن تناولت في هذا الفصل مستويات البحث اللغوي عند الشيخ محمد الخضر حسين، ثم بينت المصادر التي رفدت تفكيره في بحوثه، ووقفت عند منهجه في معالجة المسائل اللغوية عامة والعربية خاصة، سيأتي الفصل الثالث باحثاً في ملامح التفكير اللساني عند الرجل في المباحث التي تناولتها في هذا الفصل.

الفصل الثالث:

ملاح التفكير اللساني في مباحث الشيخ محمد الخضر حسين.

أ- في التفكير النحوي وأصوله:

1- في قضايا النحو العربي ومسائله:

لم يغب عن الشيخ محمد الخضر حسين في تفكيره اللغوي البحث في مسائل النحو العربي وقضاياها؛ لأن علوم العربية جميعها لم تلق اهتماما كبيرا من حيث النقد والدراسة، كما لقيه النحو العربي قديما وحديثا، فصيحات المحدثين التي اعتلت المنابر الثقافية تشكو من صعوبة النحو العربي، لا تمنحنا مشروعية القول: إن القدماء لم يكونوا على وعي بهذه المسألة، فبرجعنا إلى عناوين بعض الكتب التي خلفها اللغويون القدماء، ندرك الحقيقة ماثلة أمامنا.

فكتب هؤلاء المتقدمين مملوءة بالدعوة إلى تيسير النحو العربي، والواقف على تراثهم يجد عناوين بعض مؤلفاتهم حملت من مثل هذه الدعوة، فالكسائي (ت189هـ)، وابن كيسان (ت299هـ)، ومحمد بن العباس اليزيدي (ت310هـ)، جاءت كتبهم تحت عنوان واحد هو (مختصر في النحو)، وألف المبرد (ت210هـ) (المدخل في النحو)، والجرمي (ت225هـ) (مختصر في نحو المتعلمين)، وابن قتيبة (ت276هـ) (تلقين المتعلم من النحو).

ثم إنطلقت من الأندلس مع المتأخرين دعوة إعادة النظر في قضايا النحو العربي، حمل لواءها ابن مضاء القرطبي، وابن رشد فألف الأول كتابه (الرد على النحاة)، والثاني كتابه (الضروري في النحو)، وتلقف هذه الدعوة ثلة من الباحثين المحدثين من أمثال إبراهيم مصطفى، وشوقي ضيف، وراحوا يروجون لها انطلاقا من صعوبة النحو العربي، ووجوب إعادة النظر في مسائله، ثم طرحت هذه القضية على المجامع العربية، وألفت لجان للبحث

في المسألة، وكثرت البحوث، وألفت الكتب، وعقدت الكثير من المؤتمرات، واتّجه الدارسون وجهتين:¹

الأولى: تأكيد ما ذهب إليه ابن مضاء، والتّمسك بآرائه كلّ التّمسك من غير أن يناقشوها نقاشاً علمياً يصوّر واقع النّحو العربي ودوافع تأليفه وتعيد قواعده.

الثّانية: التّمسك بالقديم وعرض النّحو كما جاء في كتب الأقدمين من غير أن يبسطوه، أو يحاولوا عرض مسأله عرضاً ميسراً والنّظر في أصوله وأحكامه.

والناظر في المسائل التي تناولها الشيخ محمد الخضر حسين في النّحو العربي وقضاياها، يمكن له حصرها في النقاط الآتية:

أ- مع إبراهيم مصطفى في كتابه (إحياء النّحو):

- في حقيقة النّحو العربي وموضوعه:

حينما أصدر إبراهيم مصطفى كتابه (إحياء النّحو) عام 1937م، وقف الشيخ محمد الخضر حسين مناقشا الآراء التي ذكرها الرّجل في علم النّحو العربي²، وذلك في مقال

¹ - الدكتور خديجة الحديثي: تيسير النّحو وبحث أخرى، منشورات المجمع العلمي، (د.ط)، العراق: 1428هـ - 2007م: 6.

² - وفي هذه المسألة نسجّل السّبق الرّمزي للشيخ محمد الخضر حسين في مناقشة كتاب (إحياء النّحو)، والذين جاءوا بعد هذه الفترة وناقشوا الكتاب هم كثر، ولكنّ بعضهم لم يشر إلى جهد الشيخ محمد الخضر حسين حينما تناولوا هذه المسألة، ومن أمثال هؤلاء الدكتور عبد السلام المسدي، وصابر الحباشة، والدكتور حلمي خليل، والدكتور عبد الحميد مصطفى السّيد، وأمّا الدكتور عزّ الدين المجذوب في كتابه (المنوال النّحوي العربي قراءة لسانيّة جديدة) فقد ذكر عبارة واحدة، وبين عارضتين: «قد ردّ عليه الخضر حسين».

الدكتور عزّ الدين المجذوب: المنوال النّحوي العربي قراءة لسانيّة جديدة، دار محمد علي الحامي للنشر والتّوزيع-كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة-، الطبعة الأولى، ، سوسة: 1998م: 23.
ينظر: -الدكتور عبد السلام المسدي: العربيّة والإعراب، دار الكتاب الجديد المتّحدة، الطبعة الأولى، بيروت: 2010م: 81 وما بعدها.

- صابر الحباشة: من قضايا الفكر اللساني في النّحو والدلالة واللّسانيّة، دار صفحات للدراسات والنّشر، الطبعة الأولى، دمشق: 2009م: 97 وما بعدها.

ينشره تحت عنوان "موضوع علم النحو"، وقارئ هذا المقال وكتاب إبراهيم مصطفى تتبادر إلى ذهنه مجموعة من التساؤلات، كيف نظر إبراهيم مصطفى إلى تعريف النحاة للنحو، وكيف استثمره في تبرير نظريته؟ ما الأدلة التي ساقها وما قيمتها العلمية؟ ما موضوع النحو العربي، في نظر إبراهيم مصطفى، والمسائل التي يجب عليه أن يدرسها؟ هل دراسة أحوال أواخر الكلم هو تضيق لدائرة البحث النحوي، وبالتالي إهمال للأثر الذي تحدثه هذه الوجوه في المعنى؟ ثم من أين إنطلق الشيخ محمد الخضر حسين في مناقشة آراء مصطفى إبراهيم؟ ما النتائج التي توصل إليها؟ وما قيمتها العلمية؟ وهل كان لهذه النتائج آثار على التفكير اللغوي عند الباحثين الذين ألفوا كتباً وناقشوا آراء مصطفى إبراهيم بعد الشيخ محمد الخضر حسين؟

ينطلق مصطفى إبراهيم في كتابه (إحياء النحو) في أثناء مراجعته لحقيقة علم النحو وموضوعه عند النحاة، من مسألة قصر هؤلاء مقاربتهم لهذا العلم على أنه علم يعرف به أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناءً، وقصرهم بحث النحو العربي على الحرف الأخير من الكلمة، هو تضيق شديد لدائرة البحث النحوي، وبمسلكهم هذا ضيعوا كثيراً من أحكام نظم الكلام، وأسرار تأليف العبارة، وأهملوا بصنيعهم هذا الوقوف على المعنى الذي تحدثه هذه العلامات، وبالتالي رأى أنّ الرّفع علم الإسناد، والجرّ علم الإضافة، والفتحة ليست بعلم على الإعراب ولا دالة على شيء؛ لأنّها الحركة الخفيفة التي استحبتّها العرب لختها، والصّمة والكسرة علامتان دالتان على المعنى، لا الفتحة والسكون.

ثم رأى أنّ النحاة حينما درسوا طرق الإثبات والنفي، والتأكيد والتوقيت، والتقديم والتأخير، مرّوا عليها من غير درس دقيق، وإنّما اهتمّوا بما له علاقة بالإعراب، وأنّ الذين جاءوا بعد

-الدكتور حلمي خليل: العربية وعلم اللغة البنيوي دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث، دار المعرفة الجامعية، (د.ط)، الإسكندرية: 1995م: 61 وما بعدها.

-الدكتور عبد الحميد مصطفى السيد: دراسات في اللسانيات العربية، دار الحامد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الأردن: 1424هـ-2004م: 166 وما بعدها.

الشيخ عبد القاهر الجرجاني فصلوا علم النحو عن علم المعاني، وبذلك أزهقوا روح الفكرة التي كان الشيخ يسعى لتحقيقها، وذهبوا بنورها، ورأى أن كتابي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت210هـ)، و(دلائل الإعجاز) يمثلان نموذجا للتأليف النحوي، حينما تجاوزا في كتابيهما أواخر الكلم وعلامات الإعراب¹.

يقف الشيخ محمد الخضر حسين في مناقشة هذه المسائل، متسائلا « لا ندري ماذا صنع المؤلف عندما وقف على هذا التعريف الذي ساقه لعلم النحو، هل تجاوزه إلى مطالعة ما كتبه أهل العلم في شرحه، أو أنه اقتصر على قراءته وحده »²، ثم يسوق آراء علماء النحو والبيان الذين تناولوا هذا التعريف بالشرح من أمثال العلامة الأمير، وأبو إسحاق الشاطبي في (شرح الخلاصة)، والسيد الجرجاني في (شرح المفتاح)، وابن سيده اللغوي، وابن كمال باشا، وصاحب كتاب (كشاف اصطلاحات الفنون)، و(مدينة العلوم)؛ ليصل إلى النتيجتين الآتيتين:

1-موضوع النحو أوسع من أحوال الإعراب والبناء:

شارحو هذا التعريف الذي ذكره إبراهيم مصطفى يشيرون إلى أنه اقتصر فيه على أحوال الكلم مراعيًا الغالب في مباحث علم النحو، يقول العلامة الأمير في شرح هذا التعريف: « هو إقتصار على غالب، وإلا فيعرف به -أي النحو- أحوال غير الكلمات؛ كالجمل التي لا محل لها من الإعراب، والتي لها محلّ، وكأحكام جملة الصلة من حيث العائد، وكونها لا تكون جملة إنشائية، وكذا جملة النعت والخبر »³. ويقول الشاطبي في (شرح الخلاصة): « وهو - أي النحو - في الإصطلاح: علم بالأحوال والأشكال التي بها تدلّ ألفاظ العرب على المعاني التركيبية، ويعني بالأحوال: وضع الألفاظ من حيث دلالتها على المعاني التركيبية؛

¹ -ينظر: إبراهيم مصطفى: إحياء النحو، الطبعة الثانية، القاهرة: 1413هـ-1992م: 1-8.

وجاءت هذه المباحث تحت عنوان: حدّ النحو كما رسمه النحاة.

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 186.

³ -المرجع نفسه: 6/ 187.

أي: المعاني التي تستفاد بالأشكال ما يعرض في آخر طرفي اللفظ ووسطه من الآثار والتغييرات التي تدلّ بها ألفاظ العرب على المعاني¹. ويقول السيّد الجرجاني في (شرح المفتاح) في أثناء بحثه في علوم الأدب التي تبحث عن المركبات، « وأما عن المركبات على الإطلاق، فأما باعتبار هيئتها التركيبية، وتأديتها لمعانيها الأصلية، فعلم النحو، وأما باعتبار إفادتها لمعان مغايرة، فعلم المعاني² ».

وهذه الشروح التي ساقها الشيخ محمد الخضر حسين، تثبت أنّ المقصود من علم النحو ليس هو الإقتصار على مراعاة أواخر الكلم إعراباً وبناءً، وإنما جيء بهذا التعريف مراعاة للغالب في مباحث علم النحو، فعلم النحو موضوعه أوسع من أحوال الإعراب والبناء، وتركيز الشيخ على الرجوع إلى الشروح، الهدف منه هو الوقوف على حقيقة هذا التعريف، ويثبت في الوقت نفسه أنّ شارحي هذا التعريف يتجاوزون الوقوف عند الإهتمام بالإعراب والبناء.

ولهذا نجد الشيخ ينطلق من هذه الشروح ليردّ مفهوم مصطفى إبراهيم لموضوع النحو، يقول: « وصرّح (...) كثير من النحاة بأنّ علم النحو يبحث عن أحوال الألفاظ من حيث دلالتها على المعاني التركيبية؛ أي المعاني التي تستفاد من إسناد بعض الكلم إلى بعض (...)، فأنظر إلى قوله (أي قول الشاطبي) علم بالأحوال والأشكال، وإلى تفسيره الأحوال بأنّها وضع الألفاظ بعضها مع بعض، فذلك صريح بأنّ النحاة لا يقصرون بحثهم على الإعراب والبناء (...) فأنظر كيف جعل (أي السيّد الجرجاني) موضوع علم النحو: المركبات على الإطلاق، فأما باعتبار هيئتها التركيبية، وتأديتها لمعانيها الأصلية، فعلم النحو، وأما باعتبار إفادتها لمعان مغايرة لأصل المعنى، فعلم المعاني³ ».

1 - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 186

2 - المرجع نفسه: 6 / 187.

3 - المرجع نفسه: 6 / 187.

وهذا المنحى الذي نجاه الشيخ محمد الخضر حسين في مناقشة إبراهيم مصطفى، يدعو إلى النظر إلى قضايا هذا العلم من الداخل، أي الإستعانة على فهم مضامينه من التراث نفسه؛ ولذلك دعاه إلى قراءة الشروح التي تناولت هذا التعريف؛ ليتضح مضمونه، والرأي نفسه قاله عزّ الدين المجذوب في كتابه (المنوال النحوي العربي) في أثناء مناقشته إبراهيم مصطفى، يقول: « وهو (أي مصطفى إبراهيم) لا ينطلق من قراءة داخلية للتراث النحوي العربي-قد ردّ عليه الخضر حسين- وإنما يقرأه قراءة خارجية أمّته اللسانيات التاريخية المقارنة ببعض معطياتها »¹.

2- بين موضوعي علم النحو وعلم المعاني:

يرى إبراهيم مصطفى أن النّحاة باهتمامهم وتضييق دائرة بحثهم في دراسة أحوال أواخر الكلم من حيث الإعراب والبناء، فوّتوا الفرصة على أنفسهم وعلى من جاء بعدهم في الإطلاع على أسرار التّأليف؛ لأنّ النّحو في حقيقته هو قانون تأليف الكلام، وبيان لكلّ ما يجب أن تكون الكلمة في الجملة، والجملة مع الجملة، حتّى تتسق العبارة، ويمكن أن تودّي معناها. فالنّحاة مرّوا على طرق الإثبات والنّفي، والتّأكيد والتّوقيت، والتّقديم والتّأخير، وغيرها من صور الكلام دون دراستها، إلّا ما كان له صلة وثيقة بالإعراب، وأحكامه، وبهذا فوّتوا الفرصة في الوقوف على فقه العربيّة، وتقدير أساليبها، يقول: « فالنّحاة حين قصرّوا النّحو على أواخر الكلمات وعلى تعرّف أحكامها قد ضيّقوا من حدوده الواسعة، وسلكوا به طرقاً منحرفة، إلى غاية قاصرة، وضيّعوا كثيراً من أحكام نظم الكلام وأسرار تأليف العبارة، فطرق الإثبات، والنّفي، والتّأكيد، والتّوقيت، والتّقديم، والتّأخير، وغيره من صور الكلام قد مرّوا بها من غير درس، إلّا ما كان منها ماساً بالإعراب، أو متّصلاً بأحكامه، وفاتهم لذلك كثير من فقه العربيّة، وتقدير أساليبها »².

¹ - الدكتور عزّ الدين المجذوب: المنوال النحوي العربي قراءة لسانيّة جديدة: 23.

² - إبراهيم مصطفى: إحياء النّحو: 2، 3.

ونحا نحو ما ذكره إبراهيم مصطفى بعض الباحثين المحدثين من أمثال تمام حسان في كتابه (اللغة العربية: معناها ومبناها) الذي يرى أن إنصراف النحاة إلى بناء النحو العربي على العامل فقط، جعل بحوثهم قاصرة عن تفسير المعاني النحوية، يقول: «لقد إتجه النحاة بقولهم بالعامل النحويّ إلى إيضاح قرينة لفظية واحدة فقط، هي قرينة الإعراب أو العلامة الإعرابية، فجاء قولهم بالعامل لتفسير إختلاف هذه العلامات بحسب المواقع في الجملة، فكانت الحركات بمفردها قاصرة عن تفسير المعاني النحوية»¹.

ونكر الباحث فاضل السّاقى أنّ النحاة لم يسيروا على خطى عبد القاهر الجرجاني في توضيح المعاني الوظيفية للتركيب، ولو ساروا على هذا السّمت الذي رسمه عبد القاهر لتغيّرت معالم البحث في الدراسات اللغوية². إذا كان هؤلاء الباحثون قد أجمعوا على أنّ النحاة بمنهجهم الذي سلكوه في دراسة اللغة قد أهملوا الوقوف على المعاني النحوية، فما موقف الشيخ محمد الخضر حسين من هذه المسألة؟ من أين إنطلق في معالجتها؟ ما الأدلّة التي ساقها؟ وما قيمتها العلمية؟

ينطلق الرّجل في مناقشة إبراهيم مصطفى من التّراث النحوي نفسه، وبالضّبط من الشّروح التي تناولت هذه المسألة؛ لأنّه كان في موقف مناقشة طريقة تأويل النصوص التّراثية النحوية؛ ويرى أنّ قراءة من مثل هذه النصوص تستدعي قراءة داخلية؛ أي الإستعانة بما كتبه القدماء في شرح هذه المسألة، ثمّ الوقوف عند بعض العبارات التي سيقّت في الشّرح، وإستنتاجها للكشف عن معانيها، ومدى ملاءمتها للغرض الذي ينشده صاحب النصوص المراد تقريبها.

¹ -الدكتور تمام حسان: اللغة العربية مبناها ومعناها: 231.

² -الدكتور فاضل السّاقى: أقسام الكلام العربي من حيث الشّكل والوظيفة، مكتبة الخانجي، (د.ط)، القاهرة: 1977م:

ثم يسوق شروح بعض العلماء لموضوع علم النحو، من أمثال ابن سيده، وكمال باشا، فالأول يجعل موضوع علم النحو أوسع من أحوال الإعراب والبناء، فالنحو عنده هو إنتحاء سمت كلام العرب من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتصغير والتكسير والإضافة والنسب، والثاني يفرق بين موضوع علم النحو وعلم المعاني، فيرى أن النحو يشارك صاحب المعاني في البحث عن المركبات، غير أن الأول يبحث فيها من جهة هيئتها التركيبية صحة وفسادا، والثاني من جهة حسن النظم المعبر عنه بالفصاحة في التركيب وقبحه¹.

ويستعين بالكاتبين من القدماء في حقائق العلوم وموضوعاتها؛ ليثبت أن النحاة لا يقصدون من وراء مقاربتهم لموضوع علم النحو إلا البحث عن أحوال الكلم من حيث الدلالة على المعاني التركيبية، ويسوق قولاً صاحبي (كشاف إصطلاحات الفنون)² و(مدينة العلوم)³، ويقول في القول الأول: « ومعنى هذا أن النحو قوانين يعرف بها أحوال التركيب؛ من نحو: الترتيب والذكر والحذف والإعراب والبناء »⁴، وفي الثاني: « ولو كان موضوع علم النحو عندهم محصوراً في حال الإعراب والبناء، لما كان علم النحو كافياً في تطبيق التراكيب العربية على المعاني الوضعية الأصلية »⁵.

¹ - ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 187، 188.

² - «علم النحو ويسمى علم الإعراب-على ما في شرح اللب-، وهو: علم يعرف به كيفية التركيب العربي صحة وسقما (...) والغرض منه: الإحتراز عن الخطأ في التأليف، والإقتدار على فهمه، والإفهام به».
المرجع نفسه: 6/ 188.

³ - «وغايته: الإحتراز عن الخطأ في تطبيق التراكيب العربية على المعاني الوضعية الأصلية».

المرجع نفسه: 6/ 188، 189.

⁴ - المرجع نفسه: 6/ 188.

⁵ - المرجع نفسه: 6/ 189.

- عبد القاهر الجرجاني ومسألة الفصل بين علم النحو وعلم المعاني:¹

أشار إبراهيم مصطفى، في معرض حديثه عن الشيخ عبد القاهر الجرجاني، إلى أنّ الشيخ في كتابه (دلائل الإعجاز) رسم طريقاً جديداً في البحث النحوي، تجاوز به الوقوف عند أواخر الكلم، والإهتمام بعلامات الإعراب، وبهذا المسلك يكون عبد القاهر الجرجاني قد بذل جهداً كبيراً في تجاوز هذه المسألة التي وقع فيها النحاة، وبتصويره الدقيق ومنهجه الذي سلكه في مقارنة القضية نتج عنها أن عجز من جاءوا بعده في أن يضيفوا حرفاً واحداً على ما جاء به عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز)، وأنّ بعضهم أخذ الأمثلة التي ساقها عبد القاهر الجرجاني؛ للتدليل على رأيه، وجعلوها أصول علم البلاغة، سمّوه علم البيان، وفصلوه عن النحو فصلاً أزهد روح الفكرة، وذهب بنورها، وقد كان أبو بكر يبيد ويعيد في أنّها معاني النحو، فسمّوا علمهم: المعاني، وبتروا هذا الاسم البتر المضلل².

ومسألة العلاقة بين النحو وعلم المعاني بحثها بعض المحدثين، وتباينت آراؤهم، فبعد أن بيّنت أنّ إبراهيم مصطفى ينكر فصل علم المعاني عن النحو، نجد أحمد الشايب يرى اختصاص كلّ علم منهما بميدان خاص، يقول: «فالنحو، ومنه الصّرف، يرشدان إلى بناء الكلمات اللغوية وتصريفها وبيان علاقاتها معاً في الجمل والعبارات، ثمّ يعيننا كذلك في تكوين التراكيب الصحيحة والفقر المترابطة الأجزاء، وبذلك تنتهي مهمّته (...). وعلى الفنّ

¹ - لزال كتاب (دلائل الإعجاز)، منذ أن أُلّف في القرن الخامس الهجري إلى زماننا هذا، محلّ دراسة وإعادة النظر في كثير من قضاياها، ولم يغفل عنه الباحثون الذين عاشوا في الفترة التي أتت عليها بالدراسة، عن الإغتراف من معينه الذي لا ينضب. والذي يهمني في هذه المسألة هو البحث عن طريقة قراءة هؤلاء الباحثين المحدثين، وعلى رأسهم مصطفى إبراهيم ومحمد الخضر حسين، لعبد القاهر الجرجاني، متسائلاً عن نوع الأسئلة التي طرحها دارسها، وقيمتها المعرفية، والإضافة التي أضافها من خلال قراءة أفكاره، ثمّ الوقوف عند مدى تأثير هذه الدراسات في الباحثين الذي جاءوا بعد هذه الفترة.

² - ينظر: مصطفى إبراهيم: إحياء النحو: 17- 19.

البلاغي بعد ذلك أن يتصرّف في العبارة، مع بقاء صحّتها، تصرّفًا يجعلها سلسلة قويّة التأثير بعيدة عن التّأثر سهلة قريبة الفهم¹.

ثمّ شرع الشيخ محمد الخضر حسين يناقش مصطفى إبراهيم، ولمقاربة آرائه ننطلق من الأسئلة الآتية، وهي أسئلة مستمّدة من هذه المناقشة: ما المقصود من كلمة النّظم عند عبد القاهر الجرجاني؟ وما المقصود بوضع الكلام الموضوع الذي يقتضيه علم النّحو؟ وما المقصود بالعمل على قوانينه وأصوله؟ وأيّة قوانين وأصول يقصدها الرّجل، هل تلك التي تكلم فيها النّحاة من قبل، كسيبويه وابن جنّي أم قوانين وأصول جديدة لم تخطر على بال هؤلاء من قبل؟. وإذا سلّمنا بأنّ الشيخ عبد القاهر الجرجاني يريد رسم طريق جديد في البحث النّحوي، هل هناك عبارات صريحة قالها الشيخ في كتابه تشير إلى هذا الفتح الجديد؟ وهل عبد القاهر الجرجاني يسعى إلى تقديم نظريّة لغويّة شاملة إستوحاها من آراء سابقه أم كان يسعى إلى إيجاد مسلك جديد في البحث النّحوي كما رأى مصطفى إبراهيم؟

ثمّ إلى أيّ مدى نقول: إنّ المعرفة المقدّمة في كتاب (دلائل الإعجاز) دفعت بصاحب (إحياء النّحو) إلى النّتيجة الآتية: " فجمهور النّحاة لم يزيدوا به في أبحاثهم النّحويّة حرفاً، ولا إهتدوا منه بشيء، وآخرون منهم أخذوا الأمثلة التي ضربها عبد القاهر بيانا لرأيه، وتأييدا لمذهبه، وجعلوها أصول علم من علوم البلاغة سمّوه: "علم المعاني"، وفصلوه عن النّحو فصلاً أزهق روح الفكرة"، وهل المراد من علم البيان: علم النّحو عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني؛ لنقول: إنّ الذين فصلوا علم المعاني عن علم النّحو، من بعد عبد القاهر الجرجاني، قد أزهقوا روح الفكرة وذهبوا بنورها كما يقول إبراهيم مصطفى؟

هذه الأسئلة قاربها الشيخ محمد الخضر حسين، في سبع صفحات، ولطول المناقشة التي مسّت أقوال إبراهيم مصطفى، بدا لي أن أحدها في نقاط، مركّزا على طرق تفكير

¹ - أحمد الشايب: الأسلوب، مكتبة النهضة المصريّة، الطّبع الخامسة، مصر: (د.ت): 28، 29.

الرَّجُل، وفي الوقت نفسه البحث عن الخلفية المعرفية التي إنطلق منها، وكيف أعاد إنتاج هذه المعرفة من جديد؟ وما قيمتها مقارنة بأراء الباحثين في المسألة ذاتها؟

أ- تحرير محلّ النزاع:

ينطلق محمد الخضر حسين، كعادته في مناقشة غيره من تحرير محلّ النزاع، والوقوف عند النصّ الذي اختلفت أنظار الباحثين في قراءته، وهو قول الشيخ عبد القاهر الجرجاني: « وإعلم أن ليس النّظم إلا أن تضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت، فلا تخلّ بشيء منها »¹.

وتأويل هذا النصّ كان محلّ خلاف بين الرّجلين، ففي الوقت الذي يثبت فيه إبراهيم مصطفى أنّ غرض عبد القاهر الجرجاني الذي ينشده من وراء نصّه هذا هو رسم طريق جديد في البحث النّحوي، يرى محمد الخضر حسين « أنّ غرض الشيخ في ناحية غير النّاحية التي نظر إليها المؤلّف عند تفهّم كلامه (...)، موضوع حديث الشيخ عبد القاهر: الفصاحة التي هي بمعنى البلاغة والبراعة، وهي الوصف الذي يقع به التفاضل في خصلة البيان. أراد الشيخ أن يحقّق البحث عن منشأ الفصاحة وموطنها، فأنكر أن تكون من صفات الألفاظ المفردة، والكلم المجرّدة، وقرّر أنّها من صفات الألفاظ باعتبار إفادتها المعاني عند التّركيب »².

ب- البحث في دلالة العبارات التي قالها الشيخ عبد القاهر الجرجاني:

ينطلق من تحديد دلالات العبارات الواردة في النصّين الذين قالهما عبد القاهر الجرجاني: " النّظم هو توخّي معاني النّحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها " و

¹ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز: 35.

² - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 205 / 6.

ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله"، ثم يشرع في تحليلها للوقوف على دلالاتها¹، ويبدأ بكلمة النظم، ويرى أن المقصود بها هو تطبيق الكلام لمقتضى الحال، وأمّا معاني النحو فهي: التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتكرار والإضمار، والتعريف والتكثير، والمقصود بتوخيها، إيرادها على حسب الأغراض.

والقوانين هي أحكام المبتدأ والخبر، والفاعل المفعول، والحال والتمييز، والمضاف والمضاف إليه، والتوابع، والشروط والجزاء، وهذه الأبواب ترجع إلى الإعراب، وأمّا التقديم والتأخير، والحذف والذكر، يبحث عنه في علم النحو، ومقصوده من عبارة "وضع الكلام الموضع الذي يقتضيه علم النحو"، هو وضع كلّ من مفردات هذا الكلام ومركباته، الموضع الذي يقتضيه علم النحو، وهذا غير كاف في ارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول إلا إذا أفاد الأغراض التي تراد منه، ووضع المفردات والمركبات على وجه يفيد هذه الأغراض، قد تهدي إليه السليقة، وقد تساعد عليه معرفة علم المعاني.

- عبد القاهر الجرجاني والبحث النحوي الجديد:

ذكر إبراهيم مصطفى أنّ عبد القاهر الجرجاني كان يسعى ببحثه هذا إلى رسم طريق جديد في البحث النحوي، وهذه النظرة ردّها محمد الخضر حسين، منطلقاً من نقطتين، أولهما هل في كتاب الشيخ عبد القاهر الجرجاني من عبارات تشير صراحة إلى هذا الفتح الجديد؟، وثانيهما هل ما جاء به عبد القاهر الجرجاني، في نظر إبراهيم مصطفى، بحثاً مكتملاً في علم النحو عجز من جاء بعده على أن يضيفوا شيئاً على مباحثه؟

وأول ما يلفت إنتباهي في مقارنة هاتين النقطتين، هو إهتمام محمد الخضر حسين بما يسمّى بعتبة النصّ؛ بالرجوع إلى ما قاله عبد القاهر الجرجاني؛ لأنّ هذه العتبات غالباً ما

¹ - ينظر: المرجع نفسه: 6/ 206، 207.

يغفل عنها الباحثون، وهي جديرة بالدرس خاصة في الكتب التراثية¹، فالوقوف عليها يساعد الباحث على معرفة البواعث الحقيقية الكامنة وراء التأليف، والمنهج المتبع، والغرض الذي ينشده المؤلف من وراء تأليفه، يقول محمد الخضر حسين: «وعبد القاهر يدلنا في فاتحة كتابه أنه مؤلف في فنّ البيان»²، وعلى هذا ردّ أن يكون الكتاب مؤلف في علم النحو، ثم يسرد النصوص التي نكرها عبد القاهر الجرجاني، وتبرّر رأيه هذا.

وأما النقطة الثانية فيردّها بناء على القصد الذي نواه عبد القاهر الجرجاني في تأليف هذا الكتاب، يقول: «لم يزد النحاة بكتاب (دلائل الإعجاز) حرفاً؛ لأنه لم يؤلف في علم النحو، ولا قصد مؤلفه أن يزيد في علم النحو مسألة، وليست مبحثه ممّا تهدي إلى شيء من علم النحو»³. وهذا الذي يشير إليه الرجل نكره عبد الحميد مصطفى السيّد في كتابه (دراسات في اللسانيات العربية)، فقال: «إنّ عبد القادر الجرجاني في (دلائل الإعجاز) قدّم نظرية لغوية مكتملة، ولم يقدّم "طريقاً جديداً للبحث النحوي"، كما زعم المحدثون»⁴.

وأهمّ نتيجة نصل إليها من خلال مناقشة الشيخ محمد الخضر حسين لإبراهيم مصطفى، هي أنّ النحاة القدماء لم يكن موضوع النحو عندهم هو البحث في العلامات الإعرابية فقط، دون الالتفات إلى جانب المعنى، وأنّ ما جاء في كتاب (دلائل الإعجاز) لم يكن فتحاً جديداً في علم النحو أعجز به من جاءوا بعده على أن يضيفوا على مباحثه شيئاً جديداً.

¹ - للإطلاع على أهمية دراسة العتبات في التراث العربي القديم، وخاصة اللغوي منه. ينظر مثلاً: أحمد كزوم: "أصول المناهج في خطاب مقدّمة الأشباه والنظائر". مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي، جدة، العدد السادس، رجب 1422هـ / سبتمبر 2001م: 606.

² - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 210..

³ - المرجع نفسه: 6/ 209.

⁴ - الدكتور عبد الحميد مصطفى السيّد: دراسات في اللسانيات العربية: 179.

ب- مع لجنة تيسير النحو العربي: وفي هذه النقطة لا تجدني متتبعاً مسائل التيسير جميعها، فهذه المسائل مبسّطة في الكتب التي تناولت تيسير النحو قديماً وحديثاً¹، وإنّما سأحدّث عن المسائل التي تناولها الشيخ محمد الخضر حسين في أثناء مناقشته آراء اللجنة التي كلّفها وزارة المعارف في مصر بالنظر في تبسيط قواعد النحو والصرف والبلاغة، وتتألف هذه اللجنة من: الدكتور طه حسين، والأساتذة أحمد أمين، وعلي الجارم، ومحمد أبي بكر إبراهيم المفتش بالوزارة، وإبراهيم مصطفى المساعد بكلية الآداب، ومست المناقشة المسائل الآتية²:

-الإستغناء عن الإعرابين التقديري والمحليّ.

-العلامات الأصليّة للإعراب والعلامات الفرعيّة.

-ألقاب الإعراب والبناء.

-تسمية الجزئين الأساسيين للجملة، وفيه: أحكام إعرابها، والمطابقة بين المحمول والموضوع.

-متعلّق الظروف وحرف الإضافة.

-الضمير.

-التكملة.

¹ -ينظر مثلاً: الدكتور شوقي ضيف: تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده، دار المعارف، (د.ط)، مصر: 1986م.

الدكتورة خديجة الحديثي: تيسير النحو وبحوث أخرى، منشورات المجمع العلمي، (د.ط)، العراق: 1428هـ-2007م. محمد العابد الجابري: "التجديد في النحو بين ابن مضاء وابن رشد". مجلة فكر ونقد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء: 2002م، العدد: 50/49.

² -لإطلاع على آراء اللجنة بتفصيل ينظر: مجلة مجمع اللغة العربيّة، القاهرة: 6 / 187 وما بعدها

-الأساليب.

ولا تجدني في هذه المسألة باحثاً عن ردود الرّجل التي جاءت في ثلاث عشرة صفحة بتفصيل، بقدر ما تجدني مركّزا على طرق تفكيره من حيث المنطلق والوسائل والأهداف؛ ولهذا سأنتقل من عرض آراء اللّجنة التي ناقشها الرّجل، متبوعة بآرائه، مستنبطاً منها ملامح تفكيره في تناول من مثل هذه المسائل.

أ- في باب الإعراب وعلاماته: مسألة الإستغناء عن الإعراب التقديري، والإعراب المحلي:

قدّمت لجنة وزارة المعارف المصريّة إقتراحاً يقضي بالإستغناء عن الإعراب التقديري والإعراب المحلي في المقصور والمنقوص والمضاف إلى ياء المتكلم والمبنيّات والجملي¹؛ وذلك بحذف العبارات الآتية: " مرفوع، منصوب، مجرور بحركة مقدّرة منع من ظهورها التّعذر أو الثقل، أو اشتغال المحلّ بالحركة المناسبة أو الحكاية"، والنّاظر في هذا الإقتراح يتبيّن له أنّ اللّجنة لجأت إلى طرح مسألة الإستغناء عن هذا الإعراب لعدم ظهور العلامة الإعرابيّة أولاً، وثانياً أنّ إلغاء هذا النوع من الإعراب، هو توفير العناء على التلميذ والمعلّم والعلم.

هذا الإقتراح ناقشه الشيخ محمد الخضر حسين في مقال نشره في مجلّة " الهداية الإسلاميّة"، يقول فيه: « إطلعت على تقرير اللّجنة التي ألفتها وزارة المعارف للنّظر في تيسير قواعد النّحو والصّرف والبلاغة، فمررت في أثناء قراءته على عبارات يخالطها شيء من الغموض، وآراء لا يظهر لها وجه في تيسير القواعد، بل آراء أرادت اللّجنة أن تستبدلها بأصول إتفق عليها النّحاة². إذاً كيف ناقش الرّجل هذه المسألة؟ من أين

¹ -مجلّة مجمع اللّغة العربيّة، القاهرة: 6 / 187.

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 257.

انطلق؟ ما الأدوات الإجرائية التي استعملها للوصول إلى مبتغاه؟ ما النتيجة التي توصل إليها؟

-موقع الألفاظ سبباً في حمل بعضها على بعض، وإعطائها الحكم الإعرابي نفسه:

ينطلق الرجل من أن النحاة قرروا هذين الإعرابين حينما تتبّعوا كلام العرب، ودلّهم هذا التتبع على أن الكلمات الواقعة مسندا إليه حكمها الرفع¹، فحملوا ما وقع مسندا إليه، ولم تظهر علامته الإعرابية لعلّة خاصّة بهذا اللفظ، كانتهائه بحرف لا تظهر عليه العلامة الإعرابية، مثل الياء، والألف، والواو، على الألفاظ التي يقبل حرفها الأخيرة العلامة الإعرابية، وسلكوا في إعرابها المسلك نفسه، وقالوا: إنّ الضمّ مقدّر؛ أي منوي، وملاحظ².

إذا فالألفاظ الواقعة مسندا إليه؛ أي الآخذة موقعا واحدا في عناصر الجملة، وكانت مختلفة فقط من حيث ظهور العلامة على آخر الحرف أم عدم ظهورها، خوّلت للنحاة بأن يسلكوا هذا المسلك، ويحملوا بعضها على بعض، ويقرروا الإعراب التقديري، كقولنا: حضر محمد، وحضر عيسى، فمحمد وعيسى في الجملتين وقعا مسندا إليه، فظهر العلامة الإعرابية على الكلمة الأولى؛ لأنّ الحرف الأخير حرف صحيح، جعلت النحاة يحملون كلمة عيسى على كلمة محمد على الرّغم من أنّ العلامة الإعرابية لم تظهر على الحرف الأخير؛ لأنّه حرف علة.

ثمّ قدّم دليلا آخر ناظرا فيه إلى الكلمة الواقعة بعد هذه الألفاظ التي لا تظهر عليها علامات الإعراب، يقول: « فإذا وقع المقصور أو المضاف أو المبني أو الجملة موقعا يقتضي وجها خاصا بالإعراب، كالفاعلية والخبرية، ثمّ تلاه تابع قد ظهر فيه هذا الوجه الخاص، وهو الضمّ، أفلا يكفي هذا دليلا على الوجه نفسه ملاحظ في المقصور وما عطف

¹ -مواقع المسند إليه هي: الفاعل للفعل التام، نائب الفاعل، المبتدأ، مرفوع المبتدأ المشتقّ، أسماء النواسخ، المفعول الأوّل للأفعال التي تنصب مفعولين، المفعول الثاني للأفعال التي تنصب ثلاثة مفاعيل.

² -ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 258.

عليه من الألفاظ التي لا يظهر فيها أثر الإعراب»¹. ومسلك الرجل هذا في تبرير منهج القدماء في القول بالإعراب التقديري والمحلي، انطلق فيه من النظر لا في أقوال العلماء، وإنما في موقع الكلمة داخل السياق التي ترد فيه.

وأختم البحث في هذه المسألة بالنتيجة التي توصلت إليها خديجة الحديثي، تقول بعد أن تتبعت المسألة عند الذين تناولوها سواء أكانوا أفراداً أم مؤسسات علمية: « فَلَمْ كَلَّ هذا الجهد والتكاليف والبحوث والقرارات التي صدرت، وطال فيها الأخذ والردّ والنقاش؟ ما دمنا نرى ضرورة أن يعود المدرّس بالتلميذ إلى الإعراب الكامل القديم للتعدّر ونحوه؟ وبذلك قد إنتهينا إلى ما بدأنا به (...) ولهذا فإنني أرى أنّ إلغاء القول بالإعراب التقديري والمحلي، وفي ترك تحليل هذين الإعرابين في الكلمة أو التركيب إجحافاً بحق النحو العربي والمتعلم معاً، وإلباساً على المتعلم وإيهام ما يسمع عليه»².

ب-العلامات الأصلية للإعراب والعلامات الفرعية أو الإعراب النيابي:

من إقتراحات اللجنة إلغاء التفرقة بين علامات الإعراب بالأصالة وعدمها، وجعلت كلاً منها أصلاً في موضعه، فلا داع لهذه النياية سواء أكانت نياية حركة عن حركة، أم نياية حرف عن حركة، بل كلّ أصل في موضعه، ثمّ قسّمت اللجنة الاسم المعرب بحسب ظهور العلامة عليه إلى اسم تظهر عليه الحركات جميعها، وآخر تظهر عليه الحركات مع مدّها، وهو الأسماء الخمسة، وما تظهر عليه حركتان كالضّمّ والفتح وهو الممنوع من الصّرف أو الضّمّ أو الكسر وهو جمع المؤنّث أو حركة واحدة وهو المنقوص، أو ألف ونون أو ياء ونون للمثنّى، وواو ونون أو ياء ونون لجمع المنكّر³.

¹ - المرجع نفسه: 6/ 259.

² -الذكتورة خديجة الحديثي: تيسير النحو وبحوث أخرى: 41-44.

³ -مجلة مجمع اللغة العربيّة، القاهرة: 6/ 187.

والباحث لا يمكن أن يجاري هؤلاء أو يردّ آراءهم ما لم يقف على أدلتهم التي ساقوها؛ ومنهجهم في دراسة المسألة، وفي الوقت نفسه الوقوف على طريقة الشيخ محمد الخضر حسين في مناقشة هذه الآراء. وحتى نكون على بينة من المسألة، نسوق آراء النحاة، فهم يميّزون بين ما يسمّى بالإعراب الأصلي الذي يكون بالحركات سواء أكانت ظاهرة أم مقدّرة، وبين الإعراب الفرعي أو ما يسمّى بالنّياي؛ أي نيابة حرف عن حركة، أو حركة عن حركة، وحينما وقف هؤلاء الميسرون دارسين آراء النحاة رأوا أنّ هذا التقسيم لا فائدة له، وبالتالي فهو سبب من أسباب صعوبة النحو العربي.

ينطلق الشيخ محمد الخضر حسين في أثناء مناقشة هذا الاقتراح الداعي إلى تيسير النحو العربي بإلغاء التفرقة بين علامات الإعراب بالأصالة وعدمها، ممّا قرّره النحاة في أصولهم في مسألة الإعراب بالحركات، فيرى أنّ الأصل عندهم في الإعراب أن يكون بالحركات؛ ثمّ يقدّم تعليلاً لهذا الأصل فالحركة أخفّ من الحرف، وأبين في الدلالة على المعنى المقصود بالإعراب، لظهور زيادتها على بنية كاملة، وعدم تدخلها في الدلالة على مفهومها، بخلاف الحرف، كألف المثني، وواو الجماعة، فإنّ لها دخلاً في الدلالة على مفهوم الكلمة؛ إذ بسقوطها يختلّ المفهوم، والعلامة التي تختصّ بالدلالة على معنى لا تتعدّاه إلى غيره أقوى من علامة تشعر به مع دلالتها على شيء آخر¹.

ج- في مسائل الجملة:

دعت اللجنة إلى تسمية الجزئين الأساسيين للجملة بالموضوع والمحمول، معتمدة على ما قاله المناطقة؛ لأنّه أوجز ولا يكلف إصطلاحاً جديداً، تقول: « وبهذا النحو من التقسيم للجملة إلى موضوع ومحمول واعتبار إشارات العدد علامات لا ضمائر يسيّر اللجنة الإعراب وقلّت الإصطلاحات وجمعت أبواب الفاعل ونائبه والمبتدأ وإسم (كان) وإسم (إنّ)

¹ -ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 260، 261.

في باب المحمول¹، وتحدثت عن حكم إعرابها، فقالت: «الموضوع هو: المحدث عنه في الجملة، وهو مضموم دائما، إلا أن يقع بعد إن أو إحدى أخواتها²، وفي المطابقة بين المحمول والموضوع، قالت: «وعلاوة العدد التي تلحق الفعل هي في الجمع: الواو للذكور، والنون للإناث، وفي المثني: الألف لهما، وفي المفرد: التاء للواحدة، وتأخذ اللجنة في ذلك برأي الإمام المازني، القائل: إنها علامات لا ضمائر»³.

وللوقوف على المنطلقات الفكرية للرجل في مناقشته هذه الآراء، ننطلق من الأسئلة الآتية: لم أطلق المناطق على الجزء الأول إسما واحدا هو الموضوع، والبيانين إسما واحدا هو المسند إليه؟ وإلى أي مدى يمكن لنا أن نحمل ما جاء به المناطق ونسحبه على النحو العربي متى علمنا أن النحاة اضطروهم إختلاف الأحكام إلى تنويع الأقسام؟ وهل يكون دائما الموضوع مضموما؟ . يقول الرجل في مقاربتة هذا السؤال: «وإذا كان للجزء الأول اسم واحد عند المناطق هو المحمول، واسم واحد عند البيانين هو المسند إليه، فلأن أنواعه لا تختلف بالنظر إلى الأحوال المبحوث عنها في ذينك العلمين إختلافا يقتضي تقسيما مثل التقسيم الواقع في علم النحو»⁴.

إذا فالمحمول والموضوع مصطلحان خاصان بعلم المنطق؛ والذي حدا بعلماء النحو، على ألا يعولوا على هذين المصطلحين أنهم نظروا إلى «ما يسميه المناطق موضوعا، فوجدوا محموله إما إسما، أو جملة اسمية، أو فعلية، وإما فعلا أو وصفا متقدما عليه، ووجدوا هذين النوعين يختلفان في أحكام شتى، فأروا أن إختلافهما في الأحكام يناسب أن

¹ -مجلة مجمع اللغة العربية: 6 / 188، 189.

² - المرجع نفسه: 6 / 187.

³ -مجلة مجمع اللغة العربية: 6 / 188.

⁴ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 263.

يكون لكلّ منهما باب يجمع مباحثه، واسم يمتاز به، فسمّوا الأوّل: مبتدأ، والثاني: فاعلا، ووضعوا لكلّ منهما بابا خاصا¹.

فالرجل يذكر أنّ السبب الذي اضطرّ النحاة إلى تنويع الأقسام هو اختلاف الأحكام؛ لأنّ لكلّ باب « من هذه الأبواب أحكاما واستعمالات وأحوالا موصوفة مفصلة في التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والمطابقة وعدمها، أحوالا تجب معرفتها لفهم كلام العرب وللصيانة عن اللحن (...) ولم تذكر (اللجنة) كلّ هذه الأحكام (...) فإن كان في النية إصدار ملاحق تفي ببيان ذلك وأشباهه كان تغيير التقسيمات المألوفة ومصطلحاتها تعسيرا لا تيسيرا، ولغوا من العمل، وقطعا للصلة بالتراث القديم، وإن كان المقصود إلغاء هذه الأحكام والاستعمالات فقد ألغينا شطرا صالحا من سنن كلام العرب².

وأما مسألة الإعراب فيناقشها إنطلاقا ممّا ذكرته اللجنة من قبل من أنّ الألف في المثني والواو في الجمع كلّ منهما أصل في الإعراب، خلاف للنحاة الذين يرون أنّ الضمّ أصل، والألف والواو نائبان عنه، وعلى هذا الأساس ردّ قول اللجنة، قائلا: « فكان على اللجنة إذ حكمت على الموضوع بالضمّ الدائم أن تستثني المثني والجمع؛ لأنّهما لا يظهر في آخرهما ضمّ، ولا شيء ينوب عن الضمّ³.

وفي إعراب المحمول قالت اللجنة: « فيكون إسما، فيضمّ، إلا إذا وقع مع كان أو إحدى أخواتها، ويكون ظرفا، فيفتح، ويكون فعلا، أو مع حرف من حروف الإضافة، أو جملة،

1 - المرجع نفسه: 6/ 263.

2 - سعيد الأفغاني: من حاضر اللغة العربية: 206.

والواقف على هذا الكتاب يتساءل عن سبب عدم ذكر اسم الشيخ محمد الخضر حسين، علما بأنّ الرجل مكث ثمانين سنوات في سوريا (1912م إلى 1920م) مدرسا في المدرسة السلطانية، وفي أرقى المدارس الرسمية، وعضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق منذ تأسيسه عام 1919م إلى غاية 1920م بعد سقوط دمشق في يد الإستعمار الفرنسي، حيث هاجر إلى مصر، ثم أصبح عضوا مراسلا يُستقّى في قضايا اللغة العربية.

ينظر مثلا: مصطفى الشهابي: "وفاة الأستاذ محمد الخضر حسين". مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، 33/ 337.

3 - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 263، 264.

ويكتفي ف إعرابه ببيان أنه محمول¹. ثم يردّ هذا القول بمخالفة اللجنة ما اصطاحت عليه من قبل، فيقول: « كان على اللجنة أن تحافظ على اصطلاحها السابق، من أن الألف في المثني، والواو في الجمع علامتان أصليتان، فنقول: فيضمّ، أو يظهر في آخره ألف ونون، أو واو ونون، واكتفاء اللجنة في إعراب المحمول الواقع فعلا أو جملة ببيان أنه محمول مبني على إلغائها للإعراب المحلي، وقد أريناك أن الجملة الواقعة موقع المفرد لا تستغني عن الإعراب المحلي² ».

وأما مسألة المطابقة بين المحمول والموضوع أيها مخالف لرأي الجمهور ورأي المازني، فجمهور النحاة يرون أنّ هذه الحروف ضمائر والفعل مسند إليها، والمازني يرى أنها إشارات إلى ضمائر مستترة يسند إليها الفعل³، ثمّ يقدم دليله بقوله: « ماذا تقول اللجنة حين تُسأل عن الموضوع في مثل قوله تعالى: ﴿فَسَجِدُوا﴾ من آية: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ وعن الموضوع في مثل: جفوني من قول الشاعر:

جَفَوْنِي وَلَمْ أَجِفْ الْأَخْلَاءَ إِنِّي لِعَيْرِ جَمِي مِنْ حَلِيلِي مُهْمَلٌ

وعن الموضوع في مثل: هوينني من قول الشاعر:

هَوَيْنِّي وَهَوَيْتُ الْغَانِيَاتِ إِلَى أَنْ سَبْتُ فَإِنْصَرَفْتُ عَنْهُنَّ آمَالِي

لا يستقيم لها أن تقول: الموضوع في الآية الأولى لفظ الملائكة، وفي البيت الأول لفظ الأخلاء، وفي البيت الثاني: الغانيات، كما قالت: الموضوع في نحو: الزيدون قاموا، والهندات قمن، والزيدان قاما: هذا الاسم الظاهر؛ لأنّ لفظ الملائكة مكسور، ولف الأخلاء

¹ -مجلة مجمع اللغة العربية: 6/ 189.

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 264.

³ -ينظر: شرح الرضي على الكافية: 2/ 415

مفتوح، ولفظ الغايات ظاهرة في آخره كسرة، والموضوع -على ما تقول اللجنة- مضموم دائما»¹.

هـ- التكملة:

رأت اللجنة أنّ المذكور في الجملة غير الموضوع والمحمول هو تكملة، والحكم فيها أنّها مفتوحة دائما إلا إذا كانت مضافا إليها أو مسبوقه بحرف جرّ، وتكون لبيان الزمان والمكان والعلة ولتأكيد الفعل أو بيان نوعه، أو لبيان المفعول، أو لبيان المفعول، أو لبيان الحالة أو النوع، ثمّ قالت اللجنة: وبذلك جمعنا كثيرا من الأبواب، كالمفاعيل، والحال، والتمييز، تحت اسم واحد هو: التكملة دون أن نضيّع غرضا².

ويبقى السؤال في وجه هذه الآراء شاخصا، وهل التّابع من نعت وتوكيد وعطف وبدل، إذا نظرنا إليها من حيث حكم التكملة الذي جعلته اللجنة دائما مفتوحا أو مجرورا، يمكن أن تدخل تحت هذا الحكم متى علمنا أنّها غير محصورة في هذا الحكم؟ وأمّا الشيخ محمد الخضر حسين فإنّه ينطلق من واقع تعليمي، يقول: «إذا كان النّاشئ يلقّن أغراض التكملة، وكان إعراب التكملة يستدعي ذكر الغرض منها، فإنّ اللجنة لم تأت بشيء سوى أنّها استبدلت بالمصطلحات النّحوية كلمات ليست بأوجز منها، ففي نحو: جاء زيد راكبا، يقول النّحاة: راكبا حال، وتقول اللجنة: تكملة لبيان الحالة، (...) فالذي نرى أنّ المصطلحات النّحوية تشعّر بالأغراض مع الإيجاز، فلا داعي إلى أن نستبدل بها مصطلحات أخرى»³.

ويشارك الشيخ محمد الخضر حسين الرّأي سعيد الأفغاني حينما يقول: «لا شكّ في أنّ التعبير بالمفعول المطلق والمفعول لأجله والمفعول فيه والحال أوجز من المصطلحات الجديدة (...) ومتى عرف الطالب ركني الجملة أدرك بطبيعة الحال أنّ الباقي زيادات،

¹ -المرجع السابق: 6/ 265، 266.

² - مجلة مجمع اللّغة العربيّة، القاهرة: 6/

³ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 271.

وكلمة (تكلمة) مشعرة بأن الجملة ناقصة، وهي غير ناقصة بإستيفائها الركنين؛ أفلم يكن الأولون أدقّ إصطلاحاً حين عبّروا عنها بالفضلة¹.

ج- مع دعاء نظرية النحو القرآني:

-أصول فكرة الدعوة إلى النحو القرآني:

بدأت الدعوة إلى النحو القرآني في الفكر اللغوي العربي الحديث حينما ألقى طه حسين محاضرتة " ضمير الغائب وإستعماله إسم إشارة في القرآن"²، وليس كما يدّعي بعض الباحثين من أنّ الدعوة إلى هذا النحو بدأت قديماً، ثمّ حمل لواءها بعض المحدثين من أمثال إبراهيم مصطفى في كتابه (إحياء النحو)³، ويرى طه حسين في هذه المحاضرة أنّ النحو العربي القديم لا يكفي لتفسير القرآن الكريم، وعلينا أن نسعى إلى وضع نحو جديد

¹ -سعيد الأفغاني: من حاضر اللغة العربية: 207.

² -ألقى الدكتور طه حسين هذه المحاضرة في مؤتمر المستشرقين السابع عشر بجامعة (أكسفورد) عام 1928م، وقد نشرت مجلة (الرابطة الشرقية) ملخ هذه المحاضرة. وقد ردّ عليه الشيخ محمد الخضر حسين بمقال تحت عنوان: " حقيقة ضمير الغائب في القرآن ".

محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 3 / 79. (الهامش)

³ -أشارت الباحثة الدكتورة هناء محمود إسماعيل في أطروحتها (النحو القرآني في ضوء لسانيات النصّ) إلى أنّ مصطلح النحو القرآني كان معروفاً في الدراسات النحوية القديمة ضمناً لا تصريحاً، وقد عرف في العصر الحديث ب(نحو القرآن) أو (النحو القرآني) (...). وإنّ مصطلح (النحو القرآني) لم يظهر فجأة في العصر الحديث بل سبقته دعوات ولّدتها حاجة العصر المتزايدة إلى إحياء هذا المسلك المستكين من مسالك التفكير النحوي الذي شاع عند القدماء. وكان إبراهيم مصطفى من أوائل الداعين إلى إحياء هذا المنهج، وهو منهج قواعد نظم الكلام وتأليف الجمل.

وقارئ الفصل الذي تحدّث فيه الباحثة عن هذه المسألة لا يجد ما يشير إلى أنّ القدماء، ولو ضمناً، ذكروا النحو القرآني.

ينظر: الدكتورة هناء محمود إسماعيل: النحو القرآني في ضوء لسانيات النصّ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، لبنان: 2012م: 23- 79.

خاصّ، منطلقين فيه من القرآن الكريم؛ وذلك لتحقيق هدفين اثنين، أولهما أن نزيل ما يعلق بنفوس بعض المستشرقين من الشكّ حينما يقرؤون القرآن الكريم مستنيرين بالنحو القديم، فيجدون مفارقة بين هذا النحو وما جاء في القرآن الكريم، ممّا يؤدّي بهم إلى الحكم على ما جاء في القرآن الكريم بالخطأ، وثانيهما هو استنباط هذا النحو الخاصّ سيكون أساساً لإيجاد نحو جديد للغة العربيّة¹.

وانتصر لهذه الفكرة بعض الباحثين من أمثال أحمد مكّي الأنصاري في كتابه (نظريّة النحو القرآني نشأتها وتطورها وتكوينها) وعبد القادر هنادي في (ظاهرة التأويل في إعراب القرآن الكريم)، وتبعتهما من بعدُ هُناء محمود إسماعيل في أطروحتها (النحو القرآني في ضوء لسانيات النصّ)، وحينما نقف عند أبعاد النظريّة في الجانب المعرفي، نلفي الأسئلة المعرفيّة تقرض نفسها، هل ما جاء في القرآن الكريم من أساليب خالف بها المشهور عند العرب لا نعدّه من قبيل الأساليب العربيّة، وبالتالي نسعى إلى وضع نحو خاصّ به؟ وإذا سلّمنا أنّنا أعدنا بناء النحو إنطلاقاً من القرآن الكريم، فهل، وبمفهوم المخالفة، نعدّ ما جاء عن العرب وخالف النحو القرآني غير عربيّ؟

-موقفه من دعاة هذه النظريّة:

الرجل يرى أنّ ما ورد في القرآن الكريم وخالف القواعد والقياس والإستعمالات الشائعة في أساليب العرب، هو من العربيّة نفسها، المشكلة فقد أنّ واضعي القواعد يومئذٍ غفلوا عن هذا المعين الذي لا ينضب، فكلّ ما ورد في القرآن الكريم هو استعمال « مطابق لإستعمال

¹ - هذه الآراء اعتمدت فيها على ما ذكره الشيخ محمد الخضر حسين، حينما كان ينقل آراء الدكتور طه حسين في محاضراته.

العرب، وقد غفل عنه واضعو القواعد، ولا يسوغ لنا في حال أن نذهب إلى أن هذا الإستعمال من خصائص القرآن، ونعمل على أن نضع نحوًا خاصًا»¹.

فالشيخ لا ينتصر لفكرة وضع نحو خاص إنطلاقًا من القرآن الكريم؛ لأنّه في تفكيره إذا سلطنا هذا المنحى كُنّا معترفين ضمنيًا بأنّ الوارد في القرآن الكريم والمخالف لكلام العرب وهو كثير، ليس من العربيّة بشيء، وهذه الكثرة تجيز لنا البحث في إيجاد نحو جديد منطلقين فيه من القرآن الكريم، وبالتالي لا تكون هذه القواعد التي إستنبطها النحاة حاکمة على ما ورد في القرآن الكريم من أساليب، وإنّما يجب أن يكون ما أستنتج من القرآن الكريم من قواعد هي الحاکمة على فصاحة كلام العرب، وهذا الطرح الجديد يوقعنا في معادلة صعبة، فكيف نحكم، بعد أن نأتي بهذا النحو الجديد، على ما ورد في كلام العرب وخالف ما جاء في القرآن الكريم؟

ثمّ يواصل مناقشته الفكرة في أثناء ردّه على طه حسين، يقول: « فكلّ ما جيء في القرآن ممّا يرجع إلى قانون تأليف الألفاظ، ووضع كلّ مفرد موضعه اللائق به، لا نتردّد في أنّه إستعمال عربيّ فصيح، ولا نرتاب في أنّه وارد على وفق ما ينطق به فصحاء العرب من غير تجاف عنه، ولا تحرّج منه (...) فإنّ تخيّل أحد في جملة القرآن أنّها حائدة عن مناهج الفصاحة، فليس له إلاّ أن يوجّه طعنه فيما لم يرتضه منها إلى أصل اللسان العربي، وينفي عن هذا الإستعمال إن شاء وصف الفصاحة (...) وإذا أبدع القرآن فأعجز، فليس معنى هذا أنّه خرج عن قوانين كلام العرب النحويّة، وإنّما هو الإبداع في تأليف المعاني وصوغ الكلم في الأساليب الحكيمة، وهي -مع هذا- لا تخرج عن رعاية تلك القوانين»².

والناظر في هذا القول يتحقّق من أنّ الوارد في القرآن الكريم لم يخرج عن تلك القوانين التي راعتها اللّغة العربيّة، وإنّما المسألة تتجلّى حينما نرى أنّ الإعجاز في القرآن الكريم

¹ - المرجع نفسه: 3 / 115.

² - محمد الخضر حسين: 3 / 83، 84.

ليس هو الإتيان بكلام خارج عن العربية، وإنما هو كلام من العربية ذاتها، لكنه ألفت معانيه، وصيغت كلمه في أساليب حكيمة عجز البشر على أن يصوغوا مثلها. وإذا راح الباحث يدرس هذا النظم تحقّق من أنه من كلام العرب، وإذا قاس على هذا النظم كان قياسه زيادة في أساليب العربية؛ ولهذا فالشيخ محمد الخضر حسين يدعو إلى فتح باب القياس على النظم القرآني وقراءاته.

د- موقفه من بعض المسائل النحويّة¹:

-التحقيق في بعض المسائل النحويّة:

-في معاني الحروف: التقليل من معاني حروف الجرّ يعين على حسن البيان.

ينشر الرّجل مقالاً تحت عنوان: "نيابة بعض الحروف عن بعض"² يبحث فيه مسألة هل صنيع النّحاة في جعلهم الحرف له معنيين أو أكثر يستدعي منّا عدّ هذه الحروف من قبيل المشترك، وبالتالي يدلّ كلّ معنى مستقلّ عن الآخر دلالة لا يحتاج فيها إلى تطلّب علاقة؟ وهل قول النّحاة: إنّ حروف الجرّ ينوب بعضها عن بعض، كالحرف "في" يكون بمعنى "إلى" أو بمعنى "الباء" يُجَوِّزُ لك أن تذهب بكلامك مذهب القياس فتقول بدل: "سرت إلى البحر"، "سرت في البحر"، أو "بعته بدرهم"، "بعته في درهم"؟

والمسألة بسط القول فيها البصريّون والكوفيّون، وجلّ البصريّين على القول بمنع الإنابة، يقول السيوطي: «عُلِمَ ممّا حُكي عن البصريّين في هذه الأحرف الإقتصار على معنى واحد لكلّ حرف، فمذهبهم أنّ أحرف الجرّ لا ينوب بعضها عن بعض بالقياس، كذلك

¹ -وأشير هنا إلى مسألة واحدة فقط، على الرّغم من وجود مسائل أخرى من مثل: "نقد إعرابين جديدين في صيغة التّحذير"، و"وصف جمع غير العاقل بصيغة فَعْلَاء".

-ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 38-111.

² -ينظر: المرجع نفسه: 6/ 30.

أحرف الجزم، وما أوهم غير ذلك فإمّا مؤوّل تأويلاً يقبله اللفظ، أو على تضمين الفعل معنى فعل يتعدّى بذلك الحرف، أو على النيابة شذوذا¹.

في حين أقرّ الكوفيّون وتبعهم بعض البصريّين من أنّ الإنابة تقع في الحروف؛ وهذا لوجود الإنابة في الأسماء والأفعال، والحرف قسيم هذين النوعين، ثمّ هذا حذوهم ابن جنّي، وخالفهم في حمله على السّماع لا القياس، وابن هشام يرى أنّ مذهب هؤلاء أقلّ تعسّفاً².

واهتمام الرّجل بهذا الموضوع والبحث فيه يدل على وعيه بما سيحدثه قول النّحاة: إنّ حروف الجرّ ينوب بعضها عن بعض، من أثر عند من لا دراية له بهذه الصّناعة، فقد يتوهم أنّ وضع حرف مكان حرف آخر جائز دون ضوابط أو شروط تحكم هذه الصّناعة؛ ولهذا قد يقوده القياس عليها إلى إنتاج جمل يقع فيها اللبس، يقول: « وإذا مشيت على هذا الوجه من القياس، وقعت في لبس من القول، وأتيت بجمل تنبو عنها الفطرة العربيّة، وقد نقد أحد فلاسفة اللّغة - وهو ابن جنّي - قول النّحاة³.

النّحاة، وهم يدرسون معاني الحروف، وقفوا على أنّها قد تحمل أكثر من معنى، فأوصلوا الحرف (إلى) إلى ثمانية معان، والحرف (على) إلى تسعة معان، والحرف (عن) إلى عشرة معان، و الحرف (الباء) إلى أربعة عشر معنى، والحرف (اللام) إلى اثنين وعشرين معنى⁴، وهذه المعاني الكثيرة جعلت محمد الخضر حسين ينتبه للمسألة، فهذه المعاني الكثيرة للحرف الواحد تجعل الباحث يتساءل عن المراد من قولهم: بناية حرف جرّ عن آخر؟ بمعنى هل يجوز لنا في هذه الحال أن ننيب حرف مكان حرف؟ وكيف يمكن أن نعرف أنّ هذا الحرف الذي أنبناه عن الحرف الآخر يحمل ذات المعنى المقصود؟

¹ -جلال الدّين السيوطي: همع الهوامع: 28 / 2.

² -ابن هشام: مغني اللّيب عن كتب الأعراب، تحقيق ح. الفخوري، دار الجيل، الطّبعة الأولى، بيروت: 1411هـ - 1991م : 1 /

³ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 31 / 6.

⁴ -ينظر: ابن هشام: مغني اللّيب: 1 / 135 - 172 - 237 - 245 - 348.

وأرجح أنّ هذا الإشكال هو الذي دفع الرجل إلى البحث في المسألة؛ ولهذا تتبّع أقوال محقّقي النّحاة، وبيّن جهودهم في السّعي إلى التّقليل من هذه المعاني بمسلكهم الذي سلكوه، وهو وقوفهم على الشّواهد التي تدلّ على كثرة هذه المعاني، ثمّ سعيهم في ردّ هذه المعاني الزّائدة إلى معانيها المعروفة في الإستعمال، ثمّ يستشهد بصنيع ابن هشام، ونجم الدّين الرّضي، والسّكاكي في هذا المجال، ويرى أنّ قلّة المعاني في الألفاظ المشتركة أعون على حسن البيان¹.

ويستثمر طريقتي ابن جني وابن القيم في دفعهما ما قاله النّحاة بإطلاء: إنّ حروف الجرّ ينوب بعضها عن بعض، ثمّ قال: « وخلاصة هذا المبحث: أنّ الحروف لا تستعمل إلّا في معانيها الشّائعة في كلام الفصحاء، فإذا وجّه إليك كلام، ظهر لك أنّه قد أنيب فيه حرف مكان حرف، فإنّ هناك تضمينا، أو حذف كلمة يبقى به الحرف على حقيقته المعروفة في الإستعمال»، ولم يقف عند أقوال العلماء بل راح يتلمّس حولا لهذه المسألة عند علماء البيان، فوجدهم يتحدّثون عن إستعارة حرف لمعنى آخر، ولكنهم لا يفصلون القول في معاني حروف الجرّ؛ لأنّ هذا المنحى ليس من اختصاصهم².

ثمّ يضمّ رأيي ابن جني و علماء البيان، مقترحا على المجمع اللّغوي إقتراحا يقول فيه: « فإذا ضمّ المجمع اللّغوي ما يقوله البيانويّون إلى ما يقوله ابن جني وغيره من المتفقّهين في العربيّة، أمكنه أن يقرّر أنّ الحرف لا يستعمل مكان آخر إلّا على وجه الإستعارة، أو على وجه التّضمين، وعلى المؤلّفين في العربيّة بعد هذا أن يقتصروا في بيان معاني الحروف على المعاني الحقيقيّة، وإن تعرّضوا لما زاد على ذلك، فمع بيان أنّها معان لم

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 30.

² -ينظر: المرجع نفسه: 6 / 32.

يوضع لها الحرف، حتى يكون الناشئ على بصيرة من أن استعمال الحرف في هذه المعاني من قبيل الاستعارة التي لا تتم إلا بملاحظة علاقة، ونصب قرينة¹.

وهذا الاقتراح نستنتج منه ما يلي:

-الجمع بين آراء اللغويين والبيانين طريقة مكنت الرجل من تقديم حلول عملية للمشكل المطروح، وبالتالي فمن مبادئ تفكيره اللساني عدم الفصل بين النحو وعلم البيان.

-إهتمامه بالمتعلم في أثناء تعليمه من مثل هذه المسائل اللغوية؛ ليكون على بيّنة عند استعماله هذه الأحرف.

2- في أصول النحو العربي وقضاياها عند القدماء والمحدثين:

حينما نتتبع آثار الشيخ محمد الخضر حسين في أصول النحو العربي وقضاياها، لا نعثر على كتابات خاصة في هذه المسألة، وإنما نلني بحثين وآراء ماثورة في ثنايا كتاباته²؛ تكشف عن موقفه من بعض القضايا المطروحة في أصول النحو العربي؛ ولهذا لا أكون في هذا المبحث باسطة القول في أصول النحو العربي من حيث أدلته، وآراء العلماء فيها، والقضايا التي تناولها القدماء والمحدثون بتفصيل، وإنما سأركز على ما له علاقة بالمبحث؛ أي التركيز على القضايا التي شغلت الفكر اللغوي القديم، وكانت محلّ دراسة عند الشيخ محمد الخضر حسين، وفي الوقت نفسه مقارنا مسلكه في معالجتها بمن سبقه، وبمن عاصروه أو جاءوا بعده من الباحثين المحدثين.

ولمقاربة هذا المبحث ننطلق من الأسئلة الآتية: ما القضايا التي شغلت الفكر اللغوي القديم في مسائل أصول النحو، وكانت محلّ خلاف بينهم؟ هل شغلت القضايا ذاتها الفكر

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 32.

² وأقصد هنا كتابه (القياس في اللغة العربية) الذي مسّت مباحثه مصادر الإستههاد، وبحثه الذي جاء تحت عنوان: "الإستههاد بالحديث في اللغة"، وكتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) الذي دافع فيه عن وجود الشعر العربي القديم.

اللغوي العربي الحديث؟ ما الأسئلة التي شغلت الشيخ محمد الخضر حسين، وما علاقتها بالأسئلة التي طرحها الفكر اللغوي العربي القديم؟ من أين إنطلق في معالجتها، وكيف عالجها؟ هل إنطلق من الأسئلة نفسها التي طرحها الفكر اللغوي القديم، أم استثمر المنجز وأعاد إنتاج المعرفة بطرح أسئلة جديدة وإغنائها معرفيًا؛ لحلّ بعض القضايا اللغوية التي طرحها الفكر اللغوي الحديث؟ أين جاري القدماء، وأين اختلف معهم؟ ما قيمة الآراء التي ذكرها قياسا بآراء معاصريه ومن جاءوا بعده؟ وإلى أي مدى تكون مباحث الرجل صورة صادقة لحقيقة تفكيره اللغوي؟

أ- في السماع وقضاياها:

أدلة أصول النحو العربي أربعة: السماع والإجماع والقياس والاستصحاب، هذا ما قاله جلال الدين السيوطي (ت911هـ)¹، وذكر ابن جني (ت392هـ) أنها ثلاثة: السماع والإجماع والقياس²، وتبعه الأنباري (ت755هـ) في عددها، واختلف معه في ماهيتها، يقول في (لمع الأدلة): « أقسام أدلته ثلاثة: نقل وقياس واستصحاب حال »³، واللافت في هذه الآراء أنّ مصطلح السماع عند السيوطي هو مصطلح النقل عند الأنباري، لكن لم أثر الأنباري مصطلح النقل عن السماع الذي أورده من قبل ابن جني؟.

هذه القضية قدّم لها محمود أحمد نحلة تفسيرًا، يقول: « وربّما الأنباري أثار " النقل"؛ ليلمح إلى أنّ المصادر النحوية نوعان: مصادر منقولة ومصادر معقولة، ولعلّه أثار أيضا مصطلح " النقل"؛ لأنّ المسموع قد يشعر بأنّ ما نقله الناقل قد سمعه من مصدره الأصلي

¹ -جلال السيوطي: الإقتراح في علم أصول النحو، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، بيروت: 1418هـ-1998م: 13.

² -أبو عثمان بن جنّي: الخصائص، عالم الكتب، الطّبعة الأولى، بيروت: 1427هـ-2006م:

³ -أبو البركات عبد الرحمان كمال الدّين محمّد الأنباري: الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلّة في أصول النحو، حقّقهما سعيد الأفغاني، دار الفكر، الطّبعة الثّانية، بيروت: 1391هـ-1971م: 81.

دون فاصل أو فواصل، فالتقلّ أعمّ بهذا المعنى وأشمل إذ يشمل السّماع المباشر وغير المباشر»¹.

وهذه الأدلّة بسط فيها القول القدماء والمحدثون، والواقف عليها في مضائّها القديمة إنطلاقاً من سيبويه في (الكتاب) إلى ابن الأنباري في رسالتيه (لمع الأدلّة في أصول النّحو) و(الإغراب في جدل الإعراب) وصولاً إلى جلال الدّين السيوطي في كتابه (الإقتراح)، أو في مضائّها الحديثة إنطلاقاً من المقالات التي كتبت، أو من الكتب التي ألّفت يقف على القضايا التي شغلت الفكر اللّغوي القديم في هذا العلم، وكانت محلّ خلاف بين العلماء، هذا الخلاف منح المحدثين مشروعيّة البحث في القضايا ذاتها المختلف حولها؛ ولهذا سأتناول هذا المبحث في نقطتين، أولهما الوقوف عند أهمّ القضايا المركزيّة التي شغلت الفكر اللّغوي العربي القديم في أصول النّحو وأدلّته، والسّمات المنهجية التي تميّز بها هؤلاء في معالجة هذه القضايا، وسأذكر هذه المسألة في نقاط فقط، وثانيهما آراء المحدثين في ذات القضايا، مركزاً على وجهة نظر الشيخ محمد الخضر حسين.

1- في الإستشهاد بالقرآن الكريم وقراءاته:

سلك النّحاة، وهم يتعاملون مع هذا الدّليل مسلكين، مسلك نظريّ إعترفوا فيه بأنّ القرآن الكريم أعلى نصّ من حيث الإحتجاج به، وأنّ قراءاته لا تردّ ولا تخالف؛ « لأنّ القراءة سنّة»²، ومسلك تطبيقي خالفوا فيه ما تقرّر في أصولهم النظريّة، فهم كثيراً ما ردّوا بعض القراءات، وضعّفوها، بل أوصلهم منهجهم هذا إلى ردّ قراءات سبعية لا يرقى الشكّ إليها، ولا نتحقّق من وجود هذين المسلكين إلّا إذا نظرنا في كتب الخلاف النّحوي، هذه الكتب التي تكشف عن أنظارتهم وآرائهم النظريّة، وفي الوقت نفسه مسالكهم التّطبيقية.

¹ -الدكتور محمود أحمد نحلة: أصول النّحو العربيّ، دار العلوم العربيّة، الطّبعة الأولى، بيروت: 1407هـ-1987م:

² -سيبويه : الكتاب، تحقيق الدكتور عبد السلام هارون، دار الجيل، الطّبعة الأولى، بيروت: (د.ت): 148/1.

والناظر فيما تقرّر في أصولهم النظرية يتحقّق من أنّهم يقبلون القراءات جميعها، ولم يردّوها، فهذا سيبويه (ت180هـ) لم يُعرّف عنه أنّه ردّ قراءة أو هاجمها أو ضعّفها¹، وهذا الفراء (ت207هـ) يرى أنّ القرآن الكريم أعرب وأقوى في الحجّة من الشعر²، ويصرّح ابن جني (ت392هـ) في كتابه (المحتسب) بأنّه لا يعلم خلافا بين النّحاة في الإحتجاج بالقراءة الشاذة على خلاف ما هو معروف عند علماء أصول الفقه³، ويذكر ابن خالويه (ت370هـ) « أنّ النّاس أجمعوا على أنّ اللّغة إذا وردت في القرآن الكريم فهي أفصح ممّا في غير القرآن، وأنّه لا خلاف في ذلك »⁴، ويثبت السيوطي (ت911هـ) أنّ كلّ ما ورد أنّه قرئ به جاز الإحتجاج به، سواء أكان متواترا، أم آحادا، أم شاذاً⁵.

وهذه الآراء النظرية تدفعني إلى توضيح مسألة هامة في الفكر اللغوي العربي القديم في مسلكه التطبيقي، وهي أنّ النّحاة حينما تعاملوا مع القرآن الكريم، لم يكن في أذهانهم، وهم يستشهدون ببعض آياته، أنّ المقصود هو مناقشة هذا النّص المقدّس في حدّ ذاته، وإنّما انصبّ فكرهم حول القراءات بالدرجة الأولى⁶، فمناقشة آية ما لا يعني ردّ الآية في حدّ ذاتها، أو الطعن في لغتها، هذا المسلك لم يخطر على بال اللغويين أبداً، وإنّما ناقشوا القراءة التي لم توافق قواعدهم وأقيستهم، وردّوها بإحدى طرق التّرجيح كردّها بوجود قراءة أخرى تخالفها، أو بالإجماع على خلافها، أو بأنّ لا إمام لها، وغير ذلك من طرق التّرجيح في هذا المسلك.

¹ - ينظر مثلاً: المصدر نفسه : 58/1 ، و 399/2 ، و 439/4 ، 440.

² - ينظر : أبو زكرياء يحيى بن زياد الفراء : معاني القرآن ، عالم المعرفة ، الطّبعة الثالثة ، بيروت : 1403هـ - 1983م : 14/1.

³ - ينظر : أبو الفتح عثمان بن جني : المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات ، تحقيق علي التّجدي ناصف وآخرون ،

المجلس الأعلى للشتون الإسلاميّة ، (د.ط.) ، القاهرة : 1389هـ : 1 / 32 ، 33.

⁴ - جلال الدّين السيوطي : المزهّر في علوم اللّغة وأنواعها ، شرح وتعليق محمّد أبو الفضل إبراهيم ومحمّد جاد المولى وعلي محمّد البجاوي ، المكتبة العصريّة ، الطّبعة الأولى ، بيروت : 1425هـ - 2005م : 165/1.

⁵ - جلال الدّين السيوطي : الإقتراح : 48.

⁶ - ينظر : الدكتور تمام حسان : الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ، (د.ط.) ، مصر : 1982م : 98.

وحتى أنى عما نسميه بالعموم وإصدار الأحكام في هذه المسألة، سأبحث عن حقيقتها في الجانب التطبيقي؛ لأنّ الأصول النظرية في العلوم لا تتحقق نتائجها إلا في شقّها التطبيقي؛ ولهذا اتخذت كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) للأنباري (ت577هـ) منطلقاً؛ لأنه يحوي المسلكين النظري والتطبيقي، ومتجاوزاً، في الوقت نفسه، بعض الأحكام التي أصدرها باحثون محدثون، في أثناء دراستهم لهذا الكتاب من حيث منهجه في عرض المسائل ومناقشتها والترجيح بينها، والأدلة التي ساقها سواء أكانت أدلة بصرية أم كوفية¹.

¹ - اعتماداً على كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) للأنباري؛ للبحث عن حقيقة المسألة يستدعي مني تجاوز بعض آراء الباحثين المحدثين، فمحمد خير حلواني، وجاسم الزبيدي وجميل علوش رموا الرّجل بالتلفيق وعدم التحقيق والجهل بآراء الكوفيين، في حين قال المختار أحمد ديرة إنّه لم يطلع على آراء الكوفيين إلا من خلال مصادر بصرية لم تكن منصفة الكوفيين، ورأى عبد الرّاجحي أنّ الرّجل لم يخرج من هواه البصري، فلم يوافق الكوفيين إلا في سبع مسائل من أصل إحدى وعشرين ومائة مسألة. في حين اعتمد فتحي عبد الفتاح الدّجني على هذا الكتاب بشكل كلي في تحديد منهج الكوفيين، ورأى أنّ عرض الأنباري للمسائل كان عرضاً جيّداً.

ينظر: محمد خير الحلواني: الخلاف النّحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، دار القلم العربي، الطبعة الأولى، حلب: 1974م: 166.

الدكتور سعيد جاسم الزبيدي: القياس في النّحو العربي نشأته وتطوره، دار الشروق، (د.ط)، بيروت: 1997م: 178. جميل علوش: ابن الأنباري وجهوده في النّحو، الدار العربية، (د.ط)، ليبيا وتونس: 1983م: 378. المختار أحمد ديرة: دراسة في النّحو الكوفي من خلال معاني القرآن للفراء، دار قتيبة، الطبعة الأولى، بيروت: 1991م: 335.

الدكتور عبد الرّاجحي: دروس في كتب النّحو، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، بيروت: 1988م: 110. الدكتور فتحي عبد الفتاح الدّجني: ظاهرة الشّدوذ في النّحو العربي، وكالة المطبوعات، الطبعة الأولى، الكويت: 1974م: 248.

وتجاوزي هذه الآراء جاء للأسباب الآتية:

- 1- حضور الكتاب بشكل منقطع النّظير، والإعتماد الكلي عليه في البحث النّحوي عند القدماء والمحدثين.
- 2- الكتاب ألف في القرن السادس، والمعروف تاريخياً، كما يقول ابن كثير، عن هذه الفترة أنها فترة الانقسامات الداخليّة، وتدني الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة، وكثرة الحروب الصليبيّة المتلاحقة تحت ذريعة تحرير الأراضي المقدّسة.
- 3- عرفت هذه الفترة بفترة الخوف من الصّياح، كما يسمّيها إحسان عباس، وهذا متى تدكّرنا " الحروب الصليبيّة في المشرق وسقوط كثير من المدن الأندلسية واحدة إثر أخرى في القرن السابع (...)، وفي فترات الخوف من الصّياح يكثر التّسجيل والتّقييد".

يسوق الرّجل في كتابه إحدى وعشرين ومائة مسألة خلافية بين البصريين والكوفيين يسرد خلالها أدلة الفريقين سواء أكانت أدلة نقلية أم عقلية، وتمثّلت الأدلة النقلية في القرآن الكريم وقراءاته، والحديث النبوي الشريف، وكلام العرب شعره ونثره. والباحث في هذه المسائل يتجلى له المسلكان اللذان سلكهما النّحاة في أثناء سرد أدلتهم أو مناقشة أدلة بعضهم بعضاً.

استشهد البصريون والكوفيون بالقرآن الكريم وقراءاته في خمس وخمسين مسألة، بنسبة 45،45%، ساق الكوفيون هذا الدليل في ستّ ثلاثين مسألة¹، بنسبة 75،29%، بينما ساقه البصريون دليلاً لهم في تسع عشرة مسألة²، بنسبة 70،15%، بينما استشهد الكوفيون والبصريون بالحديث النبوي الشريف في خمس مسائل، بنسبة 13،04%،

4- مهما تكن الأسباب الداعية إلى التّأليف في هذا الفنّ، يبقى العمل الذي قام به الأنباري في القرن السادس الهجري، شاهداً على مدى إحساس الرّجل بالمسؤولية في حفظ هذا التراث من الضياع، ولولاه ما وصلنا هذا التراث النحوي في فنّ الخلاف، وهذا متى علمنا أنّ الكتب التي ألّفت في هذا الفنّ، من قبل، قد ضاعت، فما هو محقق كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) الدكتور محي الدين عبد الحميد يجعل التّأليف في هذا الفنّ يرتقي إلى أبي جعفر النّخاس (ت338هـ) حينما ألّف كتاباً سمّاه (المبهبج)، ورفع الأستاذ عوض محمّد الفوزي إلى ابن كسان، أبو الحسن محمّد بن أحمد بن محمّد بن كسان (ت299هـ) حيث ألّف كتاباً سمّاه (كتاب المسائل على مذهب النّحويين ممّا اختلف فيه البصريون والكوفيون)، بينما سعيد الأفغاني رفعه إلى أحمد بن يحيى ثعلب الكوفي (ت291هـ) الذي ألّف كتاباً عنوانه (اختلاف النّحويين).

ينظر: ابن كثير: البداية والنهاية، منشورات مكتبة المعارف، (د.ط.)، بيروت: 1991م: 12/ 182-310.

الدكتور إحسان عباس: تاريخ النّقد الأدبي عند العرب، دار الشّروق للنشر والتّوزيع، الطبعة الثّانية، الأردن: 1997م:

502.

الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويين البصريين والكوفيين، تحقيق الدكتور محمّد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، (د.ط.)، بيروت: 1993م: 1/ 5 (الهامش).

عوض محمّد الفوزي: المصطلح النحوي نشأته وتطوّره حتّى أواخر القرن الثّالث الهجري، ديوان المطبوعات

الجامعية، (د.ط.)، الجزائر: 1981م: 156.

سعيد الأفغاني: من تاريخ النّحو، دار الفكر، (د.ط.)، لبنان: (د.ت.): 91.

¹ - الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف: 1/ المسائل: 5-6-11-14-23-25-27-32-33-35-37-40-45-54. و 2/ 60-61-64-65-66-67-70-72-77-84-88-89-90-94-102-103-107-108-113-121.

² - المصدر نفسه: 1/ المسائل: 5-6-10-11-13-14-18-24-38-39-50. و 2/ المسائل: 62-71-

77-78-89-95-97-117.

ساقه الكوفيون دليلاً لهم في ثلاث مسائل¹، بنسبة 47، 02 %، في حين ساقه البصريون دليلاً لهم في مسألتين²، بنسبة 65، 01 %، وأمّا كلام العرب شعره ونثره فقد جاء دليلاً للفريقين في تسع وتسعين مسألة، بنسبة 81، 81 %، ساقه الكوفيون دليلاً لهم في أربع وستين مسألة³، بنسبة 89، 52 %، بينما ساقه البصريون دليلاً في خمس وثلاثين مسألة⁴، بنسبة 92، 28 %.

والناظر في هذا الكتاب إذا وقف عند المنهج الذي سلكه الأنباري في مناقشة أدلة الفريقين، ظهر له جلياً موقف النحاة من القراءات القرآنية في المسلك التطبيقي، فهو يناقش القراءات القرآنية المستشهد بها، سالكا مسلك الترجيح بينها، فهو يرجح قراءة على أخرى حينما لا تعضها شواهد شعرية⁵، أو أنها قراءة شاذة⁶، أو أنها قراءة لا إمام لها⁷، أو أنها تقرّد بها إمام⁸، أو يردّها بقراءة أخرى⁹، أو بأنّ عالماً أنكرها، أو أنه لم يرو عن أحد من القراء قرأ بخلاف هذه القراءة؛ أي أنّ إجماع القراء جاء على خلافها¹⁰.

¹ - المصدر نفسه : 2/ المسائل: 71-72-88.

² - المصدر نفسه: 1/ المسألة: 13. و 2/ المسألة: 111.

³ - المصدر نفسه: 1/ المسائل: 4-8-10-13-14-15-16-17-18-21-22-25-27-32-35-36-37-

38-39-40-41-42-46-47-48-49-51-52-54-55-56-57-59. و 2/ المسائل: 60-61-62-

63-64-65-66-67-70-71-72-77-78-80-81-82-84-87-88-90-95-96-103-104-106-

109-113-116-117-119-120

⁴ - المصدر نفسه: 1 المسائل: 2-4-9-10-13-14-15-18-26-31-37-38-39-41-43-45-48-

58-59. و 2/ المسائل: 60-62-68-69-72-79-83-89-97-98-102-105-110-111-118-119.

⁵ - الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف: 2/ المسألة: 60.

⁶ - الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف: 2/ المسألتان: 77-102.

⁷ - المصدر نفسه: 2/ المسألة: 108.

⁸ - المصدر نفسه: 2/ المسألة: 94.

⁹ - المصدر نفسه: 1/ المسألة: 33 و 2/ المسألة: 84.

¹⁰ - المصدر نفسه: 1/ المسألة: 6.

وهذا الذي ذكرته من قبل في حق المتقدمين سواء أكانوا بصريين أم كوفيين، يدفعني إلى بحث المسألة عند المتأخرين. إن المتداول بين الباحثين أن المتأخرين قبلوا القراءات جميعها، ووقفوا في وجه المتقدمين الذين عابوا بعض القراءات، يقول السيوطي: « كان قوم من النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم وحمزة وابن عامر قراءات بعيدة في العربية وينسبونها إلى اللحن، وهم مخطئون في ذلك (...)، وقد ردّ ابن مالك على من عاب عليهم ذلك بأبلغ ردّ»¹، وكان لهذا المسلك الذي سلكه ابن مالك في قبول القراءات جميعها الأثر البالغ في الذين جاءوا من بعده، وخاصة شراح الألفية، فأكثرُوا من الإستشهاد بالقراءات القرآنية.

ولكن هذا الحكم في حق المتأخرين لا يمنحنا مشروعية القول إنهم جميعهم قبلوا القراءات ولم يردوها، فهذا فالزّمخشري (ت528هـ) يقف في وجه قراءة ابن عامر (ت118هـ) لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ ﴾ (الأنعام: 137)، بضمّ الزاي وكسر الياء في (زين)، ورفع (قتل)، ونصب (أولادهم)، وجرّ (شركاؤهم) بالإضافة، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول به، قائلاً: « وأما قراءة ابن عامر (...) فشيء لو كان في مكان الضرورات، وهو الشعر لكان سمجا مردودا (...) فكيف به في الكلام المنثور، فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته، والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوبا بالياء »²، ويعدها ابن عطية (ت546هـ) « قراءة ضعيفة في استعمال العرب »³، ويراهما فخر الدين الرازي (ت606هـ) مسلّكا « مستكرها في الشعر، فكيف في القرآن الذي هو معجز في الفصاحة، والذي حمل ابن عامر على القراءة أنه رأى في بعض المصاحف شركائهم

¹ - السيوطي: الإقتراح: 25.

² - محمود بن عمر الزّمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتب العربي، الطبعة الثالثة، بيروت: 1407هـ-1987م: 70/2.

³ - أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت: 1413هـ-1993م: 349/2.

مكتوبا بالياء «¹، وجعلها أبو البقاء العكبري (ت616هـ) بعيدة التحقيق في الكلام المنثور « وإنما يجيء في ضرورة الشعر »²، في حين بلغت هذه القراءة عند رضي الدين الأسترابادي (ت686هـ) حداً لم يسلم فيه بتواتر القراءات السبع، يقول: « وقراءة ابن عامر ليست بذلك، ولا نسلم تواتر القراءات السبع، وإن ذهب إليه بعض الأصوليين »³.

والنتيجة التي يخرج بها الباحث في المسألة، أنّ النحويين وعلى المستوى النظري إتفقوا على أنّ القراءات يُحتجّ بها إذا لم يتخلف شرط من الشروط الثلاثة؛ صحة سندها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وموافقتها الرسم العثماني، واللغة العربية بوجه من الوجوه؛ ولكنهم لم يلتزموا بما قرروه في أصولهم ومناهجهم، فردّوا الكثير من القراءات التي خالفت قواعدهم وأقيستهم، ولم يمنعهم ذلك من ردّ قراءات لا يرقى الشكّ إلى صحتها.

2-الإستشهاد بالحديث النبوي الشريف بين المتقدمين والمتأخرين:

المتداول في أدبيات علم أصول النحو في مسألة مصادر الإستشهاد أن يكون الحديث النبوي الشريف ثاني مصدر بعد القرآن الكريم وقراءاته، لكنّ الباحث في هذه القضية يسجّل قلة إهتمام النحاة بهذا المصدر في إستنباط القواعد، ونظرة واحدة في كتب هؤلاء النحاة تكفي لإصدار الحكم في حقهم بأنهم قلّلوا من الإستشهاد بالأحاديث إلى درجة تعدّ فيها هذه الأحاديث على أصابع اليد الواحدة، وقد تفوق قليلاً في بعض المصادر، وحتى

¹ -فخر الدين محمد الزّازي: تفسير فخر الدين الزّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت:1401هـ-1981م: 217/7.

² -أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري: إملاء ما من به الرّحمان من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، بيروت: 1399هـ-1979م: 262/1.

³ -رضي الدين محمد بن الحسن الأسترابادي: شرح كافيّة بن الحاجب، قدّم له ووضع حواشيه وفهارسه الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، بيروت: 1419هـ-1998م: 291/2.

نستجلي المسألة سأستشهد ببعض المصادر سواء أكان هذا الإستشهاد من كتب البصريين أم الكوفيين أم البغداديين، أم باقي الأمصار الأخرى من مصر والشام والأندلس، منطلقاً زمنياً من أواخر القرن الأول الهجري إلى بداية النصف الثاني من القرن العاشر الهجري¹.

فهذا ابن جنّي (ت392هـ) لا يستشهد بأيّ حديث في كتابه (اللمع في العربية)²، وأمّا الخليل (ت170هـ) في كتابه (كتاب الجمل في النحو)، وأبو إسحاق الزجاج (ت313هـ) في كتابه (ما ينصرف وما لا ينصرف) فيستشهدان بحديث واحد، وابن عصفور (ت679هـ) في (المقرب) بحديثين، وإستشهد كلّ من ثعلب (ت292هـ) في (الفصيح)، والأنباري (ت577هـ) في (أسرار العربية) بأربعة أحاديث، ومحمد بن مصطفى القوحي (ت950) في (شرح قواعد الإعراب لابن هشام) بخمسة أحاديث، ويستشهد سيبويه (ت180هـ) في (الكتاب) بثمانية أحاديث لم يعزها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والزّمخشري في (المفصل) بستّة أحاديث، وأمّا ابن طولون الدمشقي (ت953هـ) في (المسائل الملقّبات في علم النحو) فيستشهد بأحد عشر حديثاً.

وقد تكثر وتتقارب عدد الأحاديث المستشهد بها عند بعض المتقدّمين والمتأخّرين، فالفرّاء (ت207هـ) في (معاني القرآن) يستشهد بخمسة وثلاثين حديثاً، والسّهيلي (ت571هـ) في (الأمالي) بأربعة وثلاثين حديثاً، وقد تتقارب مع المتأخّرين، فبدر الدّين الحسن بن قاسم المرادي (ت749هـ) في (توضيح المقاصد والمسالك) يستشهد بسبعة وثلاثين حديثاً،

¹ - إستعنت في تحديد عدد الأحاديث المستشهد بها بالفهارس التي أحصتها.

² - وهذا لا يمنع من أنّه إستشهد بالحديث في مصادر أخرى.

ينظر مثلاً: ابن جنّي: الخصائص: 55-69-71-209-299-313-394-416-598-616.

وأبوحيان (745هـ) في (ارتشاف الضرب من لسان العرب) بثمانية وثلاثين حديثاً¹، ورضي الدين الإسترابادي (ت686هـ) في (شرح الكافية لابن الحاجب) بثمانية وخمسين حديثاً.

والناظر في هذه المصادر يتحقق من أنّ المتقدمين والمتأخرين قد احتجوا بالحديث النبوي الشريف، لكنّ احتجاجهم به كان قليلاً مقارنة بالكمّ الهائل من أحاديثه صلى الله عليه وسلم، وأنّ قضية الإستشهاد بالحديث النبوي الشريف عند هؤلاء لم تتلّ حقّها من الدرس كباقي الأدلّة السماعيّة الأخرى، وإن كان هؤلاء العلماء متّقين على فصاحته صلى الله عليه وسلم، فلم يعرف عنهم أنّهم ردّوا حديثاً أو طعنوا في لغته.

ثمّ إنّ الباحث في المسألة يتساءل عن شيئين إثنين، لمّ سكت المتقدمين عن الخوض في هذا الدليل، ولمّ لا نعثر جاهدين في كتبهم تفصيلاً في المسألة؟ ثمّ لمّ جادل المتأخرون في المسألة؟ وهل يجوز لنا إصدار الحكم على هؤلاء بأنهم إستشهدوا بالحديث سواء أكان إستشهادهم به قليلاً قلّة تجعل العدد لا يفوق أصابع اليدين، أم كثيراً لم يتعد الأربعين حديثاً؟ وهل إستشهاد ابن مالك (ت672هـ) مثلاً في (شرح التسهيل) بعشرة ومائتين حديثاً، تجعلنا نقول: إنّ خالف المتقدمين وأكثر من الإستشهاد بالحديث النبوي الشريف إلى درجة تجعله فاتحاً باباً لم يفتحه النحاة المتقدمون من قبل؟

وإذا إنطلقنا من السؤال الأخير بدا لنا أنّ صنيع ابن مالك كان سبباً في إثارة النقاش بين المتأخرين؛ لأنّ مسلكه هذا هو خروج عن سنن المتقدمين والمتأخرين، فهذا أبو حيان يرى مسلك ابن مالك مخالفاً لما تقرّر عند المتقدمين والمتأخرين، يقول: « وما رأيت أحداً

¹ - ذكر محقق الكتاب أنّ أبا حيان إستشهد بإثنين وخمسين حديثاً، منها ثمانية وثلاثون حديثاً للرّسول صلى الله عليه وسلم.

ينظر: أبو حيان: ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق وشرح ودراسة الدكتور رجب عثمان محمد، مراجعة الدكتور رمضان عبد التّوّاب، مطبعة المدني، الطّبعة الأولى، القاهرة: 1418هـ - 1998م / 1: 49.

من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره¹. وكان من آثار هذا الخلاف بين المتأخرين حول مسألة الإستشهاد بالحديث النبوي الشريف أن انقسموا إلى ثلاثة أقسام: أ- قسم فتح باب الإستشهاد بالحديث النبوي الشريف مطلقا، ومثّل هذا القسم ابن مالك وابن خروف.

ب- قسم أغلق باب الإستشهاد بالحديث النبوي الشريف مطلقا، ومن هؤلاء ابن الصائغ، وأبو حيان.

ج- قسم إتخذ لنفسه مكانا وسطا، ومثّل هذا القسم الشاطبي والسيوطي.

والنتيجة التي يخرج بها الباحث في هذه المسألة هو أنّ المتقدمين سكتوا ولم يعولوا على هذا المصدر في تقرير القواعد وإستنباط الأحكام الخاصة باللّغة العربيّة إلا في القليل النادر، في حين جادل المتأخرون بعضهم بعضا في قضية الإستشهاد بالحديث النبوي الشريف، وسكوت المتقدمين هذا يثير سؤال معرفيّا، ما السبب الحقيقي الكامن وراء مجانية المتقدمين البحث في هذه المسألة، إذا تجاوزنا السببين الذين ذكرهما المتأخرون، الأوّل أنّهم: « جوّزوا النّقل بالمعنى (...) والأمر الثاني أنّه وقع اللّحن كثيرا فيما روي من حديث؛ لأنّ كثيرا من الرّواة كانوا غير عرب بالطّبع »².

نضيف إلى ذينك السببين سببا آخر، وهو الخوف الذي ملأ قلوب النّحاة، فماذا يفعل هؤلاء أمام هذا الكمّ الهائل من الأحاديث النبويّة، وفيها الصّحيح، والموضوع، والمرويّ بالمعنى، فوجود مثل هذه الأنواع من الأحاديث، جعلهم لا يأمنون على أنفسهم، وهم

¹ - عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، تحقيق الدكتور محمد نبيل طريفي، دار الكتب العلميّة،

الطبعة لأولى، 1418هـ-1998م: 9 / 1.

² - البغدادي: الخزانة: 11 / 1.

يدرسون هذه الأحاديث من رفعها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، أو الطعن في لغتها، ولا تكون من كلامه صلى الله عليه وسلم أصلاً، فأنى لهم أن يفعلوا ذلك؟

وإذا رجعنا إلى صحيح مسلم مثلاً في (باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين، والتحذير من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم) ألفينا أحاديث تغلظ الكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم، فماذا يفعل أولئك النحاة أمام قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَذَّابِينَ﴾¹. فأنى لهم أن يردوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو يطعنوا في نسبه، أو ينسبوه إليه؟.

وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ﴾² كاف لنبرر مسلك هؤلاء النحاة في تقليلهم من الإستهتاد بالحديث النبوي الشريف، فالخوف أجبرهم على السكوت متى علمنا أن « هذا الحديث في غاية الصحة ونهاية القوة، حكى الإمام أبو بكر الصيرفي أنه روي عن أكثر من ستين صحابياً مرفوعاً، وقال بعض الحفاظ أنه روي عن اثنين وستين صحابياً، وفيهم العشرة المبشرة، وقال: ولا يعرف حديث إجتمع على روايته العشرة المبشرة إلا هذا، ولا حديث يروي عن ستين صحابياً إلا هذا، وقال بعضهم رواه مئتان من الصحابة »³.

وهذا الخوف الذي رجحته في حق النحاة المتقدمين خاصة، والمتأخرين عامة، نقول: إنه زال اليوم بفضل تحقيق الكثير من كتب الحديث، والمنهج الذي سار عليه محققو ودارسو علم الحديث قديماً وحديثاً يعتبر من أدق المناهج في التعامل مع النص النبوي الشريف وضبطه، فأحاطوا هذا العلم بسياج واق، ارتقى بذلك إلى سلم العلوم الدقيقة التي لا يرقى

¹ - رواه مسلم، باب (باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين، والتحذير من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم) : 61 / 1.

² - رواه مسلم، باب (تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم) : 64 / 1.

³ - الشيخ جمال الدين القاسمي: قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، تحقيق محمد بهجة بيطار، دار النفائس، الطبعة الأولى، بيروت: 1407هـ-1987م.

الشكّ إليها، فلم يبق الباحثون المحدثون سائرين على المسلك الذي سلكه المتقدمون وبعض المتأخرين في تعاملهم مع النصّ النبوي الشريف، وهم على دراية تامّة بأنّ العشرات من كتب الأحاديث قد حققت تحقّقا دقيقا لا يفتح مجالاً للشكّ أو الطعن في هذه الأحاديث المحقّقة؟

ثمّ ألا يمكن أن تكون هذه الأحاديث الكثيرة، إذا استثمارناها، مساهمة في حلّ قضايا اللّغة العربيّة العالقة، ويزداد يقيننا بأنّ ما ورد في هذه الأحاديث من لغة نراها خارجا عن قواعد العربيّة هو في حقيقة الأمر من قواعدها، المسألة فقط أنّ واضعي هذه القواعد غفلوا عن هذا المعين الذي لا ينضب، وأهدروا بغفلتهم هذه ثروة لغويّة وُصِفَ من رفعت إليه بأنّه أفضل من نطق بالضاد؟

3-الإستشهاد بكلام العرب وقضاياها عند المتقدّمين والمتأخرين:

وكلام العرب شعره ونثره هو ثالث مصدر إستنبط منه النّحاة قواعدهم وبنوا عليه الكثير من أحكامهم، يقول فيه السيوطي في أثناء حديثه عن حقيقة السّماع: « وأعني به ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمّل كلام الله تعالى وهو القرآن، وكلام نبيّه -صلّى الله عليه وسلّم- وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه، إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولّدين، نظما ونثرا عن مسلم أو كافر¹، ويقول في موضع آخر: « وأما كلام العرب فيحتجّ منه بما ثبت عن الفصحاء الموثوق بعربيّتهم²، والواقف على آثارهم يلفته الكمّ الهائل من كلام العرب المستشهد به، وخاصّة الشّواهد الشعريّة، فهم « يكثرون منها كثرة مبالغا فيها³».

¹ السيوطي: الإقتراح : 24.

² -المصدر نفسه : 33.

³ -الدكتور محمد خان : مدخل إلى أصول النّحو، دار الهدى للطباعة والنّشر والتّوزيع، (د.ط)، عين مليلة، الجزائر:

(د.ت): 21.

وحيثما ننظر إلى قول جلال الدين السيوطي، يمكن لنا أن نستنتج القضايا التي طرحت عند من سبقه من علماء اللغة، وكانت محلّ خلاف، وهما الإطاران الزماني والمكاني، فقله "قبل بعثته" لا تشير إلى الفترة الزمنية بالضبط، وقوله "إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين" فما الفترة الزمنية بالضبط التي كثر فيها المولّدون كثرة جعلت الألسنة يصيبها الفساد؟ وهل يجوز أن نقول: إنّ الفترة التي عاش فيها بشار بن برد مثلاً، ولم يكن هؤلاء المحدثون قد كثروا بالمعنى الذي يشير إليه السيوطي كثرة تبيح لعلماء اللغة أن يمتنعوا من الإستشهاد بشعره كانت سبباً في إمتناع العلماء من الإستشهاد بشعره؟، ثمّ ما الإطار المكاني الذي عاش فيه هؤلاء الفصحاء الموثوق بعربيتهم؟

وعلماء اللغة، وهم يستشهدون بهذا الكم الهائل من الشعر طرحت جملة من المسائل، كمسألة تعدّد الرواية، وبأية رواية يُستشهد؟ وكيف نرجّح بينها؟ ومسألة الشعر الذي جهل قائله، هل يُستشهد به أم يردّ؟ وحقيقة المصطلحات الآتية: المطرد، الغالب، الكثير، القليل، النادر، وما العدد الذي على أساسه نحكم على هذا بأنّه مطرد أو غالب أو كثير أو قليل أو نادر؟

وسأرجع هنا إلى كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف)؛ لأقف على حقيقة المسألة في جانبها التطبيقي، مركزاً فيه على منهج الأنباري في مناقشة هذا الدليل الذي ساقه الكوفيون، والبصريون، ومعرفة طرق الترجيح بين شواهد هذا الدليل؛ للوقوف على حقيقة تلك المسائل التي ذكرتها من قبل، فهو يردّ الشواهد الشعرية المجهولة القائل في ستّ مسائل، ومجموعها أحد عشر بيتاً، ويحمل ثلاثاً وعشرين بيتاً على الصّورة الشعرية، ويردّ سبعة أبيات على أنّها شاذّة، ويصحّح رواية أربعة عشر بيتاً، ويلجأ إلى التقدير لعدد من الأبيات، ويردّ كلام العرب على أساس أنّه لغة شاذّة و متقرّد بروايتها، أو من الشاذّ الذي لا يقاس عليه ولا يعبأ به ولا يعرّج عليه.

والناظر في هذا المنهج يتحقق من أنه لم يكن مطلق الصواب، متى علمنا أنه ينطلق من قواعد توجيه¹ ذكرها النحاة، كقولهم: ما حذف للضرورة لا يجعل أصلا يقاس عليه، و"ما جاء لضرورة شعر أو إقامة وزن أو قافية فلا حجة فيه"، و"المصير إلى ما لا نظير له في كلامهم مردود" و"إذا جاز حذف الأقوى لضرورة الشعر فحذف الأضعف أولى" و"الحذف على سبيل الوجوب والجواز لدلالة الحال كثير في كلامهم".

والنتيجة التي أصل إليها من خلال ما ذكرته من قبل في قضايا السماع نجمها في النقاط الآتية:

1- المعروف عن النحاة في موقفهم من الاستشهاد بالقراءات القرآنية أنهم سلكوا مسلكين، أحدهما نظري وافقوا فيه الإعتماد على القراءات القرآنية، ومسلك تطبيقي خالفوا فيه ما تقرر في أصولهم النظرية، فهم كثيرا ما ردوا قراءات قرآنية، وضعفوا بعضها منها، ولم تسلم من منهجهم هذا القراءات السبعية.

2- النحاة لم يردوا حديثا ولم يطعنوا في لغته؛ واستشهدوا به غير أن استشهادهم كان قليلا مقارنة بالكم الهائل من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يعولوا عليه في استنباط أحكامهم وقواعدهم، وخالف هذا المسلك المتأخرون من أمثال ابن مالك، وابن خروف، فأكثروا من الاستشهاد به.

3- طرحت في مسألة الاستشهاد بكلام العرب شعره ونثره جملة من القضايا، منها الإطاران الزماني والمكاني الذي ضم من يُحتج بكلامهم، والاحتجاج بشعر مجهول القائل، وحقيقة

¹ - ذكر هذا المصطلح الدكتور تمام حسان، يقول: « والمقصود بقواعد التوجيه تلك الصواب المنهجية التي وضعها النحاة؛ ليلتزموا بها عند النظر في المادة اللغوية (سماعا كانت أم استصحابا أم قياسا) التي تستعمل لاستنباط الحكم. ولقد أصبحت هذه القواعد معايير لأفكارهم ومقاييس لأحكامهم وآرائهم (...) وأثرت أن أسمي هذه القواعد "قواعد توجيه" لإرتباطها بالتعليل وبتوجيه الأحكام عند التأويل، وإعتبار وجه منها أولى من الآخر بالقبول (...) وإذا كانت قواعد التوجيه "صوابا منهجية" فهي دستور النحاة ». الدكتور تمام حسان: الأصول: 28.

الرّواية من حيث روّاتها، وتعدّد رواياتها، وبأية رواية يُستشهد؟ وطرق التّرجيح بينها في حال تعدّدها. ولم يلتزم بعض المتأخّرين بهذه الأصول فوسّعوا دائرة الاستشهاد زمنيًا، واستشهدوا بعشر أبي تمام والمنتبّي وأبي نّوّاس وغيرهم.

ب- في القياس وقضاياها:

النّحاة جميعهم عوّلوا على هذا الدّليل، وتقرّر في أصولهم أنّه ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب، ودليل القياس بسط فيه القول القدماء والمحدثون؛ والذي يهمني في هذا الدّليل هو البحث في الرّكن الأوّل من أركان القياس، وهو المقيس عليه، والأسئلة المعرفيّة التي تبقى شاخصة في حقّ اللّغويين، وتفرض نفسها في هذا المجال هي: لم قصر النّحاة المقيس عليه على كلام العرب فقط؟ وهل يضمّ كلام العرب حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أم لا؟ وهل يجوز لنا أن نستثني القرآن الكريم وقراءاته من هذا الرّكن أم لا؟ ثمّ ما موقف النّحاة، وهم يجادلون بعضهم بعضا حين يسوقون القياس دليلا من أدلّتهم العقلية؟

النّاظر في مسلك علماء اللّغة القدماء يتحقّق من أنّ المقيس عليه يشمل كلام العرب، وما استنبطوه من قواعد من هذا الكلام، ولا يعثر جاها على إعتبار القراءات القرآنية والحديث النبوي الشّريف من النّصوص المقيس عليها، ولعلّ الاختلاف بين علماء اللّغة حول هذين المصدرين جعل حضورهما في تعاريفهم يتخلف، وهذا التخلف منح المحدثين مشروعية البحث في المسألة، كالشيخ محمد الخضر حسين، ومن بعده محمود سليمان ياقوت الذي يقول في كتابه (أصول النّحو العربي): «المقيس عليه: يشمل أيّ الدّكر الحكيم، والقراءات القرآنية، والأحاديث الشّريفة، والمطرّد المسموع من كلام العرب الذين

يحتجّ بكلامهم، ويشمل الشعر والنثر¹، وهذا تعريف جامع مانع يمكن أن نستثمره في توسيع دائرة المقيس عليه.

وبعد أن وقفت على أهمّ القضايا التي طرحت في السماع والقياس، جاز لي الآن البحث في موقف الشيخ محمد الخضر حسين في القضايا نفسها التي طرحها الفكر اللغوي القديم، والكشف عن علاقة هذه المواقف بتفكيره اللساني، مقارنا مسلكه بمن سبقه وبمن جاء بعده من الباحثين في المسائل ذاتها.

3- موقف محمد الخضر حسين من قضايا أصول النحو العربي:

أ- السماع:

1- الاستشهاد بالقراءات القرآنية والقياس عليها:

لم يغب عن تفكير الشيخ محمد الخضر حسين في أن الوارد في القرآن الكريم من العربية نفسها، المسألة فقط أن واضعي القواعد غفلوا عن هذا المعين الذي لا ينضب، وعلى هذا الأساس ردّ قول من يرى وجوب وضع نحو جديد منطلقا من القرآن الكريم؛ أي ما أُصطلح عليه بالنحو القرآني؛ لأنّ «مكانة القرآن المتناهية في الفصاحة والبلاغة تقتضي الاحتجاج به في كلّ حال»²، وبين أن الكلام الوارد على غير القياس نوعان، إمّا يكون صادرا عن العرب، وهو مخالف لسنتهم، وإمّا أن يكون صادرا من مكان نتحقّق فيه من أنه لم يصدر عن خطأ أو تلاعب في اللغة، كآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي رويت بألفاظها³، وما ورد من هذا الطّريق؛ أي الطّريق الثاني الذي نتأكّد منه أن هذا الكلام كلام لم يصدر عن خطأ ولا تلاعب في أوضاع اللغة نوعان:

¹ - الدكتور محمود سليمان ياقوت: أصول النحو العربي، دار المعرفة الجامعية، (د.ط)، الإسكندرية: 2006م: 604.

² - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 35/6.

³ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 45/6.

أ- أن يكون في لفظة واحدة فقط؛ أي أن هذه اللفظة خارجة عن القياس، كلفظة ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ (الأعراف: 10) الواردة بالهمز في بعض القراءات¹، وفي هذه الحال نؤمن بفصاحة الكلمة وإن خالفت القياس، ونعطيها حكم استحوذ واستصوب، وأمّا أمثال هذه الكلمات فنرجع بها إلى القياس.

ب- أن يكون الوارد في القرآن والمخالف للقياس نظاماً، في هذه الحال يرى تجاوز آراء البصريين والكوفيين؛ ولا يعول عليها في هذه المسألة، فكلّ ما جاء في القرآن الكريم من نظم نراه مخالفاً لقواعد العربيّة هو من العربيّة نفسها المسألة فقط أنّ واضعي القواعد يومئذ غفلوا عن الإغتراف من هذا النبع الذي لا ينضب، وبغفلتهم هذه قوتوا الفرصة وأهدروا كمّاً هائلاً من الأساليب العربيّة كان كافياً ليزيد العربيّة سعة على سعتها. ويحلّ بعض قضايا العربيّة التي لا زالت عالقة، وخاصّة استثمار القراءات القرآنيّة جميعها والقياس عليها.

2- في الإستشهاد بالحديث النبوي الشريف:

كنت قد أشرت من قبل، وأنا أتناول مسألة موقف المتقدّمين والمتأخّرين من الإستشهاد بالحديث النبوي الشريف، إلى أنّ المتقدّمين سكتوا، ولم يلق هذا الدليل الدّراسة الكافية كما لقيته باقي الأدلّة الأخرى، في حين ظهر جدل المتأخّرين ومناقشاتهم في حقيقة إستشهاد المتقدّمين من عدمه، والذي سجّله أنّ هؤلاء القدماء إستشهدوا بالحديث النبوي الشريف إلاّ أنّ إستشهادهم به كان قليلاً، ثمّ برّرت مسلكهم هذا، وبيّنت أنّ المتأخّرين جادلوا في المسألة لما رأوا بعض معاصريهم يكثرّون من الإستشهاد بالحديث النبوي الشريف، وأمّا المحدثون

¹ -إنّها قراءة الأعرج، وكذا روى خارجة بن مصعب عن نافع.

ينظر: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري: كتاب معاني القراءات، تحقيق الشيخ أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، بيروت: 1420هـ-1999م: 176.

أبو عبد الله بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الخامسة، بيروت:

فقد طرحوا المسألة من جديد داخل مجمع اللغة العربيّة، وكتب الشيخ محمد الخضر حسين موضوعاً تحت عنوان: "الإستشهاد بالحديث في اللغة"¹ يستقصي فيه القضية.

وبحث الرّجل القضية من الوجوه الآتية: من حيث حقيقة الحديث، وهل فيه ما لا شاهد له في كلام العرب؟، والإختلاف في الإحتجاج به، ثمّ قدّم أدلّة المانعين، وأدلّة المجوزين، ثمّ ناقش أدلّة المانعين، وخرج بنتيجة تعود على أصل البحث بنتيجة، ولا أكون هنا سارداً ما خلف الشيخ من آراء بقدر ما تجدني مركزاً على مصادر تفكيره في المسألة وطريقة معالجته لها، والوسائل التي إستعملها، والنتائج التي توصل إليها، ولهذا سأحدّد المسائل التي أثارها في النقاط الآتية²:

أ- وقوفه عند حقيقة الحديث النبوي الشريف:

- الحديث عنده يشمل ما قاله الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وما قاله الصحابة رضي الله عنهم حينما يحكون أفعاله صلّى الله عليه وسلّم، أو شأناً من شؤون العامّة أو الخاصّة تتصل بالدين، وقد تحوي هذه الأحاديث أقوال بعض التابعين. وأقوال الصحابة والتابعين متى رُوت عن طريق المحدثين دخلت في حكم المرفوعة إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وعليه جاز الإحتجاج به.

ب- بحث المسألة تاريخياً:

- بحث الشيخ محمد الخضر حسين في تاريخ بداية كتابة الأحاديث، والذي رجّحه في أواخر حياة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وممّن كان يكتب هذه الأحاديث عبد الله بن عمرو بن العاصّ، ثمّ دوّنت في الكتب بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز المتوفّى عام 101هـ.

¹ - ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 168.

² - المرجع نفسه: 6/ 168 - 184.

-تتبع تاريخ تدوين الأحاديث النبوية الشريفة في طبقاته الثلاث ابتداء من محمد بن مسلم الزهري (ت 124هـ) إلى أصحاب كتب الصحاح، وآخرهم النسائي المولود عام 295هـ، وتكون الفترة الممتدة من بداية القرن الثاني الهجري إلى أواخر القرن الثالث قد تم فيها تقييد معظم الأحاديث بالكتابة والتدوين.

-هذا التتبع الزمني لتدوين الأحاديث مكن الشيخ محمد الخضر حسين من الانتقال إلى جوهر القضية، وهو البحث في تاريخ دخول الفساد إلى اللغة، هل كان قبل تدوين الأحاديث أم بعده؟ ويرى أن الأحاديث دونت بعد أن دخل الفساد اللغة، ثم حدد الطائفتين اللتين دخلهما الفساد، وهما: من كانت أمهاتهم من الأعاجم، ومن سكنوا مناطق تكثر فيها مخالطة الأعاجم، واستنتى طائفتين هما: من لم تكن أمهاتهم من الأعاجم، والناشئون في بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة.

-والنتيجة التاريخية للمسألة في تدوين الأحاديث وتاريخ دخول الفساد إلى اللغة، مكن الرجل من الوقوف على مدى تأثير هاتين المسألتين في رواية الحديث بالمعنى.

-وقوع الغلط والتصحيح في بعض الأحاديث، في رأيه، ليس سببا كافيا في الطعن فيها، فكثير من أشعار العرب وقع فيها التحريف والتصحيح، ولم يردها علماء اللغة، وصححوها واعتمدوا عليها في استنباط القواعد وبناء الأحكام، ويكفي ما فعله ابن مالك في كتابه (التوضيح في حل مشكلات الجامع الصحيح) حيث ذكر للأحاديث التي أشكل إعرابها وجوها دلت على أنها من قبيل الكلام العربي الفصيح.

-والنتيجة التي توصل إليها هي تقسيم الأحاديث في مجال الاستشهاد إلى ثلاثة أنواع:

أ-الأحاديث التي لا ينبغي الاختلاف في الاحتجاج بها، وهي ستة أنواع:

1- ما يروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته عيه الصلاة والسلام.

2- ما يروى من الأقوال التي كان يتعبد بها، أو أمر بالتعبد بها، كألفاظ القنوت والتحيات.

3- ما يروى شاهداً على أنه كان يخاطب بها كل قوم من العرب بلغتهم.

4- الأحاديث التي وردت من طرق متعددة واتحدت ألفاظها.

5- الأحاديث التي دونها من نشأ في بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة.

6- ما عرف من حال روايته أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى.

ب- الأحاديث التي لا ينبغي الاختلاف في عدم الاحتجاج بها:

وهي الأحاديث التي لم تدون في الصدر الأول، وإنما تروى في كتب المتأخرين.

ج- الأحاديث التي يصح أن تختلف الأنظار في الاستشهاد بألفاظها:

وهي الأحاديث التي دونت في الصدر الأول، ولم تكن من الأنواع الستة المنبّه عليها أنفاً.

والنتيجة التي توصل إليها الشيخ محمد الخضر حسين استثمارها مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وأصدر قراراً حول مسألة الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف¹، وبعد مرور أكثر من وتسع وسبعين سنة؛ أي منذ أن قدم الشيخ بحثه عام (1936م)، لازلنا في مجال الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف واقفين عند هذا القرار، ونحن على دراية تامة بأن الكثير من كتب علم الحديث قد حققت ونشرت، وبإمكان الكثير من الباحثين استثمار هذه الثروة الحديثية في حلّ الكثير من قضايا اللغة العربية.

3- في الاستشهاد بكلام العرب:

سأتناول مسألة الاستشهاد بكلام العرب في النقاط الآتية:

أ- موقفه من الاستشهاد بشعر مجهول القائل:

¹ - مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة: شعبان 1356هـ الموافق: أكتوبر 1937م: 4 / 7.

جوز الرجل الإستشهاد بكلام مجهول القائل بشروط، وهي:

-متى رواه الناطق بالعربية سليقة، جاز له أن يتصرف في لغة الشعر، وإن أدى ذلك إلى تعدد الروايات كان كل منها صالحا للاحتجاج به.

-متى رواه من يوثق به في اللغة، وعرف بضبطه وإتقانه اللغة.

-إذا رواه من لا نثق فيهم، ننظر إلى لغته، فإن ألفيناها مقبولة في العربية، أو عضدها نقل آخر قبلنا الإستشهاد بها¹.

ب-موقفه من الإستشهاد بشعري أبي تمام والمنتبي:

في هذه المسألة يجاري القدماء ويقف في وجه المتأخرين، ويناقش القضية من جانبيين، أولهما: هل إتقان الرواية يستلزم إتقان الدراية أم لا؟ وهل الشعر الذي سكت عنه العلماء ولم يصوبوا هنأته كاف لنجعله سببا في الإستشهاد به؟ الرجل يتساءل: كيف نستشهد بكلام هؤلاء وقد وقعوا أنفسهم في أغلاط لغوية لا نستطيع تخريجها على وجه مقبول، وساق للتدليل على رأيه بيتين شعريين، أحدهما لأبي تمام والآخر للمنتبي²، وعلى هذا الأساس لم يجر عبارة الزمخشري "أجعل ما يقوله بمثابة ما يرويه" ومن تبعه من العلماء كالعلامة الرضي، والشهاب الخفاجي.

ثم يرى أن الشعر الذي يسكت علماء اللغة عن بعض هنأته، لا يرفعه هذا السكوت من مرتبة الإستئناس إلى مرتبة أن يكون حجة في تقرير أحكام اللغة؛ ولهذا ردّ نظرة ابن السيد البطليوسي في صحة الإستشهاد بشعر المنتبي.

¹ -كتب الشيخ محمد الخضر حسين مقالا تحت عنوان: "من وثق من علماء اللغة ومن طعن فيه" فصل القول فيه في علماء اللغة الذين وثق في روايتهم، وعلماء اللغة الذين طعن في رواياتهم.

ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 18-24.

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 41، 43.

ج- موقفه من الإستشهاد بكلام علماء اللّغة:

لا يرى جواز الإستشهاد بكلام علماء اللّغة؛ لوقوع بعض من هؤلاء العلماء في أخطاء تجعلهم يناقضون ما يتقرّر في مذاهبهم، فسيبويه والأخفش يستعملان كلمة (بعض) موصولة بأداة التعريف، وابن هشام يقول: "ها أنا بائح" في خطبة كتبه، وقد اشترط دخولها التنبية على الضمير كون خبره اسم إشارة.

والذي يبعث فينا بعض التساؤلات أنّ الرجل في مقال ينشره تحت عنوان: "وصف جمع غير العاقل بصيغة فعلاء"، يقول: «وملخص البحث أنّ علماء العربية أطلقوا في صحّة وصف جمع غير العاقل بصفة المفردة المؤنثة، فيدخل في إطلاقهم وصفه بفعلاء، ولم نر أحدا منهم خصّ هذا الحكم بصيغتي فاعلة، وفعلى. ثمّ إنّ الوصف بها ورد في كلام العلماء والأدباء كثيرا؛ كما ورد في عبارة ابن جرير الطبري، وورد في شعر أبي تمام، والمتنبّي ما يدلّ على صحّته. وقد قال صاحب الكشاف: أجعل ما يقوله أبو تمام بمنزلة ما يرويه. وقال الشهاب الخفّاجي في (شرح درّة الغوّاص) أجعل ما يقوله المتنبّي بمنزلة ما يرويه»¹.

والناظر فيما قدّمته في المبحث الخاصّ بالإستشهاد بكلام العرب وموقف الرجل منه، يتساءل إلى أيّ مدى يمكن لنا أن نوقّف بين مسلّكي الشّيخ محمد الخضر حسين في موقفه من الإستشهاد بشعر الطبقة الرابعة من أمثال أبي تمام والمتنبّي، فهو يردّ صنيع الزّمخشري مع شعر أبي تمام، ويستشهد في الوقت نفسه به في مكان؟. ثمّ هل يجوز للباحثين اليوم أن يعتمدوا، مثلا، على مقولتي الزّمخشري، والبطليوسي في توسيع دائرة الإستشهاد بكلام العرب زمنيا، وبالتّالي تزداد الأساليب وتتنوّع ونجد لتعابير الباحثين اليوم سندا لغويا؟

ب- القياس:

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 43 / 6.

عالج الرجل قضية القياس في اللغة العربية يوم أنتدب لتدريس طلبة مدارس دمشق عام 1914م، ثم نشر بحوثه في هذا المجال ابتداء من عام 1920م في مجلة المنار¹، ثم جمعها في كتاب تحت عنوان (القياس في اللغة العربية)، وطبع لأول مرة عام 1934م. والكتاب يدل على وعي الرجل بحاجة اللغة العربية إلى القياس؛ لتساير عصرها وتستمر في حياتها ونموها. وسأركز في هذا الدليل على ركن المقياس عليه من حيث حقيقته عند الشيخ محمد الخضر حسين، فكيف نظر الشيخ إلى هذا الدليل؟

كنت قد ذكرت من قبل أن النحاة قصروا هذا الركن على كلام العرب، وما استنبطوه من قواعد، وبيّنت أن الباحث محمود سليمان ياقوت قد أضاف القرآن الكريم وقراءاته والحديث النبوي الشريف، والشيخ محمد الخضر حسين من قبله قد أشار إلى أن اللسان العربي يجمع تحت اسمه لغات شتى، وهي تختلف فيما بينها، ويصحّ القياس عليها جميعها، وأعلى النصوص النصّ القرآني فنأخذ بالقياس عليه، حتى وإن كان الوارد فيه ممّا خالف شعر العرب ومنثورهم²، وأمّا الأحاديث النبوية فبعد أن فصل فيها القول في بحثه الذي كتبه تحت عنوان: "الإستشهاد بالحديث باللغة" رأى جواز الإستشهاد بالأصناف التي ذكرها والقياس عليها³.

وأما المحدثون الذين جاؤوا بعد الشيخ محمد الخضر زمنياً فقد تناولوا هذه القضايا التي شغلت الفكر اللغوي القديم، والبحث في هذه المسألة يحتاج إلى تتبّع تاريخي دقيق؛ لأنّ

¹ -ينظر: مجلة المنار، مصر: ربيع الأول 1339هـ- 10 ديسمبر 1920م: 22 / 602-616.

² -المرجع نفسه: 30 جمادى الأولى 1340هـ - 27 يناير 1922م: 23 / 134-141.

³ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 34، 35.

³ -المرجع نفسه: 6 / 181 وما بعدها.

الذين تناولوا أصول النحو العربي وقضاياه كثيرون¹؛ ولهذا فالباحث في هذه المسألة يضطره المنهج إلى تقديمها في النقاط الآتية:

أ-الواقف عند آراء المحدثين في مسألة الإستشهاد بالقرآن الكريم وقراءاته تتبادر إلى ذهنه مجموعة من الأسئلة المعرفية والمنهجية، من أين إنطلق المحدثون في مقارنة المسألة؟ ما الأسئلة التي شغلهم، وما قيمتها مقارنة بما طرحه الفكر اللغوي العربي القديم؟ هل فكر المحدثون في استثمار هذه القراءات في حلّ القضايا اللغوية المطروحة؟

المحدثون، وهم يتناولون هذه المسألة أصناف، صنف لم يعوّل على القراءات جميعها، واعتبر ذلك غلوًا من بعض المتأخرين والمحدثين، فهذا عبد الصبور شاهين يقول: « نجد موقفًا آخر يتسم بالغلو حين يعتمد جميع ما ورد من التراكيب القرآنية التي تختلف باختلاف القراءات المشهورة، فيجعلها كلّها قياسًا لفصاحة الأسلوب، وقد اتخذ هذا الموقف الشيخ الخضر»².

وصنف ظهر موقفه من خلال ردوده على بعض المتأخرين، فهذا هو علي النجدي ناصف يردّ على أبي حيّان الذي انتقد الزمخشري في موقفه من قراءة ابن عامر التي فصل فيها بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول به، ويقول: « فأبو حيّان حقيق أن يعلم حقّ العلم أنّ الإسلام أبطل التفاخر بالأنساب والأجناس، وأنّ العجمة لا تمنع أصحاب الملكات وذوي المواهب من إتقان العربية والتفوق فيها »³.

¹ - وهم على أقسام، قسم عرض أصول النحو عرضًا تاريخيًا، وقسم شرح ووسع في المسائل الخاصة بهذا العلم، وقسم ركّز على مسائل العلم التي كانت محلّ خلاف بين القدماء فحاول إستجلاءها وإستقصاء المسألة في مضائنها، وقسم ركّز على دليل من أدلّه هذا العلم وراح يدرسه في ضوء آراء اللسانيات.

² - عبد الصبور شاهين: " مشكلات القياس في اللغة العربية ". مجلة عالم الفكر، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت:

أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر 1970م: العدد: 3، المجلد: 1 / 207.

³ - الأستاذ علي النجدي ناصف: " بين القراء والنحاة ". مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة: 37 / 17.

وصنف وقف في وجه النحاة الذين ردّوا بعض القراءات وضعّفوها حينما لم توافق أقيستهم وقواعدهم، وخاصة البصريين الذين «خطأوا قراءات لا يرقى الشك إلى صحتها رواية وأداء»¹، ورأى هذا الصنف أنّ القراءات جميعها حجة لا تضاهيها حجة²، ومسلك النحاة في ردّ بعض القراءات هو مسلك أضعوا به على أنفسهم شواهد كثيرة³.

وصنف رأى أنّ القراءات أثّرت في النحو العربي وأغنّته، وهي من أهمّ العلوم الإسلاميّة التي أصّلت الاعتماد على الرواية، وهي من أوثق العلوم التي إذا اعتمدنا عليها وسّعنا دائرة الفصحى بالقياس على هذه القراءات، وفي الوقت نفسه وقفنا عند القضايا اللغويّة المطروحة التي هي بحاجة ماسّة إلى دراستها⁴. وأما السؤال الذي يبقى شاخصاً في حقّ هؤلاء المحدثين، هل استثمروا هذه القراءات في القضايا اللغويّة أم وقفوا عند تلك القضايا التي تناولها الفكر اللغوي القديم، باحثين فيما قام به القدماء، ومنهجهم الذي سلّكوه، وأين أصابوا وأين جانبوا الصواب؟

ب-وأما الحديث النبوي الشريف، فالباحث في بعض آثار هؤلاء المحدثين لا يكاد يعثر جاهداً على مباحث تتجاوز القضايا التي أثارها المتأخرون وتناولها الشيخ محمد الخضر حسين بتفصيل، وانقسم المحدثون أمام رأي أبي حيان قسامين، قسم جارى أبا حيان فوافقوه

¹ - عبد الجبار علوان النائلة: "ظاهرة تخطئة النحويين للقراء الفصحاء". مجلة المجمع العلمي العراقي: 37 / 311.

² - سعيد الأفغاني: في أصول النحو، دار الفكر، (د.ط)، بيروت: (د.ت): 28.

³ - الدكتور أحمد محمد قدورة: فقه اللغة، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت: 1413هـ: 77.

⁴ - ينظر: مثلاً: الدكتور عبد العال سالم مكرم: القراءات القرآنيّة وأثرها في الدراسات النحويّة: 110.

الدكتور سعيد جاسم الزبيدي: القياس في النحو: 79.

الدكتور: عبده الرّاجحي: النحو العربي والدرس الحديث، دار المعرفة الجامعيّة، (د.ط)، مصر: 1988م:

.13

الدكتور: عبده الرّاجحي: اللهجات العربيّة في القراءات، دار المعارف، (د.ط)، مصر: 1968م: 84.

الدكتور محمود سليمان ياقوت: فقه اللغة وعلم اللغة، دار المعرفة الجامعيّة، (د.ط)، مصر: 1994م: 132،

.133

في أنّ المتقدّمين لم يستشهدوا بالحديث النبوي الشريف¹، وفريق رأى أنّ المتقدّمين استشهدوا بالحديث النبوي الشريف².

ثمّ تناولوا الأسباب التي أدت بالمتقدّمين إلى التقليل من الاستشهاد بالحدث النبوي الشريف، فمنهم من رأى رواية الحديث بالمعنى سببا ضعيفا³، وواهيا⁴، وغير سليم⁵، ومنهم من أضاف سببا آخر وهو التحرّز الديني⁶، أو وجود مصادر أخرى أغنت النّحاة عن الرجوع إلى مصدر مشكوك في ألفاظه⁷، وبحثوا في أوّل من أكثر من الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف، فقالوا: إنّه ابن مالك⁸، وابن خروف⁹، ورفع بعضهم إلى أبي عمر بن العلاء (ت 145هـ)¹⁰.

ثمّ إنّ السؤال الذي يبقى، كغيره من الأسئلة المعرفيّة شاخصا في وجه المحدثين، ما الجديد الذي جاء به هؤلاء الباحثون متى علمنا أنّ هذه الأسئلة التي طرحها القدماء أعيدت مع الفكر اللغوي العربي الحديث؟ وإذا سلّمنا بأنّ الوقوف عند هذه الأسئلة من حيث المنهج مسلك مقبول؛ فالى أيّ مدى سيكون تكرار الأسئلة ذاتها دون إغنائها معرفيا، وطرح أسئلة جديدة عائدا على أصل البحث بالفائدة؟

1- من هؤلاء: عليّ أبو المكارم، محمود أحمد نحلة، محمد خير حلواني.

2- من هؤلاء: سعيد الأفغاني، محمود سليمان ياقوت.

3- الدكتور سليمان ياقوت: أصول النحو العربي: 555.

4- الدكتور رمضان عبد التّوّاب: فصول في فقه اللّغة، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، القاهرة: 1408هـ: 97.

5- الدكتور عبد الصبور شاهين: دراسات لغويّة: 73.

6- الدكتور محمد عيد: الاستشهاد والاحتجاج باللّغة، رواية اللّغو والاحتجاج بها في ضوء علم اللّغة الحديث، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، القاهرة: 1988م: 114.

7- الدكتور عليّ أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، 48.

8- الدكتور إبراهيم عبّود السّامرائي: المفيد في المدارس النحويّة، دار الميسرة للنشر والتّوزيع والطّباعة، الطبعة الأولى، 1427هـ-2006م: 239.

9- الدكتور رمضان عبد التّوّاب: فصول في فقه اللّغة: 98.

- الدكتور عبد العال سالم مكرم: المدرسة النحويّة في مصر والشّام في القرنين السابع والثّامن من الهجرة: 342.

10- الدكتور عبد العال سالم مكرم: الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي: 212.

ج- شغلت المحدثين قضيتا الزمان والمكان، وجاءت بحوثهم باسطة القول في هذه المسألة، وحاولوا أن يوسعوا دائرة الاستشهاد بالشعر زمنياً؛ لتشمل الطبقة الرابعة التي يطلق عليها اسم المولدين أو المحدثين، فمنهم من سارع إلى إثبات أن علماء اللغة استشهدوا بشعر الطبقة الرابعة، فخصّ مبحثاً تحت عنوان: " الأئمة الذين احتجوا بشعر المولدين " في كتابه (الإحتجاج بالشعر في اللغة الواقع والدلالة)؛ ليبين أن هؤلاء الأئمة احتجوا بشعر هذه الطبقة¹. ويتساءل تمام حسان على أي أساس سوى علماء اللغة شعر امرئ القيس بشعر ابن هرمة متاسين التطور الذي شهدته العربية²، واعتبر حمزة بن قبلان المزيني وقف الإحتجاج عند فترة زمنية محددة تحيزاً لغوياً³.

والواقف على مباحث المحدثين في ذات المسألة يتحقق من أن قضيتي الزمان والمكان التي سيطرت على عقول القدماء والمحدثين هي، اليوم، بحاجة ماسة إلى إعادة النظر والدراسة داخل المجامع اللغوية ووحدات البحث في الجامعات.

د- وأما القياس فلم تغب أهميته ودوره في نمو اللغة عن عقول الباحثين المحدثين، وعن أعمال المجامع اللغوية، وجاءت بحوث القياس عندهم متناولة المسائل الآتية:

أ- من حيث حقيقته، ووظائفه، والمراحل التي مرّ بها⁴.

ب- بين أصالة القياس وتأثره بالمنطق⁵.

¹ - الدكتور محمد حسن بن حبل: الإحتجاج بالشعر في اللغة الواقع والدلالة: 109.

² - ينظر: الدكتور تمام حسان: الأصول: 104-111.

³ - الدكتور حمزة بن قبلان المزيني: " التّحيز اللّغوي -مظاهره وأسبابه-". مجلة جذور، جدّة: ذو الحجة 1421هـ -

مارس: 2001م، النادي الأدبي بجدّة، العدد: 5: 125.

وأعاد نشر هذه الأفكار في كتابه (التّحيز اللّغوي وقضايا أخرى)

⁴ - ينظر مثلاً: الدكتور علي أبو المكارم: أصول التّكثير التّحوي: 78 وما بعدها.

⁵ - من الباحثين الذين قالوا بتأثر القياس بالمنطق: إبراهيم أنيس، إبراهيم السمرائي، محمد عيد.

ينظر: إبراهيم أنيس من أسرار العربية: 133، 134.

إبراهيم السمرائي: النحو العربي نقد وبناء: 19.

ج-وقفوا عند أركان القياس، وركزوا على المقيس عليه، وعلى العلة¹.

ب-في التفكير المعجمي:

الواقف على تاريخ الأمم لا يكاد يجد أمة فاقت العرب في ميدان صناعة المعاجم، بل «لا تعرف أمة من الأمم في تاريخها القديم أو الحديث قد تفننت في أشكال معاجمها، وفي طرق تبويبها وترتيبها كما فعل العرب»²؛ ولهذا جاءت معاجم العرب مثقلة بأعداد كبيرة من الألفاظ، الناظر فيها يرتدّ بصره أمام هذا الكمّ الهائل، فبعضها إهتم بالألفاظ، وبعضها الآخر بالمعاني، وكثر تأليف المعاجم في فترات زمنية متتالية نظرا للحاجة الماسة إليها، فكلّ أمة بحاجة إلى مصطلحات وألفاظ جديدة تعبّر عن المعاني المستجدة التي تفرضها المدنية.

وبما أنّ هذه المعاجم القديمة صدرت من لدن أفراد لا جماعات؛ أي جاءت عبر جهود فردية، بذل فيها أصحابها قصارى جهودهم، فلا مفرّ من أن تكون هناك مأخذ على هذه المعاجم؛ ولهذا سارع الكثير من علماء هذه الأمة، وهم مؤمنون بفكرة عدم كمال المعاجم اللغوية العربية القديمة، إلى التنبية على هذه المأخذ، وفي الوقت نفسه إستدراك ما فات هذه المعاجم من ألفاظ، وسار على النهج نفسه الباحثون المحدثون، فإستدركوا وأضافوا وصحّحوا

الدكتور محمد عيد: أصول النحو العربي: 71، 72.

ومن الباحثين الذين نفّوا تأثر القياس بالمنطق: عبد العال سالم مكرم، عوض حمد القوزي، عبده الزاجحي.

ينظر: الدكتور عبد العال سالم مكرم: الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي: 105.

عوض حمد القوزي: المصطلح النحوي نشأته وتطوّره حتّى أواخر القرن الثالث الهجري، ديوان المطبوعات

الجامعية، (د.ط.)، الجزائر: 1983م: 51.

الدكتور عبده الزاجحي: النحو العربي والدّرس الحديث: 57.

¹ -ينظر مثلا: الدكتور علي أبو المكارم: أصول التفكير النحوي: 106.

الدكتور محمد عيد: أصول النحو العربي: 111.

² -الدكتور أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب: 175.

وضبطوا الكثير من هذه الألفاظ، وكانت محاولاتهم إما فردية، أو جماعية عبر المجامع اللغوية.

ثم إن لغوي هذه المرحلة، اهتموا بنقد المعجم العربي، وتميز اللبنانيون عن غيرهم من العرب بكثرة التأليف في هذا الميدان، ولا زالت أسماء من هذه البلاد تفرض نفسها على الواقع اللغوي لهذه المرحلة، ومن هؤلاء: أحمد فارس الشدياق (ت1887م) صاحب (الجاسوس على القاموس) الذي نقد فيه معجم (القاموس المحيط) للفيروزآبادي، وإبراهيم اليازجي (ت1906م) الذي نقد (لسان العرب) و(الصّاح) للجوهري، و(المحكم) لابن سيده، وأنستاس ماري الكرمللي (ت1947م) الذي ألف معجمه (المساعد) والشيخ أحمد رضا (ت1953م) الذي ألف معجماً أسماه (متن اللغة)، ولويس معلوف (ت1946م) صاحب معجم (المنجد في اللغة)¹.

وهذه الأسماء وغيرها كثير أحسّت بالمسؤولية الملقاة على عاتقها، في وقت كانت فيه العربية بحاجة ماسة إلى من يعيدها إلى دورها بعد أن وضعتها الظروف التاريخية على هامش النسق الثقافي، وزيادة على هذه الجهود الفردية دعت أسماء أخرى إلى وضع معاجم جديدة تقي بحاجات العصر في شتى الميادين، كدعوة عبد القادر المغربي².

ثم إن البحث في قضايا المعجم عند الشيخ محمد الخضر حسين يجب النظر إليها في مسلكين، في أثناء مناقشة معاصريه في القضايا ذاتها، أو في أثناء تناولها في بحوث خاصة، فما المسائل التي عالجها؟ وكيف عالجها؟ وإلى أي مدى يمكن لنا أن نستثمر منجزه في حلّ بعض قضايا المعجمية؟. إذا وقفنا عند آثار الرجل باحثين هذه المسائل ألفينا بحوثه قد جاءت تحت العناوين الآتية: "اسم المصدر في المعاجم"، "شرح قرارات المجمع

¹ - ينظر: حكمت كشلي: المعجم العربي في لبنان، دار ابن خلدون، الطبعة الأولى، بيروت: 1982م: 75، وما بعدها.

² - ينظر: المجمع العلمي العربي، دمشق: 277 / 5.

والإحتجاج لها تكملة مادّة لغويّة ورد بعضها في المعجمات ولم ترد بقيّتها"، "الإمتاع بما يتوقّف تأنيثه على السّماع"، "الألفاظ المؤنّثة من طريق السّماع"، "تيسير وضع مصطلحات الألوان"، "طرق وضع المصطلحات الطّبيّة وتوحيدها في البلاد العربيّة"، "الكلمات غير القاموسيّة".

1-الكلمات غير القاموسيّة:

ننطلق من المبحث الأخير؛ "الكلمات غير القاموسيّة". إقترح عبد القادر المغربي كلمات غير قاموسيّة؛ أي أنّها لم تودع معاجمنا، في حين تمارس هذه الكلمات حضورها في كلام معاصريه وكتاباتهم، وإقترحه هذا انطلق فيه ممّا يحدث في لغات الأمم الرّاقية من أنّها لا تجد حرجا في أن تتضمّن معاجمها الكثير من الكلمات القديمة والحديثة، وساق مثلا عمّا يحدث في معجم (لاروس)¹؛ ليبّرر مسلكه هذا، والكلمات غير القاموسيّة التي تحدّث عنها سبعة أصناف هي:²

الصّنف الأوّل: كلمات عربيّة قحّة لم تذكرها المعاجم، لكنّها وردت في كلام فصحاء العرب، مثل الفعل (تبدي).

الصّنف الثّاني: كلمات عربيّة خالصة لم تذكرها المعاجم، لكنّها وردت في كلام فصحاء العرب الإسلاميين الذين لا يحتجّ بأقوالهم: كفعل (أقص) الخبر رباعيا بمعنى (قصه) ثلاثيا لم تذكره المعاجم لكنّه جاء في كلام الإمام الطّبري، قال: (فأتيته فأقصت قصته)، وكلمة (فخيم) التي أقرّها العلامة اليازجي، وكلمة (صدفة) التي استعملها الإمام محمد عبده، مكان كلمة (مصادفة).

¹ -ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 5/ 274.

² -ينظر: المرجع نفسه: 5/ 277 وما بعدها.

الصنف الثالث: كلمات عربيّة المادّة ومع هذا لا يعرفها العرب، أو يعرفونها في معانٍ آخر، (هيئة المحكمة) (تشكيل المحاكم) (انعقدت الجلسة) (تعريف الرسوم) (ميزانيّة) (كميّة) (كيفيّة).

الصنف الرابع: كلمات عربيّة المادّة ولّدها المتأخرون من أهل الأمصار الإسلاميّة لا يعرفها العرب الأولون، مثل فعل (خابره) بمعنى راسله، وفعل (تفرّج) على الشّيء، و(احتار) في أمره، و(تنزّه) في البستان وهكذا.

الصنف الخامس: كلمات دخيلة أعجميّة الأصل منها ما هو ثقيل على اللسان نحو (أوتوموبيل)، (بيرصوناليتيه)، ومنها ما هو خفيف في السّمع مثل (فلم)، (بالون)، أما الخفيفة فأرتاح إلى القول بجواز استعمالها كما هي.

الصنف السادس: أساليب أو تراكيب أعجميّة تسرّبت إلى لغتنا مترجمة عن اللّغات الأوربيّة وهي ممّا لا يعرفه العرب الأقدمون، وهذا كقولهم: (ذرّ الرماد في العيون)، (عاش ستة عشر ربيعاً)، (وضع المسألة على بساط البحث)، (لا جديد تحت الشّمس)، (ساد الأمن في البلاد). ولا أظنّ أنّ أحداً ينازع في جواز استعماله اللهمّ إلاّ الذين أصيبوا بالوسواس اللّغوي.

الصنف السابع: كلمات عربيّة لا يستعملها أحد من الفصحاء بل يتحاشون النّطق بها، وهم ما نسّميه (العاميّ)، وهذا كثير لا يحمله أحد مثل كلمة (بديّ) أذهب، (جيب) الكتاب، (لحشه) على الأرض، (تعريش) على الشّجرة، (تحركش) بفلان لى غير ذلك، وهذا لا يجوز استعماله بالطّبع بل يجب العمل على تقليص ظلّه من بينا تدريجيّاً، وتعويد أبنائنا استعمال غيره من الفصيح الذي يصلح أن يقوم مقامه.

واقترح عبد القادر المغربي على المجمع العلمي بدمشق هذه الكلمات غير القاموسية كان محلّ مناقشة بين معاصريه¹، فأبدوا آراءهم وقدّموا ملاحظاتهم، ومن هؤلاء الشيخ محمد الخضر حسين، وافق على الصّنف الأوّل والثالث والسادس، ورفض الأصناف التّالية: التّاني والرّابع والسّابع، وأمّا الصّنف الخامس فرأى أنّ اللّجوء إليه لا يكون إلّا إذا لم يوجد غيره في اللّغة العربيّة. إذا فعلى أيّ أساس رفض الصّنفين التّاني والرّابع في حين قبل بالصّنف الأوّل والثالث والسادس؟

وقبل أن يشرع في مناقشة عبد القادر المغربي وضّح بعض الأمور الخاصّة باستعمال الكلمات والتراكيب الجديدة، هذه الأمور التي نقف من خلالها على مبادئ تفكيره اللساني، ويمكن أن نجعلها في النّقاط الآتية:

أ- استعمال الكلمات والتراكيب الجديدة تجب مطابقتها لمقاييس اللّغة:

ينطلق في مناقشته من أنّ اللّغة العربيّة بحاجة ماسّة إلى مجامع لغويّة تحافظ عليها وتسدّ حاجتها في الألفاظ التي تعبّر عن الحياة الجديدة في مختلف الميادين، هذا ما لا يختلف حوله إثنان؛ لكنّ الطّرق في سدّ هذه الحاجات هي محلّ خلاف بين الباحثين، فحينما اقترح عبد القادر المغربي كلمات غير قاموسية، نظر الشيخ محمد الخضر حسين إلى تلك الطّرق التي سلكها عبد القادر المغربي، ثمّ ناقشها، مبدّيا رأيه الخاصّ، ويرى أنّ الخلاف القائم بين النّاطقين للكلمات الجديدة هل هي من العربيّة أم لا؟ مردّه إلى القياس، يقول: « وإذا

¹ - وعددهم تسعة عشر باحثا، منهم: معروف الرّصافي، أحمد أمين، أنستاس الكرمللي، أحمد الإسكندري، محمد النّشاشيبي، مصطفى الغلاييني، عبد الحميد الجابري، كامل الغزي، نقولا فياض، عارف النكدي. ينظر: مجلّة المجمع العلمي، دمشق: 8/ 32-35-102-104-285-359-361-410-560-597-686-740. و9/ 98-103-176-355-384. و: 13/ 266.

وذكر سعيد الأفغاني أنّ عدد الذين أجاب على هذا الإستفتاء ثمانية عشر عضوا. ينظر: سعيد الأفغاني: من حاضر اللّغة العربيّة: 126.

جرى الخلاف في صحّة استعمال كلمة أو تركيب لم ينقل عن العرب، فأساسه إختلاف النّظر في أنّ هذا الإستعمال موافق لمقاييس اللّغة، أو غير موافق¹.

ب- خرق إجماع علماء العربيّة ليس خطأ في نفسه:

فكلّ قول خرق إجماع علماء العربيّة لا يعدّه الرّجل مردوداً، في حال موافقته مقاييس اللّغة، أو تكون الحاجة ماسّة إلى إستعماله، وإنّما يبقى خرق الإجماع فيه نظر متى خالف مقاييس اللّغة، أو لم تكن الحاجة داعيّة إليه، يقول: « ولا أذهب إلى أنّ خرق إجماعهم في نفسه خطأ، وأنّ قولاً خارقاً مردود على كلّ حال؛ وإنّما أودّ من الكاتب أو الخطيب أن يدخل البحث على طريقة يثبت بها أنّ إستعمال الكلمة أو التّركيب على الوجه الذي يختاره موافق لمقاييس اللّغة، أو يذكر وجه الحاجة الدّاعيّة إلى هذا الإستعمال، ويبين أنّ اللّغة تبقى من دونه في قصور يقف بها دون هذه اللّغات النّاميّة².

ج- ما ورد في كلام العرب لا يردّ:

فالألفاظ الواردة في كلام العرب لا تردّ، وإن لم تذكرها المعاجم، فالفعل "تبدّى" الذي ذكره صاحب (ديوان الحماسة) معزّواً لعمر بن عدي بن كرب لا يردّ، « ومن الذي يعارضه في صحّة استعمال كلمة جاءت في شعر عربيّ احتواه كتاب يوثق به، ككتاب "ديوان الحماسة؟"³، ثمّ يذكر كلمة أخرى عزاها صاحب كتاب (الأغاني) لعدي بن زيد، وهي كلمة "معتمد" والتي فسّرها بقوله: المعتمد: الذي قد عمده الوجع، وكلمة "يسوّف" التي جاءت في قول أميّة بن أبي عائذ: "فضّلّ يسوّف أبوها"، وفسّره أبو سعيد العسكري في (شرح

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 109.

² - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 109، 110.

³ - المرجع نفسه: 6 / 111.

أشعار الهذليين) بقوله: يسوّف: يشمّ، ويذكر الرّجل أنّ هذه الكلمة غير موجودة في مثل (القاموس)، و(اللسان)¹.

د-إقتباس المعاني من اللغات الأجنبية يتّسع به أدب اللّغة:

والصّنف السّادس الذي اقترحه عبد القادر المغربي، وهي أساليب وتراكيب أعجميّة ترجمت إلى العربيّة، كقولهم: "لا جديد تحت الشّمس" و"ساد الأمن في البلاد"، وهذه الأساليب إذا لم لا تردّها الأذواق السّليمة كانت في الواقع إقتباس صور من معاني لغة أخرى، وهذا المسلك لم ينكره القدماء والمحدثين، وبه تزداد اللّغة اتّساعاً².

هـ-الكلمات العربيّة المادّة ثلاثة أصناف:

-صنف عربيّ المادّة لا يعرفه العرب، أو يعرفونه في معان أخرى:

أشار عبد القادر المغربي إلى أنّ هناك كلمات ذات مادّة عربيّة، لا يعرفها العرب، أو يعرفونها في معان أخرى، إصطلح عليها المحدثون ووظّفوها في ميادين الحياة، يقول الشّرخ محمد الخضر حسين: « فهذا النّوع ممّا تدعو الحاجة إليه، ولمثله تؤسّس المجامع اللّغويّة، والوقوف في سبيله ووقوف في سبيل حياة اللّغة، ولا شرط له إلاّ أن يجيء على قياس لغة العرب، ويصاغ على وجه يقع من ذوق الأديب العربي موقع القبول »³.

-صنف عربيّ المادّة ولده المتأخّرون لا يعرفه العرب ولم ينطق به الفحول:

وهو الصّنف الرّابع، يرفضه الشّرخ محمد الخضر حسين، بناء على أنّ قبوله يطلق العنان في إشتقاق الكلم على غير قياس، فالكلمة التي ذكرها عبد القادر المغربي، وهي "إحتار" يرى أنّ قبولها « يطلق لكلّ أحد العنان في أن يشقّ الكلمة على غير قياس؛ كأن يقول:

¹ -ينظر: المرجع نفسه: 6 / 112.

² -ينظر: المرجع نفسه: 6 / 112.

³ -محمد الخضر حسين: الاعمال الكاملة: 6 / 112.

إقتام في معنى قام، واعتلم في معنى علم، كما قال غيره: إحتار في موضع حار، وإقتطف في موضع قطف»¹.

-صنف عربي خالص لم تذكره المعاجم، ولكنّه ورد في كلام فصحاء العرب الذين لا يحتجّ بكلامهم:

وهذا الصنف الثاني الذي رفضه الشيخ محمد الخضر حسين، ومن أمثلة هذا الصنف قول ابن جرير (أقصصنا)، واليازجيّ (فخيم)، والشيخ محمد عبده (صدفة)، ينطلق من أنّ اللّغة نظام، فلو أطلقنا العنان للنّاطقين بأن يسوغوا على مثل هذه الأوزان، لعمدوا إلى كلمة "صعب" وصاغوا منها "صعيب" ومن كلمة "سهل" "سهيل"، كما صاغ اليازجيّ كلمة "فخيم" وقالوا مكان: "قتل": "أقتل"، ومكان "ضرب" "أضرب"، كما قال ابن جرير "أقصصنا"، وقالوا مكان "كلمته مشافهة" "كلمته شفهة"، كما قال الشيخ محمد عبده "صدفة" بدلا من "مصادفة"².

-صنف كلماته عربيّة يتحاشى استعمالها الفصحاء:

الأصل في هذا الصنف أنّ كلماته عربيّة؛ لكن العامّة حرّفته، وهذا بالتّغيير أو الحذف أو القلب، يقول: « مثل كلمة: (بدي) أفعال، فالظاهر أنّ أصلها: (بؤدي)، ومثل: (تحركش) بفلان، فالظاهر أنّ أصلها: (تحرّش)، وهذا من أمراض اللّغة التي يجب أن نحمي ألسنتنا وأقلامنا من أن تحوم حولها »³.

-صنف إحتوى على كلمات دخيلة أعجميّة الأصل:

¹ - المرجع نفسه: 6 / 113.

² -ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 113، 114.

³ -المرجع نفسه: 6 / 111.

وهذا النوع هو الصنف الخامس الذي اقترحه عبد القادر المغربي، وهو كلمات دخيلة من نحو: "أتموبيل" و"بالون"، يرى الشيخ محمد الخضر حسين أنّ اللجوء إلى هذا الصنف لا يكون إلا عند الضرورة القصوى، وعلى المجمع أولاً أن يبحث عن ألفاظ عربية لهذه المعاني، عن طريق المجاز والإشتقاق، وإحياء « الكلمات الخفيفة المهجورة، فإن إحياءها واستعمالها فيما يشبه معناها الأصلي، أو يكون له به صلة غير مشابهة، خير من جلب كلمة غير عربية (...) ولا نعدّ المجمع اللغوي مضطراً إلى إباحة استعمال الأعجمية إلا إذا لم يجد في نفس اللغة العربية ما يغني عنها »¹.

فالسائل التي ذكرها الرجل من إشتقاق ومجاز وإحياء للألفاظ الخفيفة المهجورة كفيلا بأن تسدّ حاجة العربية، وتزودها بكلمات جديدة تسائر المدنية، وهذا المسلك أحسن من اللجوء إلى الألفاظ الأجنبية، « الكلمة العربية أولى من الكلمة الأجنبية، إذا كانت الأجنبية يمكن الإستغناء عنها بالكلمة العربية »².

2- في قضايا المعجم:

أ- اسم المصدر في المعاجم:

شغل تفكير الشيخ محمد الخضر حسين حينما شرع مجمع اللغة العربية بالقاهرة في تأليف معجمين هما³: المعجم الوسيط، والمعجم التاريخي الكبير، ما ورد في بعض المعاجم

¹ -المرجع نفسه: 6/ 113.

² -الدكتور إسماعيل أحمد عمارة: نحو معجم موحد لألفاظ الحياة العامة، دار وائل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، عمان: 2001م: 53.

³ -شرع في إعداد المعجم الوسيط منذ 1940م، وتأخر ظهوره إلى عام 1961م، والواقف على هذا المعجم لا يكاد يعثر جاهاً على كلمة واحدة تشير إلى الجهد الذي بذله الشيخ محمد الخضر حسين في إثراء هذا المعجم بالإقتراحات التي كان يقدمها، يقول: «يقوم المجمع اليوم بعمل معجمين: المعجم الوسيط، والمعجم التاريخي الكبير؛ ليخرج للناس معاجم تمتاز عن المعاجم السابقة بترتيب يجعل الإستفادة منها أيسر (...) وهذا الإتجاه الموفق دعاني إلى أن أ طرح على بساط المؤتمر بحثاً في كلمة ترد في المعاجم على وجه غير منضبط، وغير واضح وضوحاً يسارع بمعناها إلى أذهان عامة المطالعين. وهذه الكلمة هي: اسم المصدر»

القديمة والحديثة من هنّات، حيث تذكر هذه المعاجم "إسم المصدر" بشكل غير منضبط، وغير واضح، فكتب مقالا تحت عنوان: "إسم المصدر في المعاجم" يبحث فيه عن حقيقة هذه الكلمة، وكيف وردت في هذه المعاجم، وأين الخلل في ذلك، وكيف يمكن أن يُتدارك هذا الخلل؟

وهذه المسألة؛ أي البحث في الهنّات التي وقعت فيها بعض المعاجم القديمة والحديثة ذكرها باحثون محدثون، يقول تمام حسان في كتابه (مناهج البحث في اللّغة) « ولكن هذه المعاجم العربيّة العامّة-على جلال خطرها- ينقصها التّرتيب والتّظيم. وإنا لنطمع في أن يكون المعجم الذي يزعم المجمع اللّغوي إخراجَه للنّاس قد استدرِك هذه الأخطاء في المعاجم القديمة»¹، وهذا التّدارك يتحقّق متى وفت هذه المعاجم إحتياجات الطّالب الباحث عن معاني الكلمات في هذه المعاجم، من حيث طريقة نطق الكلمة، والهجاء، والتّحديد الصّرفي، والشرح².

وإهتمام الرّجل بتحديد الجانب الصّرفي للكلمة في المعجم يدلّ على وعيه بأهميّة المسألة، فمّا « ينبغي للمعجم أن يقدّمه للقارئ تحديد المبنى الصّرفي للكلمة، كما إذا كانت الكلمة إسما أو صفة أو فعلا أو غير ذلك، فتقديم هذا التّحديد الصّرفي للكلمة يعتبر الخطوة الصّوريّة في طريق الشّرح؛ لأنّه لا يمكن لإنسان أن يربط ما بين كلمة ما وبين معناها المعجمي إلّا إذا عرف ميناها الصّرفي فحدّد معناها الوظيفي أولا»³.

-محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 33.

¹ -الدكتور تمام حسان: مناهج البحث في اللّغة، دار الثقافة، (د.ط)، الدار البيضاء المغرب: 1407هـ-1986م: 273.

² ينظر: الدكتور تمام حسان: اللّغة العربيّة معناها وميناها، دار الثقافة، (د.ط)، الدّر البيضاء المغرب: 1407هـ-1986م: 325-328.

³ -الدكتور تمام حسان: اللّغة العربيّة معناها وميناها: 327.

انطلق الرّجل في معالجته المسألة من نقطتين¹، أولهما أنّ اللّغات الواسعة النّطاق، لا تكاد تخلو كلماتها من "المصدر" و"إسم المصدر"، وضرب مثالا باللّغة الألمانيّة، وثانيهما تحديد الأهداف المنشودة من وراء هذا البحث، وهي:

أ-بيان ما هو إسم المصدر في عرف علماء اللّغة.

ب-عرض أمثلة توضّح كيف اختلف أصحاب المعاجم في تمييز إسم المصدر عن المصدر، وساروا في ذكره على طريقة غير منتظمة.

ج-أسباب هذا الاختلاف.

د-البحث عمّا ينبغي أن نأخذ به في المعاجم التي بين أيدينا عندما يقتضي الحال ذكر هذا الصّنف من المشتقات.

يحدّد المجال الذي تُبحث فيه كلمة "إسم المصدر" في علمي الصّرف والنّحو، فالأوّل يبحثها من حيث بنيتها واشتقاقها، والثّاني من حيث إعرابها وعملها، والعلمان يميّزان بينها وبين المصدر، ثمّ يبدأ كعادته في تناول المسائل في حصر تفكير القارئ والسّامع في الفكرة التي يريد مناقشتها، وهذا بنفي الإحتمالات التي يمكن أن ترد في ذهن القارئ أو السّامع وتجعل تفكيره غير مركّز حول المسألة التي يريد تبليغها، فبعد أن بيّن أنّ النّحويّين يقسمون إسم المصدر إلى ثلاثة أقسام، حدّد القسم المراد في هذه المقالة.

النّحاة اشتقّوا من المصادر أسماء زادوا فيها ميما في أولها، وسمّوها بالمصدر الميمي، وأسماء تدلّ على ما يدلّ عليه المصدر، وتجري مجرى ما يجري على بعض الأعلام، من البناء، أو المنع من الصّرف، مثل: فجار، وهو مبنيّ على الكسر بمعنى: الفجور، همام ومعناه: الهمة، وصلاح، ومعناه المصالحة، وهذان الصّنفان ليسا موضع بحث عند الرّجل²،

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 45.

² -ينظر: المرجع نفسه: 6/ 46.

وأما الصنف الثالث الذي يريد بحثه في هذا المقال، يقول فيه: «إسم دالّ على معنى المصدر، ولكنه يخالف المصدر في عدم جريانه على الفعل الذي يجري عليه المصدر، نحو: الصّاح اسم مصدر للمصالحة، فالمصالحة مصدر صالح، والصّاح اسم مصدر؛ أعني: المصالحة؛ لأنه لا يجري على فعل صالح»¹.

فبعد أن حدّد الصنف الذي يريد بحثه، ساق تعاريف لإسم المصدر ذكرها النّحاة، يبيّنون فيها الفرق بين المصدر واسم المصدر من جهة اللفظ حيث يذكرون أنّ أحرف اسم المصدر تكون أقلّ من أحرف الفعل، وهذا هو المصرّح به عند جمهور النّحاة، وأما من جهة المعنى فهم فيه على سنّة مذاهب، والوقوف على هذه المذاهب بتفصيل مسلك يجعلني مركّزاً على تناول المسألة في جانبها الصّرفي، ومبتعداً في الوقت نفسه عمّا أريد التّركيز عليه، وهو بحثها عند اللّغويين في معاجمهم؛ ولهذا سأخصّ ذلك في النّقاط الآتية:

فمن جهة اللفظ يمكن أن نجملها في ثلاث نقاط:

أ- إذا كانت أحرف الصّيغة أقلّ من أحرف الفعل نسّمى الصّيغة إسم مصدر.

ب- إذا تساوت أحرف الصّيغة مع أحرف الفعل نسّمى الصّيغة مصدراً.

ج- إذا كانت أحرف الصّيغة أزيد من أحرف الفعل نسّمى الصّيغة مصدراً.

وأما من جهة المعنى فإنّ النّحاة اختلفوا في تناول هذه الجهة على سنّة مذاهب هي:²

أ- إسم المصدر والمصدر في المعنى سواء، وهو الدّلالة على الحدث. ولا يفترقان إلا من حيث اللفظ، وهذا ما يعضّده قول الشّاطبي وابن مالك.

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 47.

² - ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 49 - 51.

ب- معنى اسم المصدر هو لفظ المصدر من حيث دلالاته على الحدث، فمدلول عطاء: لفظ: الإعطاء، من حيث دلالة الإعطاء على المعنى الصادر من الفاعل، وهو المناولة، وعدّ الشيخ محمد الخضر حسين هذا المذهب تعسفاً ينبو عنه الفكر، واختار هذا الرأي أبو حيان.

ج- المصدر يدلّ على الحدث وفاعله، فقولنا تسليم وتكليم، دلّ ذلك على الحدث ومن قام به، واسم المصدر يدلّ على الحدث فقط، فقولنا: السلام والكلام، لا يدلّان على من قام بالحدث، وهذا الرأي قاله ابن القيم في (بدائع الفوائد).

د- المصدر مدلوله الفعل مع ملاحظة تعلّقه بالفاعل، وأمّا اسم المصدر يدلّ على الفعل أيضاً، ولكن مع ملاحظة الأثر المترتب عليه، وهذا حكاه أبو البقاء في (كلياته).

هـ- إنّ المصدر اسم عين يستعمل بمعنى المصدر، وهذا قول الرضي في (شرح الكافية).

و- الفرق بين المصدر والإسم: أنّ المصدر يتضمّن معنى الفعل ينصب مثله، والإسم هو الحال التي حصلت من الفعل، مثال ذلك: الغسل، والغسل، تقول قد بالغت في غسل هذا الثوب، فتنصب الثوب، فإن أردت الحال، قلت: لست أرى في هذا الثوب غسلًا، وهذا الرأي نسبه لفارس الشدياق.

والذي يلاحظ في تناول الشيخ هذه المسألة أنّه يعتمد كثيرا على أقوال المتأخرين، من أمثال الشاطبي، وأبي حيان، أبي البقاء، وابن القيم. ثم يبحث في المسلك الذي سلكه اللغويون، وهم يذكرون اسم المصدر في معاجمهم، متسائلا: على أيّة قاعدة سار هؤلاء، هل ساروا على قاعدة النحويين، وهو أن تكون أحرفه أقلّ من أحرف الفعل، أم ساروا على قاعدة أخرى؟

يكشف أنّ بعض المعاجم لم تلتزم بما ذكره النحاة من أنّ اسم المصدر ما كانت أحرفه أقلّ من أحرف الفعل، فلم يحترموا هذه القاعدة، فجاء اسم المصدر على الحالات الآتية:

المعجم	عدد أحرف إسم المصدر	فعله	إسم المصدر
المخصّص	أقلّ من أحرف الفعل	أديت الشيء تأدية	الأداء
المصباح	مساو لأحرف فعله	أثم أثمًا من باب تعب	الإثم
المخصّص	مساو لأحرف فعله	مساو لأحرف فعله	التبّز
الجمهرة	مساو لأحرف الفعل	غبّ الطّعام يغبّ غبّا	الغبّ
المصباح	أزيد أحرفا من الفعل	أتى الرّجل يأتي أتيا	الإتيان
القاموس	أزيد أحرفا من الفعل	مرح كفرح ونشط، والإسم ككتاب أي مراح	المراح
القاموس	أزيد أحرفا من الفعل	فطمه، والإسم ككتاب	الفطام

وهذه الأمثلة التي ساقها الرّجل تثبت أنّ اللّغويين في معاجمهم لم يلتزموا بما قاله النّحاة؛ ولم يسيروا على قاعدة منضبطة في تسمية بعض أسماء المعاني أسماء مصادر، وأرجع هذا إلى وجوه هي:

المعجم	التعليل	الإسم	المصدر	الصّيغة
القاموس	قد يتردّدون، أو يختلفون في الصّيغة الواحدة.	بالكسر	بالفتح	الصّدق
القاموس	قد يتردّدون، أو يختلفون في الصّيغة الواحدة.	بالكسر	بالفتح	العنق
المصباح	قيل هما: لغتان، أي كلّ منها مصدر، وكلّ مصدر عائد إلى لغته.	الشُّرب بالضّمّ	بالفتح	شربته شربا
المخصّص	قيل هما: لغتان.	الحجّ بالكسر	بالفتح	الحجّ
المصباح	إسم مصدر لناح، وهذا الوزن من الأوزان القياسية التي تدلّ على صوت.	بالضّمّ		النّواح

القاموس	وهو مصدر، والإسم: النياحة.			
المصباح	إسم مصدر لفعلين، أحدها ثلاثي (ألف)، والآخر مزيد (الإنتلاف).	بالضمّ		الألفة
القاموس	ذُكرت على أنّها مصدر (ودّ).		بالفتح	المودة
المصباح	وذُكرت على أنّها إسم مصدر.			
المصباح	ذُكرت على أنّها مصدر.	بالضمّ		مُزاحة
القاموس	وذُكرت على أنّها إسم مصدر للفعل مزح			

ولم يقف الرّجل في بحثه عند ما ذكرناه من قبل بل يذكر وجوها أخرى، تبين أنّ بعض المعاجم تذكر للفعل الواحد ستّة مصادر كالفعل لزم، وسبعة مصادر للفعل خسر، وتسعة مصادر للفعل مكث، وعشرة للفعل لثم، وأحد عشر مصدرا للفعل لقي، وعلى الرّغم من كثرة هذه المصادر فلا يشار إلى إسم المصدر منها. كما أنّهم يذكرون للفعل المزيد صيغا ليست جارية عليه، كقول صاحب (القاموس): أوصاه ووصّاه توصية: عهد إليه والإسم: الوصاة، والوصاية، والوصيّة¹.

ثمّ يبحث عن سبب إختلاف المعاجم حول إسم المصدر، ونجملها فيما يلي:

أ- يرى أنّ تعدّد المصادر سببه منهجيّ يعود إلى علماء اللّغة الذين جروا على جمع اللّهجات العربيّة تحت لغة واحدة.

ب- تعدّد المصادر سببه إختلاف اللّغات.

ج- مصادر توضع موضع مصدر آخر جار على فعله الخاصّ، كوضع تعقيد موضع تعقّد.

¹ -ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 54، 55.

د- وجود اسم معنى لا يقف اللغوي على فعل من لفظه يجري عليه، فيعدّه اسم مصدر، كالتقري.

هـ- قد يسمون اللفظ الدال على الحدث: اسم مصدر؛ حيث يجدونه واردا على صيغة غير معروفة في المصادر.

و- اللغويون عباراتهم غير واضحة، فهم إمّا يصرّحون بأنّ كذا اسم مصدر، أو يقولون بعد ذكرهم الفعل والمصدر: والاسم كذا، وقد تدل الصيغ المذكورة على أنّها اسم فاعل، وليست اسم مصدر.

وذكر الشيخ محمد الخضر حسين لكلّ سبب من هذه الأسباب أمثلة ساقها من مظانها، ثمّ يختم بحثه بالسؤال الآتي: ما الطّريق التي يصحّ لنا أن نتحرّرها في صنع معاجمنا؟. يرى عدم الاستغناء عن اسم المصدر؛ لسببين أولهما وجود هذا النوع من المصادر في معاجمنا القديمة والحديثة، وثانيهما أنّ لهذا النوع من المصادر نظير في اللغات الرّاقية¹، ونلخص رأيه في النقاط الآتية:

- اعتماد على الفرق بين المصدر واسم المصدر من جهة اللفظ على ما قاله النّحاة.

- لا يكون اسم المصدر للأفعال الثلاثية والمصادر الثلاثية، وإنّما للأفعال المزيدة.

- لفظ (نبات) هو مصدر وليس اسم مصدر، أقيم هذا المصدر مقام مصدر آخر، واختيار هذا المصدر مكان مصدر آخر يعود سببه إلى حسن البيان أو لخفته أو إستقامة الفاصلة أو القافية. فلفظ (نبات) له فعل ثلاثي (نبت) يلاقي الفعل المزيد (أنبت) في المعنى، ففي قوله تعالى ﴿أُنْبِتْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (سورة نوح: 17) فوضع الله سبحانه وتعالى المصدر (نبات) مكان المصدر (إنبات).

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 59.

-وترك تسمية بعض الألفاظ بإسم المصدر مسلك لا يمسّ بجوهر اللّغة؛ لأننا تصرفنا في اصطلاح لم يكن محلّ إتفاق بين العلماء العربيّة أنفسهم.

في حين ذكر سيبويه إسم المصدر بقوله: «هذا باب ما جاء المصدر فيه على غير الفعل؛ لأنّ المعنى واحد، وذلك قولك: اجتوروا تجاوروا وتجاوزوا اجتوارا؛ لأنّ معنى اجتوروا وتجاوزوا واحد (...) ﴿وَاللّٰهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (...) لأنّه إذا قال: أنبتكم، فكأنّه قال: قد نبت»¹.

وللتدليل على آرائه يقف عند حقيقة المصادر في اللّغة الألمانيّة، يقول: «والفرق بين المصدر وإسم المصدر في اللّغة الألمانيّة من جهة اللفظ: أنّ المصدر ما كان منتهيًا بحرفي (en) دائما؛ نحو: (kammen) المجيء و (gehen) الذهاب»²، ويقول في مكان آخر: «وقريب من هذا ما يقرّر في اللّغة الألمانيّة من أنّ المصدر الإسمي يلاحظ فيه الحدث مجردًا عن اعتبار تعلّقه بفاعل أو مفعول؛ بخلاف المصدر، ولعدم اعتبار تعلّقه بفاعل أو مفعول صرّحوا بأنّه لا أثر له في الإعراب، فلا يعمل في فاعل أو مفعول، وكذلك يقول جماعة من علماء لغتنا»³. ويقول: «ومن المعروف في اللسان الألماني أنّ المصدر قد يستعمل كالمصدر الإسمي مرادا منه الحدث المجرد، ويصلوه بأداة التّعريف der kammen المجيء، der sehen الرّؤية»⁴.

ب-في تكملة مادّة لغويّة ورد بعضها في المعجمات، ولم تردّ بقيتها:

قد تهمل بعض كتب اللّغة موادّ من مثل المصادر والمشتقّات غير الأفعال، ويصرّح مؤلّفو هذه الكتب بأنّ العرب هجرت هذه الألفاظ، أو أمانتها، أو لم تقلها، ويخالفهم غيرهم

¹ - سيبويه: الكتاب: 4 / 81.

² - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6 / 49.

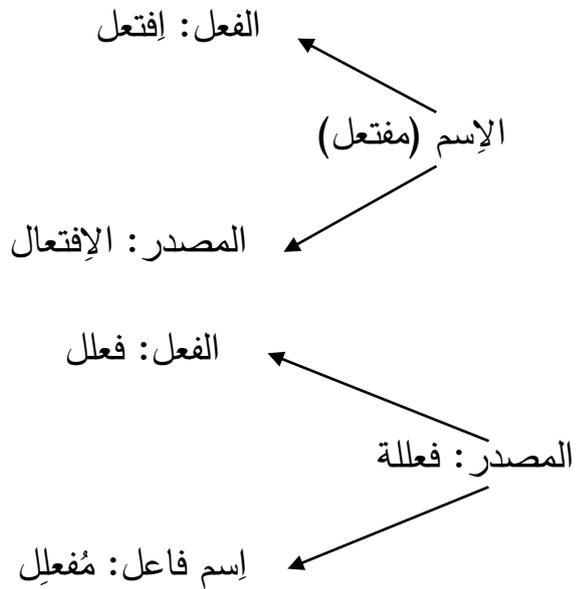
³ - المرجع نفسه: 6 / 50.

⁴ - المرجع نفسه: 6 / 60.

في ذات الألفاظ بأنّ العرب إستعملتها أو قالتها، والذي عليه جمهور علماء العربية هو مجارة العرب، فيهمّل ما أهملته، ويستغنى عنه، وهناك نوع من المهملات لم يقل فيه أصحاب المعاجم إنّ العرب قد أماتته أو لم تقله.

وهذا النوع من المهملات الذي سكت أصحاب المعاجم عنه في أثناء تناولهم لهذه الألفاظ كان محلّ عناية عند مجمع اللغة العربيّة، والواقف على طريقة تفكير الرّجل في شرح قرارات المجمع والإحتجاج لها، يكشف عن ملامح التفكير العلمي الرّياضي، وهذه الملامح لا ننكر وجودها في منهج علماء اللغة القدماء، وإنّما نريد التّركيز على طريقة إعادة إنتاج المعرفة من جديدة في هذه المسائل، فكلّ صيغة قد تستدلّ بها عن صيغة أخرى، أو تكتشف بها عن صيغة أخرى كانت مجهولة، أو تثبت بذات الصّيغة صحّة صيغة معلومة، وإذا تتبّعنا ما أورده الرّجل في هذا الجانب تحقّقنا من إعتماده على التفكير العلمي الرّياضي.

أ-المادّة غير ثلاثيّة الأحرف: الثّلاثي المزيد والرّباعي المجرد:



ب-مصادر الأفعال الثّلاثيّة المتعدّية:

فعل ← فعل ← فتح ← فتحا (ما لم يدلّ على حرفه)

ج-مصادر الأفعال اللازمة:

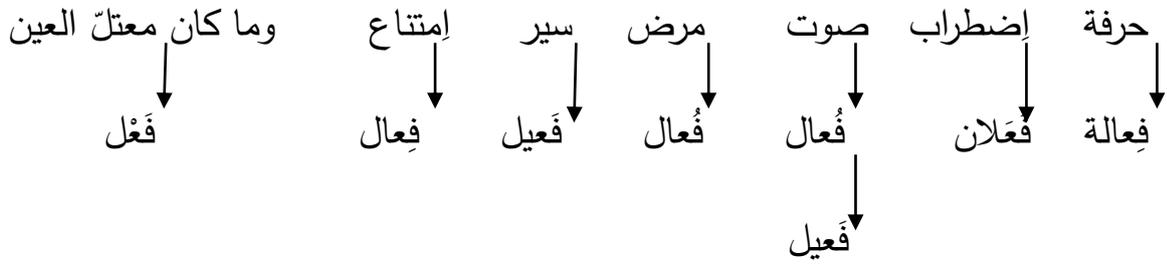
1- ما كان فعله على وزن فعل (ما لم يدلّ على لون) ← مصدره على وزن فَعَل.

ما كان فعله على وزن فعل (ودلّ على لون) ← مصدره على وزن فُعَلَة.

2- ما كان فعله على وزن فَعُل ← مصدره على وزن: فَعَالَة أو فُعُولَة.

3- ما كان فعله على وزن فَعَل ← مصدره على وزن فُعُول.

بإستثناء الأصناف السبعة التي تدلّ على:



د-الأفعال المجهولة الحال التي لا يعرف من أيّ باب هي:

ننظر إليها من جهتين، من جهة المعنى، أو من جهة التّعدي واللّزوم، ثمّ نلحقها بالباب الذي يناسبها، ونصوغ لها مصدرا حسب هذا الباب.

3-التأنيث والتذكير:

يعدّ البحث في مسألة التأنيث والتذكير بحثا شائكا، ومتشعب الجوانب، نظرا لإرتباط هذه المسألة بالحياة الإجتماعية للعرب، وأصبحت هذه المسألة تطرح بحدّة في أثناء التّواصل بين الأشخاص الأجانب.

ولمّا كان البحث ذا أهمّية في حياة أفراد المجتمع، فكّر فيه الشيخ محمد الخضر حسين، فألّف فيه رسالة جمعها مرتّبة على حروف المعجم، إحتوت على إحدى وستين ومائة كلمة،

جاءت تحت عنوان: "الإمتاع بما يتوقّف تأنيثه على السماع"¹، وحقّق وعلّق على قصيدة في الأسماء المؤنّثة في كلام العرب لصاحبها ابن الحاجب (ت646هـ)². ويندرج عمله الأول ضمن العمل المعجمي؛ لأنّ لفظ المعجم أطلق « على لون من الكتب اللغويّة التي تعالج الألفاظ (...) » أو تجمع الألفاظ المتّصلة بمعنى أو بموضوع واحد في رسالة أو كتاب أو باب من كتاب «³.

وأما عمله الثاني الذي حقّق فيه رسالة ابن الحاجب وعلّق عليها فقد بيّن فيه أنّ بعضا من الكلمات التي عدّها ابن الحاجب ممّا يجب التّأنيث فيها، قد تدكّر، من نحو الدّار والدّلّو، وقد يجوز فيها التّدكير والتّأنيث، من نحو الفردوس والفلك، وأمّا الكلمات التي كان ابن الحاجب فيها مخيرا بين التّدكير والتّأنيث ككلمتي السّلاح والسّلطان، فإن الرّجل يرى في الكلمة الأولى جواز التّدكير والتّأنيث، والتّدكير فيها أعلى، والكلمة الثّانية الغالب عليها التّدكير، وكانت المصادر التي رفدت تفكير الرّجل كثيرة، منها القاموس، لسان العرب، والمصباح، ورسالة ابن جني.

ج- في التفكير اللساني التربوي:

- نقد الواقع اللغوي والوضع الرّاهن لتعليم اللّغة العربيّة:

لا زال الإهتمام بتقويم المناهج والبرامج التّعليميّة والنّظر في طرق التّدريس والسّعي إلى تطويرها يلازم الأمم المتحضّرة التي تسعى إلى تكوين جيل يواكب التّطور في شتى الميادين، والشيخ محمد الخضر حسين لم يغيب عن تفكيره الإهتمام بقضايا التّعليم؛ لأنّه مارس مهنة التّدريس منذ أن نال شهادة التّطويح من جامع الزّيّتونة عام 1898م، والوقوف على تفكيره

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/ 273.

² - المرجع نفسه: 6/ 148.

³ - الدكتور البدرابي زهران: المعجم العربيّ تطوّر وتاريخ في ضوء نظريّات علم الدّلالة لدى المحدثين، دار الآفاق العربيّة، الطّبعة الأولى، القاهرة: 1430هـ-2009م: 17.

اللساني التربويّ مسألة تفرض نفسها على البحث، وإغفال هذا الجانب يفوت الفرصة على الباحث في الوقوف على جانب من جوانب التفكير اللساني عامّة، والتفكير اللساني التربوي خاصّة.

ولهذا فالواقف على ما خلفه الرجل في هذا المجال يتحقّق من أنّ قضايا التّعليم شغلت فكر الرجل فلم تفارقه في إقامته ولا في رحلاته، فتحدّث عن التّعليم في تونس، وفي دمشق، وفي مصر، وفي أثناء رحلاته إلى الجزائر والمشرق وألمانيا، والحديث في هذه المسألة يقودني إلى تناولها في ثلاث نقاط، أوّلها موقفه من طرق التّعليم التي كانت سائدة في عصره، وفي الموادّ التّعليميّة التي كانت تدرّس في المدارس والمعاهد، والمنهجية الواجب إتباعها في تعليم بعض الموادّ.

1-نبذه الطّرق التّقليديّة في التّدريس:

ففي معرض حديثه عن تعليم الصّبيان، خلال رحلته إلى بلاد المشرق، يقول في كتابه (الرحلات)، وهو يرى تصرّف أحد المعلّمين مع بعض الصّبيان، في الجامع الأزهر: « انشقّ صدري أسفا لأحد المعلّمين؛ إذ كان لا يضع العصا من يده، ولا يفتر أن يقرع بها جنوب الأطفال وظهورهما بما ملكت يده من القوة، وربّما قفز الطّفل أبقا من وجع الصّرب الذي لا يستطيع له صبرا، فيثب في أثره بخطوات سريعة، ويجلده بالمقرعة جلدا قاسيا، حتّى قلت لأزهريّ كان بجانبني: من جلس إزاء هذه المزعجات، فقد ظلم نفسه»¹.

ويذكر أنّه قد عالج موضوع أدب تعليم الصّبيان حينما كان قاضيا في بنزرت عام 1905م، يقول: « وذكّرت أنّي ألقيت خطبة في أدب تعليم الصّبيان ببلد بنزرت، حالما كنت قاضيا بها، وأدرجت فيها ما قرّره صاحب "المدخل" من الرّفق بالصّبي، وعدم زيادة المعلّم إن أضطرّ إلى ضربه على ثلاثة أسواط (...)، ولمّا خاطبت في هذه الآداب، أرسل

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 56 / 11.

لي بعض المعلمين كتابا على طريق البريد يعترض فيه على نشر هذه الآداب، ويقول: إن هذا مما ينهب قلوب التلاميذ على الجسارة علينا»¹.

وفي أثناء حديثه عن النظام التعليمي في ألمانيا في مسألة العقوبة البدنية، يقول: « جرى القانون أولا على منع المعلم من مجازاة التلميذ بعقوبة الضرب، ثم ألغاه ناظر المعارف، وقال: عندي ثقة بأن لمعلمي مدارسنا حنانا على التلاميذ وعواطف، تأبى لهم أن يبلغوا بالضرب إلى ما فيه إساءة»².

2- طريقة تعليم القواعد:

يرى أن تعليم القواعد ليس غاية في حد ذاته، وإنما وسيلة تمكن المتعلم من محاذاة الأساليب العربية الراقية؛ وهذا متى التزم القائمون على تعليم هذا النشء بتطبيق القواعد في أثناء حديثهم مع هؤلاء المتعلمين؛ ففي تطبيقهم لهذه القواعد بمحاذاة الأساليب الراقية تحقيق لغاية تربيوية نادى بها ابن خلدون، يقول الشيخ محمد الخضر حسين: « وحقيق على علماء التدريس أن يكونوا على نسق واحد في التزامهم عند إلقاء دروسهم محاذاة الأساليب العربية، فإنه ضرب من التطبيق للقواعد التي يلقنها التلميذ، وبذلك تقوى عارضته، ويتسع مجاله في التعبير عما في ضميره بألفاظ متمكنة في البيان، لأن السمع أبو الملكات اللسانية»³.

وتركيز الشيخ على محاذاة الأساليب العربية الراقية، وتلقين آداب اللغة العربية له ما يبرره متى علمنا أن هذا النشء بحاجة ماسة إلى الإستشهاد بأقوال علمائهم وبلغائهم أكثر من حاجتهم إلى أقوال غيرهم، يقول: « والخلاصة أن في آداب اللغة العربية حكما غزيرة في ألفاظ عذبة وجيزة، فودّ من القائمين على تعليم النشء وتربيتهم تلقينها لهم بطريقة

¹ -المرجع نفسه: 56، 57.

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 168 / 11.

³ -المرجع نفسه: 126 / 12.

واسعة، حتى لا يحتاجوا إلى الاستشهاد بأقوال الغربيين، وفي كلام حكماننا وبلغائنا ما يغني عنه»¹.

3-تعليم ملكة الكتابة:

ففي معرض حديثه عن الحياة العلمية في جامع الزيتونة في مقالتي ينشرهما بمجلة الهداية الإسلامية تحت عنوان: " تونس وجامع الزيتونة"، يقول: « ولم يكن الإنشاء مما يتلقاه الطلاب على طريقة التمرين، وأذكر أنني كنت وجهت إلى المشايخ النظار خطابا مفتوحا أطلب فيه العناية بدرس الإنشاء على طريقة علمية². وهذه الدعوة تشير إلى اهتمام الرجل بتنمية ملكة الكتابة عند المتعلمين.

وفي محاضرة يلقيها تحت عنوان: " الخطابة عند العرب"، يدعو فيها إلى ضرورة تعلم الخطابة، يقول: « قد يدرس علوم الأدب -بما فيها من علمي العروض والقوافي- من لا يدرى كيف يصنع شعرا مستقيم الوزن، سليم القافية، وقد يدرس علوم الأدب -بما فيها من علوم البلاغة- من لا يستطيع أن يكتب خطابا يسيغه الذوق الصحيح. كذلك الرجل قد

¹ -المرجع نفسه: 12 / 14.

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 11 / 33.

وأثر الشيخ محمد الخضر حسين أن يكون الخطاب الموجه إلى المشايخ نظما، ومن أبيات هذا النظم:

مَقَامُكُمْ الْجَدِيرُ بِأَنْ يُهَابَ	وَمَطْلَبُنَا الْجَدِيرُ بِأَنْ يُجَابَ
أَرَى بِالْجَامِعِ السَّامِيِّ بُحُورًا	مِنْ الْعِرْفَانِ زَاخِرَةً عَدَابًا
وَلَكِنَّ الْخِصَاصَةَ فِي فُنُونِ	تَهْيِجُ بِنَا الْمَخَافَةَ أَنْ نُعَابَا
فَإِنَّ صِنَاعَةَ الْإِنْشَاءِ خَاسَتْ	بِضَاعَتِهَا فَلَمْ تَبْلُغْ نِصَابَا

-المرجع نفسه: 7 / 29. وأبيات هذه القصيدة مأخوذة من ديوانه الشعري في المجلد السابع، بينما المذكورة في كتابه

(تونس وجامع الزيتونة) في المجلد الحادي عشر تختلف عنها في ألفاظها، ومطلعها:

بَدَلْتُمْ فِي نَفَاقِ الْعِلْمِ وَسَعًا وَذَلَلْتُمْ طَرَائِقَهُ الصَّعَابَا

-المرجع نفسه: 11 / 33.

يدرس قوانين الخطابة، ويضف إليها التّضلع من علوم اللّغة وآدابها، ثمّ لا يكون له بعد هذا في الخطابة العلميّة جزء مقسوم¹.

ولم يغب عن تفكيره مسألة إهتمام الأمم بفنّ الخطابة، ففي أثناء زيارته ألمانيا كتب متحدّثاً عن النّظام التّعليمي بهذه البلاد قائلاً: « يدرّب التّلميذ في المدارس الإعداديّة² على صناعة الخطابة، ويطالبونه بأن يحرّر في كلّ شهر رسالة يبحث فيها عن بعض الموضوعات العلميّة³».

ويقول في مجال المحافظة على الإنشاء العربي في مقال ينشره تحت عنوان "التّقدّم بالكتابة": «... منها المحافظة على ما للإنشاء العربي من الأساليب المؤثرة على الأذهان، وإحياء ما إندرس من آيات سحر بيانها، وفي ذلك أخذ بيد الخلف إلى حيث يقفون تجاه قوم سروا في مضمار هذه الصّناعة شوطاً بعيداً، ولقد نعلم أنّهم لم يقيموا جدار هذا الإرتقاء بإستعداد زائد في فطرتهم، أو لقوّة فائقة في إنسانيتهم، أو لسرّ خصّه الله بأقلامهم، وإنّما سلكوا مسلك الحزم والنّشاط، فمسحوا عن أعينهم نوما كان شرّه مستطيّراً. هم رجال ونحن رجال، أقلامهم من القصب الذي ننحت منه أقلامنا، ولا يحملونها إلّا بمثل أناملنا قوة وشكلاً⁴».

ويقف عند مثبّطات الكتابة، ويدعو إلى الكتابة، وتشجيع المعلمين والمتعلّمين عليها، ونبذ مثبّطاتها يقول: « وهاهنا نكتة أخرى نستأذن حضرات القراء في إرسالها، وهي أنّ بعض الشّعب يريد كلّ امرئ منهم أن لا يصدع بكلمة حتّى يتسلّمها جميع من في العالم بيد القبول

¹ -المرجع نفسه: 7 / 151.

² -تحدّث الشيخ محمد الخضر حسين عن المدارس في قطاع التّعليم بألمانيا، يقول: «تنقسم المدارس إلى: ابتدائيّة، وإعداديّة، وجامعة (كلية). فيستمرّ التّلميذ من السّنة السادسة إلى الزّابعة عشرة في القسم الإبتدائيّ، ثمّ يتماهى في الإعداديّة ستّ سنين، فيفصل عنها إلى الجامعة ويبقى بها ثلاث سنين، فإن كان من طلبة الطّبّ، فسحوا له في الأمد إلى منتهى خمس سنين».

³ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 11 / 167.

⁴ -المرجع نفسه: 12 / 76.

والإحترام، وإلا فلا يكلم بها إنسيًا خشية أن يسترق الشياطين سمعها، علّة ذلك أن قلوبهم مستضعفة لا تتجدد بالمصابرة على سهام الإنتقادات الرّاشقة (...)، ولا يبدي رأيا تردّه النّقاد على عقبه، لما يقدره من أن دحض رأيه ولو مرّة تسقط به جلالته من أعين النّاس الذين يتهيّبونه»¹.

وفي مقال ينشره تحت عنوان " الفصيح من الكلام "، يرفض مسألة الإعتماد على الألفاظ الغريبة والتّصنّع في التّركيب؛ لأنّها من المسائل التي لا يرتفع بها شأن الكلام، يقول: « ترى كثيرا منهم يسارعون إلى التّصنّع في التّركيب والتّوعّل في الغرابة ما استطاعوا، ظنّا منهم أن التّصنّع فيها ممّا يرتفع به شأن الكلام في الحسن والقبول، كلاً، لا يكسبه ذلك إلا هجنة وانحطاطا إلى الدّرك الأسفل في هذه الصّناعة، وإنّما الممدوح عندهم ما كانت معانيه واضحة وعباراته مستعذبة، بعيدا عن تكلف الإصطناع »².

وفي مقال ينشره تحت عنوان " طرق التّرقّي في الكتابة"، ينطلق من مسألة المعنى وكيف يبني لغويًا، وكيف تمّ إخراج تلك المعاني الخفيّة إلى العلن بواسطة الألفاظ، يقول: « الإجابة في وضع الأقاويل أحكم وضع، لا يأخذ بناصيتها إلا من كانت له قوّة حافظّة، وقوّة مائزّة، وقوّة صانعة »³، وهذا القول هو لحازم القرطاجنيّ (ت684هـ) في كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)، يقول: « ولا يكمل لشاعر قول على الوجه المختار إلا بأن تكون له قوّة حافظّة، قوّة مائزّة، وقوّة صانعة »⁴.

إذا فالشيخ محمد الخضر حسين ينطلق من آراء حازم القرطاجنيّ، ولكن لا يشير إلى هذا المصدر، كعادة غالبية مفكّري ولغويي هذه المرحلة، ولكنّ السّؤال المعرفي يبقى شاخصا

1 - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 77 / 12.

2 - المرجع نفسه: 124 / 12.

3 - المرجع نفسه: 127 / 12.

4 - أبو الحسن حازم القرطاجنيّ: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، الطّبعة الثالثة، بيروت: 1986م: 42.

حول المعرفة التي قدمها الرجل، ما الإضافة المعرفية التي أضافها في هذه المسألة؟ ما الطريقة التي اتبعتها في إعادة إنتاج المعرفة؟

إذا وقفنا أمام مقاربتة لهذه القوى الثلاث، فالرجل لا يكاد يأتي بجديد يذكر، وإنما أعاد صياغة ما قاله حازم القرطاجني بألفاظ تحافظ على المعاني نفسها، ولكنه جاء بمكملات تزداد بهما القوتين المائزة والصناعة تمكنا، فالقوة المائزة لا تتحقق إلا بمطالعة المنشآت البليغة ذات الألفاظ العذبة والمعاني الرشيقة؛ لأنه في رأيه الإطلاع على الفنون البلاغية ومعرفتها لا يكفيان في استواء هذه القوة، يقول: « لا تكمل القوة المائزة إلا بالانصباب على مطالعة المنشآت البعيدة الغور في بيانها، المنتمىة إلى الطرف الأعلى في عذوبة ألفاظها ورشاقة معانيها، ويتوسم ما أرسل في طيها من الإعتبارات المناسبة بذوق جيد ومهل في النظر، فمعرفة الفنون البلاغية وحدها غير كافية لإستواء هذه القوة وإستحكامها»¹.

وأما القوة الصناعة فيرى بلوغها كامن وراء كثرة الممارسة، والإدمان على العمل، « ولا تبلغ القوة الصناعة مبلغ التمكن وسرعة الترسّل، إلا بعد إرتياضها بالتمرين والإستخدام في كلّ غرض تخفق عليه إرادتها، في أزمنة متولّية، ومما يربط بالأسف (...)، أنك ترى في الذين أوسعوا العلوم الأدبية خبرة، وساروا في التطلع على الإنشاءات الرفيعة عنقا فسيحا، حتّى أدركوا مغامرها وأشرفوا على ما وراء أكامها، يعجز عن التصرف في صوغ فقرات تلمّ شقاقا أو تؤكّد إخاء مثلا، ذلك لفقده القوة الصناعة، التي لا يقيم صلبها إلا الإدمان على العمل»².

ثمّ وقف عند الطّرق التي تساهم في النهوض بالكتابة في زمن يسير، ومنها ملازمة المتعلّم من له دراية واسعة بهذا الفنّ؛ ليجلّي له الغوامض، ويوضّح له كيف إرتقت هذه الصناعة عند أصحابها، وينبّه على الخلل الذي قد يعترى هذه الصناعة، وهو في هذه

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 12 / 128.

² - المرجع نفسه: 12 / 128، 129.

الفكرة ينطلق ممّا هو معروف في الشعر العربي القديم من أنّه لا نجد شاعر ذا مكانة رفيعة إلا ولزم شاعرا آخر، لإيمانه بأنّ الشعر والكتابة أخوان، يقول: « ومن الطّرق التي تنهض بالكاتب في زمن يسير، وتساعد قوّته الصّناعة على الإجابة في طرفة عين، وتطبع في صحيفتها ملكة الهجوم على المعاني وبثّها في ألفاظ رصينة غير متوعّرة، إنحيازه إلى دريّ بشعاب هذه الصّناعة يقف على المنافذ التي يسري منها الخلل إلى التّأليف، ويبصره بالمذاهب التي ارتقت من نحوها التّحارير الفائقة، وقد قال أئمّة الصّناعة الشعريّة: لا تجد شاعرا إلا ولزم شاعر آخر (...)، والشعر والكتابة أخوان ¹».

فالرجل يهدف إلى إحياء سنّة الكتابة التي إندرست معالمها في العالم العربيّ في الفترة التي أتاولها، ساعيا إلى شحذ همم المتعلّمين ودفعهم إلى تعلّمها بالتّنبية على وسائل تتميتها، ودرء مثبّطاتها، وتوضيح أهمّيتها في حياة الفرد والمجتمع.

ومن خلال آرائه التي سقتها من قبل يمكن أن نقف على أهمّ وسائل تنمية ملكة الكتابة، ومنها: المداومة على الكتابة، وإقضاء أهمّ مثبّط من النّفس، وهو ما يسمّى بالخوف من سهام النّقد الموجّهة إلى الكاتب، وبحثه في هذا الموضوع القديم المتجدّد ينبى عن أهمّية الكتابة في تفكير الرّجل، والدّعوة إلى إمتلاك ناصيتها لدى الكتّاب في عصر هم أحوج إليها من غيرها من الملكات.

وبعد أن تناولت في الفصلين السّابقين، مستويات البحث اللّغوي عند الرّجل والمصادر التي رفدت هذه المباحث، ومنهجه في معالجة هذه المستويات، ووقفت عند ملامح تفكيره اللّساني في المباحث ذاتها، سأبحث في الفصل الأخير عن تجلّيات هذا التّفكير في أثناء تفسيره القرآن الكريم، متّخذا خطابه التّفسيري أنموذجا، وسورة البقرة منطلقا.

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 129 / 12.

الفصل الرَّابِع:

مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد الخضر حسين.

الحديث في مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال مدوّنة الخطاب التفسيري لدى الشّيخ مسألة تستدعي مَنّي الوقوف عند آراء الرّجل في مباحث القرآن الكريم وعلومه، مرّكزا على علاقة هذه الآراء باتّساق النصّ القرآني وإنسجامه، وترابط أجزائه، وتنظيم خطابه، وترتيبه. فهل كان الشّيخ محمّد الخضر حسين على وعي تامّ بهذه القضية في أثناء تفسيره؟ ما الوسائل والآليات التي انتبه إليها الرّجل في أثناء حديثه عن بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، وكانت سببا في جعل النصّ القرآني نصّا واحدا على الرّغم من تنوّع موضوعاته في بعض السّور، زيادة على تباعد واختلاف أوقات نزوله؟ وكانت سببا في الوقت نفسه إلى طرح إمكانات متعدّد للفهم والتأويل، وفضاءات أرحب للتفسير؟

1-مباحث في القرآن الكريم وعلومه:

أ-في تأويل القرآن الكريم:

لا تجدني في هذا المبحث متناولا للتأويل من حيث حقيقته، وقضاياها، وضوابطه، ولكنني سأقف عند موقف الشّيخ من التأويل، وهذا الموقف يتجلّى في مناقشاته معاصريه الذين أوّلوا بعض الآيات القرآنيّة¹، والواقف على هذه الرّدود تلفت إنتباهه تلك العبارات التي يطلقها الشّيخ في حقّ هذه التّأويلات، مثل: " هو تأويل خرج به عن قانون اللّغة العربيّة، بعد أن خرج به عن سنّة النّبّي القوليّة والعملية "، " ذلك التّأويل الذي تنكره اللّغة والسّنة وحكمة التّشريع "، " صرفّ لآيات الله عن معانيها المفرغة في لفظها العربيّ المبين "، " لم يكتف المؤلّ أن يخرج فيما يكتب عن قوانين اللّغة "، " تناولوا القرآن بعقول لا تراعي في فهمه قوانين البلاغة"، " فانطلقوا إلى القرآن يؤوّلونه على ما يوافق شهواتهم، يفعلون هذا ولا

¹ -وأقصد هنا مقالاته التي جاءت تحت العناوين الآتية: " القرآن لا يقول إلّا حقّ " " الفنّ القصصي في القرآن الكريم "

" تحريف آيات الحدود عن مواضعها " " كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد ". " كتاب يلحد في آيات الله ". " قصة "

أيوب-عليه السّلام- ونقض آراء حديثة في تفسيرها ". (وهي خمسة ردود).

ينظر: محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 2/ 117 وما بعدها.

يرقبون في اللّغة العربيّة ذمّة "، " فخرجوا به (أي التّأويل) عن حدود البلاغة، وهو مثلها الأعلى"، " فتأويل لا داعي إليه، ولا مسوّغ له إلّا ضيق الدّهن "، " ولا ندري ما هو الدّليل الذي ينهض أمام هذه الآية "، " سوء التّأويل "، " يتعسّف في التّأويل".

والواقف عند هذه العبارات وغيرها، والمنهج الذي سلكه في هذه الرّدود، يستنتج مايلي:
- يميّز بين أنواع التّأويل بتلك الأوصاف التي يطلقها في حقّ هذا التّأويل أو ذاك، فعنده تأويل صحيح يقبله العقل، ومنطق اللّغة وبلاغتها، ويدعمه الدّليل الرّاجح، ويحقّق مقصد الشّرع، وتأويل فاسد، صاحبه منطلق من سوء نية، فيه تعسّف وحمل الألفاظ دلالات لا تطيقها، سيقّت إليه أدلّة مرجوحة، أو غاب عنه الدّليل.

- إيمان الشّيخ بطاقات اللّغة في توليد المعاني، وعلى المؤول أن يغوص في أعماق النصّ؛ لإستجلاء هذه المعاني، وهذا يتطلّب منه بالآ يقف عند ظاهر النصّ، فهذا المنحى يجعل التّأويل قاصرا؛ ولهذا فهو كثيرا ما يردّ التّأويل الذي يخرج عن قوانين اللّغة.

- يردّ تأويل من يخرجون ألفاظ القرآن عن مقتضى أوضاعها ومجازاتها المألوفة، وعلى من يحملها على حقائقها اللّغويّة، وأقصد هنا الباطنيّة والظّاهريّة.

- يردّ التّأويل إنطلاقا من مقاصد الشّريعة، فهناك من ادّعى أن الأمر الوارد في حدّي السرقة والزّنى في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة: 38) وقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: 2) هو للإباحة لا للوجوب، يقول الشّيخ: « من مقاصد الشّريعة الغراء: حماية النّفس، والأموال، والأعراض، والأنساب، فعمدت إلى ما يكون الإعتداء به على هذه الحقوق أكثر أو أشدّ ضررا، فشرّعت له عقوبة معيّنة، وفوّضت ما عدا ذلك إلى وليّ الأمر»¹.

¹ - محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 2/ 137.

-يردّ على منكري معجزات الرّسل-عليهم السّلام- الذين أوّلوا قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ﴾ بقولهم: إنّ العصا هي أمر الله وحكمه، واليد البيضاء هي الرّسالة، يقول الشّيخ: « وتأويل الآيات - على ما قاله المؤوّل وسلفه البهائي- من قبيل المجاز الذي ينبو عنه الدّوق، لتعسّفه، ويبعد منه الفهم، لخلوّه من القرينة المشيرة إلى أنّه مستعمل في غير ما وضع له »¹.
-التّعويل على الإجماع في ردّ من أوّل قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (الإسراء:1) بأنّ المقصود هو هجرته-صلّى الله عليه وسلّم- من مكّة إلى المدينة، وأنّ المسجد الحرام: الذي له حرمة، وأنّ الأقصى: الأبعد: مسجد المدينة. يقول في هذا التّأويل: « أجمع أهل العلم: أنّ أوائل هذه السّورة نزل بمكّة؛ أي قبل الهجرة »².

-ردّ تأويل بعضهم لقوله تعالى: ﴿وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ (آل عمران:46) بأدلّة نقلية من السّنة، مع مطالبة هذا المؤوّل بشواهد من الشّعر العربيّ تشير إلى الذي قصده بكلمة المهد من أنّها تعني دور التّمهيد للحياة، وصاحب هذا التّأويل ينكر تكلم عيسى-عليه السّلام- في المهد، ويقول: " في دور المهد، وهو دور الصّبا، علامة على الجرأة، وقوة الاستعداد في الصّغر ". وساق الشّيخ محمّد الخضر حسين حديثاً يدلّ على أنّ عيسى عليه السّلام تكلم في المهد، وقولا لابن عبّاس -رضي الله عنه- يفسّر فيه كلمة المهد بأنّها مضجع الصّبيّ في الرّضاعة.

-غياب الدّليل يسقط التّأويل، ففي قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ (مريم:27)، قال المؤوّل: " تحمله على ما يحمل عليه المسافر، ومنه تفهم أنّه كان في سياحة

¹ -المرجع نفسه: 2/ 148.

² -المرجع نفسه: 2/ 156.

طويلة " . قال الشيخ رادًا على هذا المؤلّ: « فمن أين اطّلع على أنّ مريم-عليها السلام-كانت في سياحة طويلة؟، كان على المؤلّ أن يثبت هذه السّياحة من التّاريخ، أو من القرآن »¹.

ب- في بلاغة القرآن الكريم وإعجازه:

الواقف على وجوه الإعجاز وما كتبه العلماء والباحثون فيها يرتد بصره أمام الكمّ المعرفي الهائل الذي إنطوت عليه كتبهم ورسائلهم ومقالاتهم، ومع ذلك لم تنفض عجائب هذه الوجوه ولم تنته، ولم يصل الإنسان بعدُ إلى أن يضع يديه على معظمها، فهي تتراءى من جديد مع مرور الزّمن، فكلمًا وضع الباحث يديه على بعض منها، ظهرت له وجوه أخرى، ومهما تعدّدت آراء هؤلاء في هذه الوجوه، فلا زال في النّفس إحساس عميق بأنّ وجوهاً أخرى لم تكتشف بعد، يقول مصطفى صادق الرّافعي: « ما أشبه القرآن الكريم في تركيب إعجازه وإعجاز تركيبه بصورة كلاميّة من نظام هذا الكون الذي إكتنفه العلماء من كلّ جهة، وتعاوروه من كلّ ناحية، وأخلقوا جوانبه بحثًا وتفتيشًا، ثمّ هو بعد لا يزال عندهم على كلّ ذلك خلقًا جديدًا، ومرامًا بعيدًا »²، وكلمًا توصلّ جيل إلى بعض من هذه الوجوه، تراءت للأجيال المتعاقبة وجوهاً أخرى، « كلّما حسب جيل أنّه بلغ منه مبلغًا امتدّ الأفق بعيدًا وراء كلّ مطمع، وفوق كلّ طاقة »³.

ولكنّا يمكن أن نجمع هذه الوجوه التي ذكرها المتقدّمون، وتناولها بالتّفصيل المتأخرون

والمحدثون، تحت خمسة وجوه هي:

¹ - محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 2/ 152

² - مصطفى صادق الرّافعي: إعجاز القرآن، مطبعة الإستقامة، الطّبعة الثّامنة، القاهرة: (د.ت): 162.

³ - الذّكورة بنت الشّاطي: الإعجاز البياني للقرآن، دار المعارف، (د.ط)، مصر: 1971م: 28.

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد الخضر حسين.

-الإعجاز البياني.

-الإعجاز الغيبي.

-القول بالصّرفة، وهو قول ردّه العلماء.

-الإعجاز بالنّظم.

-الإعجاز العلمي.

والحديث في هذه الوجوه يطول، وبيعدنا عمّا نريد التّركيز فيه؛ ولهذا سينصب حديثي في الإعجاز البياني، « الذي يشمل النّظم، والأسلوب، والبلاغة، والفصاحة، والمضمون، والشّكل »¹، وذلك لسببين اثنين، أولهما، أنّ هذا الوجه يسري في السّور جميعها، سواء أكانت السّور قصارا أم طوالا، و ثانيهما أنّ الشّيخ محمّد الخضر حسين تحدّث عن هذين الوجه في مقالتي²، أولهما تحت عنوان: "بلاغة القرآن"، وثانيهما تحت عنوان: "إعجاز القرآن وبلاغته".

إذا فالإعجاز القرآني بصفة عامّة، والبياني بصفة خاصّة، قضيّة ضاربة بجذورها إلى عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يوم تلا في قومه ما تلقى من كلمات ربّه، فأحسّت قريش، وهي العارفة بالفصاحة، وأفانين القول، بأنّ الذي يقرع آذانها ليس من قول البشر، بل هو قول ثقيل خارج عن قدرة البشر، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من ربّ رحيم؛ ولهذا سارعت لتحول بين العرب وسماع هذا القرآن، خوفا من تأثرها به، ثمّ الإيمان برسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فكانت تقف عند مداخل مكة محذرة وفود

¹ -سامي محمّد هشام حريز: نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريًا وتطبيقيًا، دار الشّروق للنشر والتّوزيع، الطبعة الأولى، عمان: 2006م: 33.

² -ينظر: محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 2/ 443-505.

العرب، حين قدمت الموسم، أنّ الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، هو « سحر يفرق فيه بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته»¹. وراحوا يخلعون عليه صفات بقصد الإنتقاص منه، فقالوا في حقّ القرآن الكريم إنّه أساطير الأولين، إفك، شعر، سحر.

وها هم صناديد قريش، أمام روعة القرآن الكريم، من أمثال أبو جهل بن هشام، وأبو سفيان بن حرب، والأخنس بن شريق، يدعون الناس نهارا إلى ألا يستمعوا إلى هذا القرآن، ويتسلّلون تحت جناح الليل إلى حيث يستمعون إلى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، ويتخذ كل واحد منهم مكانا من حيث لا يدري أحدهم بالآخر، فإذا سمعوا القرآن وامتلت أسماعهم به، عادوا من حيث جاؤوا، فجمعهم الطريق، وتعاهدوا على ألا يعودوا ثانية إلى هذا المكان، خوفا من أن يقتدي الملام من أهل قريش بهم، ولكن قوة التأثير القرآني، « نظمه وتأليفه وبيانه، يهزّ القلوب هزّا، ويهيجها على الأريحية، ويقرع الأسماع قرعا يطرها على الإصغاء والإطراق أطرا لا ينكره إلا معاند»² تجعل هؤلاء يكرّرون المجيء إلى سماع قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثلاث ليال على التوالي، ولم يمتنعوا عن ذلك إلا بعد أن تعاهدوا على ألا يعودوا إلى هذا المكان³.

وعتبة بن ربيعة الخثعمي حينما سمع صدر سورة فصلت من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رجع إلى قومه، وقال لهم: « والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قطّ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر، يا معشر قريش أطيعوني فاجعلوها لي، خلّوا بين

¹ - ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام، دار الفكر، (د.ط)، بيروت: 1: 209.

² - أبو فهر محمود محمد شاكر: مداخل إعجاز القرآن، مطبعة المدني، الطبعة الأولى، القاهرة: 1423هـ-2002م: 64.

³ - ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية: 1/ 241.

الرّجل وما فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لكلامه الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزّه عزكم، فقالوا: لقد سحرك محمّد، فقال هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم¹. وفي قصّة إسلام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ما يبني على تأثيره بالقرآن الكريم، فحين قرأ صدرا من سورة طه، في بيت أخته فاطمة بنت الخطّاب-رضي الله عنها- قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه².

والذي نصل إليه من خلال هذه الأقوال أنّ الإعجاز بدأ يوم تلا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الآيات القرآنيّة، فتحدّى هؤلاء، وأخذ بألبابهم، وأثر فيهم، وشاروا، فالحروف والكلمات من جنس ما يعرفونه، ولكن نظمها خرج عن وجوه النّظم المعروفة في كلام العرب، فبيانه لا يشبه « بيان أنمة الشعراء وأصحاب الألسنة البليغة، وأنّه نمط متقرّد، لا يطابق تأليفه وتركيبه أنماط المألوف من بيانهم، وهم مطبقون جميعا، بهذا التّدوّق على أنّه كلام ربّ العالمين، المبين لكلام البشر³ ».

ولهذا تحداهم الله بأن يأتيوا من مثل هذا القرآن الكريم إن استطاعوا، فالتّحدي كان على مستوى البيان القرآني، وليس على مستوى الموضوعات التي جاء بها، وهكذا سرت معاني الإعجاز في نفوسهم، وظلت مستولية على قلوبهم، وإن لم يظهر المصطلح بشكل جليّ في آرائهم ومحاوراتهم في الصّدر الأوّل من الدّولة الإسلاميّة، قال عبد الفتّاح لاشين: « قد مضى عصر النّبوة، وعصر الخلفاء الرّاشدين، ودولة بني أميّة، وشطر كبير من دولة العبّاسيين دون أن يحاول أحد التّعرّض لقضيّة الإعجاز ودلائله⁴ ». وهذا القول يقودني إلى

1- ابن هشام: السيرة النبويّة: 1/ 243.

2- ينظر: المصدر نفسه: 1/ 261- 263.

3- أبو فهر محمود محمّد شاكر: مداخل إعجاز القرآن: 74.

4- الدكتور عبد الفتّاح لاشين: بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدّراسات البلاغيّة، دار الفكر العربي، (د.ط)، القاهرة: (د.ت): 425.

القول إنّ تصوّر فكرة الإعجاز في عقولهم، واستقرارها في قرار مكين لا يخالطه ريب، وانتفاء من يثير الشبهات حول مسائل القرآن، كلّ ذلك دفعتهم إلى ألا يفكّروا في البحث في إعجاز القرآن الكريم.

ثمّ تلا عصر إختلّطت فيه الأمة الإسلاميّة بغيرها من الأمم، واتّسعت أرجاؤها، وكثر النقاش والجدال بين العلماء حينما إنتشرت بينهم الملل والنحل، وصعدوا أنظارهم في القرآن الكريم وعلومه، ثمّ ظهرت مصطلحات هي¹: التّحدي والإعجاز والمعجزة، ولم يكن لهذه المصطلحات حضور إلى إنقضاء القرنين الأوليين، و تظهر في كلام أهل القرن الثالث، وتستفيض إستفاضة غامرة ظاهرة في القرن الرابع، وما بعده إلى يومنا هذا². ولهذا يعسر على الباحث العثور على عناوين لرسائل وكتب تتناول قضية الإعجاز قبل القرن الثالث الهجري.

ومع بداية منتصف القرن الثالث الهجري، ظهرت كتب تناولت هذه المسألة³، نذكر بعضها منها، مرتّبة ترتيباً زمنياً:

- في القرن الثالث: (حجج النّبوة) و (نظم القرآن) للجاحظ (ت 255هـ)

- في القرن الرابع: (إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه) لمحمّد بن يزيد الواسطي (307هـ)

¹ - للبحث في حقيقة هذه المصطلحات، وفي أسبقها وجوداً واستعمالاً. ينظر: أبو فهر محمود محمّد شاکر: مداخل إعجاز القرآن: 21 وما بعدها.

² - ينظر: المرجع نفسه: 19، 20.

³ - جمعت بعضاً من هذه العناوين من الكتب الآتية: (الفهرست) لابن ندیم، و(كشف الظنون) لحاجي خليفة، و(معجم مصنّفات القرآن الكريم) لعلي إسحاق شوّاخ، و(مداخل إعجاز القرآن) لأبي فهر محمود محمّد شاکر. و(إعجاز القرآن) للدكتور فضل حسن عبّاس، و(إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية مع المقارنة بكتاب إعجاز القرآن للباقلاني) للدكتور محمّد بن عبد العزيز العواجي، وغيرها من المصادر والمراجع.

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد الخضر حسين. .

(نظم القرآن) لأبي بكر السجستاني (ت 330هـ)

(النكت في إعجاز القرآن) للرّماني (ت384هـ)

(بيان إعجاز القرآن) للخطّابي (ت388هـ)

-في القرن الخامس: (إعجاز القرآن) للباقلاني (ت403هـ)

(إعجاز القرآن) للقاضي عبد الجبار (ت415هـ)

(دلائل الإعجاز) (الرسالة الشافعية في الإعجاز) للجرجاني (ت471هـ)

-في القرن السادس: (التبويه على إعجاز القرآن) للخوارزمي الحنفي (ت562هـ)

-في القرن السابع: (نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز) لفخر الدين الرّازي (ت606هـ)

-في القرن الثامن: (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز) للإمام يحيى بن حمزة العلوي (ت745هـ)

-في القرن التاسع: (كفاية الألمعي في شرح قوله تعالى ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي ﴾ في إعجاز القرآن) لشمس الدين ابن الجزري (ت833هـ)

-في القرن العاشر: (معتك الأقران في إعجاز القرآن) لجلال الدين السيوطي (ت911هـ)

-في القرن الرابع عشر¹: (إعجاز القرآن) للزّافعي (ت1937م)

(التبأ العظيم) للدكتور محمّد عبد الله درّاز (ت1958م)

¹ -القرون الثلاث التي تلت القرن العاشر، لا نكاد نعرث فيها على كتب مستقلة تناولت الإعجاز.

وإذا نظرنا في هذه الكتب نظرة عامّة، وإطلعنا على ما كتبه الباحثون المحدثون، وضعنا أيدينا على أهم القضايا التي طرحت في قضية الإعجاز، والتي يمكن حصرها فيما يلي: حقيقة الإعجاز والمعجزة، وآيات التّحدي، والقدر المعجز من القرآن، ووجوه الإعجاز ومظاهره، وتتبع هذه القضايا وحصرها في هذه الكتب مسألة لا تفرضها منهجية البحث، وإنّما سأكتفي بالإشارة إلى ما له علاقة بما تناوله الشيخ محمد الخضر حسين في هذا المجال، يقول: « وللبحث في إعجاز القرآن نواح كثيرة، إتجه إليها المفسرون وعلماء البيان بتفصيل، فكشفوا الغطاء عن كثير من أسرارها، ووضعوا أيديهم على جانب عظيم من حقائقها، والنّاحية التي سنحدّثك عنها في هذا المقال هي: ناحية بلاغته، وحسن بيانه»¹.

وتركيز الشيخ على هذه النّاحية له ما يبرّره، فالمصنّفات الأولى في الإعجاز تشبه المباحث البلاغية تحدّث فيها العلماء عن مسائل قدّروا أنّ القرآن عرف بها²، والقصص التي سردتها من قبل، لدليل قاطع على الأثر الذي تركه سماع القرآن الكريم في العرب، مؤمنهم وكافريهم. إذا أين تكمن هذه البلاغة التي فاقت سائر البلاغات؟ وأين تتجلّى مظاهرها؟.

إنّ الباحث في هذه المسألة يلفي حيرة عقول القدماء والمحدثين، وتعدّد رؤاهم، وأنهم لم يهتدوا إلى مكن هذا السرّ بعد أن صعّدوا أنظارهم في القرآن الكريم، فما وقعت عليه أيديهم لا يعدوا أن يكون أقلّ بكثير، ومع هذا يمكن أن نحصر وجوها على سبيل الإجمال ناظرين في الوقت نفسه إلى آراء الشيخ محمد الخضر حسين فيها، وهذه الوجوه هي:

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 2/ 5.

² -ينظر: بنت الشاطي: الإعجاز البياني للقرآن: 69-72.

نظم في الحروف، والتّمام في الكلمات، وتعليق بعضها ببعض في نظام خرج عن المألوف عند العرب، واختيار الألفاظ وملاءمتها للغرض بحيث لا يمكن أن تحلّ كلمة مكان أخرى، ودلالة الألفاظ وقدرتها على تصوير المعاني، وإيصالها إلى الأذهان من غير تعسّف، ولا التواء، وإيقاع يأخذ بالألباب، ووحدة السّورة وتلاؤم أجزائها على الرّغم من تنوّع موضوعات بعض منها، وضرب للأمثال، وقصص للاعتبار، هذا كلّه وغيره كثير كان محلّ الدّراسة عند القدماء والمحدثين.

النّاظر في كتابي الشّيخ محمّد الخضر حسين (أسرار التّنزيل) و (بلاغة القرآن)، تطرح عليه مجموعة من التّساؤلات، كيف نظر الشّيخ إلى قضايا الإعجاز القرآني، وما المباحث التي شغلته فتحدّث فيها؟ أين تقاطع واختلف مع من سبقوه، ومن عاصروه؟ ما الجديد عنده؟ كيف ناقش هذه القضايا التي تناولها معاصروه؟ وما الأدوات التي استعملها في ذلك، وما قيمتها العلميّة؟.

إذا كانت للشّيخ بعض الآراء النّظرية في تلك القضايا، فالى أيّ مدى استثمرها في المجال التّطبيقي في كتابه (أسرار التّنزيل)؟ وإلى أيّ مدى يمكن أن يكون البحث في وجوه الإعجاز مؤدياً إلى إثبات اتّساق النصّ القرآني وانسجامه؟ أو بمعنى آخر إلى أيّ مدى يمكن أن نقول: إنّ الإعجاز القرآني قد يظهر في التّرابط القوي بين عناصر النّظم القرآني؟

الواقف على تراث الرّجل يمكن له أن يحدّد قضايا الإعجاز التي تناولها في مقالات متنوّعة، ونحصرها فيما يلي¹: في بلاغة القرآن الكريم، في تفسيره وترجمته، في محكمه

¹ -محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 41 / 2 وما بعدها.

بسط الرّجل القول في هذه المسائل، فتحدّث عن حقيقة التّفسير وأنواعه، وآليات التّأويل وقوانينه، وناقش من أولوا القرآن الكريم تأويلاً، كما سمّاه، باطلاً، جامحاً، فاسداً. ووقف عند ترجمة القرآن الكريم، وبين حقيقة المثل عامّة والمثل في القرآن

ومتشابهه، في أمثاله وقصصه، في أقسامه و نزوله على سبعة أحرف. ولا تجدني متتبّعاً هذه المسائل جميعها، وإنّما سأكتفي بما يعود على أصل البحث بالفائدة.

يتجاوز الرّجل تعريف الإعجاز لغة وإصطلاحاً، ويحصر مجال البحث، كعادته، في بلاغة القرآن، وحسن بيانه، ثمّ يقف عند عبارة بلاغة القول، والتي تعني: « أن تكون ألفاظه فصيحة، ونظمه محكما، ودلالته على المعنى منتظمة وافية¹، ويشعر في شرح هذه الوجوه التي يرجع إليها حسن البيان، ويمكن أن نحددها فيما يلي:²

أ- فصاحة الألفاظ: واللفظة، في رأيه، تكون فصيحة متى سهل جريانها على اللسان، وخفّ وقعها، وألفها الذّوق غير ناب عنها، وجرت على ما نطقت به العرب، أو ما حمل على قياس لغتهم.

ب- إحكام النّظم: ويتجلّى إحكام نظم القول في أن تقع كلّ كلمة موقعها اللائق بها، وتكون متناسبة، يأخذ بعضها برقاب بعض، بحيث لا يمكن لك أن تضع يدك على كلمة ما، وتقول: ليثها تقدّمت عن تلك الكلمة، أو تأخّرت عنها.

ج- إنتظام الدّلالة: وتكون حينما يطرق اللفظ سمعك، ويخطر معناه في قلبك، ويرجع الشيخ محمّد الخضر حسين، حصول هذا المعنى بسرعة، أو ببطء إلى حالين:

1- حال السّامع: من حيث نكاؤه، وسرعة فهمه، وإستيعابه للمعنى، ومن حيث بطئه، وتعثّره في فهم المعاني.

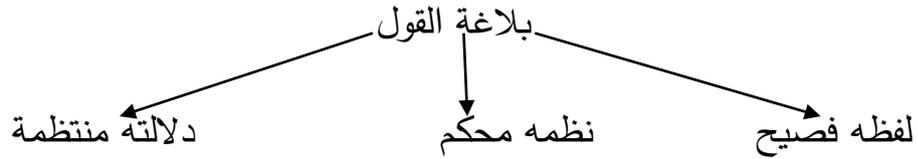
الكريم خاصّة، وفوائده ضربه، وحقيقة المتشابه والمحكم، وفوائد ورود المتشابه في القرآن الكريم، وحقيقة القصص القرآني بصفة عامّة، وقصّة أيّوب عليه السّلام بصفة خاصّة، وناقش الذين بحثوا في الفنّ القصصي في القرآن الكريم.

¹ - المرجع نفسه: 2 / 5.

² - ينظر: المرجع نفسه: 2 / 5، 6.

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد الخضر حسين.

2- حال المعنى: من حيث ظهوره، ووضوحه، وقرب مأخذه، أو من حيث دقته وغرابته، وبعد مأخذه. والترسيمة التالية توضّح هذه الرؤية:



ويرى الشيخ أنّ انتظام دلالة الكلام، تتحقّق حينما يتمّ « إخراج المعاني في طرق تريكها في أقوم صورة، وأعلقها بالنفس، كالتشابه، وضرب الأمثال، والاستعارات، والكنيات المصحوبة بقرائن تجعل قصد المتكلم قريبا من فهم السامعين، وأمّا كون الدلالة على المعنى وافية، فبأن يؤدّي اللفظ صور المعاني التي يقصد المتكلم البليغ إفادتها للمخاطبين على وجه أكمل، بحيث تكون العبارة بمفرداتها وأسلوبها كالمرآة الصافية، تعرض عليك ما أودعت من المعاني، لا يفوت ذهنك منها شيء. ونريد من المعاني التي يؤدّيها الكلام غير منقوصة: ما يشمل المعاني التي يراعيها البليغ زائدة على المعنى الأصلي الذي يقصد كلّ متكلم إلى إفادته، وهي المعاني التي يبحث عنها في علم البيان، وتسمّى: مستتبعات التراكيب، وكثيرا ما ننبه لهما فيما نكتب من التفسير»¹.

ثمّ يتابع كلامه بقوله: «هذه الوجوه التي يرجع إليها حسن البيان يتنافس فيها البلغاء من الكتاب والشعراء ويتفاضلون فيها، درجات، فترى كلاما في أدنى درجة، وآخر فيما هي أرفع

1 - محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 2: 6.

منها، ولا تزال تصعد نظرك في هذه الدرجات المتفاوتة إلى أن تصل إلى كلام يبهرك بفصاحة مفرداته، ومثانة تأليفه، وانتظام دلالاته، وبهجة معانيه الماثلة ما بين جوانبه»¹.

قارئ نصي الرجل الذين سقتها يكتشف مدى إطلاعه على آراء سابقيه²، واستثمارها في إعادة بناء المعرفة من جديد، فهو يمهد كلامه في الحديث عن بلاغة القرآن، بحديث عن أوصاف القول البليغ، وهي ثلاثة أوصاف، لفظ فصيح، ونظم محكم، ودلالة على المعنى منتظمة ووافية، فلا تتحقق البلاغة إلا بإجماعها، فمتى تأخر واحد منها إنتقت البلاغة عن قول ما، يقول ابن الأثير (ت 630هـ) في معرض حديثه عن الأوصاف الثلاثة الواجب توفرها في بلاغة الكلام: « لا يسمّى الكلام بليغا إلا بمجموعها، ومتى عري من واحد منها فليس ببليغ، فالأول منها يتعلّق بالمعنى، وهو الإفادة، والثاني يتعلّق باللفظ والمعنى كليهما، وهو أن يكون اللفظ غير زائد على المعنى، والثالث يتعلّق باللفظ وهو الفصاحة؛ لأنّ الكلام لا يطلق عليه اسم البلاغة حتّى يكون فصيحاً »³.

¹ - المرجع نفسه: 2: 6.

² - من أمثال عبد القاهر الجرجاني، والسكاكي (ت 626هـ)، وشراح كتاب مفتاح العلوم من أمثال: ابن يعقوب المغربي (ت 1128هـ)، سعد الدين التفتازاني (ت 792هـ) في مباحث البلاغة والفصاحة وبلاغة الكلام وبلاغة المتكلم.

ينظر: أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت: 1420هـ-2000م: 526.

سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني: المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت: 1422هـ-2000م: 138-153.

أبو العباس أحمد بن محمد بن يعقوب المغربي: مواهب الفتح في تلخيص في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق الدكتور خليل إبراهيم خليل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت: 1424هـ-2002م: 131/1، 132.

³ - عزّ الدين بن الأثير: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق الدكتور عبد الحميد الهنداوي دار الآفاق العربيّة، الطبعة الأولى، القاهرة: 1428هـ-2007م: 206.

ثم إنّ اجتماع هذه الأوصاف الثلاثة في القول البليغ، يدلّ على القدرة على استخدام اللّغة استخداماً يضمن لمعانيها البلوغ والإنهاء إلى قلب السّامع في فهمه، وهذا البلوغ والإنهاء الذي تتضمّنه الدّلالة العامّة لكلمة البلاغة،¹ يوشي إلى حقيقة التّواصل بين الأفراد، ومن ثمة فإنّ أسئلة تفرض نفسها في أثناء النّظر في آراء الرّجل، متى علمنا أنه متخصص في تدريس البلاغة. هل كان على وعي تامّ، وهو يستثمر آراء القدماء، بالعلاقة التي تربط البلاغة بالاتّصال؟²، كيف نظر إلى المكوّنات الجوهرية للنّظم (قصد المتكلم، والنّصّ اللّغوي وبنائه، قدرة المتلقّي على تفسير النّصّ)؟. هل تفرّقه بين مستويات الكلام يدلّ على وعيه بأنّ هذه القضية، هي القضية الأساسيّة في كتابي عبد القاهر الجرجاني (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة)، متى علمنا أنّ نصر حامد أبو زيد قال في كتابه (إشكاليّات القراءة وآليات التّأويل) في حقّ عبد القاهر الجرجاني: «ولا نكون مبالغين إذا قلنا إنّ قضيّته الأساسيّة في كتابيه المعروفين "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" هي التّفارقة بين "مستويات الكلام"، تلك المستويات التي تبدأ من "الكلام العادي" وتنتهي إلى "الكلام المعجز" الذي يفوق طاقة البشر»³؟

¹ -يقول أبو هلال العسكري: «... فسميت البلاغة بلاغة، لأنّها تنهي المعنى إلى قلب السّامع في فهمه».

أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق علي محمّد البجاوي ومحمّد أبي الفضل إبراهيم، (د.ط)، منشورات المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت: 1986م: 60.

ويقول السّكاكي: «البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدّاً له اختصاص بتوفيقه خواص التّركيب حقّها، وإيراد أنواع التّشبيه والمجاز والكتابة على وجهها»

السّكاكي: مفتاح العلوم: 526.

² -للاطلاع على علاقة البلاغة العربيّة بالاتّصال.

ينظر: الدّكتور خليفة بوجادي: في اللسانيّات التّداوليّة مع محاولة تأصيليّة في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، الجزائر: 2009م: 154 وما بعدها.

³ -نصر حامد أبو زيد: إشكاليّات القراءة وآليات التّأويل، المركز الثّقافي العربي، الطّبعة التاسعة، الدّار البيضاء، المغرب: 2012م: 154، 155.

والمنهج الذي سار عليه الرّجل في الوقوف على حقيقة بلاغة القرآن الكريم، وهو التمهيد بحديث عن بلاغة القول عامّة، منهج يكشف على وعي الشّرخ بمسألة مستويات الكلام، من كلام في أدنى درجة، إلى آخر أرفع منه، إلى كلام يبهر السّامع، وهذا الوعي مكّنه من التّفرقة بين كلام البشر، وكلامه سبحانه وتعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قد لا نجانب الصّواب إن قلنا: إنّ محمّد الخضر حسين منطلق في آرائه من كتابي الشّرخ عبد القاهر الجرجاني (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة)، وهذا ليس غريباً في حقّ رجل تخصص في تدريس البلاغة، ولكنّ المسألة تغدو ذات بال حينما ننتقن أنّ آراء عبد القاهر الجرجاني، كانت قد لاقت صيتها عند المحدثين مع بداية النّصف الأوّل من القرن العشرين. فالى أيّ مدى تأثّر الرّجل بأراء الجرجاني، أين تقاطع معه؟ كيف استثمر هذه الآراء في إعادة صياغة المعرفة من جديد؟ وإلى أيّ مدى أثرت هذه الصياغة في تفكيره اللّساني؟.

ثمّ يشرع في الحديث عن بلاغة القرآن الكريم، يقول: « فإذا أردنا أن نتحدّث عن بلاغة القرآن، أتينا إلى البحث عنها من الوجوه التي وضعناها بين يديك، فننظر في ألفاظه من جهة فصاحتها، وفي نظمه من جهة أخذ كلّ كلمة الموضع اللّائق بها، وفي دلالتها من جهة تصوير المعاني، وإيصالها إلى الأذهان من غير تعسّف، ولا التواء، ثمّ في جملة من جهة ما تحمل من المعاني التي يستدعي المقام مراعاتها ¹. والنّاظر في هذا النصّ يتبادر إلى ذهنه سؤال: إلى أيّ مدى يمكن لنا أن نقول: إنّ الرّجل وّفّق في الجمع بين آرائه النظريّة في بلاغة القرآن الكريم وتطبيقاته في كتابه (أسرار التّنزيل)؟

¹ - محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 7 / 2.

ومقاربة السؤال تقودني إلى الحديث عن آرائه في مسائل اللغة العربيّة من حيث نظمها، وتناسب ألفاظها ومعانيها، وجملها، وهنا أكون منطلقاً من محاضراته التي ألقاها عام (1909م) تحت عنوان "حياة اللغة العربيّة"؛ لأقف عند آرائه في المسألة ذاتها، ومركّزاً في الوقت نفسه على منهجه في تحليل مقطوعة شعريّة للشاعر ودّاك بن ثميل المازني يخاطب فيها بني شيبان؛ ليثبت من خلالها وحدة هذه المقطوعة الشعريّة.

وحيثما نقف عند تحليل الرّجل لهذه المقطوعة الشعريّة، ندرك إهتمامه بالبناء الفكري واللّغوي لهذه المقطوعة، ودوره في ترابطها، فمن العبارات التي يستعملها في تحليله¹: "افتتحها الشّاعر بشيء من التّهكم"، "ثمّ وصف الخيل بأنّها مدريّة"، "وليس الخيل كافلة للنّصر إلاّ أن تكون أعنتها في أكف رجال لا يلوون جباههم عن طعان، لذلك أردف هذا البيت بقوله (...)"، "وعزّز هذا البيت بقوله (...). ليدلّ على أنّ خلق الصّبر فيهم وثيق العرا، واسع المدى، وليسوا ممّن يزفون إلى الحروب زفيف النّعام، حتّى إذا طال عليهم أمدها، وكثر ما لاقوه من مكارهها، ضجروا من صحبتها، ومالوا بالسّيوف إلى أغمادها (...)"، "فقصد الشّاعر إلى أن يدلّ على أنّ قومه ليسوا من هذا الصنف، فقال (...)"، ثمّ يأتي إلى آخر بيت من هذه المقطوعة، ويقول: "فأخبر أنّهم كالجند، متأهبون للخوض في غمار الحروب".

¹ - المرجع نفسه: 6/ 20، 21.

والناظر في العبارات التي سقتها: " افتتحها...، ثم وصف، لذلك أردف، وعزّز... ليدلّ...، قصد الشاعر إلى أن يدلّ... " يتأكّد من وعي الرّجل بالبحث في وحدة النصّ وترابط معانيه، ثمّ إنّ البحث في اتّساق النّصوص وإنسجامها ليس غريباً عند الرّجل، ففي أثناء حديثه عن حياة اللّغة العربيّة، بيّن أنّ الأصل في اللّغة العربيّة أن يلاءم بين ألفاظها وجملها متى لاحت المناسبة بينها؛ لكنّ العرب عدلت عن هذا الأصل حينما رأّت أنّ هذا المسلك يوقعها في الحرج.

فكيف يتأتّى لمجموعة من الألفاظ والجمل أن يرصف بعضها بجانب بعض أخذ بعضها برقاب بعضها الآخر دون فصل؛ ولهذا أباحت العرب الفصل حينما لا يكون هناك تعقيد أو التباس. قال: « وكان من حقّ الألفاظ والجمل التي تتناسب معانيها، وتعلّق بعضها ببعض أن يلاءم بينها في السّبك، ولا يفرّق بينها في التّأليف، هذا هو الأصل الذي بنيت عليه العربيّة، إلّا أنّهم لم يغفلوا في ذلك؛ لأنّهم يوقعوا ألسنتهم في حرج، فأباحوا الفصل في مواضع لا يؤثر فيها الفصل تعقيداً، ولا يختلّ به فهم المعنى، وعملوا به في موارد الجمل الاعتراضية على وجه الزّينة، وشبّهوا ما بلغ في الحسن والقبول بحشو اللّوزينج¹».

ثمّ يواصل كلامه في المنحى نفسه، مبيناً أنّ العرب كرهت أن تلقي الجمل التي يربط بعضها ببعض من جهة المعنى خالية من أدوات الرّبط، هذه الأدوات التي تساهم في تماسك النّصوص وترابطها؛ لأنّ الحكمة تستدعي جودة السّبك وحسن التّأليف، يقول: « ثمّ نظر العرب إلى الجمل تستقلّ كلّ واحدة منها بنفسها، فوجدوها تارة تتناسب، ويتشبّث بعضها ببعض من جهة المعنى، فليس من الحكمة وجودة التّصرّف أن تلقى منثورة لا يراعى فيها جانب

¹ - محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 6/137.

المعنى، وتستأنف واحدة بعد أخرى، فأعملوا حروف العطف وسائط في وصل الجمل ونظمها في سمط المناسبة؛ لتكون أجزاء الكلام متماسكة¹.

وقاده الحديث في الوصل إلى الحديث في الفصل، يقول: « وتارة تنقطع الجملة الثانیة عن الجملة قبلها، ولا يتّصل حديثها، بحديثها، سوى أنه إتفق الجمع بينهما في الإخبار، وفي هذا الموضع يجب الفصل بين الجملتين، فلو ضمّ المتكلم الجملة الأخيرة إلى الجملة السابقة بعطف، كان بمنزلة من عمد إلى جواهر غير متناسبة في المقدار، ولا يشبه بعضها بعضا في الشّكل، وركبها في نظام واحد² ».

والحديث في الفصل لم يمنع العرب من الإغضاء عن شرط المناسبة متى دعاهم اللّطف والأدب إلى ذلك، فوصلوا بين الجمل التي لا مناسبة بينها، إهتماما بالسّامع الذي يلقي إليه الخطاب، وخوفا من أن يتبادر إلى ذهنه خلاف مقصود المتكلم، يقول: « ودعاهم اللّطف ورعاية الأدب في الخطاب إلى الإغضاء عن شرط المناسبة، فأدمجوا حرف العطف بين جملتين ليس بينهما صلة مناسبة إذا كرهوا أن يسبق إلى ظنّ السّامع خلاف ما يراد منهما لولا واسطة حرف العطف؛ كقولهم: لا، وأيدك الله³ ».

والإهتمام بالفصل والوصل مسألة ضاربة بجذورها في تاريخ العلوم العربيّة، تحدّث عنها علماء اللّغة والأدب؛ لأنّها من دلائل حكمة أساليب العربيّة، فمن أقدم النّصوص التي تنبّه إلى أهميّة هذه المسألة ما ذكره الجاحظ: « قيل للفارسيّ: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل⁴ »، ويقول الشّيخ، مبينا أهميّة هذين البابين عند العرب: « فوضع الفصل والوصل

1 - محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 137/6.

2 - المرجع نفسه: 137/6.

3 - المرجع نفسه: 137/6.

4 - الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمّد هارون، (د.ط.)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: (د.ت): 1 / 77.

بين الجمل على هذا الوجه وبناء حكمهما على اعتبار المناسبة، وما يقتضيه أدب الخطاب؛ ممّا يوضع في ميزان العربيّة، ويعدّ من دلائل الحكمة في وضع أساليبها. ويظهر ممّا ذكر الجاحظ في كتاب "البيان والتبيين" أنّ الفارسي سئل، فقيل له: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل والوصل، أنّ لغة الفارسيّة تعلقًا بهذا الباب¹.

وهذا الذي ذكرته من قبل في حكمة وضع أساليب العربيّة، والأصل الذي بنيت عليه، ودواعي العدول عن هذا الأصل والحكمة في ذلك، يدفعني إلى البحث في المسائل ذاتها في أساليب القرآن الكريم، منطلقًا من آراء الشّيخ محمّد الخضر حسين، يقول في مقال ينشره تحت عنوان "بلاغة القرآن": « يصل الكلمة بما يلائمها، ويعطف الجملة على ما يناسبها، ويضع الجملة المعارضة بين الكلمتين المتلائمتين، أو الجملتين المتناسبتين، فترى الكلمتين أو الجملتين مع الجملة المعارضة بينهما كالبناء المحكم المتلائم الأجزاء، فلا يكاد الفكر يشعر بأنّه إنقطع بالجملة المعارضة عن الكلمة الأولى، أو الجملة، ثمّ عاد إلى كلمة أو جملة مرتبطة بها ارتباطًا وثيقًا² ».

وأما في متانة نظم القرآن الكريم فيقول فيها: « بلغت الغاية التي ليس وراءها مطّلع، فلا يمكنك -وأنت العارف بقوانين البيان، الناظر في منشآت البلغاء بإمعان- أن تشير إلى جملة من جملة، وتقول: ليتها جاءت على غير هذا الوضع، أو تشير إلى كلمة من كلمه، وتقول: لو استبدل بها كلمة أخرى، لكانت الجملة أشدّ إنسجامًا، وأصفى ديباجة³ ». والنصّان اللذان سقتهما من قبل يشيران إلى:

1 - محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 138/6.

2 - المرجع نفسه: 7/3.

3 - المرجع نفسه: 7/3.

- أنّ كلمات القرآن الكريم وصل بعضها ببعض، للملاءمة بينها، فلا يمكن للعارف بقوانين البيان أن يقول: لو كانت هذه الكلمة مكان الأخرى لكان أفضل. ولو استبدلت هذه بتلك لكان أشدّ إنسجاما.

- وأن القرآن الكريم يعطف الجملة على التي سبقتها؛ لوجود مناسبة جامعة بينها، ولا تظهر هذه المناسبة الجامعة بين الجمل المعطوفة إلا إذا نظرنا إلى المعاني، ودققنا النظر فيها وعرفنا المناسبة المسوّغة لعطف هذه الجملة على تلك، ناظرين إلى المسند والمسند إليه في الجملتين¹.

وقد تأتي الجملة الاعتراضية بين الكلمتين المتلائمتين، أو بين الجملتين المتناسبتين، مؤدية معاني وظيفية كثيرة، منها: «إفادة الكلام تقوية وتسديدا أو تحسينا»²، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَقُولُوا﴾ (البقرة: 24) قال الشيخ محمّد الخضر حسين: «جملة معترضة بين الشرط ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ والجزاء ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾، جاءت لتأكيد عجزهم عن معارضته؛ فإنّ في نفيها في المستقبل بإطلاق تأكيدا لنفيها في الحال. وفي هذه الجملة معجزة من نوع الإخبار بالغيب؛ إذ لم تقع المعارضة من أحد أيّام النبوّة وفيما بعدها إلى هذا العصر»³، وفي قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: 72) قال: «والجملة معترضة بين قوله: ﴿فَادْرَأْتُمْ فِيهَا﴾، وقوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾، والجملة المعترضة (...). تجيء تحلية يزداد بها الكلام البليغ حسنا. وفائدة هذه الجملة: إشعار المخاطبين -بل أن يسمعوا ما أمروا بفعله لغظهار أمر القتل- بأنّ الحقيقة ستجلي لا محالة»⁴.

¹ - للإطلاع على هذه المسألة؛ أي النظر في علاقة المسند والمسند إليه في الجملتين المعطوفتين.

ينظر: الدكتور محمّد أبو موسى: دلالات التّركيب -دراسة بلاغية- (د.ط)، القاهرة: 1997: 350.

² - ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق ح. الفاخوري، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت: 1411هـ- 1991م: 1/ 21.

³ - محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 1/ 48.

⁴ - محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 1/ 133.

وللوقوف على ملامح هذا التفكير، في البعد الذي أريد مساءلته، صار أمراً ملحقاً بالبحث عنه في الجانب التطبيقي؛ لنتأكد من انعكاس هذا التفكير في تطبيقات الرجل في تراثه، ودارس هذا التراث يقع نظره أولاً على كتاب (أسرار التنزيل)، هذا الكتاب الذي ضمّ بين دفتيه تفسيراً لسورة الفاتحة، واثنى عشرة ومائتي آية، من السور التالية: البقرة، وآل عمران، والأنفال، ويونس، والحجّ، وص، منها: ثلاث وتسعون ومائة آية من سورة البقرة.

وغير خافٍ على الباحثين اليوم أنّ الكثير من الدارسين في أثناء تطبيقاتهم لقضايا علم النصّ يتخذون القرآن الكريم أنموذجاً، وسورة البقرة منطلقاً¹؛ ومسلكهم هذا له ما يبرره، فالسورة من أطول السور القرآنيّة، اشتملت على الضّرورات الخمس ودعت إلى المحافظة عليها، وأنت على معظم الأحكام التشريعيّة من عقيدة وعبادة ومعاملات، وأخلاق، وقضايا الأسرة من زواج وطلاق وعدّة، فهي «سورة مترامية أطرافها»²، متنوّعة قضاياها الناظر فيها يتساءل أين يكمن السرّ في اتّساق وإنسجام هذه القضايا المتنوّعة؟ ولكنّ الذي تدبّر معانيها تحقّق من أنّها «كلام واحد يتعلّق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويتراعى بجملته على غرض واحد، كما تتعلّق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة»³.

¹ ينظر مثلاً: الدكتور عمر أبو خرمة: نحو النصّ نقد النظرية... وبناء أخرى، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الأردن: 1425هـ-2005م.

الدكتور محمّد الخطّابي: لسانيات النصّ مدخل إلى إنسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، الدار البيضاء المغرب: 2006م. (الفصل السابع).

الدكتور محمّد خان: لغة القرآن الكريم -دراسة لسانية تطبيقية في سورة البقرة.

الإتساق والإنسجام في القرآن الكريم. رسالة دكتوراه، الطالب مفتاح بن عروس، جامعة الجزائر.

وهذا لا يعدم من وجود من تناول سور أخريات:

ينظر مثلاً: محمّد بن سعد الذّبل: النّظم القرآني في سورة الرّعد، عالم الكتب، (د.ط)، الأردن: (د.ت).

² الطاهر ابن عاشور: التّحرير والتّوير، مؤسّسة التّاريخ العربي، الطبعة الأولى، بيروت: 1420هـ-2000م: 200.

³ محمّد عبد الله درّاز: النّبأ العظيم، دار القلم، (د.ط)، الكويت: (د.ت): 195.

ولهذا سأكون في هذا الفصل واقفا عند الخطاب التفسيري لدى الشيخ محمد الخضر حسين، باحثا فيه عن طريقته في إثبات اتساق السورة وإنسجامها وترابط أجزائها بطريقة تنبئ على أنّ آياتها أخذ بعضها برقاب بعض في شكل متناسق ومتراصّ، فهل كان الرّجل على وعي تامّ، وهو يفسّر هذه الآيات بهذا الترابط والتلاحم بين آيات هذه السورة؟ كيف كان ينتقل من آية إلى أخرى، ومن مجموعة آيات إلى مجموعة أخرى، ومن قصّة إلى أخرى، ومن سياق إلى سياق آخر؟ ما الوسائل التي كان يستعملها لإثبات هذا الاتساق والإنسجام؟

والناظر في هذا الخطاب التفسيري الخاصّ بسورة البقرة يقع نظره أولا على تلك الآليات التي تجعل من هذه السورة كلّا واحدا متنسقا ومنسجما؛ ولهذا سأقف عند الآليات التي وظّفها الرّجل؛ لتحقيق هذا المبتغى. فما الآليات التي انتبه إليها، وكيف وظّفها في خطابه التفسيري؟. كنت قد أشرت من قبل إلى أنّ الرّجل، وهو يتحدّث عن وجوه الإعجاز، بأنّه لم يرغب عن فكره أنّ وحدة النسق القرآني وجه من وجوه هذا الإعجاز.

2- من آليات وحدة النسق القرآني في الخطاب التفسيري:

أ- على مستوى التماسك الدلالي:

1- المناسبة بين الآيات:

يعدّ علم المناسبة من العلوم التي لها إتصال وثيق بما يسمّى بالتماسك الدلالي، تنبّه إليها علماءنا، فذكروها في مصنّفاتهم النظريّة، يقول برهان الدّين بن عمر البقاعي (ت 885هـ) في كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور): « فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال »¹،

¹ -برهان الدّين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، بيروت: 1415هـ-1995م: 5 (مقدّمة المؤلّف).

ويقول بدر الدين الزركشي (ت794هـ) في كتابه (البرهان في علوم القرآن)، وهو يتحدّث عن دور المناسبة في التماسك النصّي في: « جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء »¹، ونقل السيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) عن الإمام فخر الدين الرازي أنّ « أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط »².

واستثمروها في تطبيقاتهم باحثين عن علل ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره، فهذا جلال الدين السيوطي يؤلّف كتابا تحت عنوان (تناسق الدرر في تناسب السور)، يقول، وهو يحدث عن سورة البقرة: « فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم (...) فأوجب الحجّ في آل عمران، وأمّا في البقرة فنذكر أنّه مشروع، (...)، وكان خطاب النصارى في آل عمران، كما أنّ خطاب اليهود في البقرة أكثر؛ لأنّ التّوراة أصل، والإنجيل فرع لها »³.

ثمّ نحا المفسّرون المنحى نفسه؛ لينبثوا تناسق الآيات والسور، فهذا الرّمخشريّ في تفسيره لم يغب عن فكره، وهو يفسّر السور القرآنيّة على أن يثبت هذا التّلاحم والتّماسك بين أي السورة الواحد، وقد يضطرّه المقام إلى ربط هذه الآيات بآيات من سورة أخرى، ففي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 21)، أحسّ بأنّ هناك انتقال من الحديث عن الفرق الثّلاث إلى نداء النّاس، وهو انتقال يحتاج إلى البحث عن العلاقة بين هذه الآية وما سبقها من آيات، فقال: « لمّا عدّد الله تعالى فرق المكلفين من

¹ -بدر الدين محمّد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، (د.ط)، بيروت: 1391هـ: 62/1.

² -جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق طه عبد الرّؤوف سعد، المكتبة التّوفيقيّة، (د.ط)، القاهرة: (د.ت): 261 / 3.

³ -جلال الدين السيوطي: تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت: 1406هـ-1986م: 63.

المؤمنين والكفار والمنفقين، وذكر صفاتهم وأحوالهم ومصارف أمورهم، وما أختصت به كلّ فرقة (...). أقبل عليهم بالخطاب، وهو الالتفات المذكور عند قوله ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفتحة: 5). وهو فنّ من الكلام جزل فيه هزّ وتحريك من السّامع»¹.

وإذا رحنا نبحت في هذه المسألة عند المحدثين، ألفيناها غير غائبة في الفكر اللغوي العربيّ المعاصر، فالباحثون في لسانيّات النصّ دائمو التّفكير في الآليات التي تجعل النصّ متّسقة ومنسجمة، ومترابطة ومتماسكة؛ وإذا سلك هؤلاء المسلك التّطبيقي كان النصّ القرآنيّ حاضرًا²؛ ولهذا بحثوا في تناسب الآيات والسّور القرآنيّة³، وعدّ بعضهم البحث في المناسبات علما من العلوم الدّقيقة، يقول مصطفى مسلم: «المناسبات بين سور القرآن الكريم أو بين الآيات في السّورة الواحدة من العلوم الدّقيقة التي تحتاج إلى فهم دقيق لمقاصد القرآن الكريم، وتذوّق لنظم القرآن الكريم وبيانه، وعلى معايشة جوّ التنزيل، وكثيرا ما تأتي إلى ذهن المفسّر على شاكلة إشراقات فكريّة أو رويّة»⁴.

ولم تكن المسألة نفسها غائبة عند لغويّ ومفكّري عصر النّهضة، وخاصّة في أثناء تفسيرهم القرآن الكريم⁵. إذا كيف نظر الشّيخ محمّد الخضر حسين إلى مسألة المناسبة بين آيات سورة

1 - الزّمخشري: الكشاف: 96/1.

2 - ينظر مثلا: الدّكتور فريد حيدر: إنساق النصّ في سورة الكهف، مكتبة زهراء الشّرق، (د.ط)، القاهرة: 2004م. الدّكتور مصطفى حميدة: أساليب العطف في القرآن الكريم، الشركة العربيّة للنشر، الطّبعة الأولى، لوانجمان: 1999م.

الدّكتور صبحي إبراهيم الفقي: علم اللّغة النّصي بين النّظريّة والتّطبيق -دراسة تطبيقيّة على السّور المكيّة، دار قباء للطّباعة والنّشر، الطّبعة الأولى، القاهرة: 1421هـ-2000م.

3 - ينظر مثلا: الدّكتور محمّد الخطّابي: لسانيّات النصّ مدخل إلى إنسجام الخطاب، المركز الثّقافي العربيّ، الطّبعة الثّانيّة، الدّار البيضاء المغرب: 2006م: 193.

4 - الدّكتور مصطفى مسلم: مباحث في التّفسير الموضوعي، مطبعة المعارف، الطّبعة الأولى، القاهرة: 2009م: 61.

5 - وهذا ما ظهر جليًا في التّحرير والتّنوير للطّاهر ابن عاشور، وفي ظلال القرآن للسّيّد قطب وفي أسرار التّنزيل لمحمّد الخضر حسين.

البقرة؟. الواقف على كتاب (أسرار التنزيل) يجد في هذا الخطاب التفسيري إهتمام بالمناسبة بين الآيات؛ ولنثبت هذا التناسب من منظور الشيخ محمد الخضر حسين، نقاربه في النقاط الآتية:

أ-التناسب بين الآيات على سبيل الإستشراق لما يأتي بعدها:

يقول الشيخ محمد الخضر حسين في قوله تعالى ﴿الم﴾ (البقرة: 1): «وتصدير السورة بمثل هذه الأحرف المقطعة يجذب أنظار المعرضين عن إستماع القرآن حين يتلى عليهم، إذ يطرق أسماعهم لأول التلاوة ألفاظ غير مألوفة في مجاري كلامهم، وذلك مما يلفت أنظارهم؛ ليتبينوا ماذا يراد منها، فيستمعوا حكما وحججا قد تكون أسباب هدايتهم»¹. فأول الآية في سورة البقرة ﴿الم﴾ تجذب هذه العقول حينما تطرقها حروف من جنس ما تعرفه؛ لكن تركيبها وتأليفها مما لم تتعود عليه هذه العقول؛ ولهذا تستشرف لما يأتي بعد هذه الحروف المقطعة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ (البقرة: 67-73) يقول: «وهذه الواقعة، واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها، جرت قبل أمرهم بذبح البقرة، وإن وردت في الذكر بعده، وقد نبهنا على أنّ تقديم الأمر بذبح البقرة في الذكر مجردا عن الإشعار بواقعة أمر القتل؛ لتتشوّف نفس السامع إلى ماذا يقصد من ذبحها، فيقع عند ذكره موقع ما تهتمّ به، شأن ما تتلقاه عند إستشراقها إليه»².

ب-التناسب بين الآيات على سبيل التّضادّ³:

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 1/ 15، 16.

² -المرجع نفسه: 1/ 132.

³ -وقد أشار إلى هذه المسألة محمد الخطّابي في أثناء وقوفه على كتاب (البرهان في علوم القرآن) للزركشي.

ينظر: الدكتور محمد الخطّابي: لسانيات النصّ مدخل إلى إنسجام الخطاب: 194.

يقول الشيخ محمّد الخضر حسين في أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: 6): « اشتملت الآيات السّالفة على وصف حال المتّقين، وبيان ما ينالون من هدى وفلاح، والشّأن أن تتشوّف النفوس عند سماع تلك الآيات إلى وصف أصدادهم، وبيان مصيرهم، وهم فريقان: الفريق المجاهر بكفره، والفريق الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام¹، فالرجل يجعل المناسبة بين الآيات مبنية على التّضادّ.

ج-التّناسب بين الآيات على سبيل إضافة أوصاف جديدة على أوصاف سابقة:

ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (البقرة: 11-16)، يقول: « وصفت هذه الآيات المنافقين بثلاث قبائح، مضافة إلى ما وصفتهم به الآيات السّابقة من الكذب والخداع، وهي: الفساد، والسّفه، والاستهزاء بالمؤمنين²».

د-المناسبة بين الآيات بالإعتماد على السّياق الخارجى:

وقف الرّجل عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 26-29) إعتد في مناسبة هذه الآيات بما قبلها على سبب النزول، منطلقا من هذا الأثر، و« أن هذه الآيات نزلت ردّا على اليهود؛ حيث أنكروا أن يضرب الله الأمثال بالمحقّرات، كالذّباب والعنكبوت³، وقال: « ومناسبة هذه الآيات لما قبلها على مقتضى هذا الأثر: هي أنّ الله تعالى بعد أن نفى الرّيب عن القرآن بقوله ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ونبّه للدليل على إعجازه بقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾، أشار إلى دفع شبهة أوردها الكفّار قدحا

¹ -محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 1 / 22.

² -المرجع نفسه: 1 / 29.

³ -محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 1 / 51، 52.

في كونه وحيا من الله، وهي أنّ القرآن ذكر فيه الذباب والنمل والعنكبوت، ولا يليق بكلام الله أن تذكر فيه هذه المحقرات»¹.

هـ-التناسب بين الآيات في مجال الأحكام:

ففي آخر الآيات التي يفسرها من قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِةِ﴾ إلى ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 189-193) يقول: «بين الله تعالى في الآيات السابقة أحكاما عملية، منها: صيام شهر رمضان، وهو أي: الصيام يتضمّن النهي عن أكل الطّعام في أيام ذلك الشهر، ولو كان المأكول حلالا، ومن راض نفسه عن الإمتناع من أكل الحلال في نحو ثلاثين يوما نهارا من السنة، صار مستعدّا لأن يمتثل النهي عن أكل الحرام في جميع حياته، فكان المقام بعد ذكر شرع الصيام مناسباً للنهي عن أكل المال بغير حقّ في جميع أيام حياته»².

2-التناسب بين ألفاظ الآية الواحدة:

وفي هذه المسألة سأركّز على المناسبة بين ألفاظ الآية الواحدة، ففي قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 13) يقول مفسرا هذه الآية: «وإنما قال في الآية السابقة: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾، وقال في هذه الآية ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنّ الآية السابقة وصفتهم بالإفساد، وهو من المحسوسات التي تدرك بأدنى نظر، فيناسبه نفي الشعور الذي هو الإدراك بالمشاعر؛ أي الحواس، أمّا هذه الآية، فقد وصفتهم بالسّفه، وهو ضعف الرّأي، والجهل بالأمر؛ وهذا لا يدركه الشخص في نفسه إلا بعد نظر وإمعان فكر، فيناسبه نفي العلم»³.

¹ -المرجع نفسه: 1/ 52.

² -المرجع نفسه: 1/ 351.

³ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 1/ 31.

3- في ترتيب الخطاب:

قبل البدء في الحديث عن مسألة الخطاب القرآني من حيث ترتيب موضوعاته، وتنظيمها، وتماسكها أشير إلى العمل الذي قام به محمّد الخطّابي يستوضح فيه هذه المسألة في كتابه (لسانيّات النصّ مدخل إلى إنسجام الخطاب)، مركّزا فيها على ما قام به الرّمخشريّ وفخر الدّين الرّازي من القدماء، والطّاهر ابن عاشور من المحدثين، وهذا المسلك يدفعنا للبحث في ذات المسألة عند الشّيخ محمّد الخضر حسين. فهل كان الرّجل على وعي تامّ بالمسألة؟ ما العبارات التي وظّفها في أثناء تفسيره، وتشير إلى أنّ الرّجل لم تعب عنه هذه المسألة؟

الرّجل دائم الحديث عن ترابط الخطاب القرآني وتنظيمه، وترتيب آياته، وإذا وقف الباحث عند تفسيره لآيات المائة والثلاث والتّسعين من سورة البقرة أدرك أنّ الشّيخ لم يغب عن فكره في خطابه التفسيريّ البحث في المسألة¹؛ والسؤال الذي يفرض نفسه هنا، كيف قسّم الشّيخ محمّد الخضر حسين هذا الخطاب متى علمنا أنّه نشره في مجلة "لواء الإسلام" ابتداء من العدد الثّاني من السّنة الأولى إلى العدد الثّاني عشر من السّنة الرّابعة، وكيف كان يربط موضوعات الخطاب السّابق بموضوعات الخطاب اللاحق؟

قسّم الشّيخ المائة والثلاث والتّسعين آية بالطريقة الآتية:

الآيات	رقمها
من ﴿الم﴾ إلى ﴿المفلحون﴾.	1-5 (خمس آيات)

¹ -وهنا أشير إلى أنّ الرّجل نشر هذا التفسير في مجلة "لواء الإسلام" في أعداد متتابعة ابتداء من العدد الثّاني من السّنة الأولى إلى العدد الثّاني عشر من السّنة الرّابعة، وهذا التّباعد بين الأعداد يجعلني أتساءل عن الطريقة التي كان ينتهجها الرّجل ليجعل من هذا الخطاب كلّاً مترابطاً.

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين .

من ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾	6-10 (خمس آيات)
من ﴿وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إلى ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾	11-16 (ست آيات)
من ﴿مَثَلُهُمْ﴾ إلى ﴿قَدِيرٌ﴾	17-20 (أربع آيات)
من ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ إلى ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾	21-25 (خمس آيات)
من ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ إلى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾	26-29 (أربع آيات)
من ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ إلى ﴿تَكْتُمُونَ﴾	30-33 (أربع آيات)

من ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ إلى ﴿هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾	34-37 (أربع آيات)
من ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾ إلى ﴿هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾	38-39 (آيتان)
من ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى ﴿مَعَ الرَّاٰكِعِينَ﴾	40-43 (أربع آيات)
من ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ إلى ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾	44-48 (خمس آيات)
من ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ إلى ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾	49-53 (خمس آيات)
من ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ إلى ﴿يُظْلِمُونَ﴾	54-57 (أربع آيات)
من ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ إلى ﴿مُفْسِدِينَ﴾	58-60 (ثلاث آيات)
من ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾ إلى ﴿وَلَا هُمْ يَخْرَتُونَ﴾	61-62 (آيتان)

من ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ إلى ﴿تَسُرُّ النَّاظرِينَ﴾	63-69 (سبع آيات)
من ﴿قَالُوا أَدْءُ﴾ إلى ﴿تَعْمَلُونَ﴾	70-74 (خمس آيات)
من ﴿أَفْتَطْمَعُونَ﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾	75-79 (خمس آيات)
من ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ إلى ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾	80-83 (أربع آيات)
من ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ إلى ﴿يُنصَرُونَ﴾	84-86 (ثلاث آيات)

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين .

من ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ إلى ﴿مُهَيِّنٌ﴾	87-90 (أربع آيات)
من ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إلى ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾	91-95 (خمس آيات)
من ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ إلى ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾	96-100 (خمس آيات)

من ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ إلى ﴿يَعْمَلُونَ﴾	101-103 (ثلاث آيات)
من ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلى ﴿السَّبِيلِ﴾	104-108 (خمس آيات)
من ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ إلى ﴿يَحْزَنُونَ﴾	109-112 (أربع آيات)
من ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ إلى ﴿عَلِيمٌ﴾	113-115 (ثلاث آيات)
من ﴿وَقَالُوا﴾ إلى ﴿وَلَا نَصِيرِ﴾	116-120 (خمس آيات)
من ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ إلى ﴿الظَّالِمِينَ﴾	121-124 (أربع آيات)
من ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾ إلى ﴿الرَّحِيمِ﴾	125-128 (أربع آيات)
من ﴿رَبِّنَا وَابْعَثْ﴾ إلى ﴿يَعْمَلُونَ﴾	129-134 (ست آيات)

من ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا﴾ إلى ﴿الْعَلِيمِ﴾	135-137 (ثلاث آيات)
من ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ إلى ﴿يَعْمَلُونَ﴾	138-141 (أربع آيات)
من ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ إلى ﴿سَطْرَهُ﴾	142-144 (ثلاث آيات)
من ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ إلى ﴿تَعْمَلُونَ﴾	144-149 (ست آيات)
من ﴿وَمِنْ حَيْثُ﴾ إلى ﴿لَا تَشْعُرُونَ﴾	150-154 (خمس آيات)
من ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ إلى ﴿الرَّحِيمِ﴾	155-160 (ست آيات)
من ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى ﴿يَعْقِلُونَ﴾	161-164 (أربع آيات)

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين .

من ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ إلى ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾	165-169 (خمس آيات)
من ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ إلى ﴿بَعِيدٍ﴾	170-176 (سبع آيات)
من ﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾ إلى ﴿الْمُنْتَقُونَ﴾	177 (آية واحدة)
من ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ إلى ﴿تَتَّقُونَ﴾	178-179 (آيتان واحدة)
من ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ﴾ إلى ﴿عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾	180-182 (ثلاث آيات)
من ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ إلى ﴿تَشْكُرُونَ﴾	183-185 (ثلاث آيات)
من ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ إلى ﴿تَعْلَمُونَ﴾	186-188 (ثلاث آيات)
من ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ إلى ﴿الظَّالِمِينَ﴾	189-193 (خمس آيات)

وأول ما يلفت انتباهي تقسيم الآيات المراد تفسيرها من آية واحدة إلى سبع آيات كحدّ أقصى لم يتجاوزه الرّجل، ونشر هذا التفسير في مقالات متفاوتة زمنياً، ولكن السؤال الذي يطرح على هذا المستوى هو كيف كان يربط تفسير الآيات الآتية بالآيات التي سبقتها؟. كلّما شرع الرّجل يفسّر في الآيات الجديدة مهّد غالباً بهذه العبارات: "إشتملت الآيات السّالفة " " بعد أن وصف الله حال المنافقين في الآيات السّابقة " " لما ضرب الله المثلين السّابقين " " بعد أن إمتنّ الله تعالى على البشر في الآيات السّابقة " " دلّت الآيات السّابقة " " أخبر الله في الآيات السّابقة " " تضمّنت الآيات السّابقة " " بين الله في الآيات السّابقة "، وهذه العبارات التي سقتها من مظانّها تدلّ على وعي الرّجل بمسألة ربط أي الخطاب القرآني بعضها ببعض.

وقد يعيد ربط الخطاب الذي يشرع في تفسير الآن بعشرين آية سابقة تبدأ من أول السّورة، وهذا حين أحسّ أنّ الخطاب تغيّر بالانتقال إلى نداء النّاس بعد أن كان الخطاب خاصّاً بالفرق

الثلاث، المؤمنون والكافرون والمنافقون، وهذا حين تفسيره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 21-25)، فقال: «أفتحت سورة البقرة بذكر القرآن المجيد، ووصفه بأنه كتاب لا يتطرق إليه الريب في حال، واتصل بهذا آيات في تقسيم الناس إلى مؤمنين به، وكافرين مجاهرين، وكافرين منافقين، فكان من المناسب إلى هذا التقسيم توجيههم إلى الأمر الذي خلقوا من أجله، وهو عبادته تعالى دون ما سواه»¹

وقد تلجئه الضرورة إلى استعمال هذه العبارات جميعها في فقرة واحدة: "تضمنت الآيات السابقة " وإنجر الحديث عنها " وأردف ذكر " ووصل هذا "، وهذا ما نلمسه في أثناء تفسيره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: 54-57)، يقول: «تضمنت الآيات السابقة تذكير بني إسرائيل بنعم أنعم الله بها عليهم، وإنجر الحديث عنها إلى ذكر جريمة من أكبر جرائمهم، وهي إتخاذ العجل إلهًا يعبدونه من دون الله (...)، وأردف ذكر تلك الجريمة الكبرى بذكر نعمة هي من أعزّ نعمة تعالى، وهي العفو إذ ندموا ولاذوا بالتوبة (...)، ووصل هذا بنعمة هي مطلع الهداية، والطريق المبلغ للسعادة، وهي إنزال التوراة على موسى-عليه السلام- (...)، ثم عاد الحديث في نظم الآيات التي بين أيدينا إلى تذكير بني إسرائيل بتلك الموبقة، موبقة الردّة؛ وبما أضافوا إليها من مساوئ أخرى»².

وقد يضطره تداخل ترتيب الخطاب من حيث تقديم بعض أجزائه عن بعضها الآخر إلى البحث عن الاتساق بين هذه الأجزاء، والسّر في تقديم جزء عن آخر، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 67-73)، يقول: «وابتدا القرآن القصّة بالأمر بذبح بقرة، ولم يقل مثلاً: وإذ تنازعتم في القتل، أمرناكم بذبح البقرة؛ لتقبل النفوس على تعرّف ماذا يراد من ذبح البقرة، وتتشوق إلى ما يرد من

¹ -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 42 / 1.

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 101، 102.

الخبر المتّصل به، وهو أمر القتل، فيقع منها موقع الأخبار المتلقّاة بعد التّشوّق إليها، ويأخذ منها مأخذاً وثيقاً¹.

4- في العلاقات بين الآيات:

إهتمّ الشّيخ محمّد الخضر حسين بالبحث عن العلاقات التي تربط الآيات بعضها ببعض، فإذا وقف عند الآية نظر في علاقتها بالآية التي قبلها أو بعدها، أو بمجموعة من الآيات تسبقها، فمن العبارات التي يستعملها في توضيح هذه العلاقات ما يلي: "هذا علّة لما تضمّنته الجملة السّابقة" "هذه الجملة واقعة موقع الدّليل على ما تضمّنته الجملة السّابقة" "هذه الجملة واردة مورد التّعليل لقوله تعالى" "جاءت هذه الجملة مقرّرة لما تضمّنته الجملة السّابقة" "لما ذكر في الجملة السّابقة أنّه تعالى بيّن الآيات لقوم يوقنون، أردفها بهذه الجملة" "هاتان الجملتان واردتان مورد البيان للجملة السّابقة"². وحثّى نقف على حقيقة العلاقات بين الآيات من منظور الرّجل ارتأيت الاستعانة بهذا الجدول التّوضيحي³:

الآية	نوع العلاقة	رأي الشّيخ
﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ (الآية: 5)	علاقة البيان	هذا كلام مستأنف لبيان أنّ أولئك المتّقين في المنزلة العليا من الكمال الإنساني.

¹ -المرجع نفسه: 1/ 127.

² -وعبارة "هذا بيان" واردة في هذا الخطاب التفسيري كثيرة.

ينظر: محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 1/ 20-23-2425-27-95-127-136-140-176-192-198-203-207-221-225-240-243-260-298-300-303-319-338.

³ -لم أسرد الآيات جميعها التي احتوت على هذه العلاقات، وإنّما ذكرت عدداً من خلاله نتصوّر موقف الرّجل من هذه المسألة.

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين .

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الآية: 6)	علاقة التفسير	جملة مفسّرة لمعنى الجملة قبلها، وهو استواء إنذارهم وعدم إنذارهم.
﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (الآية: 37)	علاقة التعليل	هذه الجملة واردة مورد التعليل.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ (الآية: 48)	حمل المطلق على المقيد	يصحّ أن تحمل الآية المطلقة على أنها واردة في النفوس الكافرة، وتفهم الآيات الأخرى على صحّة قبول الشفاعة للمؤمنين إذا أذن الله فيها للشافعين.
﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ (الآيات: 49-53)	علاقة التفصيل بالإجمال	ذكر الله تعالى فيما سلف بني إسرائيل بنعمه إجمالاً، وأتبع ذلك ببيان بعض النعم على وجه التفصيل.
﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (الآية: 88)	علاقة السببية	الفاء للدلالة على أنّ ما بعدها متسبّب عمّا قبلها
﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ﴾ (الآية: 102)	دفع التوهم	نسبب في الجملة السابقة إلى السحر الضّرر، ودفع بهذه الجملة توهم أن يكون السحر مضرّاً بذاته
﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ (الآية: 109)	علاقة العلة	هذا علة لما تضمّنته الجملة السابقة من تمنيههم ردّ المسلمين كفّاراً.
﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الآية: 110)	علاقة التأكيد	دلّت الجملة السابقة على أنّ كلّ خير يفعلونه يجدون ثوابه عند الله، وجاءت هذه الجملة لتأكيد ذلك الوعد.

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين .

<p>مَا ادّعى كلّ من الفريقين اليهود والنّصارى أنّه لن يدخل الجنّة إلّا من كان على ملّتهم، جاءت هذه الجملة لمطالبتهم بالدليل على صحّ دعواهم.</p>	<p>علاقة المطالبة بالدليل</p>	<p>﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الآية: 111)</p>
<p>الجملة السابقة نفت أن يدخل غير اليهود والنّصارى الجنّة، فتكون ﴿بَلَى﴾ لإثبات دخول غيرهم فيها، وهم المشار إليهم بقوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾.</p>	<p>علاقة الإثبات</p>	<p>﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ (الآية: 112)</p>

<p>تضمّنت الآيات السابقة تزكية كلّ فريق من اليهود والنّصارى نفسه، وتضليله لغيره على وجه عامّ، وجاءت هذه الآية لبيان تضليل كلّ فريق منها الآخر بوجه خاصّ.</p>	<p>علاقة العموم بالخصوص</p>	<p>﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ (الآية: 113-115)</p>
<p>هذه الجملة واقعة موقع الجواب عمّا شأنه أن يخطر في نفس السّامع من السّؤال عمّا كان من إبراهيم عليه السّلام - عندما تلقّى البشارة بالإمامة العظمى، وهي الرّسالة.</p>	<p>علاقة السّؤال والجواب</p>	<p>﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ (الآية: 124)</p>
<p>هذه الجملة واردة مورد التّقرير والتّأكيد لما تضمّنته الجملة السابقة من ضمان الله تعالى لرسوله الأكرم العصمة من أعدائه.</p>	<p>علاقة التّقرير والتّأكيد</p>	<p>﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الآية: 137)</p>

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمد

الخضر حسين.

<p>أثبتت الجملة السابقة له تعالى الوجدانية، وإثبات الوجدانية يقتضي نفي الشرك في الإلهية، وجاءت هذه الجملة مقررة لما تضمنته الجملة السابقة، فنفت عن الله الشرك صراحة، وأثبتت له مع ذلك الإلهية.</p>	<p>علاقة التقرير</p>	<p>﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (الآية: 163)</p>
<p>هذا بيان لمعنى المساواة في القتل المشار إليها بلفظ القصاص، فالجملة تتمم معنى الجملة السابقة.</p>	<p>علاقة تتمم المعنى</p>	<p>﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ (الآية: 178)</p>

ب- على مستوى السبك النحوي:

1- الإحالة:

تعدّ الإحالة وسيلة من أهمّ الوسائل التي تساهم في تماسك النصّ، وربط أجزائه بعضها ببعض، اعتنى بها المهتمون بقضايا اللغة من نحاة وبلاغيين، وعلماء اللسان؛ لأنّ اللغة نفسها نظام إحالي¹، ووقف عندها المحدثون، وتناولوها في بحوثهم التي اهتمت بلسانيات النصّ، فمحمد الخطّابي يقول: « لا يخفى الدور الذي تقوم به الإحالة، ضميريّة كانت أو إشاريّة، في ربط أجزاء خطاب معين²، وذكر تمام حسن في مقدّمته لكتاب دي بو جراند إلى أنّ »

¹ - ينظر: الأزهر الزناد: نسيج النصّ - بحث في ما يكون به الملفوظ نصّاً، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء: 1993م: 115.

² - محمد الخطّابي: لسانيات النصّ: 173.

الإحالة من وسائل السّبك، وهي تؤديّ إلى إلتحام النصّ من النّاحية المفهوميّة¹. إذا كيف نظر الرّجل إلى هذه المسألة؟ وكيف إستثمرها في أثناء تفسيره لإثبات إتساق النصّ القرآني؟

أ- في الضّمائر:

يعدّ البحث في هذه المسألة من البحوث الهامّة التي تظهر القرآن الكريم خطابا متنسقا ومنسجما، بحثها القدماء وأعاد النّظر فيها المحدثون، ولا تجدني في هذه المسألة باحثا عن الضّمائر جميعها؛ أي الخاصّة بالمتكلّم والمخاطب والغائب، وإنّما سأركّز على ضمير الغائب لسببين إثنين:

أولهما: ضمير الغائب، خلافا لضميري المتكلّم والمخاطب، محتاج إلى مرجع، أو مفسّر يرتبط به؛ لتتضح حقيقة إحالته؛ أي على من يحيلك هذا الضّمير الغائب، فالنّحاة القدماء قدّموا تعليلا لهذا المسلك، فالضميران المتكلّم والمخاطب تفسّرهما المشاهدة أو الحضور، في حين يبقى الضّمير الغائب عاريا من هذه المشاهدة، يقول ابن يعيش: «أعرف المضمرات المتكلّم؛ لأنّه لا يومك غيره، ثمّ المخاطب، والمخاطب تلو المتكلّم في الحضور والمشاهدة»².

ثانيهما: تناول المحدثون هذه المسألة حينما وقفوا أمام الآيات القرآنيّة التي تحوي على ضمائر الغائب، وهذا ما نجده مع طه حسين حينما ألقى محاضراته تحت عنوان: "ضمير الغائب وإستعماله إسم إشارة في القرآن"، ثمّ ردّ عليه الشّيخ محمّد الخضر حسين بمقال تحت عنوان: "حقيقة ضمير الغائب في القرآن الكريم".

تتاولها الرّجل هذه المسألة يوم ألقى الدّكتور طه حسين محاضرة في مؤتمر المستشرقين السّابع عشر بجامعة (أكسفورد) عام 1928م تحت عنوان: "ضمير الغائب وإستعماله إسم

¹ - روبرت دي بوجراند: النصّ والخطاب والإجراء، ترجمة الدّكتور تمام حسان، عالم الكتب، الطّبعة الأولى، القاهرة:

1997م: 33.

² - ابن يعيش: شرح المفصل: 3/ 84، 85.

إشارة في القرآن"، فردّ عليه الرّجل بمقال تحت عنوان: " حقيقة ضمير الغائب في القرآن الكريم"¹، وعنوان المحاضرة والمقال يشيران إلى مسألة مهمّة وخطيرة في الوقت نفسه متى تعلّقت بالقرآن الكريم، فالناظر في الآيات القرآنيّة نظرة سطحيّة يتبادر إلى ذهنه أنّ الضّمائر من حيث عودها على ما تقدّمها فيها مشكل؛ ولكنّ إذا تعمّق في نظره ظهر له أنّ هذه الضّمائر إنّما وضعت في مكانها المناسب، وزادت الآيات أكثر اتّساقاً وانسجاماً.

وهذه المسألة المهمّة والخطيرة أثارها طه حسين حينما ألقى محاضرتة " ضمير الغائب وإستعماله اسم إشارة في القرآن ". إذا من أين إنطلق طه حسين في إثارة هذه المسألة؟ ما الوسائل التي إستعملها لتحقيق هدفه؟ ما النتائج التي توصل إليها، وما قيمتها؟ كيف ناقش الشيخ محمد الخضر حسين آراء طه حسين وأدلّته؟

إنطلق طه حسين من قاعدة نحويّة عزاها إلى النّحاة، تقول: « إنّ ضمير الغائب يجب أن يعود إلى مذكور يتقدّمه لفظاً ورتبة، وأن يطابق هذا المذكور في التذكير والتأنيث، وفي الإفراد والتثنية والجمع، هذه القاعدة شاملة لا يقبل النّحويّون فيها إستثناء، فإن عرض ما يوهّم تأخّر المرجع عن الضّمير، تأولوا، وتكلّفوا لإثبات أنّ التأخير اللفظي لا يستلزم تأخّر الرتبة، وهم - على كلّ حال - لا يقبلون إستثناء في قاعدة المطابقة بين الضّمير ومرجعه»². وهذه القاعدة التي ذكرها طه حسين تتضمّن ما يلي:

أ-وجوب عود الضّمير على مذكور يتقدّمه لفظاً ورتبة، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدْرَنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس: 39)، فحرف الهاء في (قَدْرَنَاهُ) عائد على مذكور قبله (القَمَرَ).

وقد يتقدّم مرجع الضّمير تقدّماً معنوياً، قال تعالى: ﴿فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (النور: 28)، فالضّمير (هو) عائد على الرجوع المفهوم من كلمة (ارجعوا)، وهذا

¹ -ينظر: محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 2/ 79. (الهامش). نشر مقاله عام 1347هـ.

² -محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 2/ 85.

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين . .

المصدر غير مذكور في الجملة؛ لكنّه مصدر متصيّد من الفعل كما أشار إليه طه حسين في النوع الرابع.

ب-وجوب المطابقة بين الضمير ومرجعه، ومن أمثله:

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ (هود:42).

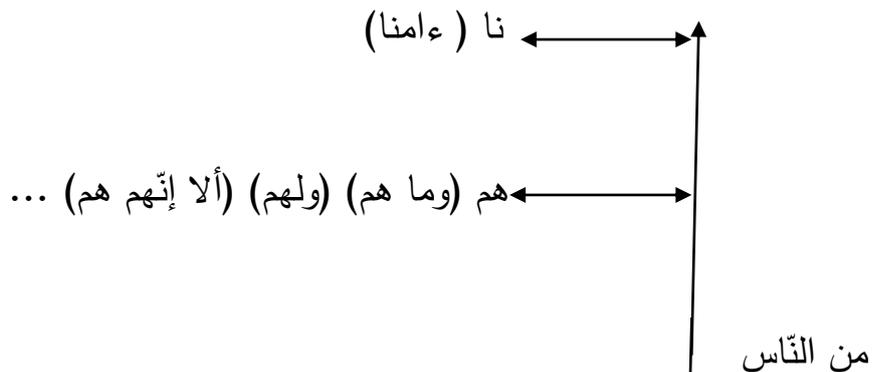
قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ (الكهف:82).

قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ (البقرة:233).

ج-النحويّون لا يقبلون الإستثناء في قاعدة المطابقة بين الضمير ومرجعه.

د-النحاة يتأولون ويتكلّفون متى وجدوا تأخّر المرجع عن الضمير.

وقبل أن أسوق الأمثلة التي نكرها طه حسين أقف عند رأيه متسائلاً هل دراسة الإحالة يتمّ من خلال عزل الجمل القرآنيّة بعضها عن بعض أم لا بدّ من النّظر إلى النصّ القرآني ككلّ موحد؟ فالدارس متى نظر إلى الجملة القرآنيّة التي فيها إحالة بمعزل عن سياقها لن يهدي إلى ما تشير إليه هذه الإحالة إلّا إذا نظر إلى النصّ القرآني على أنّه نصّ واحد، وأضرب هذا المثال؛ لأوضّح هذه النظرة، من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة: 8-15). إنّ الناظر في هذه الآيات يجد ضمائر (نا-هم-نحن-واو الجماعة) كثيرة ومتنوّعة ومتداخلة بحيث يصعب تحديد مرجعها، ولكن بالنّظر إلى الخطاب عامّة يمكن أن يحدّد الكلمة المركزيّة، وهذه التّرسّيمة توضّح المسألة:



(كلمة مركزيّة) ← نحن (إنّما نحن مصلحون) (نحن مستهزون)

← واو الجماعة (يخدعون) (تفسدوا) (قالوا) ...

وأهمّ ما نصل إليه وهو أنّ الضّمائر (نا-هم-واو الجماعة-نحن) على الرّغم من تداخلها إلاّ أنّها تحيل على كلمة مركزيّة، وإحالتها على هذا المركز دلّت عليه النّظرة العامّة للخطاب القرآني، وعلى هذا جاز أن أقول: إنّ نظرة طه حسين إلى هذه الضّمائر داخل هذه الآيات كانت نظرة قد عزلت هذه الآية أو تلك عن الخطاب القرآني ككلّ موحد.

وأسوق هنا الأمثلة التي ذكرها طه حسين وراح يبحث في القرآن الكريم عمّا يطرد والقاعدة التي عزاها إلى النّحويين، فلم يجد إطرادها في تسعة أنواع من الضّمائر، هي¹:

النوع	الآيات	رأيه
الأوّل والثاني والثالث	﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ (هود: 12)	الواو راجعة إلى المشركين من أهل مكّة، وهم لم يذكرُوا، وفاعل افتري راجع إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهو لم يذكر، ومفعوله راجع إلى القرآن، وهو لم يذكر.
الرابع	﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ﴾ (البقرة: 149). ﴿اغْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ﴾	النّحويون يرجعون هذه الضّمائر عادة إلى مصدر متصيّد - كما يقولون - من الكلام السابق.

¹ - محمد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 2 / 79 وما بعدها.

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين .

	<p>لِلتَّقْوَى ﴿ (المائدة: 8). ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال: 73).</p>	
<p>الخامس</p> <p>من القسم الأوّل: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ (النساء: 3) ومن القسم الثاني: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ (الأنعام: 29)</p> <p>الهاء في ﴿مِنْهُ﴾ ظاهرة في الرجوع إلى الصّدقات، ولكنها لا تطابق الصّدقات في الجنس، ولا في العدد. وفي القسم الثاني ضمائر لا ترجع إلى متقدّم، ولكن يفسرها متأخّر لفظا ورتبة.</p>		
<p>السادس</p> <p>الألف في ﴿يَخَافَا﴾ راجعة إلى الرّوجين الذين لم يذكر.</p>	<p>﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ (البقرة: 229)</p>	
<p>السابع</p> <p>الهاء في الآية الأولى راجعة إلى الأرض، وفي الآية الثانية إلى الجنّة التي لم تكرر.</p>	<p>﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ (النحل: 61)</p> <p>﴿فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (الحجر: 34)</p>	
<p>الثامن</p> <p>وأكثر من هذا أنّ عدم المطابقة ليس مقصورا على "من" بل يتجاوزها إلى "الذي"، مع أنّ</p>	<p>﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر: 33)</p>	

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين .

<p>"الذي" مفرد قطعاً، فلا يصحّ أن يرجع الضمير إلى لفظه مرّة، وإلى معناه مرّة أخرى.</p>		
<p>الهاء في ﴿أَنَّهُ﴾ لا ترجع إلى شيء، وهي لا تشير إلى شيء أيضاً.</p>	<p>﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ (الجن: 1)</p>	<p>التاسع</p>

والنتيجة التي ينشدها طه حسين من وراء هذه الدراسة، وهي أنّ النحو غير كاف لتفسير القرآن الكريم، فالضمائر الغيبة الواردة في القرآن الكريم لم تطرد مع تلك القواعد التي استنبطها علماء العربية، فهي، كما يراها طه حسين، قواعد غير متقنة، منها ما يضيق فيسرف في الضيق، ومنها ما يتسع فيسرف في السعة؛ ولهذا فوضع نحو خاصّ بالقرآن الكريم؛ ليطمّ تفسيره أمر ضروري؛ لأنّه سيحقّق منفعتين، أولاًهما أنّ هذا النحو الخاصّ بالقرآن الكريم سيزيل بعض الشكوك التي تراود المستشرقين حين يقرؤون القرآن مستنيرين بالنحو القديم، وثانيهما أنّ هذا النحو القرآني سيكون أساساً صالحاً لنحو جديد للعربية كلّها¹.

ناقش الشيخ محمّد الخضر حسين محاضرة طه حسين في تسع عشرة صفحة، ونظراً لطول هذه المناقشة سأركّز على نقطة واحدة فقط، وهي الوقوف عند حقيقة القاعدة التي عزاها طه حسين إلى النحاة، والتي بنى عليها نتائج قرّرت قصور قواعد النحو العربي في أثناء تطبيقها على القرآن الكريم.

القاعدة التي عزاها طه حسين إلى النحاة تقول: "إنّ ضمير الغائب يجب أن يعود إلى مذكور يتقدّمه لفظاً ورتبة، وأن يطابق هذا المذكور في التذكير والتأنيث، وفي الإفراد والتثنية والجمع، هذه القاعدة شاملة لا يقبل النحويّون فيها استثناء". وقارئ هذه القاعدة تتبادر إلى

¹ - ينظر: محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 2 / 113 - 115.

ذهنه مجموعة من الأسئلة، نحصرها فيما يلي: ما المصدر الذي استقى منه طه حسين هذه القاعدة؟ وإذا كانت المطابقة أصلاً واجبا فهل العربيّ يعدل عن هذا الأصل؟ متى وكيف؟ وهل القواعد جميعها، وعلى رأسها هذه القاعدة، لا تقبل إستثناء؟.

إنطلق الشّيخ محمّد الخضر حسين من الوقوف على حقيقة هذه القاعدة، يقول: « لم توجد في القواعد النّحويّة منذ أن نشأت إلى يوم إنعقد مؤتمر المستشرقين قاعدة تقول: إنّ ضمير الغائب يجب أن يعود إلى مذكور يتقدّمه لفظاً ورتبة، وإنّما قال النّحاة - كما قال ابن مالك في "التسهيل" - : الأصل تقديم مفسّر ضمير الغائب »¹. ووقوف الرّجل عند حقيقة القاعدة مكّنه من إبطال النتائج التي توصل إليها طه حسين؛ لأنّ الأساس الذي بنيت عليه هذه النتائج لم يكن أساساً سليماً، بل لم يكن منطلقاً صحيحاً.

وعلى هذا حاول الرّجل تفنيد حقيقة هذه القاعدة المصنوعة في مؤتمر المستشرقين، كما يصفها، فالنّحاة لا يوجبون عود الضمير على متقدّم في اللفظ والرتبة، بل يجيزون عوده على متأخّر في اللفظ، وهو متقدّم في الرتبة، كما يجيزون عوده على متقدّمه في اللفظ، ورتبته التّأخير، وهم يقبلون الإستثناء في قاعدتهم الصّحيحة، فاستثنوا أبواباً من الكلام نطق فيها العرب بضمائر ترجع إلى متأخّر عنها لفظاً ورتبة، ونظراً لكثرة الشّواهد التي تشير إلى هذه الإستثناءات أدخلها النّحاة في مقاييس اللّغة، والنّاظر في الآيات القرآنيّة يتحقّق من مطابقة الضمير لمرجه².

1 - المرجع نفسه: 85 / 2.

2 - محمّد الخضر حسين: الأعمال الكاملة: 86 / 2، 87.

للإطلاع على مسألة تقديم مرجع الضمير وتأخيره والمطابقة بينهما عند القدماء والمحدثين ينظر مثلاً:

الرّضي: شرح كافية ابن الحاجب: 12 / 3.

أبو البقاء العكبري: إملاء ما منّ به الرّحمان من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، راجعه نجيب الماجدي،

المكتبة العصريّة، الطّبعة الأولى، بيروت: 1423هـ-2002م: 183.

السّيوطي: همع الهوامع جمع الجوامع في علم العربيّة، دار المعرفة للنّشر والتّوزيع، (د.ط)، بيروت: (د.ت): 59 / 1.

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين . .

وبعد أن وقفت عند رأيي الرّجلين في النّقطة التي ذكرتها من قبل، سأحدّث الآن عن وجهة نظر الشّيخ محمّد الخضر حسين في قضايا الضّمير في القرآن الكريم من خلال خطابه التفسيري، مركزاً على ضمير الغائب، وسأوضّح المسألة مستعيناً بهذا الجدول¹:

الآية	الضمير	مرجه	رأي الشّيخ
﴿بَنُورِهِمْ﴾ (الآية: 17)	هم	المستوقد/جنس المسوقد.	قال: ﴿بَنُورِهِمْ﴾، ولم يقل: بنوره، مع أنّ مرجع الضّمير هو ﴿الَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾، وهو بحسب الظاهر مفرد، إمّا لأنّ ﴿الَّذِي﴾ قد يطلق بمعنى الذين، وله شواهد من كلام العرب، ومن القرآن نفسه، أو لأنّ ﴿الَّذِي﴾ أريد منه جنس المستوقد، لا المستوقد بعينه، فصار بمعنى جماعة من المستوقدين.
﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ مُعْتَبِرِينَ﴾	هم	المسمّيات	والضمير في قوله: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ عائد على المسمّيات، وهي مفهومة من قوله: ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، إذ الأسماء لا بدّ لها من

الشّيخ مصطفى الغلاييني: جامع الدروس العربيّة، المكتبة العصريّة، الطبعة الخامسة والثلاثين، بيروت: 1418هـ - 1998م: 1/ 124.

الدكتور عباس حسن: النحو الوافي، دار المعارف، الطبعة الثّانية، مصر: 1963م: 1/ 257.
الدكتور محمّد أسعد النّادري: نحو اللّغة العربيّة، المكتبة العصريّة، الطبعة الأولى، بيروت: 1423هـ - 2002م: 146.
¹ - سأكتفي بذكر مجموعة من الآيات فقط.

<p>مسمّيات، فإذا جرى حديث عن الأسماء، حضر في ذهن السّامع ما هم لازم لها؛ أعني المسمّيات (...)، ودلّ على المسمّيات بضمير جمع الذّكور العقلاء (...). لأنّ في جملة هذه المسمّيات أنواعا من العقلاء: الملائكة، والإنس، والجنّ، ومن الأساليب المعروفة بين فصحاء العرب تغليب الكامل على الناقص.</p>			<p>كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ (الآية): (31)</p>
<p>جاء الضمير في قوله: ﴿وَلَا هُمْ﴾ ضمير جمع، وهو عائذ على نفس في قوله: ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾، والنفس مفردة، ذلك أنّ النفس هنا في معنى: نفوس، وإيضاح هذا أنّ نفسا نكرة واقعة بعد نفي، أعني: (لا) في قوله: ﴿لَا تَجْزِي﴾، والنكرة إذا وقعت بعد نفي تشمل كلّ فرد من أفرادها، فتكون نفس في قوله:</p>	<p>نفس</p>	<p>هم</p>	<p>﴿وَلَا هُمْ يُنصِرُونَ﴾ (الآية): (48)</p>

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين . .

<p>﴿عَنْ نَفْسٍ﴾ متناولة لكل فرد من أفراد النفوس، وبهذا كانت في معنى الجمع، وصحّ أن يعود عليها الضمير الموضوع ليدلّ على أفراد متعدّدة.</p>			
<p>والضمير في قوله: ﴿اضْرِبُوهُ﴾ وتذكيره يعود على النفس، وتذكره مراعى فيه معناها الذي هو الشّخص أو القتل.</p>	النفس	الهاء	﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ (الآية: 73)
<p>والضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُ﴾ عائد على جبريل، وفي قوله: ﴿نَزَّلَهُ﴾ عائد على القرآن المفهوم من سياق النظم. والإكتفاء في الدلالة على مرجع الضمير بما يفهم من سياق الكلام معهود في البلاغة العربيّة.</p>	جبريل القرآن	الهاء الهاء	﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ (الآية: 97)
<p>الضمير في قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ﴾ عائد على الشياطين، أو على اليهود، ويكون الكلام عن الشياطين إنتهى عند قوله:</p>	الشياطين/ اليهود	واو الجماعة	﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ (الآية: 102)

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمد

الخضر حسين .

﴿كَفَرُوا﴾، وتكون جملة ﴿يُعَلِّمُونَ﴾ بيانا لوجه إتباعهم للشياطين المخبر عنه بقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾			
---	--	--	--

الضمير في قوله ﴿يَتَعَلَّمُونَ﴾ عائد على ﴿أَحَدٍ﴾، وعاد عليه ضمير الجمع (واو الجماعة)، وهو في اللفظ مفرد؛ لأنه وارد في سياق النفي، ومن المعروف أنّ الاسم النكرة إذا ورد بعد النفي كان في معنى أفراد كثيرة، فيصحّ أن يعبر عنه بضمير الجمع.	أحد	واو الجماعة	﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (الآية: 102)
أعيدت الضمائر على كلمة (من) في قوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ مفردة، مراعاة للفظها؛ فإنها صورة المفرد، ثمّ أعيدت عليها ضمائر الجمع في قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ مراعاة لمعناها؛	من أسلم وجهه	الضمير الهاء (المفرد)، والضمير هم (الجمع)	﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ (الآية: 112)

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين. .

<p>لأنّه لم يرد منها شخص واحد، وإنّما أريد منها كلّ شخص يتحقّق فيه إسلام الوجه إلى الله.</p>			
<p>يصحّ أن يكون الضّمير في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ عائدا على الفرق الثّلاث، أو على بعضهم. وقد عرفنا من قبل أنّ القرآن يجري على الأسلوب المعروف في المخاطبات؛ حيث يسند إلى القوم ما صدر من بعضهم.</p>	<p>الفرق الثّلاث، أو على بعضهم.</p>	<p>واو الجماعة</p>	<p>﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (الآية: 116)</p>
<p>والظاهر أنّ الضّمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ عائداً إلى اللّعة؛ لأنّها المذكورة في الجملة، والخلود في اللّعة يقتضي الخلود في النّار. ومن هنا جعل بعض المفسّرين الضّمير عائداً إلى النّار المفهومة من معنى الجملة.</p>	<p>اللّعة</p>	<p>الهاء</p>	<p>﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ (الآية: 162)</p>

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين . .

والناظر في بعض آراء الشيخ التي سقتها من قبل يتحقّق من أنّه أعطى أهميّة للمسائل المتعلقة بالضّمير من حيث حقيقته ومرجعه، وهذا لم يمنعه من تناول مسائل أخرى كالعدول عن الضّمير إلى الاسم، أو الإستغناء عنه، والإلتفات، ويمكن أن نجمل هذه المسائل في الجدول التالي:

الآية	العدول الضّمير	عن رأي الشيخ
﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ (الآية: 45)	العدول الضّمير إلى تكرير الإسم الظّاهر	والمعروف في مثل هذا الموضع أن يكتفى بالضّمير فيقال: عنده، ولكن قوانين البيان البارح تأذن في العدول عن الضّمير إلى تكرير الإسم الظّاهر متى أعطى الإسم الظّاهر فائدة لا يعطيها الضّمير، وهي أنّه قال: ﴿عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾؛ ليؤكد في نفوس المخاطبين ذلك المعنى الذي ينبئ به الإسم الظّاهر، وهو أنّه أوجدهم من العدم، وصوّرهم فأحسن صورهم.
﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (الآية: 90)	التعبير الظّاهر الضّمير	وعبر عنهم بالإسم الظّاهر، فقال: ﴿وَاللَّكَافِرِينَ﴾ دون الضّمير، فيقول:

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين . .

<p>ولهم؛ تنبيها على الوصف الذي لحقهم العذاب من أجله، وهو الكفر.</p>		
<p>ولكن إعادة ذكر إسم الجلالة في الجملة يجعلها مستقلة، بخلاف ما لو أتى بالضّمير، فإنه يشعر بتبعيتها للجملة الأولى. واستقلال الجملة يدلّ على شدة عناية المتكلم بالمعنى الذي تتضمّنه.</p>	<p>إعادة ذكر الإسم بدل الضّمير.</p>	<p>﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الآية: 109)</p>
<p>ولكن وضع الموصول وصلته ليحضر في ذهن السامع أنهم صاروا باتخاذهم الأنداد من الظالمين، وليشعر بأنّ سبب رؤيتهم العذاب الشّديد هو ذلك الظلم العظيم.</p>	<p>التعبير بالموصول وصلته بدل الضّمير</p>	<p>﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (الآية: 165)</p>
<p>وعدل عن الخطاب، فلم قل: عليكم، ووضع للمتّين موضع ضمير الخطاب، تأكيدا للأمر بالوصية؛ إذ يشعر أنّ القيام بالوصية، والمحافظة عليها من شعائر المتّقين.</p>	<p>العدول عن الضّمير المخاطب إلى الإسم الظاهر</p>	<p>﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (الآية: 180)</p>

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النَّصِّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين .

<p>ومقتضى تقدّم ذكر من يبدّلون الإيحاء: أن يعبر بالضمير ، فيقال: فإنما إثمهم عليهم، ولكنّه وضع الموصول ﴿الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ موضع الضمير؛ ليؤكد أنّ علة الإثم عليهم هو ذلك التبدّل.</p>	<p>التعبير بالموصول وصلته بدل الضمير</p>	<p>﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ (آية: 181)</p>
--	--	--

ب- في أسماء الإشارة:

أسماء الإشارة من حيث كونها أسماء مبهمة محتاجة إلى مشار إليه؛ ليفسر المقصود بها، وتساهم من خلال المشار إليه في سبك النَّصِّ وترابط أجزائه، تناولها القدماء والمحدثون من حيث النوع والعدد، ودورها في التّواصل؛ ولهذا لا تجدني في هذا المبحث متتبّعا المسألة عند القدماء والمحدثين، فالمسألة بسط القول فيها هؤلاء، ولكنني سأنتقل من الخطاب التفسيري لدى الشّيخ؛ لأقف على حقيقة المسألة، مستعينا بهذا الجدول التوضيحي:

الآية	إسم الإشارة	المشار إليه	رأي الشّيخ
<p>﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ (الآية: 16)</p>	<p>أولئك</p>	<p>المنافقون</p>	<p>المشار إليهم هم المنافقون الموصوفون في الآيات السابقة بالكذب، والمخادع، والفساد في الأرض، ورمي المؤمنين بالسّفاهة، واستهزائهم بهم. ومعروف في علم البلاغة أنّ</p>

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين. .

<p>اسم الإشارة إذا أشير به إلى أشخاص وصفوا بصفات، يلاحظ فيها تلك الصفات، فهو بمنزلة إعادة ذكرها وإحضارها في أذهان المخاطبين، فتكون تلك الصفات (...) كأنّها ذكرت في هذه الآية.</p>			
<p>والمتبادر من نظم أنّ المشار إليه بقوله ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ هو سوء العذاب الذي كان فرعون يسومهم إيّاه.</p>	<p>سوء العذاب</p>	<p>ذلكم</p>	<p>﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (الآية: 49)</p>
<p>إشارة إلى هذين الأمرين العظيمين المشار إليهما في الآية السابقة. وكثيرا ما يشار باسم الإشارة المفرد إلى أشياء ذكرت قبله؛ نظرا إلى أنّها صارت حاضرة في ذهن</p>	<p>الأمران العظيمان</p>	<p>ذلك</p>	<p>﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ﴾ (الآية: 61)</p>

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين .

<p>المخاطب بصورة تسمّى بالمذكور سابقا.</p>			
<p>وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ مشار به إلى ما ذكر من الوصفين السابقين: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾، فرعاية لكونهما في معنى: ما ذكر، صحّ أن يجيء اسم الإشارة مفردا، ورعاية لكون المشار إليه وصفين في الواقع، صحّ أن تضاف إليه كلمة ﴿بَيْنَ﴾، وقاعدتها أنّها لا تضاف إلا إلى متعدّد.</p>	<p>الوصفان السابقان</p>	<p>ذلك</p>	<p>﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ (الآية: 68)</p>
<p>والكاف في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ للتشبيه. واسم الإشارة مشار به إلى المشبه به، وهو إحياء ذلك القتيل الدال عليه الجملة المقدّرة: "فأحياه الله؛ أي مثل إحياء ذلك القتيل بعد موته</p>	<p>إحياء ذلك القتيل</p>	<p>كذلك</p>	<p>﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ (الآية: 73)</p>

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمد

الخضر حسين .

يحيي الله الموتى للحساب والجزاء يوم القيامة.			
واسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ مشار به إلى إحياء القتيل، أو إلى جميع المعجزات الواردة في الآيات السابقة.	إحياء القتيل/ جميع المعجزات	ذلك	﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ (الآية: 74)

2- في العطف:

ومنه عطف كلمة على أخرى، وآية على أخرى، وآية على مجموعة من الآيات، وقصة على

قصة، ونمثل لآراء الشيخ بما يلي:

رأي الشيخ	الآية
ولمّا ذكر الكفّار، وما يصيرون إليه من عذاب الحريق، عطف على ذلك ذكر المؤمنين، وما يفوزون به من نعيم في حياتهم الباقية؛ كما هي سنة القرآن في الجمع بين التّرجيب والتّرهيب، والوعد والوعيد.	﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (الآية: 25)
هذا معطوف على قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾، واردا مورد المقابل له في تفصيل من يأتيهم الهدى من الله، ومقتضى وقوعه مقابلا له أن يقال: والذين لم يتّبعوا هداي أولئك...، ولكنّه عدل عن ذلك إلى	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ (الآية: 39)

<p>قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ لأنّ من لم يتّبع هدى الله يشمل من لم تبلغه الدعوة، وغير المكلفين من نحو الصّبيان وفاقدي العقل.</p>	
<p>هذا معطوف على الآيات السابقة.</p>	<p>﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (الآية: 51)</p>
<p>هذا خطاب للمؤمنين، وهو معطوف على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الذي هو خطاب لليهود، والبلاغة تسمح بعطف خطاب موجّه لطائفة على خطاب موجّه لطائفة أخرى؛ كقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَن هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ (يوسف: 29).</p>	<p>﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ (الآية: 75)</p>
<p>هذا معطوف على قوله تعالى: ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾، والمعنى: أنّه كلّما جاءكم رسول، استكبرتم عن إجابة دعوته؛ إزدراء له، فبادرتم فريقا من الرّسل بالتكذيب فقط، حيث لا تقدرون على قتلهم، وأقبلتم على فريق منهم بالقتل؛ حيث تقدرون على قتلهم، وقدم تكذيبهم للرّسل على قتلهم إيّاهم؛ لأنّ التكذيب أوّل ما يصدر عنهم من الشرّ.</p>	<p>﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (الآية: 87)</p>
<p>لما كان قوله تعالى: ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ﴾ في معنى: أحرص من جميع الناس، صحّ أن يراعى المعنى، ويكون قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ معطوفا</p>	<p>﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (الآية: 96)</p>

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين .

<p>عليه، والمعنى: ولتجدنّ -يا محمّد- أولئك اليهود أحرص من جميع الناس، وأحرص من الذين أشركوا على حياة.</p>	
<p>هذا معطوف على قوله: ﴿فأحيا به الأرض﴾، فما أنزله الله من السماء من ماء ينشأ عنه أمران: إحياء الأرض بالنبات، وبتّ الدواب فيها.</p>	<p>﴿وَبِتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ (الآية): 164</p>

ومن خلال هذا الخطاب التفسيري نقف على دلالات العطف ومسوّغاته في القرآن الكريم، فقد يعطف بين الآيتين جمعا بين التّرجيب والتّرهيب والوعد والوعيد، أو بين آيتين وردت الثانية مورد المقابل للآية الأولى، وقد يعطف بين خطابين أحدهما موجّه إلى طائفة، والآخر إلى طائفة أخرى، أو بين آيتين تشتركان في المعنى، ولم يكن الشّرخ، وهو يتناول هذه المسألة واقفا عند الجانب الشكلي للعطف؛ وتحديد المعطوف والمعطوف عليه، بل كان باحثا عن دلالات هذا العطف ومسوّغاته؛ ولذلك كان يقف عند المعنى الإجمال الرّابط بين المعطوفات، روما في البحث عن ذاك التماسك والرّابط بين هذه الآيات وتلك.

3- في الحذف:

رأي الشّرخ	المحذوف/ نوعه	الآية
<p>وورد السّمع في الآية مفردا، مع إضافته إلى جماعة، وهو أسلوب عربيّ سائغ، وبلاغة اللّغة تسع استعمال المفرد في معنى الجمع عند أمن اللّبس، تفنّنا في العبارة، وأخذا</p>	<p>حذف في الصّيغة</p>	<p>﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً﴾ (الآية: 7)</p>

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين . .

<p>بطريقة الإيجاز، فإنّ السّمع أقلّ أحرفاً من الأسماع.</p>		
<p>وقوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ وارد على طريق الإيجاز بحذف كلمة الأشجار؛ اعتماداً على تبادرها إلى الدّهن، والمعنى: تجري من تحت أشجارها الأنهار.</p>	<p>حذف كلمة</p>	<p>﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (الآية: 25)</p>
<p>في الآية جملة ملاحظة في النّظم استغني عن ذكرها بدلالة المعنى عليها، وتقديرها مع الملفوظ به: وإذ فرقنا بكم البحر، وتبعكم فرعون وجنوده، فأنجيناكم من الغرق، أو من إدراك فرعون وآله لكم.</p>	<p>حذف جملة</p>	<p>﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (الآية: 50)</p>
<p>وقد جاء هذا الخطاب على طريقة القرآن من الإيجاز؛ إذ حذفت منه جملة دلّ عليها معنى المنطوق به في النّظم، وأعني: قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾</p>	<p>حذف جملة</p>	<p>﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (الآية: 54)</p>
<p>ويظهر الإلتئام بين هذه الجملة وما قبلها بملاحظة فعل القول، والتّقدير: وقلنا: كلوا من طيبات ما رزقناكم. وحذف القول -عندما ينساق إليه الدّهن بقريئة واضحة- شائع في كلام العرب.</p>	<p>حذف الفعل</p>	<p>﴿ووظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْعَمَامَ﴾ (الآية: 57)</p>

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين . .

<p>﴿حِطَّةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: مسألنا حطة؛ أي: أن تحطّ عتّا ذنوبنا. والإقتصار في لفظ الجملة على الخبر وحده عند قيام قرينة تدلّ على المبتدأ، من أساليب الإيجاز المعدود في أبداع فنون البيان.</p>	<p>حذف المبتدأ</p>	<p>﴿قُولُوا حِطَّةٌ﴾ (الآية: 58)</p>
<p>من إيجاز القرآن أن حذف من صدر هذه الجملة جملتين مفهومتين من نظم الكلام. والتقدير: فطلبوا البقرة الجامعة للأوصاف السابقة، وحصلوها، وذبحوها.</p>	<p>حذف جملتين</p>	<p>﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الآية: 71)</p>

<p>في الآية إيجاز؛ إذ حذف ما بين هذه الجملة والجملة التي قبلها جملتان دلّ عليهما سياق الكلام دلالة واضحة. والتقدير: فضرّبوه ببعض البقرة، فأحياه الله.</p>	<p>حذف جملتين</p>	<p>﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ (الآية: 73)</p>
<p>ففي جملة ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ مضاف محذوف؛ لدلالة المعنى عليه، وهو لفظ "حب". والتقدير: حبّ العجل. والمعنى: أنّ حبّ العجل خالطهم حتّى خلص إلى قلوبهم كما يخالط الماء أعماق البدن. وحذف لفظ الحبّ من نظم الكلام يشعر بشدّة تعلق قلوبهم بالعجل حتّى كأنّه أشربوا ذات العجل.</p>	<p>حذف المضاف</p>	<p>﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ (الآية: 93)</p>

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين . .

وجاءت الجملة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ غير معطوفة على ما قبلها بالواو؛ تنبيها على أهمية ما تضمنته من حكم الإيضاء؛ إذ لم تجعل تابعة لما قبلها بحرف العطف.	حذف حرف	﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ (الآية: 180)
---	---------	--

والواقف على هذا الخطاب التفسيري الذي سقته من قبل، يستنتج أنّ الشّخ كان باحثاً عن المحذوف سواء أكان المحذوف حرفاً أم حرفاً من كلمة أم كلمة أم جملة أم أكثر من جملة، ساعياً إلى إعادة تركيب الخطاب مع تقدير المحذوف؛ ليثبت بهذا المحذوف تماسك النصّ، مستعيناً في تحقيق ذلك بالقرائن، ومن العبارات التي يذكرها: " حذفت منه جملة دلّ عليها معنى المنطوق به في النّظم " . " وحذف القول -عندما ينساق إليه الذّهن بقرينة واضحة- شائع في كلام العرب " . " عند قيام قرينة تدلّ على المبتدأ دلّ عليهما سياق الكلام دلالة واضحة " .

ج- على مستوى السّبك المعجمي:

- التكرير:

الآية	المكرّر	رأي الشّخ
﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ (الآية: 38)	تكرار القصة	وليست هذه الإعادة من قبيل التكرار الذي يقصد منه مجرد التوكيد، بل قصّ الأمر بالهبوط أولاً؛ ليعلق عليه معنى هو كون بعضهم لبعض عدوّاً، ثمّ قصة ثانية؛ ليعلق عليه معنى آخر هو ما ترتّب على الهبوط

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمد

الخضر حسين . .

<p>من تفصيل المخاطبين وانقسامهم إلى مهتدين وضالين.</p>		
<p>سيقت هذه الجملة المتضمنة أمر بني إسرائيل بذكر نعمته تعالى في آيات ألمنا بتفسيرها قريبا، وأعيدت هنا تأكيدا لتذكير المخاطبين بنعم الله (...)، ومن سنة القرآن إعادة الجمل التي تشمل على أمر يستوجب مزيد العناية (...)، ويشعر تكرار هذه الجملة أن في بني إسرائيل غفلة عن تقدير النعم، شأن من لا يبالي كفرانها.</p>	<p>تكرار الجملة</p>	<p>﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ (الآية: 47)</p>
<p>ومقتضى ما تقدّم؛ أعني قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: أن يكون المقام للإضمار، فيقال: فأنزّلنا عليهم. ولكن أعيد الاسم الظاهر المتقدم، فقال: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ تأكيدا لوصفهم بأقبح الأفعال، وهو الظلم، وإشعارا بأنّ السبب فيما نزل عليهم من العذاب هو ظلمهم.</p>	<p>تكرار الاسم الظاهر</p>	<p>﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا﴾ (الآية: 59)</p>
<p>وفي تكرير قصة عبادتهم للعجل تنبيه على أنّها بالغة الغاية القصوى من الفطاعة. ومن المعروف في بلاغ العرب أنّهم إذا أرادوا</p>	<p>تكرار القصة</p>	<p>﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (الآية: 92)</p>

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمّد

الخضر حسين . .

<p>التّبيه لتبّيح شيء، أو تعظيمه، كروا الحديث عنه.</p>		
<p>كرّر بهذه الآية نداء بني إسرائيل ودعوتهم إلى ذكر ما أسبغ عليهم من النعم الدال على عظمها إسناد الإنعام بها إليه تعالى في قوله: ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وأهميّة الشيء تقتضي تكرار الأمر به، إبلاغا في الحجّة، وتأكيدا للتذكّرة.</p>	<p>تكرار النداء</p>	<p>﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الآية: 122)،</p>
<p>تضمّنت هذه الآية معنى الآية السابقة، وأعيد هذا المعنى تأكيدا له، وتثبيتا له في القلوب، ذلك أنّه معنى متى غلب استحضاره على قلب من يتدبّر العواقب، يكفّ يده عن كلّ شرّ، ويصير مصدرا لكلّ خير</p>	<p>تكرار المعنى</p>	<p>﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ (الآية: 123)</p>
<p>وردت هذه الآية في آيات تقدّم تفسيرها أنّها، وأعيدت هنا بعينها؛ مبالغة في التّحذير من الإفتخار بالآباء، والإتكال على صلاحهم (...)، ولتكرار التّحذير من الشيء أثر كبير في تطهير النفوس منه، وصرفها عنه.</p>	<p>تكرار الآية</p>	<p>﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ (الآية: 141)</p>

الفصل الرابع: مظاهر تماسك النصّ القرآني من خلال الخطاب التفسيري لدى محمد

الخضر حسين.

<p>ولم يعد الأمر على هذا الوجه لمجرد التأكيد، بل أعيد ليرتب عليه التنبيه على علة التشريع بقوله: ﴿لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةً﴾.</p>	<p>تكرار الأمر</p>	<p>﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (الآية: 150)</p>
--	--------------------	--

تنبه الشيخ إلى أهمية التكرار في القرآن الكريم، وبيّن دوره في تماسك الآيات القرآنية، فقد تكرر القصة، أو الجملة، أو الآية، أو المعنى، أو الاسم، أو الفعل، أو الحرف، فالقصة يعاد ذكرها ليس فقط من أجل التأكيد، بل ليعلق عليها معنى إضافيًا آخر، وقد تكرر القصة تشنيعاً لعمل قبيح، وتأتي الجملة والآية مكررتين تحذيراً، أو تنبيهاً عن أمر ما، ويكرر الاسم الظاهر في مقام الإضمار تأكيداً لشيء ما، وقد يكرر فعل الأمر تنبيهاً لعلّة ما.

وأهم نتيجة أصل إليها من خلال وقوفي على الخطاب التفسيري للشيخ محمد الخضر حسين، هي أنّ ملامح التفكير اللساني الذي ذكرتها من قبل قد تجلّت في هذا الخطاب، ولم أكن في هذا الفصل واقفاً عند حدود آراء الشيخ في تفسير الألفاظ ودلالاتها¹، وإنما كنت باحثاً عن طريقة الرجل في إثبات العلاقات بين آي القرآن الكريم، والآليات التي اعتمدها أدلة دالة على وحدة النصّ القرآني وترابط معانيه.

وهذا المنحى أوصلني إلى القول: إنّ الشيخ محمد الخضر حسين لم يغيب عن تفكيره، وهو يفسّر هذه الآيات أنّ النصّ القرآني نصّ مترابطة أجزاءه، منظم خطابه، آياته أخذ بعضها برقاب بعض، ينتقل من مجموعة آيات إلى مجموعة أخرى، ومن قصة إلى أخرى، ومن خطاب إلى آخر، فلا يحسّ الناظر فيه إلاّ باتّساق هذا الخطاب وإنسجامه.

¹ - هذه مسألة لفتت إنتباهي، وأنا أدرس هذا الخطاب، فالشيخ يولي اهتماماً بالغاً لدلالات الألفاظ القرآنية.

الخاتمة

توصّلت الدّراسة التي قدّمتها حول التّفكير اللّساني عند علم من أعلام العصر الحديث إلى النّتائج التّالية:

أ- في حياة الرّجل وقضايا اللّغوي العربي الحديث:

- امتدّت حياة الرّجل من أواخر القرن التّاسع عشر إلى أوائل النّصف الثّاني من القرن العشرين، وهذا الإمتداد مكّنه من معاصرة الكثير من القضايا الفكرية واللّغوية التي طرحها الخطاب اللّغويّ في تلك الفترة، وكان لها الأثر الكبير في كتاباته في آرائه.

- خلف الرّجل آثارا كثيرة في ميادين معرفيّة متنوّعة (دينيّة، أدبيّة، لغويّة، فكريّة)، هذا التّنوّع المعرفيّ مكّني من الوقوف على ملامح التّفكير اللّساني ومدى حضوره في ثقافة الرّجل، لا في الآثار اللّغويّة فحسب بل في ميادين معرفيّة أخرى، والواقف على هذه الآثار متى بحثها بنظرة شموليّة وضع يده على تلك الملامح.

- بيّن البحث أنّ الخطاب اللّغوي العربيّ الحديث ساهمت في تشكيل معالمه ظروف سياسيّة واجتماعيّة وثقافيّة، وأنّ رواده شغلّتهم قضايا دينيّة وفكريّة ولسانيّة، خلفوا آثارا في ميادين معرفيّة متنوّعة، الواقف عليها ليقارب هذا الخطاب اللّغويّ عليه أن يؤمن بشمولية البحث في أكثر من رصيد معرفيّ واحد.

- أظهر البحث أنّ تركيز بعض الباحثين المعاصرين في أثناء دراستهم لتلقي اللّسانيّات خلال هذه الفترة على أسماء دون أخرى، وعلى بلدان على حساب أخرى، وعلى وصيد معرفيّ واحد، نتجت عنه أحكام لم تعد بفائدة ذات بال يعوّل عليه في الفكر اللّساني العربيّ الحديث.

- بيّن البحث حضور هذا الخطاب اللّغوي في كتابات الشّيخ محمّد الخضر حسين، وذلك في مسلكين إثنيين، في أثناء مناقشته معاصريه، وفي أثناء دراسته لهذه القضايا.

ب- في البحث اللغوي عند الشيخ محمد الخضر حسين:

-لم يغب عن فكر الرّجل البحث في الظواهر اللغويّة عامّة والعربيّة خاصّة، فوقف عند حقيقة اللّغة، ونشأتها ووظائفها وأهمّ خصائصها، وعلاقتها بالفكر وعلاقة الفكر بها؛ ليصل إلى:

-أنّ اللّغة ميزة إنسانيّة مكتسبة، يشترك بعضها مع بعض في ظواهر لغويّة، تؤدّي وظائف اجتماعيّة، وفكريّة، وتواصلية، ومن خصائصها أنّها نظام يُحترم، تشرك في بعض الظواهر اللغويّة، تتميز بحياتها وتطوّرها ومسايرتها عصرها، والباحث في نشأتها، في رأيه، كمن يروم شيئاً مستحيلاً؛ ولهذا رجّح أنّ البحث في هذه المسألة ينطلق من اللّغات التي بين يدي الباحث.

-وأما اللّغة العربيّة فرأى أنّ باب الاجتهاد فيها لا زال مفتوحاً، وحياتها مرهونة بحياة أهلها ومدى حضورهم في الحياة العلميّة. إهتمّ بدراستها وإدخالها في حوار مع اللّغة الألمانيّة.

-درسته لها كان في وضعيتين، في وضعها الداخلي؛ أي من حيث المصطلح، والمعجم، ووسائل تنميتها، وفي وضعها الخارجي؛ أي في علاقتها باللّهجات واللّغات الأخرى.

-قارب بعض الفنون العربيّة مقارنة إبستمولوجيّة، فبحث في الأصول المعرفيّة لبعض الفنون، كبحثه في أصول البلاغة العربيّة، وعلم النّحو.

-درسته مسائل العربيّة لم تجعل منه باحثاً واقفاً عند أحرفها وألفاظها وتراكيبها، بل تعدّى ذلك إلى رحاب النّصّ، فالرّجل كثير الإهتمام بالأطراف المشاركة في عمليّة الاتّصال (المرسل والمرسل إليه والرّسالة)؛ فهو إذا وقف أمام خطاب ما قاربه من هذه الجوانب، مركزاً على الظروف التي أنتجته والمقاصد التي يرومها المتكلّم.

-رُفدت البحث اللغوي لدى الشيخ مصادر تراثية من مختلف ميادين المعرفة العلمية، وهذا إيماناً منه بشمولية البحث في التراث بكامله، وهذا لم يمنعه من الاستفادة مما كان ينشره معاصروه، ولعلّ حضور كتب جرجي زيدان كالفلسفة اللغوية مثلاً، كفيل بأن نقول: إنه رجل مسير عصره.

-إطّاع الرجل على مناهج القدماء في دراساتهم اللغوية، ومقاربة هذه المسائل بالإعتماد عليها، لم يمنعه من الإطّاع على المناهج التي كانت سائدة عند الآخر كالمناهج التاريخية المقارن.

-إتسم منهجه في هذه المقاربات بالمنهج العلمي، فهو رجل باحث عن الدليل متى وجده تمسك به ومتى غاب عنه إستأنس بغيره منتظراً الظفر بالدليل، يطالب به غيره، ويسقط بغيابه الكثير من الآراء، ويلجأ إلى غيرها متى دعمها الدليل، ينطلق في مناقشته غيره من البحث عن المنهج الذي سار عليه مطارحه؛ ولهذا تجده واقفاً عند عتبات النصوص؛ أي المقدمات، مستقرباً إياها للكشف عن حقيقة المنهج الذي سيسير عليه هذا المطارح.

-كان يرجئ البحث في بعض المسائل، فإرجاء البحث في هذه المسائل من المقولات التي قررها علم اللسان الحديث؛ وذلك حينما تنتفي الأدلة، أو يصعب دراسة المسألة المطروحة دراسة علمية وافية، أو تكون ذات المسألة مشكوك في نتائجها.

ج-في ملامح التفكير اللساني نسجل ما يلي:

-ظهرت رؤاه اللسانية في قضايا النحو العربي وأصوله، فناقش معاصريه في بعض المسائل: كحقيقة النحو وموضوعه، ونظرية النحو القرآني، ودعا إلى النظر إلى قضايا هذا العلم من الداخل، أي الإستعانة على فهم مضامينه من التراث نفسه، ووقف عند قضايا السماع، من حيث الإستشهاد بالقراءات القرآنية والقياس عليها، والإستشهاد

بالحديث النبوي الشريف، والإستشهاد بمجهول القائل، ومسائل الكثرة والقلّة في المقيس عليه.

-رُفد البحث اللّغوي بكتاب القياس في اللّغة العربيّة الذي دعا فيه صراحة إلى فتح باب القياس على النّظم، وتوسيع دائرة المقيس عليه؛ ليشمل زيادة على كلام العرب والقواعد المستنبطة، القراءات القرآنيّة والحديث النبوي الشريف.

-بحث في قضايا المعجم، والمباحث التي تتّصل به، كبحثه في إسم المصدر، ومسألة التّأنيث والتّذكير التي شغلت الفكر اللّغوي الحديث، ورفد المعاجم بالألفاظ التي أهملتها، ولم تذكرها.

-بحث في المسائل المتعلّقة بالتّفكير اللّساني التّربويّ، فنّبذ ما كان سائدا من طرق تعليميّة تقليديّة، وناقش طرق تعليميّة القواعد، ودعا إلى محاذاة الأساليب العربيّة الرّاقية، وتلقين آداب اللّغة العربيّة، وهذه المنهجية تدعو إلى مقارنة هذا النّشاط إنطلاقا من النّصوص العربيّة الرّاقية.

-دعا إلى الإهتمام بتنمية ملكة الكتابة من خلال دعوته إلى تدريس الإنشاء والإعتناء بالخطابة.

د- في تجلّيات التّفكير اللّساني في خطابه التّفسييري:

-الرّجل شغله الإعجاز البياني في القرآن الكريم، فاهتمّ ببلاغته، وراح يثبت للنّصّ القرآني إنسجامه واتّساقه من خلال وقوفه على بلاغته، وموضّحا في الوقت نفسه الآليات التي ساهمت في إظهار وحدة النّسق القرآني.

-وقف الرّجل عند هذه الآليات من خلال دراسته ثلاثة مستويات، مستوى التّماسك الدّلالي، وبيّن فيه العلاقات التي تربط الآيات بعضها ببعض، أو العلاقات بين ألفاظ

الآية الواحدة، وإهتمّ بترتيب موضوعات الخطاب، ومستوى السبّك النّحوي، درس فيه الإحالة والحذف والعطف، ومستوى معجمي وقف فيه على ظاهرة التّكرار، سواء أكان التّكرار لفظاً أم جملة أم معنى أم قصّة.

قائمة المصادر والمراجع

- المصحف الشريف برواية حفص عن عاصم، دار الإمام نافع، الطبعة الأولى، دمشق: 1428هـ-2007.
- إبراهيم الأبياري:
- 1-تأريخ القرآن، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثالثة، القاهرة، بيروت: 1411هـ-1991م.
- إبراهيم أنيس:
- 2-دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو مصريّة، (د.ط)، القاهرة: 1976م.
- إبراهيم عبّود السامرائي:
- 3-المفيد في المدارس النحويّة، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة الأولى، 1427هـ-2006م.
- إبراهيم مصطفى:
- 4-إحياء النحو، الطبعة الثّانية، القاهرة: 1413هـ-1992م.
- ابن الأثير (عزّ الدين ت630هـ):
- 5-الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق الدكتور عبد الحميد الهنداوي، دار الآفاق العربيّة، الطبعة الأولى، القاهرة: 1428هـ.
- إحسان عبّاس:
- 6-تاريخ النّقد الأدبي عند العرب، الطبعة الثّانية، دار الشروق للنشر والتوزيع: الأردن: 1997م.
- ابن أحمد الأزهري (أبو منصور محمّد ت370هـ):
- 7-كتاب معاني القراءات، تحقيق الشّيخ أحمد فريد المزيدي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت: 1420هـ-1999م.
- أحمد الشّايب:
- 8-الأسلوب، الطبعة الخامسة، مكتبة النهضة المصريّة، مصر: (د.ت).

- أحمد مختار عمر:
- 9-البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، عالم الكتب، الطبعة التاسعة، القاهرة: 2010م.
- أحمد محمد قدورة:
- 10-فقه اللغة، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت: 1413هـ.
- الأستراباذي (رضي الدين محمد بن الحسن ت686هـ):
- 11-شرح كافيّة بن الحاجب، تحقيق الدكتور إميل بديع يعقوب، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت: 1419هـ-1998م.
- إسماعيل أحمد عمارة:
- 12-نشأة الدّراسات اللّغويّة العربيّة، دار وائل للنّشر، الطبعة الثالثة، عمّان: 2002م.
- 13-نحو معجم موحد لألّفاظ الحياة العامّة، الطبعة الأولى، دار وائل للطباعة والنّشر، عمّان: 2001م.
- أمين الخوري:
- 14-مشكلات حياتنا اللّغويّة، الطبعة الثّانيّة، مصر: 1965م.
- الأنباري (الإمام كمال الدّين أبي البركات عبد الرّحمان ابن أبي سعيد ت577هـ):
- 15-الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريّين والكوفيّين، تحقيق الدكتور محمد محي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، (د.ط)، بيروت: 1414هـ-1993م.
- 16-الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلّة في أصول النّحو، حقّقهما سعيد الأفغاني، دار الفكر، الطبعة الثّانيّة، بيروت: 1391هـ-1971م.
- أنور الجندي:
- 17-اللّغة العربيّة بين حمايتها وخصومها، مطبعة الرّسالة، (د.ط)، عابدين: (د.ت).
- أنولد قرين:
- 18-العلماء التّونسيّون 1873م-1915م، ترجمة حفناوي عمّاريّة وأسماء معلي، المجمع التّونسي بيت الحكمة، دار سحنون للنّشر والتّوزيع، الطبعة الأولى، تونس: 1995م.

- البدرأوي زهران:
 19-المعجم العربيّ تطوّر وتاريخ في ضوء نظريّات علم الدّلالة لدى المحدثين، الطّبعة الأولى، دار الآفاق العربيّة، القاهرة: 1430هـ-2009م.
 -البغدادي (عبد القادر ت 1093هـ):
 20-خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه الدّكتور نبيل طريفي، إشراف إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، بيروت: 1418هـ-1998م .
 - البقاعي (برهان الدّين أبي الحسن إبراهيم بن عمر ت 885هـ):
 21-نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، تحقيق عبد الرّزاق غالب المهدي، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، بيروت: 1415هـ-1995م.
 -بوجادي (خليفة):
 22-في اللّسانيّات التّداوليّة مع محاولة تأصيليّة في الدّرس العربي القديم، بيت الحكمة للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، الجزائر: 2009م.
 -بوقرة (نعمان):
 23-اللّسانيّات إتجاهاتها وقضاياها الرّاهنة، عالم الكتب الحديث، الطّبعة الأولى، عمّان: 1430هـ-2009م.
 -بوقرة (محمّد هشام):
 24-القضيّة اللّغويّة في تونس، مركز الدّراسات والأبحاث الاقتصاديّة، الشركة التّونسيّة للتّوزيع، (د.ط)، تونس: 1988م.
 -النّقّازاني (سعد الدّين مسعود بن عمر ت 792هـ):
 25-المطوّل شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق الدّكتور عبد الحميد هندأوي، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت: 1422هـ-2001م.
 -التّونسي (خير الدّين):
 26-أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق المنصف الشّنوقي، الدّر التّونسيّة للنّشر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الطّبعة الثّانيّة، تونس، الجزائر: 1986م.

- تمام حسان:
- 27-الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، القاهرة: 1982م.
- 28-مناهج البحث في اللغة، (د.ط)، دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب: 1407هـ-1986م.
- 29-اللغة العربية معناها ومبناها، (د.ط)، دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب: 1407هـ-1986م.
- الجابري (محمد):
- 30-أضواء على مشكل التعليم بالمغرب، دار النشر المغربية، (د.ط)، الدار البيضاء، المغرب: (د.ت).
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر ت255هـ):
- 31-البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، بيروت: (د.ت).
- الجرجاني (عبد القاهر ت471هـ):
- 32-دلائل الإعجاز، تحقيق محمد التونجي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت: 1425هـ-2005م.
- 33-أسرار البلاغة، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، القاهرة: 2010م.
- جرجي زيدان:
- 34-الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية، مطبعة القديس جاو رجيوس، (د.ط)، بيروت: 1886م.
- جميل علوش:
- 35-ابن الأنباري وجهوده في النحو، (د.ط)، الدار العربية، ليبيا وتونس: 1983م.
- ابن جنّي (أبو الفتح عثمان بن جني، توفي 392هـ):
- 36-الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب، الطبعة الأولى، بيروت: 1427هـ-2006م.
- 37-المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، تحقيق علي النجدي ناصف وآخرون، (د.ط)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة: 1389هـ.
- جونستون. ب. م:

- 38-دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربيّة، ترجمة الدّكتور أحمد الصّبيّب، عمادة شؤون المكتبات، جامعة ملك سعود، (د.ط)، الرّياض: 1975م.
- حاتم صالح الضّامن:
- 39-علم اللّغة، (د.ط)، الموصل: 1989م.
- الحباشة (صابر):
- 40-من قضايا الفكر اللّساني في النّحو والدّلالة واللّسانية، الطّبعة الأولى، دار صفحات للدراسات والنّشر، دمشق: 2009م.
- حساني (أحمد):
- 41-دراسات في اللّسانيّات التّطبيقية -حقل تعليميّة اللّغات- (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر: 2000م.
- حسين (محمّد الخضر):
- 42-موسوعة الأعمال الكاملة، جمعها وضبطها علي الرّضا الحسيني، دار النّوادر، الطّبعة الأولى، سوريا: 1431هـ-2010م.
- الحسيني (علي الرّضا):
- 43-زاوية علي بن عمر (طولقة-الجزائر)، المطبعة التّعاونيّة، (د.ط)، دمشق: 1396هـ-1979م: 60، 61.
- ديوان محمّد المكيّ بن عزّوز، دار الفرابي، الطّبعة الأولى، دمشق: 1427هـ-2006م.
- 44-سيدي الوالد زين العابدين بن الحسين التّونسي، الدّار الحسينيّة للكتاب، (د.ط)، دمشق: (د.ت).
- 45-أعلام المهاجرين التّونسيين الفقيه اللّغوي زين العابدين بن الحسين التّونسي، دار الفرابي، الطّبعة الأولى، دمشق: 1427هـ-2006م.
- 46-محمّد المكيّ بن الحسين حياته وشعره، الدّار الحسينيّة للكتاب، (د.ط)، دمشق: 1991م.
- حكمت كشلي:
- 47-المعجم العربي في لبنان، الطّبعة الأولى، دار ابن خلدون، بيروت: 1982م.
- حلمي خليل:

- 48-العربية وعلم اللغة البنيوي -دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث- دار المعرفة الجامعية، (د.ط)، الإسكندرية: 1988م.
-حليمة أحمد عميرة:
- 49-الإتجاهات النحوية لدى القدماء دراسة تحليلية في ضوء المناهج المعاصرة، دار وائل للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان: 2006م.
-أبو حيان (محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي، توفي 745هـ).
- 50-إرتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق وشرح ودراسة الدكتور رجب عثمان محمد، مراجعة الدكتور رمضان عبد التّوّاب، مطبعة المدني، الطبعة الأولى، القاهرة: 1418 هـ - 1998م.
-خالد بن سعود بن فارس العصيمي:
- 51-القرارات النحوية والتصريفية لمجمع اللغة العربية بالقاهرة جمعا ودراسة وتقويما، دار التدمرية، الطبعة الأولى، الرياض: 1424هـ/2003م.
-خان (محمد):
- 52-مدخل إلى أصول النحو، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، عين ميله الجزائر: (د.ت).
-خدّوسي (رابح):
- 53-موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار الحضارة، الطبعة الأولى، الجزائر: (د.ت).
-خديجة عبد الفتّاح الحديثي:
- 54-المدارس النحوية، دار الأمل، الطبعة الثالثة، إربد الأردن: 1422هـ/2001م.
- 55-أبو حيان النحوي، منشورات مكتبة النهضة، الطبعة الأولى، بغداد: 1385هـ - 1966م.
- 56-الشّاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، مطبوعات جامعة الكويت، (د.ط)، الكويت: 1394هـ - 1983م.
- 57-تيسير النحو وبحوث أخرى، (د.ط)، منشورات المجمع العلمي، العراق: 1428هـ - 2007م.
- الخطّابي (محمد):

- 58-لسانيات النَّصّ مدخل إلى إنسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، الدار البيضاء المغرب: 2006م.
- ابن خلدون (عبد الرَّحمان بن محمّد ت808هـ):
- 59-مقدّمة ابن خلدون، تحقيق مصطفى شيخ مصطفى، مؤسّسة الرّسالة ناشرون، الطبعة الأولى، بيروت: 1428هـ-2007م.
- خير الدّين الزّركلي:
- 60-الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة عشر، بيروت: 1999م.
- ديب مصطفى البغّاء:
- 61-مقدّمة ابن صلاح في علوم الحديث، دار الهدى عين مليلة، (د.ط)، الجزائر: (د.ت).
- الرازي (فخر الدّين محمّد الرازي ت606هـ)
- 62-تفسير فخر الدّين الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، الطبعة الأولى، بيروت: 1401هـ-1980م.
- القاهرة: 1997م.
- رمضان عبد التّوّاب:
- 63-فصول في فقه اللّغة، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجي، القاهرة: 1408هـ.
- روبرت دي بوجراند:
- 64-النّصّ والخطاب والإجراء، ترجمة الدّكتور تمام حسان، عالم الكتب، الطبعة الأولى، القاهرة: 1997.
- الزّركشي (الإمام بدر الدّين محمّد بن عبد الله ت794هـ).
- 65-البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، الطبعة الثالثة، بيروت: (د.ت).
- الزّمخشري (محمود بن عمر ت538هـ).
- 66-الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، دار الكتب العربي، الطبعة الثالثة، بيروت: 1407هـ-1987م.

- الزّتاد (الأزهر):
- 67 -نسيج النّص- بحث في ما يكون به الملفوظ نصّا، المركز الثقافي العربي، الطّبعة الأولى، الدّار البيضاء: 1993م.
- زهير غازي زاهد:
- 68-في التّفكير النّحوي عند العرب، عالم الكتب، الطّبعة الأولى، بيروت: 1306هـ-1986م.
- سامي محمّد هشام حريز:
- 69-نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريًا وتطبيقيًا، دار الشّروق للنشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، عمان: 2006م.
- ابن السّراج (أبو بكر محمّد بن سهل ت316هـ):
- 70-الأصول في النّحو، تحقيق الدّكتور عبد الحسين الفتلي، مؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الثالثة، بيروت: 1417هـ-1996م.
- سعد الله (أبو القاسم):
- 71-تاريخ الجزائر الثّقافي، دار الغرب الإسلامي، الطّبعة الأولى، بيروت: 1998م.
- سعيد الأفغاني:
- 72-في أصول النّحو، دار الفكر، (د.ط)، بيروت: (د.ت).
- 73-من حاضر اللّغة العربيّة، دار الفكر، الطّبعة الثّانية، بيروت: 1971م.
- 74-من تاريخ النّحو، (د.ط)، دار الفكر، لبنان: (د.ت).
- سعيد جاسم الزّبيدي:
- 75-القياس في النّحو العربي نشأته وتطوّره، (د.ط)، دار الشّروق، بيروت: 1997م.
- سعيد حسن بحيري:
- 76-علم لغة النّصّ المفاهيم والاتّجاهات، مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، القاهرة: 1424هـ-2004م: 64.
- السّكاكي (أبو يعقوب يوسف بن محمّد بن عليّ ت626هـ):
- 77-مفتاح العلوم، تحقيق الدّكتور عبد الحميد هنداوي، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت: 1420هـ-2000م.
- ابن سميّة (محمّد):

- 79- في الأدب الجزائري الحديث النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر - مؤثراتها - بدايتها - مراحلها، مطبعة الكاهنة، (د.ط)، الجزائر: 2003م.
- سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ت 180هـ):
- 80- الكتاب، تحقيق الدكتور عبد السلام هارون، دار الجيل، الطبعة الأولى، بيروت: (د.ت).
- السيوطي (جلال الدين ت 911هـ):
- 81- الإقتراح في علم أصول النحو، تحقيق محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت: 1418هـ-1998م.
- 82- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وتعليق محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، بيروت: 1425هـ-2005م.
- 83- همع الهوامع جمع الجوامع في علم العربية، دار المعرفة للنشر والتوزيع، (د.ط)، بيروت: (د.ت).
- 84- الإتيقان في علوم القرآن، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقية، (د.ط)، القاهرة: (د.ت).
- 85- تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت: 1406هـ-1986م.
- شارل أنري جوليان:
- 86- المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الشركة التونسية للتوزيع، الطبعة الثانية، تونس: 1985م.
- شوقي ضيف:
- 87- تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده، (د.ط)، دار المعارف، مصر: 1986م.
- صبحي إبراهيم الفقي:
- 88- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق - دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة: 1421هـ-2000م.
- ضبيان نشاة:

- 89- حركة الإحياء اللغوي، (د.ط)، دمشق: 1976م.
- طه حسين:
- 90- في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطباعة والنشر، (د.ط)، سوسة تونس: (د.ت).
- الطويل (أحمد):
- 91- دراسات ووثائق عن الحركة الإصلاحية بتونس، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، (د.ط) ، تونس: 1992م.
- ابن الطيّب الفاسي (أبو عبد الله محمد ت 1170هـ):
- 92- فيض نشر الانشراح من روض طيّ الاقتراح، تحقيق وشرح الأستاذ الدكتور محمود يوسف فجّال، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، دبي: 1421هـ.
- عائشة عبد الرحمان:
- 93- الإعجاز البياني للقرآن، دار المعارف، (د.ط)، مصر: 1971م.
- ابن عاشور (محمد الطاهر):
- 94- التحرير والتّوير المعروف بتفسير ابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، الطبعة الأولى، بيروت: 1420هـ-2000م.
- ابن عاشور (محمد الفاضل):
- 95- الحركة الأدبية والفكرية في تونس، مطبعة دار الهنا، (د.ط)، تونس: 1955م.
- عبّاس حسن:
- 96- التّحو الوافي، دار المعارف، الطبعة الثانية، مصر: 1963م.
- عبد الحميد مصطفى السيّد:
- 97- دراسات في اللسانيات العربية، الطبعة الأولى، دار الحامد للنشر والتوزيع، الأردن: 1424هـ-2004م.
- عبد الصّبور شاهين:

- 98-دراسات لغوية القياس في الفصحى الدخيل في العامية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت: 1426هـ/2004م.
- 99-في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، بيروت: 1970م.
-عبد العال سالم مكرم:
- 100-الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت: 1413هـ/1993م.
- 101-المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة، دار الشروق، الطبعة الأولى، بيروت: 1400هـ/1980م.
- 102-القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، بيروت: 1417هـ-1996م.
-عبد الفتاح لاشين:
- 103-بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، (د.ط.)، القاهرة: (د.ت.).
-عبد الله غزلان:
- 104-قضايا في اللغة الطبيعية وتاريخ الفكر (نظرية حتى عند سيوييه)، مطبعة أنفلو-برانت، الطبعة الأولى، فاس، المغرب: 2003م.
-عبد الرّاجحي:
- 105-فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية، (د.ط.)، بيروت: (د.ت.).
- 106-دروس في كتب النحو، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، بيروت: 1988م.
- 107-النحو العربي والدّرس الحديث، (د.ط.)، دار المعرفة الجامعية: مصر: 1988م.
- 108-اللّهجات العربية في القراءات، (د.ط.)، دار المعارف، مصر: 1968م.
-ابن عطية الأندلسي (أبو محمد عبد الحق بن غالب ت546هـ)
- 109-المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت: 1413هـ-1993م.
-العكبري (أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله ت610هـ):

- 110- إملاء ما من به الرّحمان من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، راجعه نجيب الماجدي، المكتبة العصريّة، الطّبعة الأولى، بيروت: 1423هـ-2002م.
- 111- إعراب القراءات الشّواذ، تحقيق الدّكتور عبد الحميد السيّد محمّد عبد الحميد، المكتبة الأزهرية للتّراث، الطّبعة الأولى، القاهرة: 1424هـ-2003م.
علوي (حافظ إسماعيلي):
- 112- اللّسانيّات في الثّقافة العربيّة المعاصرة -دراسة تحليليّة نقدية في قضايا التّلقي وإشكالاته، دار الكتاب الجديد المتّحدة، الطّبعة الأولى، بيروت: 2009م.
-علي أبو المكارم:
- 113- أصول النّفكير النّحوي، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، القاهرة: 2006م.
-علي عبد الرّازق:
- 114- الإسلام وأصول الحكم، بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام، نقد وتعليق الدّكتور ممدوح حقّي، منشورات دار مكتبة الحياة، (د.ط.)، بيروت: 1978م.
-علي عبد الواحد وافي:
- 115- علم اللّغة، مكتبة الأنجو مصريّة، الطّبعة السّابعة، القاهرة: (د.ت).
- عماد أحمد الزّيد:
- 116- النّفكير اللّساني عند علماء العقليّات المسلمين العُضد الدّين الإيجي والسّعد التّفنازاني والشّريف الجرجاني، دار النّور المبين للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، عمّان: 2014م.
-العماد مصطفى طلاس:
- 117- النّورة العربيّة الكبرى، دار الشّورى، الطّبعة الثّالثة، بيروت: (د.ت).
-عمر الدّسوقي:
- 118- في الأدب الحديث: دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الثّامنة، بيروت: (د.ت).
-عمر رضا كحّالة:

- 119- معجم المؤلفين تراجم مصنّفي الكتب العربيّة، مؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الأولى، بيروت: 1993م.
- العمري (محمّد):
120- أسئلة البلاغة في النّظريّة والتّاريخ والقراءة، أفريقيا الشّرق، (د.ط)، المغرب: 2013م.
- عوض حمد القوزي:
121- المصطلح النّحوي نشأته وتطوّره حتّى أواخر القرن الثّالث الهجري، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر: 1983م.
- الغلابيني (مصطفى):
122 - جامع الدّروس العربيّة، المكتبة العصريّة، الطّبعة الخامسة والثّلاثين، بيروت: 1418هـ-1998م.
- غلفان (مصطفى):
123- اللّسانيات في الثّقافة العربيّة الحديثة حفريات النّشأة والتّكوين، شركة النّشر والتّوزيع المدارس، الطّبعة الأولى، الدّار البيضاء: 1427هـ-2006م.
- أبو فهر محمود محمّد شاكر:
124- مداخل إعجاز القرآن، مطبعة المدني، الطّبعة الأولى، القاهرة: 1423هـ-2002م.
- ابن فارس (أبو الحسن أحمد ت395هـ):
125- الصّاحبي في فقه اللّغة، تحقيق مصطفى الشّومي، (د.ط)، بيروت: 1964م.
- فاضل السّاقي:
126- أقسام الكلام العربيّ من حيث الشّكل والوظيفة، (د.ط)، مكتبة الخانجي، القاهرة: 1977م.
- فاضل صالح السّامرائي:
127- الدّراسات النّحويّة واللّغوية عند الرّمخشري، دار عمّار للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، عمّان: 1426هـ/2005م.
- فتحي عبد الفتّاح الدّجني:
128- ظاهرة الشّدوذ في النّحو العربي، الطّبعة الأولى، وكالة المطبوعات، الكويت: 1974م.
- الفراء (أبو زكرياء يحيى بن زياد ت207هـ):

- 129- معاني القرآن، الطبعة الثالثة، عالم المعرفة، بيروت: 1403 هـ -1983م.
-فريد حيدر:
- 130-إتساق النَّصِّ في سورة الكهف، مكتبة زهراء الشرق، (د.ط)، القاهرة: 2004م.
-الفهري (عبد القادر فاسي):
- 131-اللِّسانيات واللِّغة العربيَّة، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، بيروت: 1986م.
-إبن قَدَّور (عبد الفتَّاح):
- 132-اللِّغة-دراسة تشريحيَّة-إكلينيكيَّة، دار أبي الرِّقراق للطِّباعة والنَّشر، الطبعة الأولى، الرِّباط، المغرب: 2012م.
-القرطاجني (حازم ت684هـ):
- 133-منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمَّد الحبيب بن خوِّجة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثَّانيَّة، بيروت: 1981م.
-القرطبي (أبو عبد الله محمَّد بن أحمد الأنصاري ت671هـ):
- 134-الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلميَّة، الطبعة الخامسة، بيروت: 1417هـ-1996م.
-إبن قفصية (عمر):
- 135-أضواء على الصَّحافة التَّونسيَّة (1860م-1970م)، دار بو سلامة للطِّباعة والنَّشر، (د.ط)، تونس: (د.ت).
-كارل بروكلمان:
- 136-فقه اللِّغات السَّاميَّة، ترجمة رمضان عبد التَّوَّاب، (د.ط)، الرِّياش: 1979م.
-كامل سليمان الجبوري:
- 137-معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتَّى سنة 2002م، دار الكتب العلميَّة، الطبعة الأولى، بيروت: 1424هـ-2002م.
-الكتَّاني (محمَّد):
- 138-الصِّراع بين القديم والجديد في الأدب العربي، دار الثَّقافة، الطبعة الأولى، المغرب: 1403هـ-1982م.
-إبن كثير (أبو الفدا إسماعيل ت774هـ):

- 139- البداية والنهاية، (د.ط)، منشورات مكتبة المعارف: بيروت: 1991م.
-كمال بشر:
- 140-اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)،
القاهرة: 1999م.
- 141-التفكير اللغوي بين القديم والجديد، مكتبة الشباب، (د.ط)، المنيرة، القاهرة: (د.ت).
-ماريوباي:
- 142-لغات البشر، ترجمة الدكتور صلاح العربي، مطبعة العالم العربي، (د.ط)، القاهرة:
1970م.
- ابن مالك (جمال الدين محمد بن عبد الله الطائي الحياي ت672هـ):
143-شرح التسهيل، تحقيق الدكتور عبد الرحمن السيد، والدكتور محمد بدوي المختون، هجر
للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، القاهرة: 1410هـ-1990.
-مجد محمد الباكير البزاري:
- 144-مشكلات اللغة العربية المعاصرة، مكتبة الرسالة الحديثة، الطبعة الأولى، عمان:
1409هـ-1989م.
- المجدوب (عز الدين):
145-المنوال النحوي العربي قراءة لسانية جديدة، الطبعة الأولى، دار محمد علي الحامي
للنشر والتوزيع-كلية الآداب والعلوم الإنسانية-، سوسة: 1998م.
-محمد بديع شرف:
- 146-دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، (د.ط)، القاهرة: (د.ت).
-محمد جمال الدين القاسمي:
- 147-قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، تحقيق محمد بهجة البيطار، دار النفايس،
الطبعة الأولى، بيروت: 1407هـ/1987م.
- محمد حسن ابن حبل:
- 148-الإحتجاج بالشعر في اللغة الواقع والدلالة، دار الفكر العربي، (د.ط)، القاهرة: (د.ت).
-محمد حسين عبد العزيز:

- 149-القياس في اللّغة العربية، دار الفكر العربي، الطّبعة الأولى، القاهرة: 1415هـ/1993م.
-محمّد خير الحلواني:
- 150-أصول النّحو العربي، جامعة تشرين اللاذقية، دمشق: 1979م.
- 151-الخلاف النّحوي بين البصريّين والكوفيّين وكتاب الإنصاف، الطّبعة الأولى، دار القلم العربي، حلب: 1974م.
-محمّد رشاد الحمزاوي:
- 152-أعمال المجمع العربي بالقاهرة، دار الغرب الإسلامي، الطّبعة الأولى، بيروت: 1988م.
- محمّد بن سعد الدّبل:
- 153-النّظم القرآني في سورة الرّعد، عالم الكتب، (د.ط)، الأردن: (د.ت).
-محمّد ضاري حمّادي:
- 154-الحديث النّبوي الشّريف وأثره في الدّراسات اللّغوية والنّحويّة، اللّجنة الوطنيّة للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، الطّبعة الأولى، العراق: 1402هـ/1982م.
-محمّد عبد الله درّاز:
- 155-النّبأ العظيم، دار القلم، (د.ط)، الكويت: (د.ت).
-محمّد عمّارة:
- 156-معركة الإسلام وأصول الحكم، دار الشّروق، الطّبعة الثّانيّة، بيروت: 1418هـ-1998م.
-محمّد عيد:
- 157-الإستشهاد والاحتجاج باللّغة، رواية اللّغة والاحتجاج بها في ضوء علم اللّغة الحديث ، عالم الكتب، الطّبعة الثّالثة، القاهرة: 1988م.
- 158-أصول النّحو العربيّ، عالم الكتب، الطّبعة الخامسة، القاهرة: 1427هـ-2006م.
-محمّد أبو موسى:
- 159 -دلالات التّركيب -دراسة بلاغيّة- (د.ط)، القاهرة: 1997.
-محمود أحمد نحلة:
- 160-أصول النّحو العربيّ، دار العلوم العربيّة، الطّبعة الأولى، بيروت: 1407هـ-1987م.
-محمود السّعران:

- 161- علم اللّغة: مقدّمة للقارئ العربيّ، دار النّهضة، (د.ط)، بيروت: (د.ت).
- محمود سليمان ياقوت:
- 162- أصول النّحو العربيّ، دار المعرفة الجامعيّة، (د.ط)، الإسكندريّة: 2006م.
- 163- فقه اللّغة وعلم اللّغة، (د.ط)، دار المعرفة الجامعيّة، مصر: 1994م.
- محمود صالح منسي:
- 164- حركة اليقظة العربيّة في الشّرق الآسيويّ، دار الفكر العربيّ، الطّبعة الثّانية، بيروت: 1978م.
- محمود فهمي حجازي:
- 165- أسس علم اللّغة، (د.ط)، القاهرة: 1979م.
- 166- علم اللّغة بين التّراث والمناهج الحديثة، (د.ط)، مصر: 1970م.
- 167- اللّغة العربيّة في العصر الحديث قضايا ومشكلات، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، (د.ط)، القاهرة: 1988م.
- المختار أحمد ديرة:
- 168- دراسة في النّحو الكوفي من خلال معاني القرآن للفراء، الطّبعة الأولى، دار قتيبة، بيروت: 1991م.
- مخلف (الشيخ محمّد بن محمّد بن عمر بن قاسم ت1360هـ):
- 169- شجرة النّور الزكيّة في طبقات المالكيّة، خرّج حواشيه وعلّق عليه عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، بيروت: 1423هـ-2003م.
- المرادي (بدر الدّين الحسن بن القاسم ت749هـ):
- 170- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفيّة بن مالك، تحقيق أحمد محمّد عزّوز، المكتبة العصريّة، الطّبعة الأولى، بيروت: 1426هـ-2005م.
- المسدي (عبد السّلام):
- 171- التّفكير اللّساني في الحضارة العربيّة، الدّار العربيّة للكتاب، الطّبعة الثّانية، بيروت: 1986م.
- 172- العربيّة والإعراب، الطّبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت: 2010م.
- مسلم (أبو الحسين بن الحجاج القشيريّ النّيسابوريّ ت261هـ):

- 173- صحيح مسلم، بشرح النووي للإمام يحيى بن شرف النووي الدمشقي الشافعي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلميّة، (د.ط.)، بيروت: 1421هـ-2000م.
- مصطفى حميدة:
- 174- أساليب العطف في القرآن الكريم، الشركة العربيّة للنشر، الطبعة الأولى، لونغمان: 1999م.
- مصطفى صادق الرافعي:
- 175- تاريخ آداب العرب، ضبط وتقديم محمد علي سلامة، الصحوة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة: 1429هـ-2008م.
- مصطفى مسلم:
- 176- مباحث في التفسير الموضوعي، مطبعة المعارف، الطبعة الأولى، القاهرة: 2009م.
- مهدي المخزومي:
- 177- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، مؤسّسة الرسالة، الطبعة الثالثة، بيروت: 1996م.
- نازل معوض أحمد:
- 178- التعريب والقوميّة العربيّة في الوطن العربي، (د.ط.)، مركز دراسات الوحدة العربيّة، سلسلة الثقافة القوميّة 6: 1986م.
- ناصر (محمد):
- 179- المقالة الصحفيّة الجزائريّة نشأتها، تطوّها أعلامها من 1903م إلى 1931م، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، (د.ط.)، الجزائر: 1978م.
- نايف خرما:
- 180- أضواء على الدراسات اللغويّة المعاصرة، عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافيّة شهريّة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت: رمضان-شوّال 1398هـ-سبتمبر) أيلول) 1978م.
- نصر حامد أبو زيد:

- 181- إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الطبعة التاسعة، الدار البيضاء، المغرب: 2012م.
- نفوسة زكريا سعيد:
- 182- تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار المعارف، (د.ط)، القاهرة: 1964م.
- نهاد الموسى:
- 183- الثنائيات في قضايا اللغة العربية من عصر النهضة إلى عصر العولمة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان: 2003.
- 184- قضية التحوّل إلى الفصحى في العالم العربي الحديث، دار الفكر للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان: 1987م.
- نويوات (مختار) وخان (محمد):
- 185- العامية الجزائرية وصلتها بالعربية الفصحى. مشروع دراسة لسانية للدرجة في منطقة الزيبان، الطبعة الأولى، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة: 2005م.
- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك ت218هـ):
- 186- السيرة النبوية، تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام، دار الفكر، (د.ط)، بيروت.
- ابن هشام (جمال الدين عبد الله بن يوسف ت761هـ):
- 187- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق ح. الفخوري، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت: 1411هـ-1991م.
- هناء محمود إسماعيل:
- 188- النحو القرآني في ضوء لسانيات النص، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان: 2012م.
- ياسين أبو الهيجاء:
- 189- مظاهر التجديد لدى مجمع اللغة العربية في القاهرة، عالم الكتب الحديث، الطبعة الأولى، الأردن: 1424هـ-2003م.
- ابن يعقوب المغربي (أبو العباس أحمد بن محمد ت1168هـ):
- 190- مواهب الفتح في تلخيص في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق الدكتور خليل إبراهيم خليل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت: 1424هـ-2002م.

-ابن يعيش (موفق الدين ت643هـ):

191- شرح المفصل، عالم الكتب ، مكتبة دار المتنبى، بيروت القاهرة: د.ت.

-يوسف إلياس سركييس:

192-معجم المطبوعات العربيّة والمعريّة، مطبعة سركييس، (د.ط)، مصر: 1928م.

-الموسوعات

193-الموسوعة العربيّة الميسرة، دار الجيل، الطّبعة الثّانيّة، الجمعيّة المصريّة: 2001.

-الدّوريات :

194- آداب الرّافدين:

تصدر عن كليّة الآداب، العدد الثّامن: 24 شعبان 1397هـ - 10 آب 1977م.

195-البيان:

شّوال وذو القعدة 1331هـ، السنّة الثّانيّة، نوفمبر 1912م: العدد: 8 و 9.

196-التّراث العربي:

-رجب -ذو الحجّة 1422هـ-تشرين الأوّل (أكتوبر) -آذار (مارس) 2001م، العددان

:81، 82.

197- الثّقافة:

- وزارة الإعلام والثّقافة بالجزائر، السنّة الرّابعة محرّم-صفر 1394هـ -فيفري-مارس 1974م

: 19.

198-جنور:

-ذو الحجّة 1421هـ-مارس 2001م، العدد: 5.

-رجب 1422هـ -سبتمبر 2001م، العدد: 6.

199-الشّهاب:

دار الغرب، الطّبعة الأولى، بيروت: 1421هـ-2001م: الجزء: 6 .

- 200-عالم الفكر العربيّ:
مركز الإنماء القومي ببيروت، آب- أيلول 1981م، العددان: 14، 15، المجلد: 3.
- 201-العربي:
الكويت، العدد الرابع: 1974م.
- 202-الفتح:
لمنشئها محبّ الدين الخطيب، الأعداد: 556 (العام الثاني عشر). 811-813-816-
817-822 (العام السابع عشر).
- 203-فكر ونقد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء: 2002م، العدد: 50/49.
- 204-الكتاب:
مجلة شهريّة للأدب والعلوم والفنون، تصدر عن دار المعارض بمصر، السنة الأولى، الجزء
السابع، المجلد الثاني: جمادى الأولى 1365هـ - مايو 1946م.
- 205-اللسان العربي:
يونيو (حزيران): 1995م: العدد التاسع والثلاثون.
يناير (كانون الثاني)- يونيو (حزيران) 1997م، العدد: الثالث والأربعين.
- 206-المستقبل العربي:
آيار (مايو) 1987م، السنة العاشرة، العدد: 99.
- 207-لواء الإسلام:
أول رمضان 1366هـ-19 يوليو 1947، السنة الأولى: العدد: 1.
- 208-مجمع اللغة العربيّة الأردني:
العدد المزدوج (2، 3): كانون الثاني-نيسان 1979م الموافق: صفر-جمادى الأولى 1399هـ:
3و4: 26.
- 209-المجمع العلمي العربيّ، دمشق:
الأعداد: 1-2-3-4-5-6-8-9-11-13-14.
- 210-المجمع العلمي العراقي:

الأعداد: 1-2-3-4-6-7-17-37-38.

211-مجمع اللغة العربيّة، القاهرة:

الأعداد: 1-3-4-6-8-7-9-10-11-17

212-المنار:

لمنشئها السيّد رشيد لرضا، سنة 1315هـ سنة 1316هـ. الجزء: 1.

ربيع الأوّل 1339هـ-10 ديسمبر 1920م: الجزء: 22.

30 جمادى الأولى 1340هـ-27 يناير 1922م: الجزء: 23.

213-المناظرة:

فصليّة تعنى بالمفاهيم والمناهج، الرّباط، العدد: 6: 1993.

فهرس الموضوعات

الصّف حة	فهرس الموضوعات
أ-هـ	المقدّمة.
	الفصل الأوّل: محمّد الخضر حسين وقضايا الخطاب اللّغوي العربي الحديث.
	أ-محمّد الخضر حسين: حياته وآثاره:
2	1-إسمه
4	ومولده.....
7	2-أهمّ مراحل
7	حياته.....
	3-
21	وفاته.....
22	4-آثاره: وصف
	وتحليل.....
34	
39	ب-الخطاب اللّغوي العربيّ الحديث: نشأته
57	وتطوّره.....
	1-الخلفيّة السّوسيوثقافيّة للخطاب اللّغوي العربيّ الحديث.....
61	2-دوافع الخطاب اللّغوي العربيّ الحديث وقضاياها:
	أ-دوافعه.

	ب-
	قضاياها.....
	3-قضايا المنهج في الخطاب اللّغوي العربيّ الحديث.....
	ج-قضايا الخطاب اللّغوي العربيّ الحديث في كتابات محمّد الخضر حسين.....

66	
68	الفصل الثاني: البحث اللغوي عند الشيخ محمد الخضر حسين: مستوياته
71	ومصادره ومنهجه.
75	
76	أ-مستويات البحث اللغوي:
83	1-في القضايا اللغوية العامة:
	أ-في حقيقة اللغة:
85	1-تعريفها.....
88	2-
90	وظائفها.....
92	3-خصائصها.....
94	4-علاقتها بالفكر وعلاقة الفكر بها.....
96	ب-في نشأتها.....
99	ج-اللغات قسمان: راقية وغير راقية.....
125	2-في قضايا اللغة العربية الخاصة:
133	أ-في أصل اللغة
	العربية.....
135	ب-في
137	أطوارها.....

	ج-في أصل
	كلماتها.....
142	د-في فضلها وفصاحتها
143	ولهجاتها.....
144	ه-في علاقتها بالعامية.....
	و-في منهج دراستها وطرق إصلاحها.....
	ز-في وسائل تنميتها.....
	ك-في نشأة بعض العلوم اللغوية العربية: مقارنة إبستمولوجية...
	ح-في دعوته إلى إنشاء مجامع تحافظ على اللغة العربية.....
	ب-مصادر البحث اللغوي:
	1-في المصادر التراثية.....
153	2-في المراجع الحديثة.....
165	
174	
177	ج-منهج البحث اللغوي عند الشيخ محمد الخضر حسين:
	1-منهجه ومدى ارتباطه بالمناهج التي كانت سائدة في الغرب
181	ومنتشرة بين أوساط الباحثين العرب.....
196	2-منهجه ومدى ارتباطه بالعلوم اللغوية العربية.....
	3-منهجه ومدى ارتباطه بالمنهج العلمي.....
197	
198	الفصل الثالث: ملامح التفكير اللساني في مباحث الشيخ محمد الخضر حسين.
202	
204	أ-في التفكير النحوي وأصوله:
	1-في قضايا النحو العربي ومسائله:
	أ-مع إبراهيم مصطفى في كتابه (إحياء النحو).....

	ب-مع لجنة تيسير النّحو العربي.....
	ج-مع دعاة نظريّة النّحو القرآني.....
211	د-موقفه من بعض المسائل النّحويّة.....
	2-في أصول النّحو العربي وقضاياها عند القدماء والمحدثين:
218	أ-في السّماع وقضاياها.....
	ب-في القياس وقضاياها.....
226	3-موقف محمّد الخضر حسين من قضايا أصول النّحو العربي:
228	أ-السّماع:
	الإستشهاد بالقراءات القرآنيّة والقياس عليها.....
	الإستشهاد بالحديث النّبوي الشّريف.....
230	الإستشهاد بكلام العرب.....
231	ب-
232	القياس.....
	ب-في التّفكير المعجمي:
	1-الكلمات غير القاموسيّة.....
238	2-في قضايا المعجم:
241	أ-إسم المصدر في المعاجم.....
	ب-في تكملة مادّة لغويّة ورد بعضها في المعجمات، ولم تردّ
	بقيّتها.....
261	.
266	3-التّأنيث
267	والتّذكير.....
272	ج-في التّفكير اللّساني التّربوي:

	1- نبذه الطّرق التّقليديّة في التّدريس.....
	2-طريقة تعليم القواعد.....
275	3-تعليم ملكة الكتابة.....
293	
295	الفصل الرابع: مظاهر تماسك النّصّ القرآني من خلال الخطاب التّفسيري لدى محمدّ الخضر حسين:
298	
303	1-مباحث في القرآن الكريم وعلومه:
	أ-في تأويل القرآن الكريم.....
309	ب-في بلاغة القرآن وإعجازه.....
	2-في آليات وحدة النّسق القرآني في الخطاب التّفسيري:
333	أ-على مستوى التّماسك الدّلالي:
338	-المناسبة بين الآيات.....
	-التّناسب بين ألفاظ الآية الواحدة.....
	-في ترتيب الخطاب.....
	-في العلاقات بين الآيات.....
	ب-على مستوى السّبك النّحوي:
	-
	الإحالة.....
	-
	العطف.....
	-
	الحذف.....
	ج-على مستوى السّبك المعجمي:

التكرير.....

الخاتمة.....

قائمة المصادر والمراجع.....

فهرس الموضوعات.....

الملخص باللغة الأجنبية.....

Résumé de la thèse :

La thèse s'intitule : la pensée linguistique de Mohammed el-khider hocine , l'un des illustres de l'époque contemporains (1879-1958) Ayant plusieurs ouvrages dans le domaine religieux, linguistique et intellectuel .a la base des quels , nous tenterons d'expliciter la pensée linguistique chez l'auteur . ceci nous amenera à cerner cette étude en trois parties: d'une introduction , développement et d'une conclusion, Dans la partie analyse, qui est à son tour divisé en quatre chapitres

Dans le premier ou à touché à sa biographie et le discours linguistique prédominant à son époque .

Dans le deuxième chapitre, ou à focalisé notre recherche sur les niveaux de la langue : grammatical , morphologique , lexical, sémantique et sa méthodologie .

Dans le troisième chapitre , nous avons tenté de déterminer aspects de la pensée linguistique.

Dans le dernier chapitre , nous avons essayé de comprendre l'approche de l'auteur dans la traduction du coran en tentant de trouver les moyens (outils) utilisés pour définir la cohérence de son discours.